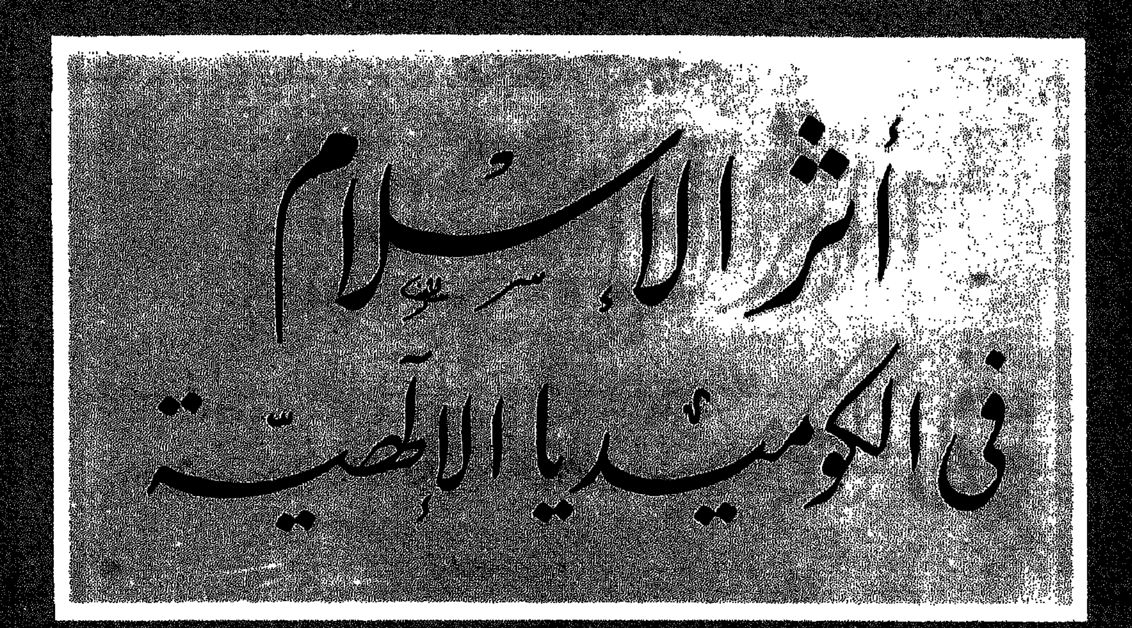
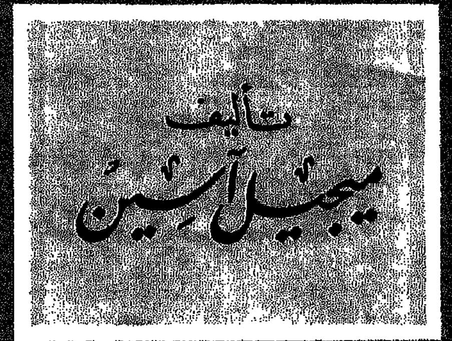
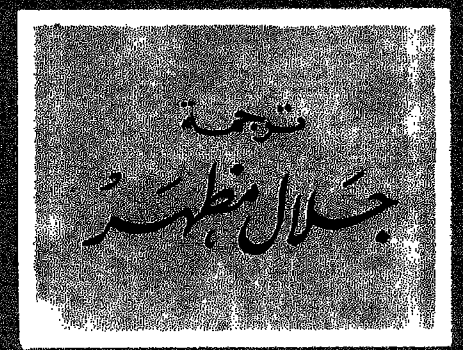
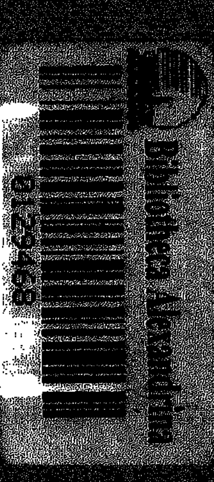








الناشر
مكتبة الخانجي بالقاهرة



أثر الإسلام
فى الكوميديا الإلهية

رقم الايداع بدار الكتب
٦١٨ لسنة ١٩٨٠

مطابع الدجوى ـ عابدين ـ القاهرة

أثر الإسلام في الكوميديا الإلهية

تأليف

ميجيل آسين

ترجمة

جلال مظهر

الناشر مكتبة الخانجي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محتويات الـكتاب

الفصـــل الأول

الفصـــل الثانى

مقارنة الكوميديا الإلهيــة

بقصص اسلامية أخرى عن الحياة بعد الموت

الفصـــل الثالث

الملامح الإسلامية فى القصص المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية

الفصـل الرابع

أرجحية انتقال النماذج الإسلامية

الى أوربا المسيحية ، وعلى الأخص لدانتى

مقدمة الطبعة الإنجليزية

بقلم

دوق البا

مؤلف هذا الكتاب القس الكاثوليكى ميجيل آسين أستاذ اللغة العربية فى جامعة مدريد ، تلميذ عالم اسبانى آخر من علماء اللغة العربية ، هو جوليان ريبيرا ، الذى حثه على الدراسات الشرقية ، وعلمه طرق البحث التاريخى ٠ ولقد كرس آسين أكثر من خمس وعشرين سنة من حياته لبحث ودراسة الفكر الدينى والفلسفى الاسلامى فى القرون الوسطى ، سواء فى الشرق أو فى الأندلس فى الغرب ، ثم ان خبرته بفقه اللغة العربية وتضلعه فى الفلسفة الأوربية فى القرون الوسطى ، قد مكنساه من أن يقوم باكتشافات هامة منذ بضع سنين ، تتعلق بتأثير ابن رشد فى لاهوتيات القديس توما الأكوينى ، وابن عربى فى ريموندلال ، واخوان الصفا فى انسيلمو دى تورميدا ٠ أما أهم اكتشافاته على اية حال ، وهو الاكتشاف الذى بنيت عليه شهرته ، فاكتشافه تأثير النماذج الاسلامية فى الكوميديا الالهية ، وهو موضوع الكتاب الذى بين أيدينا ٠

والحق أن هذا الكتاب قد أثار منذ أن ظهر باللغة الاسبانية فضولا عميقا فى الأوساط العامة ، وأحدث هزة عنيفة بين نقاد الأدب ٠ أما الدانتيون الإيطاليون على الأخص ، فلم يعترفوا الا على مضض بأن الأصول الإسلامية كانت الأساس الذى بنى عليه دانتى الكوميديا الإلهية ، تلك القصيدة التى تمثل ثقافة أوربا المسيحية فى القرون الوسطى فيما يتعلق بالحياة الأخرى ٠ ولقد أصبح الكتاب بمجرد ظهوره موضوعا لجدل شائق حامى الوطيس ٠ فكتبت عنه أكثر من مائة مقالة ونشره ، وألقيت حوله محاضرات كثيرة ، اما لتعضيد البحث الذى قدمه ميجيل آسين ، واما لمعارضته ٠ ونشرت المجلات الجدية المخصصة للادب وتاريخه ، الخاصة منها والعامة ، مقالات كتبها دانتيون وجهابذة من علماء المستشرقين والكتاب الرومانتيكيين ، فى كل من أوربا وأمريكا ، فى تفسير البحث والتعليق عليه أو فى نقده ٠ وتدخل ميجيل آسين فى هذا الصراع الجدلى ، وانبرى للنقاد ، يستخلص آراءهم فى الحكم على بحثه ، سواء المعضد له منها أو المعارض . أو التى يلابسها شك ٠ وأخيرا انتصر على خصومه وأثبت خطأهم، وكان ميزان الفكر العالمى مؤيدا له كل التأييد ٠ ولقد أطرى كلا الفريقين المتنازعين الكتاب وامتدحوه على أية حال ٠

أقر بيو راجنا زعيم الدانتيين الإيطاليين فى Nuova Analogia أن أهميـة هذا البحث قد بلغت فى مراميها درجة رفيعة ، مما سوف يؤدى اذا ثبتت صحته الى تكوين فكرة عن دانتى مخالفة تماما عن الفكرة التى كونها الدانتيون حتى الآن ٠

واعترف بارودى وهو زعيم آخـر من زعمـاء الدانتية المبرزين فى ايطاليـا فى Bulletino della Sosieta Dantesca Italiana بأن هذا الكتاب قد اسـتقبل استقبالا لم يكن متوقعا ، وأثار شعورا بالفضول ممزوجا بالدهش فى نفس كل من قرأه ، ولقى قبولا ورضى من عدد ليس بالقليل ٠

وأقر نلينو أستاذ اللغة العربية بجامعة روما فى Revisla degli Studi Orientale بأن الكتاب عظيم القيمة باعتباره فتحا جديدا لدراسات القرون الوسطى عموما من حيث أنه أثبت تسلل الأفكار الاسلامية عن الحيـاة الأخرى ، الى المعتقدات الشعبية المسيحية الغربية ٠ وذلك أمر لم يكن قد شك فيه أحد من قبل ٠ هذا فضلا عن اعتباره واحدا من اهم المؤلفات التى ظهرت أخيرا حول الدين الإسلامى ٠

وأكد بونونتشى الأسـتاذ بجامعة سيِّنَّا فى Revista dgeli studi Filosofici Religiosi أن كتابا مثل هذا انما يساعدنا على تفسير الفكر الدانتى وتفهمه ، أكثر مما نجد فى تفسيرات الدانتيين التافهة فى قرن من الزمان ٠

وكتب فردريك بك العالم الرومانتيكى الألمانى الشهير فى Zeitschrift fur Romanische Phiologie يقول بأنه لم يظهر كتاب واحد عن دانتى له مالهذا الكتاب من الأهمية ٠ واننا لنتساءل اذا ما كان الإيطاليون بما فيهم من عزة وطنية ، يستطيعون اخراج مؤلف يقف على قدم المساواة مع كتاب العالم الاسبانى ٠ لقد أحدث ميجيل آسين ثورة فكرية فيما يتعلق بدراسة دانتى ، وأعطى صورة جديدة حقـا ، حتى لقـد يجد القارىء لدانتى نفسه مضطرا لأن يسلك طريقا جديدا فى فهمه ، ويعتنق وجهات نظر أخرى ٠

وقال سورجلم أستاذ اللغات الرومانسية بجامعة هلسنجفورس ان هـذا الكتاب حدث وكشف جديد ، وسوف ينظر اليه الناس ولاشك باعتباره من أهم الأعمال المجيدة ، بل ربما يكون أكثر الأعمال التى تركت أثرا فى يوبيل دانتى ٠

وقررت مجلة Analecta Bollandiana أن مؤلف هذا الكتاب معروف فى العالم أجمع ، وأنه لم يحدث أن اجتذب كتاب من قبل مثل هذا الاهتمام ٠ وأن خطورة هـذا الموضوع وأهميته لايمكن أن تخفقا فى اثارة أقصى ما يمكن من الاهتمـام عنـد جميع

المشتغلين بمشاكل تاريخ الأدب • وأن المشابهات القائمة بين الكوميديا الإلهية والإسلام التى ذكرها المؤلف كثيرة جدا ، ولها من الخاصية ما من شأنه أن يقلق عقل القارىء الذى يضطر الى أن يصور لنفسه الملحمة الحماسية للمسيحية ، كما لو أنها متربعة على عرش الصوفية فى العالم الإسلامى ، أو كجامع أغلق فى وجه المسلمين وخصص للعبادة المسيحية • وعلى أية حال فان مؤلف هذا الكتاب سوف يتمتع دائما بشرف كونه أول من بدأ احدى أهم المجادلات التى لاتنسى فى تاريخ الأدب العالمى •

أمّا كابالبرا أستاذ تاريخ الإكليروس بجامعة تولوز ، فمع أنه عارض البحث ، الا أنه اعترف فى Bulletin de La Litterature Ecclesiastic أن القارىء ليصيبه الدهش والانذهال من علم الكاتب الغزير الفياض وبقريحته فى المحاجّة ، التى لاتوصف بأقل من أنها محيره • أما وضوح بياناته فيطبع فى النفس أثراً عميقا •

وقرر العالم الرومانتيكى الثبت فان تيجم فى Revue de la Litterature Comparée أن هذا الكتاب موضوعى وجدى وواضح ومنسق وغزير فى مادته ، وأنه سوف يظل فى الطليعة باعتباره احدى المحاولات الجريئة المثمرة لفتح اتجاهات فكرية جديدة فى تاريخ الأدب العربى •

وانى لست فى حاجة الى احالة القارىء الى ماناله هذا الكتاب من اطراء نقاد انجلترا وأمريكا • فقد عبر كل من المستشرقين والعلماء الرومانتيكيين أمثال أرنولد ، وبراوننج، وكمنج ، وجيوم ، وجوردان ، ولى ، وماكدونالد ، وريان ، بصراحة عن تحبيذهم لميجيل آسين •

دوق البا

مقـدمة المؤلف

للطبعة الأسـبانية

أشرت فى كتابى الذى صدر حديثا عن الصوفية الأفلاطونية المحدثة عند الفيلسوف الأندلسى المسلم ابن مسرة (١) ، الى أن نظرياته التى نفذت الى فلسفة القرون الوسطى المسيحية ، لم تكن نظريات قبلهـا اللاهوتيون الفرانسيسكان ، أو المدرسة السـابقة للقديس توما الأكوينى فحسب ، وانما هى نظريات أثرت أيضا فى شاعر فيلسـوف يتمتع بشهرة عالمية مثل دانتى اليجييرى ، الذى يعتبره جميع النقاد والمؤرخين حتى الآن من أتباع أرسطو وتوما الأكوينى(٢) • ولقد عمدت بعد أن عددت باختصار الأسـباب الأساسية التى بنيت عليها حدسى ، الى توجيه أذهان المختصين الى التشابه الكبير الذى تبينته بين الخطوط العامة لعروج دانتى وبياتريتشى الى سماوات الجنة ، وقصة رمزية أخرى لعروج فيلسوف صوفى الى السماء ، جاءت فى كتاب الفتوحات المكية للصـوفى الأندلسى الكبير ابن عربى ، الذى كان بلاشك من اتباع ابن مسرة •

فلما أثير الموضوع بهذه الطريقة وضحت أهميته تمـاماً : ذلك أنه اذا كـانت الفلسفة الأفلاطونية المحدثة للقرطبى ابن مسرة ، والمـرسى ابن عـربى فى صـورتها الميتافيزيقية ، فضلا عن الأسلوب الرمزى الذى صاغ فيه ابن عربى عروجه الى السماء ، قد أثرا باعتبارهما نماذج ـ كانت موجـودة على التـأكيد ـ لأسمى وامتع جـزء من الكوميديا الإلهية ، وهو تصور دانتى للفردوس ، اذن فان أسبانيا يحق لها أن تطالب لمفكريها المسلمين بنصيب ليس صغيرا فى الشهرة العالمية التى يتمتع بها عمـل دانتى أليجييرى الخالد • كذلك فان تأثير ابن عربى الكبير فى شعرائنا الرمزيين ابتداء من أواخر القرن الرابع عشر حتى السادس عشر ، من فيلينا الى جارسيلاسو ، فضلا عن فرانشيسكو امبريال ، وسانتيلانا ، ومينا ، وباديلا ، ينبغى أن ينظر اليه فى اطار التأثير السابق لصوفيينا المسلمين فى الأصل المعقد للكوميديا الالهية •

---

(١) M. Asin Abenmasarra

(٢) لم اكن أعلم ، عندما قررت هذا التقرير ، شيئا عن الأعمال التى نشرها الناقد الدانتى المبرز برونوناردى فى المجلات الإيطالية قبل ذلك بسنتين ، وهو اول الكتاب وآخرهم الذى نسب تاثيرا افلاطونيا محدثا لفلسفة الشاعر الفلورنسى • وسوف نشير الى أعمال ناردى فى الفصل الرابع من الجزء الرابع •

(٣) Cf. Asin, Abenmasarra p. 163

هذه اذن نقطة البدء التى انطلق منها بحثى فى هذا الموضوع ، غير أن الأفق انفتح على مصراعية أمامى وبطريقة لم أكن أتوقعها • ذلك أنى لما استعمقت فى دراسة قصة ابن عربى الرمزية الشبيهة بكوميدية دانتى ، وجدت أنها هى ذاتها لم تكن غير تكييف صوفى لقصة عروج أخرى الى السماء ، كانت شائعة فعلا فى الأدب الدينى الإسلامى ، وهى قصة المعراج المحمدية • ولما كانت قصة المعراج مسبوقة باسراء من مكة الى بيت المقدس ، زار فى خلاله محمد بعض دركات النار ، فقد خطر لى فورا أن المأثورات الإسلامية فى هذا الموضوع هى النموذج الذى استقى منه دانتى تصوراته للعالم الآخر • ثم ان مقارنة منهجية للخطوط العامة للقصة الاسلامية بالخطوط العامة لقصيدة دانتى أكدت ما انطبع فى ذهنى من تشابه بينهما : لقد امتد التشابه بين القصتين الى التفاصيل الوضعية وتفاصيل الأحداث ومختلف الصور الحية المثيرة النابضة بالحركة ، والى ما يسمى « بهندسة الممالك الأخروية » أى التصور الطوبوغرافى لدركات النارودرجات الجنة ، والتى لاح لى بأن المهندس الذى صمم العملين مهندس واحد ، هو المهندس الاسلامى •

غير أنى عندما بلغت هذه المرحلة من البحث ، ثار شك جديد • ألا تكون هذه المشابهات بين الكوميديا الإلهية والنماذج الاسلامية المفترضة راجعة الى حقيقة واقعه هى أن كليهما مستمد من مصدر مشترك مّا ؟ أو بعبارة أخرى ، الا يمكن تتبعتصورات دانتى التى يلوح بأنها مستقاه من المصادر الإسلامية ، فى قصص القرون الوسطى المسيحية التى سبقت عمل دانتى العظيم ؟ وعندئذ أصبح لزاماً على أن أتناول هذه القصص أولا ، وأتأكد من أننى لم أنسب أصلا اسلاميا الى أى من تصورات دانتى ، قد يمكن تعليله تعليلا كافيا بهذه القصص المسيحية •

أما طريقة البحث والمقارنة هذه فقد حملت فى طياتها استنتاجا لم أكن أتوقعه • فهى لم تؤكد فحسب أن الأصول الاسلامية كانت نماذج لملامح فى الكوميديا الإلهية اعتبرت حتى الآن مبتكرة ابتدعها الشاعر ، لأنه لم يكتشف شىء شبيه بها فى القصص المسيحية السابقة عليها ، وانما كشفت أيضا عن الأصل الإسلامى لقصص القرون الوسطى المسيحية ذاتها • ومن ثمة ألقت ضوءا قويا على الموضوع برمته • وعندئذ ظهر العنصر الاسلامى كمفتاح لكثير من الأفكار التى كان لها تعليل معروف ، والى ما كان لايزال غامضا فى الكوميديا الإلهية • وعندئذ تطابقت النتيجة مع ما نسبه الدانتبون حتى الآن لتاثير السوابق المسيحية ، فضلا عن أنه فسر مالم يستطيعوا تفسيره وكانوا قد نسبوه فقط الى عبقرية الخلق والابتكار التى تمتع بها دانتى •

الرأى السابق هو رأيى الخاص أطرحه على بساط البحث(١) • وهو رأى سوف يرن صداه فى آذان الكثيرين كما لو أنه انتهاك للمقدسات الفنية ، أو ربما أثارضحكة سخرية على شفاه أولئك الذين لايزالون يتصورون أن خلق الفنان شىء خارق للطبيعة لايدين لأى ايحاء خارج عن ذاته • وهذا متجه شائع جدا فيما يتعلق بالأعمال التى تتمتع بشهرة عالمية مثل عمل دانتى • ولقد أفصح أوزانام فى بحوثه عن أصول الكوميديا الإلهية الشاعرية عن هذا المتجه(٢) • قال ان هذه القصيدة قد اعتبرت زمانا طويلا أثراً فريداً خالداً ، يقف وحده فى وسط صحراء القرون الوسطى • ولما اشار كانشيليرى منذ قرن مضى الى أن بعض فقرات من جحيم دانتى وفردوسه قد صيغت على نماذج استقاها دانتى من « رؤية الراهب البيريك » هاجالدانتيون وماجوا بغضبشديد لهذا الامتهان المتمثل فى افتراض أن الاستاذ المعلم قد يلجأ الى محاكاة دنيئة لراهب مغمور من رهبان القرن الثانى عشر : أولئك الذين لم يكونوا على استعداد كبير ، حتى لقبول الحقيقة التى لاتنكر الماثلة فى تقليد دانتى للنماذج الكلاسيكية •

غير أن الزمن الماضى قد انتهى ، وزود القرن التاسع عشر ، وهو عصر النقد الموضوعى المتزن ، صحراء القرون الوسطى بحقائق حية • فقد درس لابيتى ، وأوزانام، ودانكونا ، وجراف ، وحشد غفير غيرهم من المنقبين والباحثين ، قصص الحياة الأخرى الكلاسيكية والمسيحية ، التى تفسر أصول الكوميديا الإلهية • ولم يعد محبو دانتى يستاءون من الآراء المتزنة والآراء العلمية المتعلقةبالأفكار الشاعريةالمستوحاة التىيعترفة بها الباحثون • ويعترف عالم الفكر الآن أن قسمات العبقرية لاتكمن فى الابداع المطلق أو الأصالة الكاملة للعمل الفنى ، ولا فى قوة خلق المادة والصورة من لاشىء ، التى هى حق مقصور على الله وحده (٣) •

---

(١) اكتشفت فى اثناء كتابتى للجزء الثالث من كتابى هذا ، وهو الجزء الخاص بالعناصر الاسلامية فى القصص المسيحية السابقة على مؤلف دانتى من كتاب توراكا (Precursori, 331) ان بلوشيه قد شك فيما قبل بوجود أثر لقصة المعراج المحمدية على دانتى • غير ان بلوشيه أخفق فى أن يعرض فى رسالته Les Sources Orientales de la Divine Comédie المشكلة فى اطارها الحقيقى ، وظلفرضه الذى لم يؤيده ببراهينموضوعية وثائقية مجرد تخمين .

(٢) Ozanam, p. 373

(٣) Ozanam, p. 498 et seq,

ولقدشجعنى الاتزانالكبير الذى تتصف به مدرسة محبىدانتى الحديثة علىأنآملفى أنهم سوف لايغضبون ولا يحنقون لاقتراح التأثيرات الإسلامية فى الكوميديا الإلهية ٠

فقد لاحظ دانكونا فى بحوثه حول أصولها المسيحية والكلاسيكية (١) ، أن دانتى قد عبر دائما عن شغفه بالدرس وتقبله للفكرات بعقل متفتح ، سريع الى تلقى هــذه الفكرات والمشاعر العامة السائدة فى عصره ٠ ثم انه مما لاينكر على التأكيد أن عصره كان منغمسا فى علوم ومعارف وفنون الإسلام ٠ يرى دانكونا أنه يصعب دائما تأكيد أن قصة بعينها كانت النموذج الفعلى والأصلى الذى وضعه دانتى نصــب عينيه ، والــذى بنى عليه كوميديته ٠ ومع ذلك فانى لا أعتقد أن هذه الصعوبة أمر لايمكن تذليله ، اذا وضعنا فى اعتبارنا الأصول الإسلامية ، وأدركنا أن القصتين المذكورتين آنفا ، وهما قصتا الإسراء والمعراج ، بعد أن توسع فيهما المفسرون المسلمونوزينوهما بمختلف المناظرالطوبوغرافية والأحداث التفصيلية ، سواء استقوها من قصص اسلامية أخرى تتعلق بالحيــاة بعد الموت ، أو من مناظر يوم الحساب الغنية بالصور المختلفة ، أو من نظريات ومفاهيم بعض الصوفيين المسلمين حول الجنة والرؤية ، وكلها أمور جديرة من الناحيتين المثالية والروحانية بمفهوم دانتى وتصوره للفردوس ٠ من هنا انحصرت مهمتى الأساسية فى هذا البحث على الضرورة فى أن أوضح بجلاء المطابقات والمشابهات القــائمة بين هذه القصص الاسلامية المختلفة وكوميدية دانتى ، والتى تفضى الى تبيان المحاكاة والتقليد ٠ ثم كان لزاما على أيضا ، حتى استكمل عرض الموضوع كله ، وأجعــل اســتنتاجاتى نهائية ، وأحبط أى اعتراض ممكن ، أن أعدد وأستعرض بصـــورة عامة المشــابهات القائمة بين قصص القرون الوسطى المسيحية الســابقة للكوميديا الإلهيــة والقصص الاسلامية السابقة لها ٠

ميجيل آسين

(١) D' Ancona, Precursori, pp. 108, and 113

مقـــدمة المترجـم

لاغرابة فى شىء أن ينهض قس كاثوليكى فاضل ليثبت حبا فى العلم ، وفى الحقيقة ذاتها ، العلاقة الوثيقة بين كوميدية دانتى والأدب الاسـلامى الدينى ، والمــأثورات الاسلامية الأخرى . ليس غريبا أن يتصدى عالم من رجال الدين أو من غيرهم ، ويضنى العقل والجسد خمسا وعشرين سنة فى البحث والتنقيب جريا وراء فكرة خطرت له يوما ما، فلاحت له فى ورائها حقيقة أدبية أو تاريخية خفيت أو أخفيت القرون تلو القرون ، فأراد التحقق منها . لاغرابة فى ذلك أبدا لأن العلماء من أمثال ميجيل آسين يكونون بطبيعة تكوينهم العقلى والنفسانى ، اذا ما فرض عليهم العقل منهجا ، أو الحت على أذهانهم فكرة ، مقدين بهذا المنهج ، خاضعين لهذه الفكرة ، غير قادرين على الفكاك منها ، أو التنصل من قيودها .

ولقد قدم لنا ميجيل آسين كتابا يثبت فيه العلاقة الوثيقة بين كوميدية دانتى والأدب الاسلامى عموما ، الدينى وغير الدينى . ظهر هذا الكتاب باللغة الأسبانية فى ســـنة ١٩١٩ بعنوان « علم الآخرة الاسلامى فى الكوميديا الالهية » . وأحدث ضجة كبيرة فى الأوساط العالمية كما بين لنا دوق ألبا فى مقدمته للنسخة الانجليزيـــة المختصرة التى ظهرت فى سنة ١٩٢٦ . ولقد أفصح هذا الكتاب بأجلى بيان عن أن أوربا قد انغمست فعلا الى أذنيها فى عصر استعرابها (١) الذى عاش دانتى فى معمعانه ، فى التعرف على كل مناحى الفكر العربى الاسلامى . واستبان لنا أنها فضلا عما بنته على العلوم الاسلامية لينشأ عصر نهضتها العلمى ، وعلى الأدب والشعر العربيين لينشأ الأدب الأوربى الحديث ، قد بنت أيضا على المأثورات الدينية الاسلامية ، وبكثير من التفاصيل ، أروع عمل أخرجته قريحة شاعر أوربى فى القرون الوسطى ، ليصبح هذا العمل ـ أى الكوميديا الالهية ـ المرجع المسيحى الأول للمعلومات المفصلة عن الحياة الأخرى ، بعد أن لم يكن فى أوربا المسيحية مرجع فيه مثل هذه التفاصيل الدقيقة عن العالم الآخر .

أيد ميجيل آسين عدد غفير من الباحثين الغربيين ، واعترف الدانتيون بفضل مؤلفه، وأشاد عدد من كتاب العرب بأهمية الكتاب . غير أن بعض كتابنا قد حاول للغرابة أن يشكك فى قيمة هـــذا البحث الفـــريد ، بل ان منهم من هاجمه هجوما عنيفا ، مثل الدكتوره عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) فى كتابها الغفران ، طبع دار المعارف سنة ١٩٥٤ . وتطرفت الى درجة جعلتها تنكر أى صلة لدانتى بالأدب الاسلامى عموما . واتهمت للغرابة القس الكاثوليكى ـ الذى وصفته بالتعصب ـ بالتعصب لفكرى الاسلام

---

(١) أنظر كتابى حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى .

ضد دانتى • وبنت اتهامها هذا على تخيل أن ميجيل آسين أراد فقط أن يفخر لبعض المسلمين الأسبان ــ على حسب زعمها ــ وينسب لأسبانيا هذا الفخر ، أو يطالب لوطنه أسبانيا بنصيب من هذا المجد الذى حققه دانتى بقصيدته هذه •

وهل يمكن أن يقضى عالم مفكر خمسا وعشرين سنة باحثا منقبا فى اعوص الموضوعات لمثل هذا فقط ؟ وهل اسبانيا فى حاجة الى مزيد من الفخر بعلمائها المسلمين ؟

وتقول الدكتورة عائشة فى معرض مقارنتها كوميدية دانتى برسالة الغفران لأبى العلاء : ان آسين سكت عن العنصر البارز فى جنه دانتى ، وهو العنصر الروحى ، وذلك مانفتقده فى جنة أبى العلاء • كذلك أغفل الأفق السماوى الذى تجرى فيه أحداث جنة دانتى ، وهو مالانشعر بمثله فى جنة الغفران » وانساقت الكاتبة الفاضلة فى عبارات حماسية : « لمحت فى جنته العالية تصويرا للفكرة المسيحية عن الفردوس الذى تؤثر أن تسميه السماء ، ولكن شيئا من ذلك لم يذكر فى الغفران فى جنته الحافلة باللذات المادية ، وجحيمة المبسط المليىء بالحوار الأدبى • الكوميديا قصيدة باركها علماء الدين المسيحى ، والغفران قصة جريئة تخلط الجد بالهزل وتسخر بالمعتقدات الاسلامية • الكوميديا قصيدة رائعة تمجد الحب وتخلده والغفران رسالة شاعر اشتهر بأنه يكفر بالحب • الكوميديا جد خالص والغفران تهكم • فى جنة دانتى تشعر بأنك فى السماء ، وفى جنة أبى العلاء تشعر بأنك فى الغيطان وتدب على الأرض • الكوميديا تصور رجل سياسى مكافح مناضل ، وفى الغفران شاعر محروم • دانتى فى الجحيم ناقد سياسى ، وأبو العلاء فى الغفران ناقد فنى » •

وهنا يتوهم القارىء أن ميجيل آسين قد ادعى بأن دانتى نقل رسالة الغفران بحذافيرها وتأثر بها فى جميع مراحل قصيدته وأنها هى أصل الفردوس والجحيم عند دانتى • وأن الكاتبة الفاضلة قد أمسكت بتلابيبه ، ونقضت حججه ، وأوسعته تسفيها وتخطيئا •

والحق أن ميجيل آسين لم يكن عديم الحرية ولامندفعا مع الهوى ولا غير فاهم لرسالة الغفران كما تدعى الدكتورة • وانما ميجيل آسين لم يقل أبدا كما توهمت الكاتبة أن الغفران هى أساس الكوميديا • ولكنه نظر فى الغفران كما نظر فى عشرات كثيرة غيرها من الأعمال الاسلامية ووجد فى كل منها بعض ملامح الكوميديا الالهية ، لم يقع على مثلها فى الآداب الأوربية السابقة لدانتى ، والتى يمكن أن يكون دانتى قد استقى منها هذه المناظر • ولم يقل ميجيل آسين أبدا أن الغفران هى المرجع الوحيد الذى رجع اليه دانتى لرسم صورته للفردوس أو للجحيم ، بل أن صورة دانتى للفردوس فيها حديث طويل عن روحانية

الجنة فى بعض قصص المعراج وفى بعض الأحاديث النبوية ، وعند الصوفيين المسلمين على وجه الخصوص ، وبكثير من التفاصيل التى نقلها دانتى بحذافيرها منهم • وهذه أمور لم تدرسها الدكتورة عائشة ولم تشر اليها • ثم لاينبغى أن يفهم أحد أن الاستاذ الكبير ميجيل آسين قد أنكر أن عمل دانتى عمل عظيم فيه من عبقرية الشاعر الكثير • أما ما أنكره ميجيل آسين فهو ادعاء الدانتيين بأن « الكوميديا على وجه الاطلاق نسيج وحدها فى الأدب بحيث يمكن القول بغير تحفظ أن عملا مثلها لم تنتجه القرائح فى أى عصر من عصور التاريخ » كما تقرر الموسوعة البريطانية فى طبعة سنة ١٩٢٩ مثلا • أو أنها بعبارة أخرى من ابتكار وابداع الشاعر الفلورنسى وحده •

أما أنها تختلف عن الأعمال السابقة كما يقول الاستاذ حسن عثمان مترجم الكوميديا فأمر مؤكد • وهى ان لم تكن تختلف لما استحقت كل هذه الشهرة ، ولما نال صاحبها هذا المجد • أى نعم هى تختلف ، ولابد لأى عمل فيه ابداع أدبى أن يختلف فى مجموعه عن الاعمال المشابهة السابقة • ولكن انكار التأثر بالأعمال السابقة كما يفعل الدانتيون الذين يدعون أنها من ابتكار الشاعر وابداعه فقط ، أمر لم يقبله ميجيل آسين فانبرى لهم يدرس ويتحقق ويضنى الجسد والعقل خمسا وعشرين سنة ، ليثبت أن الكوميديا الإلهية مستقاة من حيث هندستها ، وكثير جدا من تفصيلاتها من الأدب الاسلامى عموما ، وأنه لو لم يطلع دانتى على هذا الأدب الاسلامى ، الذى كان معروفا كغيره من فروع المعرفة فى أوربا فى ذلك العصر ، وهو عصر استعراب كامل لأوربا ، لما خرجت الكوميديا من بين أفكار دانتى بالصورة التى خرجت بها ، ولما ذخرت بمختلف المناظر والأحداث التى ذخرت بها • وأنه يستحيل أن تنشأ بطريق المصادفة فى عقل دانتى منفردا ، كل هذه الصور والأحداث والمناظر والملابسات والمناقشات المشابهة بل المطابقة بعض الاحيان لما فى الأدب الاسلامى الصادر من عقول عشرات من الكتاب فى خلال عدة قرون ، بل لابد من حلقه وصل ، وهى الأدب الاسلامى الذى وقع فيه المؤلف على هذه المشابهات ولم يقع فى غيره على مثلها •

ولست أرى داعيا للاطالة على القارىء والناقد ، فالكتاب اليوم بين أيديهم • وما أردنا بترجمة هذا الكتاب الا اضافة عمل جديد لأعمالنا السابقة عن حضارة العرب والاسلام وأثرها فى الفكر الإنسانى والحضارة العالمية •

جلال مظهر

الفصـــل الأول

مقارنة قصة الإسراء والمعراج الإسلامية

بكوميــدية دانتى الإلهيـــة

١

اصـــل القصـــة

١ ـ بدأت قصـــة الإسراء وتعريج محمد الى عالم الحياة الأخرى ونمت وتطورت كمعظم القصص الدينيـــة الأخرى • نشأت هـــذه القصـــة بنــاء على فقرة قصـــيرة من القرآن ، عجز المفسرون فى واقع الأمر عن وضع تفسير موحــد لهــا • أما المفهومات التى احتـــار ازاءها الفلاسفة اللاأدريون فقــد أثارت خيـــال جماهير المؤمنين ، ومن ثمـــة وضع المفسرون تفاصيل مختلفة لروايات كثيرة استندت جميعها الى النص الدينى •

وردت اشارة واحـــدة قصيرة فى القرآن عن هـــذه القصـــة هى قوله : « سبحان الذى أسرى بعبــده ليلا من المســجد الحرام الى المســجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنـــا انه هو السميع البصير » •

٢ ـ ويلوح أن هـــذه الإشارة قـــد أثارت منـــذ البداية فضول المسلمين الورعين الأتقياء ، ذلك أن قصصا كثيرة غنية بمختلف المفهومات انتشرت فجأة انتشارا سحريا • واشتعل خيال الشرق القوى الناشط ، وسرعان ما احيطت هـــذه القصة بتفاصيل غنية ، ووضعت لهـــا أحداث ومناظر جـــد مختلفة ومدهشة •

والحق أن الروايات المختلفة التى حيكت حول هـــذه القصة تملأ بتفاصيلها الكثيرة وتفريعاتها مجلدات ضخمة • فقـــد حاك الخيال الخصيب الجامح حول هـــذه الفقرة القرآنية القصيرة روايات كثيرة ، ومن ثم تطورت القصـــة ونمت فى صـــورة أحاديث رواها الرواة وأسندوها الى النبى الذى يفترض أنه روى لأصـــحابه ما شاهـــده من العجائب فى تلك الليـــلة التى لا تنسى • وســـوف أحاول فى الصـــفحات التـــالية أن أعرض للقارىء بعض الروايات الرئيسية التى وصلتنا عن هؤلاء الرواة • وقـــد قسمت هـــذه الروايات مجموعات ثلاثا ، تبـــدأ بأبسطها وأقلها تعقيـــدا ، وتنتهى بتلك التى يبلغ فيهـــا خيال الشرق الجامح أقصى درجات تطرفه •

٢

المجموعـة الأولى ـ روايـــات الاسراء

١ ـ يلوح أن ابسـط المجموعات التى تناولت هـذه القصـة ، مجموعة يرجـع عهدها الى القرن التاسع الميلادى ، تتكون من ستة احاديث ، تروى على لسان محمـد قصـة اسرائه ، لا تختلف احـداها عن الأخرى الا اختلافا يسـيرا • وفيهـا أعطانـا الرواة قليلا من التفاصيل الطوبوغرافيـة ، ولـكنهم لم يذكروا شيئا عن التعريج الى السماء • وسـوف نلخص فى الصفحات التالية هـذه الروايات ونقارنها بكوميدية دانتى الإلهيـة •

الرواية الأولى من المجموعة الأولى

٢ ـ يروى محمـد لأصحابه كيف أن شـخصا أيقظه من نومه وأخـذ بيـده حتى وصـلا الى جبـل وعر المرتقى ، تصور له فى بادىء الأمر ان تسـلقه أمر مستحيل • غير أنه بدأ يصعده بعد أن شجعه دليله ، حتى وصلا فعلا الى قمـة الجبـل • واسـتمرا فى طريقهما حيث شاهد ستة مناظر الواحد اثر الآخر ، تعبر كلها عن تعذيب أليم • رأى رجالا ونسـاء مشققة أشداقهم ، ثم رأى رجالا ونساء مسمرة أعينهم وآذانهم ، ثم مرّ بنساء معلقات من عراقيبهن مصوبة رؤوسهن تنهش أثداءهن الحيات ، ثم رأى رجالا ونساء معلقين بعراقيبهم مصوبة رؤوسهم ، يلحسون من ماء قليل وحماة ، ثم رأى رجالا ونساء أقبح منظرا وأقبحه لبوسا وأنتنه ريحا كأنمـا ريحهم ريح المراحيض ، ثم رأى موتى أشـد شىء انتفاخا وأقبحه ريحا •

ولقـد وضّح الدليل لمحمد أن هـذه العقوبات هى بالترتيب : عقوبات الكاذبين ، ثم الذين ارتكبوا خطاياهم بأعينهم أو بآذانهم ، ثم الأمهات اللاتى رفضن ارضاع أطفالهن ، ثم الذين تهاونوا فى صوم رمضان ، ثم الزناة ، ثم الـكافرين •

ويسـتمر محمـد ودليله فى رحلتهما ، وفجأة يغشاهمـا دخان كثيف ، ويسمعان أصواتا مختلطة تنم عن رعب وعـذاب أليم •• هـنـا جهنم ، وعندئذ يستحث الدليل محمدا على السـير •

ثم يرى بعـد ذلك رجالا يغطون فى نوم آمن عميق تحت ظلال أشجار وارفة يانعة • ويخبره دليله أن هؤلاء هم الذين ماتوا مسلمين • ثم يمر بأطفال يمرحون هنـا وهنـاك هم أبنـاء المؤمنين •

أما الرجال الذين يلبسون الملابس البيض والذين تبدو على سيماهم ملامح الورع والتقى فالصديقون والصالحون والشهداء والأولياء • ويستمر محمد ودليله فى رحلتهما ، فيلمح محمد ثلاثة رجال يعرفهم معرفة جيدة ، قد جلسوا يغنون ويشربون الخمر • أحدهم زيد بن حارثة الذى قتل فى معركة مؤتة ، والثانى جعفر بن أبى طالب ابن عم النبى ، والذى قتل أيضا فى نفس المعركة ، والثالث عبد الله بن رواحة ، أحد كتاب الوحى وصديق محمد الصدوق الذى قتل أيضا فى معركة مؤتة مع زميليه • ولما رأى هؤلاء الثلاثة النبى استقبلوه بالبشر والترحاب والولاء • وفى نهاية الرحلة ، ينظر محمد الى السماء ، فيرى ابراهيم وموسى وعيسى قد تجمعوا حول العرش انتظارا لقدمه •

٣ — نقع فى هذه الرواية الفجّة ، وعلى الرغم من بساطتها ، على أوجه من التشابه مع الكوميديا الإلهية(١) • فبطل الرواية فى كلتا الروايتين هو الذى يروى مشاهداته • ثم ان كلاًّ منهما قام برحلته ليلا يقوده دليل لا يعرفه ، يظهر له عندما يستيقظ من نوم عميق • وتشتمل القصتان فى المرحلة الأولى من كل منهما على صعود جبل وعر ، ويزور كل من البطلين المطهر والجحيم والفردوس ، وان اختلف التتابع وتباينت التفاصيل • وتمثل مناظر التعذيب الخمسة الأولى التى شاهدها محمد المطهر عند دانتى ، وهو الصراط فى الإسلام • أما المنظر السادس وجهنم التى رآها فى أعقابه ، فتمثل النار التى أعدت للكافرين • وتمثل بقية الأحداث فردوس الأطفال ، وسماوات الأنبياء والأولياء والصالحين والشهداء •

وتنتهى كلتا الروايتين برؤية بطل الرواية للعرش • كذلك نجد أن الدليل فى كل منهما هو الذى يبين ذنوب أو فضائل نزلاء النار أو الجنة ، فضلا عن أن الزائر فى كلتيهما يحاول من وقت لآخر أن يتحدث مع أرواح اناس يعرفهم •

٤ — نقع على بعض الملامح المشتركة ، فيما عدا الخطوط العامة ، التى تستبين لنا من تشابه العقوبات • وأما فيما يتعلق بمدخل كل من الروايتين فأمر جد مختلف لشدة التشابه ؛ ذلك أنّ وصف الجبل المرتفع فى القصة الإسلامية ، وخوف محمد من تسلقه فى بادىء الأمر ، ثم تشجيع دليله له على تسلقه ، وأخيرا الصعود ذاته ومحمد يسير فى أعقاب دليله ، أمور كلها تحمل تشابها كبيرا لجحيم دانتى ، وعلى

---

(١) سوف لا نشير الى نصوص الكوميديا الإلهية عندما ينصرف التشابه الى منظر باكمله استغرق عرضه عدة صفحات ، ذلك أن القارىء يستطيع عندئذ أن يرجع الى أى من ملخصات قصيدة دانتى •

الأخص للمطهر(١) • ثم اننـا نرى اضافة الى هـذا كله أن دانتى قد حذّر من الاقتراب الى النـار بنفس الإشارة التى حـذّر بهـا محمد ، الا وهى اختلاط أصوات المعـذبين فى النـار وأنينهم فيها ، يقول دانتى (٢) « لغات غريبة ، صيحات رهيبة مفزعة ••• يسمع لهـا دوى هائل » •

الرواية الثانية من المجموعة الأولى(٣)

٥ ــ يوقظ محمـدا فجاة شـخصان ، ويأخـذان بذراعه ويأمرانه أن يتبعهما • وتبـدأ مشاهدة العـالم الآخر بعد أن يصلوا الى القدس • وفى هـذه الرواية يرفض الدليلان الإجابة عن أى سؤال يوجهه اليهمـا ، طالبين منـه أن ينتظر حتى تنتهى الرحلة ، وعنـدئذ يفسران له ما رأى • وتعبر المنـاظر الخمسـة الأولى فى هـذه الرواية ــ كمـا فى الرواية السابقة ــ عن الصراط وهو المطهر الإسلامى •

مر النبى على قوم تشـدخ الزبانية رؤوسهم بالصخر ، وكلمـا شدخت تعود كمـا كانت الى حالتهـا الأولى ، ويعود الزبانية الى شدخ رؤوسهم من جـديد بالصخر ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء • فيسأل محمد عن الذنب الذى ارتكبه هؤلاء الأشـقياء ، غير أن دليليه يحثانه على السير • ثم يرى أحـد الزبانية وهو يضرب بكلاب من حـديد أحـد المعذبين فيأتى أحـد شقى وجهه فيشرشر شدقه الى قفـاه ، ومنخره الى قفـاه ، وعينه الى قفاه ، ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثلما فعل بالجانب الأول ، فمـا يفرغ من ذلك الجانب حتى يصبح ذلك الجانب كمـا كان ، ثم يعود اليه فيفعل مثلما فعل فى المرة الأولى • ثم أتى على نهر أحمر مثل الدم ، واذا فى النهر رجل يسبح ، واذا على شـط النهر أحـد الزبانية يقف له بالمرصاد يلقمه حجارة من نار ويمنعـه من الخروج من النهر • وهـذه عقوبة مستمرة الى أبد الآبدين لا تفتر أبدا كسابقتها • ثم يمر على تنور من نار أسفله أضيق من أعلاه ، تخرج منـه أنات المعذبين ، فيـه رجال ونساء يتلوون من العـذاب تتقاذفهم النار تارة الى أعلى وتارة الى أسفل ، كلمـا فارت أو هـدأت • وأخيرا يصـل محمد الى قمـة تل أسود مظلم فيرى قوما مخبلين تنفخ النار فى أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وأعينهم •

وهنـا تنتهى مملـكة العذاب ، وتبـدأ على بعـد خطوات حديقة خضراء يانعة دائمة

---

(١) الجحيم ١ : المطهر ٤ •

(٢) الجحيم ٣ / ٢٦ ، ٢٨ •

(٣) تشتمل الرواية الثانية على أربعة وجـوه مختلفة ، ولـذلك عمدنا الى قصرها على وجـه واحد من هـذه الوجوه ، وذلك بحذف التفاصيل المشتركة بين الروايتين الأولى والثانية حتى نتجنب التكرار •

الربيع ، على بابها رجلان أحدهما شديد البأس رهيب المنظر يزود النار بالوقود ٠ وعند أصل شجرة عظيمة شيخ جميل حوله جماعة من الأطفال الأبرياء يصل رأسه الى السماء ٠

ثم يصعد محمد الشجرة فيصل الى منازل لا أحسن منها ، حجارتها من الفضة ، يسكنها رجال ونساء وأطفال ، بعضهم بيض الوجوة ، وبعضهم فى ألوانهم شيء ٠ ويفصل نهر عظيم ماؤه أصفى من البلور هذه المدينة عن مدينة أخرى أكبر منها ٠ وهنا يقوم الذين فى ألوانهم شيء فيغتسلون فى هذا النهر ويخرجون منه وقد خلصت ألوانهم من ذلك الشيء ، ولتصبح مثل ألوان أصحابهم بيض الوجوه ٠ ثم يشرب محمد من ماء النهر ، وينزل عن طريق الشجرة الى دار أخرى أجمل من هذه يسكنها شيوخ وشبان ٠

وهنا يثور محمد على صمت دليليه ، فيوافقان على أن يفسرا له المناظر التى رآها ٠ الأشقياء الذين تشدخ الزبانية رءوسهم بالحجارة هم الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة ، والذين تمزق أفواههم وأشداقهم اربا هم الكاذبون والنمامون والذين يتهاونون فى صيامهم ، والذى يسبح فى نهر الدم هو المرابى ، والذين تتقاذفهم النار فى التنور الزناة والزوانى ، والذين هم على الجبل الأسود هم اللوطية ٠ وأما الرجل شديد البأس رهيب المنظر فخازن النار الذى يحدد لنزلائها عقوباتهم ٠ والشيخ الجميل المهيب ابراهيم حاضن الأطفال الذين يموتون قبل أن يبلغوا الحلم ٠ والدار الأولى جنة المؤمنين والمسلمين الذين تابوا عن آثامهم قبل وفاتهم ، والذين ينبغى لهم أن يغسلوا ذنوبهم فى النهر قبل أن يدخلوا الجنة ٠

والدار الثانية التى وراء النهر دار الشهداء ٠ وبعد أن يفسر الدليلان لمحمد جميع ما رأى ، يكشفان عن شخصيتيهما فيعرف أنهما جبريل وميكائيل ٠ وهنا يطلبان منه أن يرفع بصره فاذا به يرى عن بعد قصرا أبيض ، فيخبرانه أنه الدار التى أعدت له فى السماء ، قريبا من عرش الرحمن ، فيبدى محمد رغبته فى دخولها فورا ، الا أن دليليه يقنعانه بانتظار الوقت المحدد لذلك ٠

٦ ـ تبين هذه الرواية تقدما فى ملامحها الوصفية عن سابقتها ، وتثير تشابها أقرب الى المناظر التى وصفها دانتى ٠ عرضت هذه القصة كما فى الكوميديا الإلهية ، ممالك الحياة الأخرى الأربع ، وهى : المطهر ، وحضن ابراهيم ، والنار ، والفردوس ، منفصلة بعضها عن بعض ، وان كانت قد عرضتها على مستوى واحد خفى وصل

الزائر الى الفردوس عن طريق شجرة كبيرة تؤدى الى سماء واحدة ، لا كما تؤدى فى روايات أخرى الى عدة سماوات • كذلك نجد أن دليلين قادا محمدا فى هذه الرواية وليس دليلا واحدا ، وان كانا فى القصة الإسلامية ملكين ، وعند دانتى شخصين آدميين • ثم اننا نقع هنا أيضا ولأول مرة على ذكر لخازن النار الذى يقابله مينوس عند دانتى وهو يحدد عقوبات أهل النار(١) • غير أن هذه التفاصيل على أية حال أقل أهمية من غيرها من الملامح المميزة لكل من القصتين • فالقدس فى كل من القصة الإسلامية وكوميدية دانتى(٢) هى نقطة البداية فى الرحلة السماوية • ويتفق مفسرو قصيدة دانتى ، فضلا عن هذا ، على أنه يوجد تلازم بين العقوبات والآثام التى ارتكبها أهل النار • والحق أننا نقع على مثل هذا التلازم فى ملامح الروايتين الإسلاميتين الأولى والثانية ؛ ذلك أن أصحاب النار فيهما كانوا يتألمون من الأعضاء التى ارتكبوا بها خطاياهم(٣) •

٧ — غير أن التطابق بين الرواية الثانية وقصيدة دانتى أوضح كثيرا فى عقاب الزناة والمرابين • فالرجال والنساء العراة الذين تتقاذفهم النار فى التنور فى القصة الإسلامية ، يذكروننا تماما بالزناة فى قصيدة دانتى الذين تتقاذفهم رياح النار العاصفة أبد الآبدين(٤) • وأكثر من ذلك لفتا للنظر أن دانتى طبق العقوبة الإسلامية للمرابين على أولئك الذين ارتكبوا أعمالا عنيفة وأراقوا الدماء • ذلك أنه صورهم مثل المرابين المسلمين يكافحون فى نهر من الدم للوصول الى الشاطىء ، فى حين يصدهم عنه رماة القنطورس(٥) ، وهم يرمونهم بالسهام (وهؤلاء أخذوا عند دانتى مكان الزبانية الذين يلقمون المعذبين بالحجارة فى القصة الإسلامية(٦) • كذلك نقع على مشابهات أخرى ، مثل عقاب اللوطية الذين تحرق النار أجوافهم فى القصة الإسلامية ، والذين

---

(١) الجحيم ٥ / ٤ وما بعده •

(٢) الجحيم ٣٤ / ١١٤ ، المطهر ٢ / ٣ •

(٣) أنظر Rossi, I, 146 الذى لخص ما جاء فى الكوميديا الإلهية عن « مقابلة الأذى بمثله » وقارن ذلك بالعقوبات التى وردت فى الروايتين الأولى والثانية •

(٤) الجحيم ٥/٣١ وما بعده • وينبغى أن نلاحظ هنا أيضا أن دانتى تماما مثل محمد عندما اقترب من النار فى الرواية الثانية ، قد سمع أنات الأشقياء من أهل النار • (المرجع السابق ٢٥ وما بعده) •

(٥) كائن خراقى نصفه رجل ونصفه حصان •

(٦) الجحيم ١٢ / ٤٦ وما بعده • وقد ينصرف التطابق على الجريمة ذاتها ، ذلك أن النص العربى فى الرواية الثانية يقول : « أولئك الذين يأكلون الربا » فى حين أن دانتى يقول بالنص (فى الجحيم ١٢ / ١٠٤) : « أولئك الظالمون الذين قتلوا واغتصبوا أموال الناس » •

فطرهم السـماء نارا عند رانتى(١) ، أو النهرين اللذين يفصلان فى كلتـا القصتين الإسلامية والدانتية بين المطهر والفردوس ، واللذين شرب كل من محمد ودانتى من مياههما السلسبيل(٢) ٠

٣

المجموعة الثانية ـ روايات المعراج

١ ـ يرجع تاريخ قصص المجموعة الثانية هذه الى نفس الوقت الذى كتبت فيه المجموعة الأولى ٠ وهى على أية حال منفصـلة عنها ، ذلك أنه بينما تقتصر المجموعة الثانية على وصف أحداث المعـراج ، فان المجمـوعة الأولى قـد اقتصرت على الإسراء لا غير ٠

٢ ـ يوجد ثلاث روايات رئيسية تكون هذه المجموعة الثانية ٠ وصلتنا الأولى وهى أصحها سندا عن البخارى ومسلم ، ولذلك ينبغى أن نعتبرها أقـدم من القرن التاسع الميلادى ٠ وأما الرواية الثانية فلم نستشهد منهـا الا بفقرة واحدة ٠ وهنا نرى أن المؤلف مشكوك فيه ، بالرغم من انها منسوبة الى ابن عباس ٠ وقد تـكون من تاليف كاتب مصرى من كتاب القرن التاسع الميلادى هو اسحق بن وهب ٠ وأما الرواية الثالثة من هذه المجموعة فمشكوك فى صحتها عموما ، وقد تـكون من تاليف ميسرة الفارسى أو عمر بن سليمان الدمشقى فى القرن الثامن الميلادى ، واليك ملخص هـذه الروايات الثلاث :

الرواية الأولى من المجموعة الثانية

٣ ـ بينما كان النبى نائما فى بيته (أو فى المسجد بناء على روايات أخرى) جاءه جبريل منفردا ، أو بصحبة ملائكة آخرين ، فى صورة بشرية وأعدوه للصعود الى السماء ٠ فرج جبريل عن صدره ثم غسله بماء من زمزم ، ثم جـاء بطسـت من ذهب ممتلىء حكمة وايمانا فافرغه فى صدره ثم أطبقه ٠ ثم أخـذ جبريل بيده وبدأ التعريج الى السـماء ، اما من الـكعبة فى مكة كما جاء فى بعض الروايات ، واما من بيت المقدس ، كما جاء فى روايات أخـرى ٠ وتذكر بعض الـروايات ـ كمـا جـاء فى الرواية الثانية من المجمـوعة الأولى ـ أن محمدا وجبريل قـد صعدا الى الجنـة عن

---

(١) الجحيم ١٤ ، ١٥ ٠

(٢) المطهر ٣١ / ١٠٢ ، ٣٣ / ١٣٥ ٠

طريق شجرة عجيبة ارتفعت بهما الى السماء · وتذكر بعض القصص أن البراق — وهو دابة سماوية فوق الحمار ودون البغل ، له وجه آدم وجسد كجسد الفرس — قد حمل محمدا وحده أو هو وجبريل معا من مكة الى القدس · أما التعريج الى السماء فحدث على عشر مراحل ·

تتطابق المراحل السبع الأولى مع السماوات السبع التى ذكرها الفلكيون ، غير أنها ذكرت فى القصة بالعدد ولم تذكر باسم الكواكب التى تنتمى اليها · يطرق جبريل باب كل سماء فيسأله خازنها عمن معه فيخبره بأنه محمد ، فيتأكد الخازن أنه قد بعث اليه ، ثم يفتح لهما باب سمائه ، وهكذا عند كل سماء حتى يجتازان السموات السبع · وكان محمد يسلم على الأنبياء الموجودين فى كل سماء فيردون عليه قائلين : أهلا بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ويرد عليه آدم وابراهيم قائلين : أهلا بالابن الصالح والنبى الصالح ·

أما ترتيب ظهور الأنبياء فينحصر على العموم فى ظهور آدم فى السماء الأولى ، وعيسى وابن خالته يحيى فى السماء الثانية ، ويوسف فى الثالثة ، وادريس فى الرابعة ، وهارون فى الخامسة ، وموسى فى السادسة ؛ وابراهيم فى السابعة · ظهر آدم والى جانبه الأيمن أرواح طيبة يسر بها ، والى جانبه الأيسر أرواح خبيثة يعبس لها · وعندئذ يخبر جبريل محمدا أن هذا هو أبوه آدم أهل يمينه هم أهل الجنة ، وأهل شماله هم أهل النار · فاذا نظر الى أهل الجنة تبسم ، واذا نظر الى أهل النار قطب وحزن · أما ابنا الخالة عيسى ويحيى فيظهران معا ، عيسى رجل أحمر بين القصير والطويل ، مسترسل الشعر ، فى وجهه خيلان (جمع خال) كثيرة كأنه خرج من المغتسل ، تخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء · وأما يوسف فحسن جميل كالقمر · وأما موسى فأسمر اللون طويل خفيف اللحم جعد الشعر أقنى الأنف ، بكى عندما تذكر أن نبيا بعث من بعده يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمته بنى اسرائيل · وأخيرا ابراهيم فى السماء السابعة الذى لم ير محمد رجلا أشبه به منه ، مسندا ظهره الى البيت المعمور(١) الذى هو صورة طبق الأصل من القدس الأرضية ، والذى يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ·

تستغرق زيارة هذا البيت المرحلة الثامنة من الصعود ، أو المرحلة التاسعة فى الروايات التى تشتمل على ذكر شجرة الجنة العملاقة التى تسمى بسدرة

(١) سورة الطور ٤ · وسمى بالبيت المعمور لكثرة الملائكة التى تعمره بالعبادة ·

المنتهى(١) • وهى شجرة يعجز عن ضخامتها الوصف ، نبقها (السدرة هى شجرة النبق) مثل قلال هجر (القلة هى الجرة الكبيرة من الفخار) ، وورقهـا مثل آذان الفيلة • فى أصلها أربعة أنهار ، نهران باطنان ونهران ظاهران ، والباطنان : نهران فى الجنة ، والظاهران : النيل والفرات • وهنـا أو قبل ذلك يعرض على محمـد ثلاث أوان ، فيهـا : خمر ولبن ، وعسـل ، فيختـار اللبن ، فيمتدحه جبريل على الاختيار ، ويقول له انه بذلك قد هـدى للفطرة وهديت أمته لهـا • وأخيرا يصـل محمـد الى آخر مراحل رحلتـه فيرى العرش ويتجلى له الله ، فيوحى اليه ويكشـف له عن أسرار الغيب •

كانت الصلاة من بين الفرائض التى أوحى بها الله الى نبيه فى هذه المرحلة وفرضها على أمته • وكانت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة • فلما نزل النبى قابل موسى فسأله عما فرض الله على أمته ، فأخبره أنه فرض خمسين صلاة فى اليوم والليلة • فاستحثه موسى أن يرجع الى ربه ويسـأله التخفيف لأن أمته لا تطيق ذلك • فيعود محمـد ويطلب من ربه تخفيف الصـلاة فيخففهـا ، فيسـتحثه موسى على طلب المزيد من التخفيف ، وهكذا أربع مرات حتى خففت الصلاة الى خمس صـلوات فحسب • فلما استحثه موسى على أن يسـأل ربه التخفيف بعد ذلك ، استحيا محمد أن يعاود السؤال • وهنا تنتهى الرحلة بدون أى أحداث أخرى •

٤ ـ نلاحظ أن هـذه الرواية لم تشر الى النار أو الى الصراط (المطهـر عند دانتى) ، وانما اقتصرت على ذكر الجنـة التى هى آخـر أجزاء قصـيدة دانتى ، (الفردوس) • والحق أن الخطوط العامة فى كلتا القصتين تتشابه تشابها كبيرا • مثال ذلك أن محمدا تطهر أولا ؛ تماما كما فعل دانتى ، ثم صعد فى الهـواء وجبريل آخذ بيده كما صعد دانتى تقوده بياتريتشى • كذلك نقع فى كل من القصـتين على عـدد من المراحل يتطابق مع عدد السـماوات الفلكية (أى التى تحدث عنهـا الفلكيون) • أما اختلاف عدد السماوات التى ذكرها دانتى عن عـدد السماوات التى ذكرتها القصص الإسلامية ، أو اختـلاف التصنيف ، فلا يشـير الى شىء أكثر من زيادة المعـلومات العلمية التى كان يعرفهـا دانتى تبعا لتقدم العلوم فى عصره • ثم لا ينبغى أن ننسى أن السماوات السبع التى اجتازها محمد ، تتطابق تماما مع السموات التى ذكرها دانتى ، وهى سموات كواكب النظـام البطليموسى الفلكى : القمـر ، وعطارد ، والزهـور ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، التى أضاف اليهـا دانتى بسـماء النجوم

(١) سورة النجم ١٤ • سميت كذلك لأنه تنتهى أعمال بنى آدم اليها •

الثوابت والسماء البلورية وسماء السماوات (أى عيلين) • ويقابل هذه السماوات الثلاث فى القصة الإسلامية سدرة المنتهى والبيت المعمور والعرش • وبذلك نرى أنه قد اكتمل فى كل من القصتين عشر مراحل • والواقع أنه لا لزوم هنا لأن نعالج بالتفصيل مسألة عدد المراحل فى كل من القصتين ، ذلك ان حرية دانتى فى العمل الشاعرى هى وحدها التى سمحت له بصياغة المخطط الإسلامى للكون تبعا لأفكاره • وهنا تستبين لنا حقيقة واضحة ، هى أن دانتى ما كان ليقع على شىء فيما يسمى بالأعمال المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية ، يمكن أن يستخدمه مثالا نموذجيا لقصيدته مثل القصة الإسلامية فى الرواية الأولى من هذه المجموعة • ثم انه على الرغم من أن بياتريتشى هى آدمية فى واقع الأمر ، الا أنها استحالت ملائكية من خلال النور الذى أشرق عليها عندما تجلى الله لها ، فنزلت من السماء ومعها اذن الهى بقيادة دانتى الى العرش ، فيصعد معها خلال الفضاء ، كما يصحب جبريل محمدا • كذلك نرى أن بطلى القصتين فى كلا الصعودين انما يمران بسماوات النظام الفلكى السبع ، بحيث يمكث كل منهما بعض الوقت فى كل سماء مع من فيها من الأنبياء والصالحين ، ويتلقى معلومات فى المسائل اللاهوتية • أما الأنبياء فى السماوات الاسلامية فيقابلهم القديسون عند دانتى • ثم ان البراعة الأدبية فى كليهما متشابهة ، بغض النظر عن اختلافهما من حيث الفن والتفاصيل الروحانية •

٥ ـ يلاحظ أن الرواية الثانية المذكورة فيما بعد تنتمى الى هذه المجموعة فى الحدود التى يكون فيها الصعود الموضوع الأساسى للقصة • ولكنها تختلف عن الرواية الأولى على أية حال من حيث انها تشتمل على ذكر النار ، ولهذا السبب يمكن أن نعتبرها أولى المحاولات لربط الإسراء بالمعراج ؛ ذلك أنها تدخل فى قصة المعراج وصفا لملكة العذاب ، وهو أمر يرتبط عموما بقصة الإسراء • ومن ثمة فلا داعى لتكرار المناظر التى ورد ذكرها فى القصة الأولى ، ونكتفى بذكر الملامح الأكثر انطباقا مع الرواية الثانية •

الرواية الثانية من المجموعة الثانية

٦ ـ يصعد محمد فى صحبة جبريل الى السماء الثالثة التى يرى فيها ملكا هائلا رهيب النظر ظاهر الغضب شديد البأس يتوهج كما لو أنه مخلوق من نار ، جالس على مقعد مشتعل ، يعد أدوات التعذيب من نار صلبة • وهنا يخبره جبريل أن هذا الملك الرهيب هو مالك خازن النار ، الذى لقى محمدا وهو عابس متجهم ، على خلاف غيره من الملائكة الذين كانوا يلقونه ضاحكين مستبشرين • ولما أراد محمد أن يرى

النار رفض مالك مغضبا ، غير أنه سمع نداء من العلى الأعلى يقول له : « لا تخالف حبيبى محمدا » • وعندئذ كشف مالك غطاءها ففارت وارتفعت حتى لقد ظن محمد أنها ستأخذ ما يرى • وتتكون هـذه النار التى رآها من سبعة أطباق الواحد فوق الآخر ، قد قسم أعلاها وهو المعد للخطايا الكبرى ، أربعة عشر دركا ، كل منها فوق الآخر ، قد أعد لضرب معين من الذنوب •

أول هـذه الدركات بحر من نار ، يشتمل على سبعين بحرا آخـر ، على ساحل كل بحر منها ألف مدينة من نار ، فى كل مدينة سبعون ألف قصر من نار ، فى كل قصر سبعون ألف تابوت من نار ، وفى هذه التوابيت حيات كأمثال النخل الطويل وعقارب كأمثال البغال تنهش من فيها من الرجال والنساء ، وهم ينادون فلا يجابون • وهؤلاء هم الظالمون •

ثم رأى فى الدرك الثانى رجالا لهم مشافر كمشافر الإبل يضربهم الزبانية بمقامع من نار ، فى حين تدخل الحيات من أفواههم وتأكل أمعـاءهم • وهؤلاء اكلة أمـوال اليتامى ظلما ، وتحت هؤلاء قوم بطونهم كالبيوت تغلى حيـات وعقارب ، وهـؤلاء المرابون • وأسفل من هؤلاء وهؤلاء نساء معلقات من شعورهن التى كشـفوا عنهـا لنظرات الرجال ، ثم الكاذبون والمغتابون وقد علقوا من ألسنتهم بكلاليب من نار وهم يمزقون وجوههم بأظافر من نحاس • أما الذين تهاونوا فى صلاتهم وفى وضوئهم فانقلبوا الآن مسوخا رؤوسـهم كرؤوس الكلاب وأبدانهم كـأبدان الخنـازير تأكلهم الحيات • ورأى فى الدرك التالى شاربى الخمر ، وقد عطشوا عطشا شديدا ، والزبانية يسـقونهم نارا تغلى فى بطونهم • ورأى فى درك تحت هؤلاء المغنيـات والنواحات بالكراء معلقات من عراقيبهن يئنون من العذاب تقرض الزبانية ألسنتهم بمقارض من نار • ورأى الزناة يعـذبون فى تنور مخروطى كما فى الرواية الثـانية من المجمـوعة الأولى ، فى حين يطغىعلى أنينهم لعناتزملائهم الأشقياء الذينيعانون رائحتهم النتنة• وفى الدرك التالى الزوجات اللائى خن أزواجهن معلقات من ثدائهن وقـد غلت أيديهن الى أعناقهن • وأما الأبناء العاقون لآبائهم فيضربهم زبانية بمقامع من حـديد • ثم أسـفل من هؤلاء الذين لم يحفظـوا عهودهم ، مغلولة أيديهم وأرجلهـم ورقابهـم بأغلال من نار • وأما القتلة فتذبحهم الزبانية بسكاكين من نار ، ثم يعودون كما كانوا خلقا جديدا ثم يذبحون ، وهكذا الى أبد الآبدين • ورأى أخيرا فى الدرك الرابع عشر وهو الدرك الأخير من هذا الطابق الذين أهملوا فى صلاتهم وقد صلبوا على أعمدة من نار ، كلما التهمتهم النـار سقط جلدهم ولحمهم من عظامهم وخر فى أعقابهم •

بعد أن رأى محمد هذه الأهوال وداخله منها رعب على ضعاف أمته ، طلب من مالك أن يغلق الباب ، فأطبقه وعاد كما كان . ثم ان مالكا طلب من محمد أن يحذر أمته مما رأى . وأما الطبقات الست الأخرى فزاخرة بصنوف من العذاب الذى يشتد كلما زاد العمق . وهنا ينتهى هذا المنظر ، ويستمر محمد كما فى الرواية الأولى من المجموعة الثانية فى صعوده .

٧ ـ قد يتبين من النظرة الأولى أنه لا يوجد تشابه بين أحداث هذه المرحلة والكوميديا الإلهية . ذلك أن الناحيتين الأساسيتين من القصة ، وهما مناظر الجنة والنار ، قد اختلطتا هنا بعضهما ببعض ، ولم تعرض كل على حدة كما عرضها دانتى منفصلة من حيث الزمان والمكان . فقد شاهد محمد عذاب النار فى السماء الثالثة لا قبل الصعود الى السماء كما فى الروايات السابقة . غير أننا اذا تغاضينا عن هذه الملابسات ، وفصلنا أحداث النار عن أحداث الصعود ، اذن لاتتضح لنا تشابه غريب بين القصتين .

٨ ـ يتبين بادىء ذى بدء أن هذه الرواية قد أمدت دانتى بمثال احتذاه لتصميم مملكة العذاب التى وضعها فى جحيمه . فقد صمم دانتى جحيمه على أساس أنه هوة عميقة قمعية الشكل توجد فى أعماق الأرض ، لها تسع درجات أو طبقات ، كل منها سجن ومأوى للعقاب لفئة بعينها من أصحاب النار . وجعل نازلى كل درجة أو طبقة أشد عذابا من الذين فوقهم ، كلما عظم الذنب عمقت الطبقة . ثم انه قسم بعض هذه الطبقات الى أقسام جزئية تتناسب مع درجات الذنوب . وهنا يتضح لنا فورا التشابه بين هذه التقسيمات والقصة الإسلامية . فالنار الإسلامية تتكون كهذه التى وصفها دانتى من أبواب ، أى أطباق ، كل باب أشد حرا من الذى فوقه ، وكل باب مخصص لنزول فئة بعينها من أصحاب النار ، وقد قسم كل منها الى دركات ، كل درك فوق الآخر ، أعدت لمختلف وجوه الإثم . حقا ان عدد الدركات فى كل باب من أبواب النار انما يختلف فى كلتا القصتين ، غير أن هذا أمر قليل الأهمية اذا ما قورن بغير ذلك من المشابهات المثيرة عندما لا يتطلب التقليد الفنى تشبثا كبيرا بالمثال الأصلى . ولقد كان جديرا بدانتى أن يتخذ أى تصميم آخر ، غير أنه فضل احتذاء النموذج الإسلامى بأقسامه الأصلية والفرعية على السواء . ولا مرية أن هذا التقسيم خدم الغرض الذى رمى اليه دانتى بطريقة تثير الاعجاب ، وهو ما يسميه الدانتيون بالهندسة الأخلاقية للجحيم ، أى توزيع العقوبات بناء على درجات الذنب . والحق أنه لا يوجد غير خلاف واحد بين القصتين من حيث وصف منازل النار ،

هو صمت القصة الإسلامية عن ذكر النار باعتبارها فى أعماق الأرض • غير أنّ القصة الإسلامية تقرر فقط أن محمدا رأى النار من السماء الثالثة ، لا أنها تقع فعلا فى هذه السماء • وهذه نقطة غير ذات أهمية كبيرة فى الوقت الحاضر ، وسوف نستفيض فى شرحها فيما بعد •

ويكفى الآن أن نرسى حقيقة واضحة هى أنّ تصميم الجحيم فى قصة دانتى له ما يقابله فى القصص الإسلامية ، ابتداء من روايات القرن التاسع الميلادى • أمّا ملامح التشابه الأخرى بين هذه الرواية وقصيدة دانتى فقليلة الأهمية •

٩ — يتضح جليا أن مقابلة محمد لخازن النار ، لها ما يقابلها فى جحيم دانتى ، وذلك عندما يرفض مينوس العابس والنوتى كارونتى أن يسمحا لدانتى بالمرور(١) • وهنا يستبين لنا أن الشاعر دانتى قد نقل المنظر الإسلامى ولكن بصورة فنية أكثر ، غلفها بشىء مما استقاه من الأساطير اليونانية القديمة • ولا غرو فان خازن النار الإسلامى ، بغضبه الظاهر وشدة بأسه وتوهجه كأنه قطعة من نار ، ورفضه الجاف فتح باب النار ، أمور كلها تبدو وكأنها نماذج أولية للنوتى الذى وصفه دانتى بأنه « شيطان له عينان كأنهما جمر أحمر ، ينبعث منه لهب من نار » ، ثم صوته الذى صاح مغضبا : « سوف لا أجعلك تمر الى الشاطىء الآخر » • وأخيرا اذعانه لدانتى بناء على أمر من السماء نقله فرجيل : « اهدأ ياكارونتى ، انه أمر مقدر فى السماء ، حيث كل ارادة قانون نافذ ، فلا تجادل بعد الآن » • ثم انّ هناك تشابها آخر يفصح عنه المنظر الذى يبدو فيه « مينوس الرهيب » خازن النار فى قصيدة دانتى وهو يوزع ضروب العذاب بلا رحمة على الهالكين عند مدخل النار • وأما تنحية مينوس لدانتى حتى تدخل فرجيل وقال له : « لا تعقه فان رحلته قدر مقدور » • فيلوح بأنها صدًى للتحذير الذى جاء من العلىّ الأعلى لمالك خازن النار عندما رفض فتحها لمحمد وقال له : « لا تخالف حبيبى محمدا » •

استخدم دانتى هذا المنظر المزدوج بطرق مختلفة فى دوائر (أطباق) أخرى من دوائر جحيمة • فقد تولى بلوتوس عند مدخل الدائرة الخامسة المهام التى يقوم بها كارونتى ومينوس(٢) • وكرر فليجاس فى الدوائر الخامسة ، والشياطين بعد ذلك عند مدخل مدينة ديس نفس المنظر بنفس كلمات المحادثة(٣) • وفى هذه الفرصة الأخيرة ،

(١) الجحيم ٣ / ٨٢ — ١٠٠ ؛ ٤ / ٢ — ٢٤ •

(٢) الجحيم ٧ / ١ — ١٥ •

(٣) الجحيم ٨ / ١٣ — ٢٤ ، ٨٢ وما بعده •

يقوم ملك من السماء ينقل الأمر الذى يسمح للزائرين دانتى وفرجيل بالعبور(١) • وفى الدائرة السابعة يقاومها مينوطور فيتغلب عليه فرجيل(٢) • وفى الخندق الخامس من الدائرة الثامنة يحاول عـدد من الشياطين سد طريقهما عبثا(٣) •

١٠ ـ كذلك نقع على مشابهات واقعية أخرى • فان اندفاع ألسنة النار العنيف الذى واجه دانتى عند مدخل أول دائرة من دوائر جحيمة(٤) ، له ما يقابله فى القصة الإسلامية عند ما فارت النار وارتفعت حينما كشف مالك غطاءها لمحمـد وهو يحاول أن يلقى أول نظرة عليها •

ولا شك أيضا أنّ الأربعة عشر دركا الأولى فى القصة الإسـلامية ، انمـا هى النموذج الذى احتذاه دانتى لتصميم مدينة ديس • ذلك أنه رأى بوضوح أبراج بحيرة ستيجيا عندما وصل الى ساحلها •••• وهى تتوهج نارا ؛ وشـهد النار الأبدية التى تلتهم المدينة من أعماقها وهى تنشر ظلا أحمر فى كل مكان •

اذن فمدينة ديس مدينة من نار ، تماما كالمدينة الإسلامية التى جاء ذكرها فى النار • ثم أن تشابها آخر أكثر قربا ، ذلك أن فرجيل ودانتى رأيا فى هذه المدينة (٥) قبورا من نار لا تعد ولاتحصى ، فيها توابيتمن حديد أحمرساخن • يرقد فيها الهراطقة وهم يئنون من العـذاب • وهـذا المنظر بغير انكار صورة من المنظر الذى شاهـد محمد فيه بحرا من نار على ساحله مدنا من نار فيها توابيت من نار ، يئن فيها الأشقياء الطغاة •

١١ ـ ثم ان اختبارا دقيقا لضروب العذاب التى وردت فى الأربعـة عشر دركا من الطبق الأول فى النار الاسلامية ، انما يبين لنا أن الشاعر الفلورنسى قد اسـتخدم هـذا الوصف للصـور الـكبيرة التى وضعها لجحيمه من غير أن يكلف خياله عنـاء كثيرا • مثال ذلك أن منظر الحيات التى تنهش الظالمين والذين أكلوا أموال اليتامى ، والمرابين فى مختلف دركات النار الإسلامية ، انمـا يتكرر فى دوائر جحيم دانتى المختلفة عقابا للنهمين واللصوص(٦) • أما عقوبة العطش الشديد التى يعانيها شاربو الخمر فى

---

(١) الجحيم ٩ / ٧٩ ـ ١٠٦ •

(٢) الجحيم ١٢ / ١١ ـ ٢٧ •

(٣) الجحيم ٢١ / ٥٨ وما بعده •

(٤) الجحيم ٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤ •

(٥) الجحيم ٩ / ١٠٩ وما بعده •

(٦) الجحيم ٦ / ١٣ ـ ٣٣ •

الدرك الخامس من النار الإسلامية ، فقد طبقها دانتى على المزورين فى الخندق العاشر فى الدائرة الثامنة(١) ، فضلا عن أنه جعل لهم بطونا منتفخة ، مما يذكرنا بالمرابين فى المثال الإسلامى الذى احتذاه • كذلك نقع فى نفس الدائرة على جريفوليفو وكابوتشيو وهما يحكان قشور قروحهم الجذامية(٢) ، كما يفعل الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم فى الدرك الخامس الإسلامى اذ يخمشون وجوههم وصدورهم بأظافر من نحاس • وأما الأبناء العاقون الذين رآهم محمد فى الدرك الحادى عشر ، فيقابلهم عند دانتى المخادعون فى الخندق الخامس من الدائرة الثامنة وهم يتلوون الما فى بحيرة من القار المغلى يمنعهم من الخروج منها شياطين مسلحون بحراب(٣) وأخيرا يبين بوضوح تام أن التعذيب الإسلامى (فى الدرك الثالث عشر) للذين يقتلون أنفسهم ، والذين يذبحهم الزبانية أبد الآبدين ودهر الداهرين ، قد اتخذ مثالا للعقوبة التى وضعها دانتى لمثيرى الشقاق فى الوادى التاسع من الدائرة الثامنة(٤)•

١٢ — ترتبط الرواية الثالثة من هذه المجموعة بالرواية الثانية ارتباطا كبيرا•ذلك أن قصة المعراج هى الموضوع الرئيسى الذى تدور من حوله أحداث هذه الرواية أيضا ، على الرغم من محاولة لم تستكمل قسماتها لإدخال مناظر النار فى أثناء رحلة الصعود • ثم انه بينما أشارت الروايتان الأولى والثانية اشارات عابرة لآخر مراحل الصعود ، نجد أن هذه الرواية ، قد استغرقت فى تفصيلها • وتتميز هذه الرواية الثالثة عموما بالمغالاة والتكرار • وقد اعتمد مؤلفها اعتمادا يكاد يكون كليا على النور والألوان والموسيقى • وفى الصفحات التالية عرض ملخص لهذه الرواية •

الرواية الثالثة من المجموعة الثانية

١٣ — (أ) يرى محمد فى السماء الأولى ديكا ، رجلاه فى الأرض وعنقه مثنى تحت العرش ، جسمه أبيض وجناحاه أخضران ، يضرب بجناحيه من الحين للحين ويسبح بحمد الله ، فاذا سبح سبحت ديوك الأرض جميعا ، وهى تميل بأعناقها وتصغى بآذانها لاستماع ذلك التسبيح ، وتخفق بأجنحتها ، واذا سكت سكتت(٥) •

---

(١) الجحيم ٣٠ / ٤٩ — ٥٧ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٠٢ ، ١٠٦ — ١٠٧ •

(٢) الجحيم ٢٩ / ٧٩ — ٨٧ •

(٣) الجحيم ٢١ عموما •

(٤) الجحيم ٢٨ / ٢٢ — ٤٢ •

(٥) الدميرى ١ / ٣٨٨ — ٩ •

(ب) بعد ذلك يرى ملكا نصفه من نار ونصفه من ثلج يسبح الله تعالى ، ويقول من جملة تسبيحه : سبحان من ألف بين الثلج والنار ، يا من ألف بين الثلج والنار ، ألّف بين قلوب عبادك المؤمنين ٠

(ج) ثم يرى ملكا الدنيا بين يديه كالدرهم بين يد أحد من الناس يقلبه كيف يشاء ، يحملق فى شعاع من نور عليه كتابه ٠ ويخبره جبريل أنّ هذا هو ملك الموت الذى يقبض أرواح العباد ، ويحدثه عن القبر وظلمة القبر ووحشته وسؤال منكر ونكير ٠ ولما يقدمه له ويصف له كيف يعالج ملائكته أرواح العباد عند ساعة الموت وينزعونها يبكى شفقة على امته ٠

(د) ثم يرى خازن النار ، ولا يختلف الوصف هنا عما جاء فى الرواية الثانية ، وتتكرر الأحداث حرفيا فيما عدا اختلافا واحدا ، هو أنه عندما فتح له مالك باب النار تراجع ورجا جبريل ان يطلب منه أن يقفل الباب ٠ وبهذا تنتهى زيارته للنار الى لا شيء فى هذه الرواية ٠

(هـ) ثم يرى ملائكة كثيرين ، لهم آلاف الوجوه فى صدورهم وفى ظهورهم لا يكفون عن التسبيح بحمد الله ٠

(وهنا تصف الرواية الصعود الى السماء السادسة ولكن تحذف مناظر السماوات التى وردت فى الأولى من المجموعة الثانية ٠ ويلوح أن المؤلف قد رمى الى أن يجعل من روايته تكملة للروايات الأخرى ، وذلك بأن يضيف المشاهد التى رآها محمد بعد سماوات النظام الفلكى) ٠

(و) ثم يرى حشدا غفيرا من الملائكة فى السماء السادسة لهم أجنحة ووجوه كثيرة ، لكل عضو من أعضائهم لسان يسبحون به بحمد الله ٠ ويخّبره جبريل أن هؤلاء هم الكروبيم الذين يسبحون بحمد الله الى أبد الأبدين ، لا ينظر أحدهم الى الآخر ولا يكلمه ، ولا يرفعون رؤوسهم الى يوم القيامة ٠ ولما يحييهم محمد يردون على تحيته بالإشارة خافضين ابصارهم ٠ وحين يخبرهم جبريل من يكون محمد يحيونه ثم يستأنفون تسبيحهم لله ٠

(ز) يقود جبريل محمدا الى السماء السابعة ، وفيها يرى ملائكة آخرين مدهشين ، ويقرر أنه لا يجرؤ على أن يحدّث بما رأى هناك ، ولا أن يصف هؤلاء الملائكة ٠ ويكتفى بأن يقول ان الله زوده فى هذه اللحظة بقوة توازى قوة البشر أجمعين ، وبقدرة يلوح أنها من قدرة الله ذاته ، مكنته من أن ينظر الى هؤلاء الملائكة ، والا أعماه

نورهم الباهر • يكشف له جبريل عن أصل هؤلاء الملائكة ، ولكن محمدا يرفض ثانية أن يروى شيئا مما أخبره به جبريل •

(ح) بعد ذلك يقوده جبريل ممسكا بيده الى عليين حيث الله ذاته • وهنا خصص مؤلف هذه الرواية الجزء الأكبر منها لوصف هذه الدار • وفيها يرى سبعين صفا من الملائكة الضخام ، لهم كالآخرين وجوه وأجنحة لا تعد ولا تحصى • وأما النور الباهر الذى يحير البصر والذى ينبثق من هؤلاء الملائكة فخليق بأن يعمى كل من ينظر اليه • فيرجف فؤاده فيطمئنه جبريل ويؤكد له أنه سوف يرى من أعاجيب السماء ما لم يره أحد ، ومن دورها ما لم يصعد اليه غيره • ثم يصعد فى طرفة عين مسيرة خمسين ألف سنة ، فيرى سبعين صفا من الملائكة يشبهون الذين رآهم من قبل ، يحيطون بعرش الله وهم يسبحون بحمده • ويتكرر المنظر حتى تصبح هذه الملائكة سبعة حشود ضخام ، كل حشد منها سبعون صفا • عندئذ تأخذه الهيبة مما رأى ، ويلوح له بأنه نسى كل العجائب التى رآها من قبل ، ويعبر عن واجبه فى ألا يحدث أحدا عنهذه العجائب ، فضلا عن عجزه عن وصف تلك المناظر التى لا تنالها الأوهام ولا تبلغها الخواطر ، وأنه اذا قدر له أن يموت من الخوف قبل انقضاء أجله ، اذن لمات على التأكيد عندما رأى هؤلاء الملائكة • غير أن رحمة الله الواسعة تشمله فتتجدد قواه ، ويسمع تراتيلهم ، ويضفى الله على بصره قوة تمكنه من أن يرى نورهم •

(ط) أما المراحل السبع التى تبعث ذلك فتكررت فيها نفس المناظر • يخترق بحرا من نور أبيض باهر يغشى على بصره ، ويلوح له عندئذ بأن الكون كله قد انغمر فى هذا النور واشتعل • ثم يخترق وهو لا يكاد يرى شيئا وقد أخذته الهيبة بحرا أسود مظلما • فيتصور عندئذ أن الكون كله قد غشيته هذه الظلمة • وهنا يلوح بأن دليله قد تخلى عنه ، ولكن جبريل لم يتخل عنه بل انه يشرح له وهو آخذ بيده أن هذه كلها علامات تدل على قربهم من الله • ثم يخترق بحرا من نار ، يتناثر من شعل أمواجه شرر من نار له طقطقة عظيمة فتأخذه الرعدة والخوف ويتصور عندئذ أن الكون كله قد اشتعل ، فيضع يده على وجهه •

(ى) يطمئنه جبريل ، ثم يعبران سلسلة من جبال الثلج ، ترتفع قممها العالية الواحدة فوق الأخرى على مدى البصر ، بياضها شديد ، وأشعتها كأشعة الشمس • هنا أيضا يقف محمد مبهورا • ثم ان مخاوفه تزداد عندما يرى فيما وراء تلك الجبال

الثلجية بحرا آخر من نار أشد اشتعالا من البحر السابق ، لا يطفىء لهيبهما هذا الثلج الكثير ، فيهدىء جبريل من مخاوفه • ثم يصلان الى بحر هائل من الماء ، أمواجه كالجبال العالية يركب بعضها بعضا • يرى محمد فى وسط هذا البحر ملائكة لها أجنحة لا تعد ولا تحصى ، يعجز عن نورهم الوصف • ويقرر أنه لو لم يزوده الله بقوة هائلة ، لأعماه نورهم على التأكيد ولأحرقت جسده نار وجوههم • ثم انه يلاحظ وقد أخذته الدهشة أن هذه الأمواج الهائلة لا تصل الى ركب هؤلاء الملائكة ، الذين تصل رؤوسهم الى عرش الرحمن ، والذين لا تكف أصواتهم عن التسبيح بحمده •

(ك) أما المرحلة الأخيرة فبحر من نور ، يعجز محمد عن وصفه مهما بذل من جهد • يقول ان أشعة هذا البحر كادت تعميه فلم ير شيئا • وعندئذ يعلمه جبريل صلاة تنقذه من العمى ، ثم ان الله يمده بقوة فى بصره ووضوح فى الرؤية حتى يستطيع أن يرى هذه الشعاعات ، ويرى كل ما هنالك بعينيه ، ولكن لاح له كما لو أن السماوات والأرض وجميع ما فيها انما تتألق وتحترق فغشى على بصره ولم يستطع أن يرى شيئا • ثم ان النور الأحمر استحال أصفر ، ثم أبيض ، ثم أخضر ، وأخيرا تداخلت الألوان فى كتلة واحدة مضيئة شديدة اللمعان حتى غشى على بصره مرة أخرى • ومرة ثانية يعلمه جبريل صلاة تعيد اليه بصره • ثم يرى ملائكة آخرين يحيطون بهذا البحر من النور ، من خلف ملائكة غيرهم يحيطون بعرش الرحمن ، لا تبلغ بجمال هذه الصورة الخواطر • ثم يعود محمد مرة أخرى الى القول بأنه انما يعجز عن وصف جزء من مئة مما رأى ، حتى ولو كان مسموحا له بالتحدث عما رأى • ولم يذكر الا أنه لاحظ أن هؤلاء الملائكة لا يرفعون أبصارهم ، وأنهم بينما يسبحون بحمد الله ، تظهر شعلة من النور تحيط بعرش الرحمن كأنها نار تخرج من أفواههم • تأخذ محمد الهيبة ويخبره جبريل أن هؤلاء وجميع الملائكة الذين يوجدون فى السماوات التى فوق السماء السادسة هم الكروبيم •

(ل) بعد ذلك تبدأ المرحلة الرئيسية والأخيرة • يصعد محمد كالسهم الذى ينطلق من القوس فى لمح البصر وأسرع من الريح • وأخيرا يصل الى عرش الرحمن ، فيهون الكون كله عند ما يراه • فقد بدت له السماوات السبع ، والأرضون السبع ، والجنان السبع ، والكون كله الى جانب العرش كحبة خردل فى أرض فلاة •

(م) ثم تأتيه الملائكة برفرف أخضر يحملونه عليه الى حضرة الله ذاته • وهناك يبصر أمرا عظيما لا تناله الأوهام ولا تبلغه الخواطر ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر . ويبهره النــور فيخشى أن يفقــد بصره . ثم يزوده الله بقوة ابصــار تمــكنه من أن يتــأمل كل ما حاول عبثــا أن يراه من قبــل ، فيرى نورا ساطعا ، ولــكنه لا يجــدر به أن يصف نور الرحمن . ثم يتوســل الى الله أن يمــده بقــوة ابصار ثابتــة فيحصل عليهــا بنعمة من الله . فلمــا ترفع الحجب التى بينــه وبين الله ينظر الى الله فيراه جالسا على العرش . وهنــا يخبرنا مرة أخرى أنه لا ينبغى له أن يصف ما رأى . ثم أمر الله أن يدنو منــه ، فيخطو خطوة مسيرة خمسمائة سنة ، ولمــا يحس بيــد الله بين كتفيه ، وهى لم تــكن يدا محسوسة كيد البشر ، بل يد قدره وارادة ، ويجــد بردها على كبــده ، يذهب عنــه كل ما كان يخشى ، ويورثه الله علم الأولين والآخرين ، ويملأ فرحا وسرورا ، ويأخــذه عنــد ذلك الثبات والسكون فيظن أن من فى السماوات والأرض قــد ماتوا الا هو ، ذلك أنه لم يعــد يســمع هنــاك لا حســا ولا حركة . ثم يرجع اليــه عقله ويتفــكر فيمــا هو فيه من الشرف العظيم . ثم يشهد الله أن محمدا عبده ورسوله الى البشر كافة ، وأن أمتــه ســتكون أعظم أمم الأرض . ويسدل حجاب من نور ويختفى الله .

(ن) وينصرف محمــد على الرفرف الأخضر الذى حمله الى حضرة الله ، حتى يأتى الى حيث جبريل واقف ينتظره . وعنــدئذ يدرك محمد التغير المدهش الذى أحدثته فيــه رؤية الله ، وذلك النور الذى سرى فى ذاته ، ويندهش لتلك القوة الروحية الكاشفة التى زوده بهــا الله ، والتى بهــا يستطيع أن يرى بقلبه ما يوجد خلفــه ، ويرى ما يوجد أمامه . غير أن جبريل يشرح له هــذه الظاهرة ، ويدعوه لتجربة قوة ابصاره ، حتى يرى من هــذه السماء العليــا فى لمحة واحــدة عظمة الــكون كله . فينظر محمد فيرى عنــدئذ بسهولة جميع الأنوار المدهشة الباهرة التى كادت تعميه فيما قبل : يرى العرش والحجب التى حوله ، وبحــار وجبال عليين ، والــكروبيم ، ثم ينظر أخيرا من تحته ، فيرى ســماوات النظام الفلــكى تتلألأ فى أقصى بهــائها . يرى كل شىء حتى ســطح الأرض .

(س) ثم يصغى الى ايقــاع الملائــكة ، فيســمع أصــوات الــكروبيم ، الذين يحيطون بالعرش ، وهم يسبحون بحمد الله ، ويســتطيع أن يميز بين كل الأنغـــام : الغنــاء العالى ، والهمسات الرقيقة التى كأنها حفيف الريح فى الأشجار ، أو تلك التى كأنهــا سجع الحمام ، أو طنين النحل ، أو انفجار شديد بين الفينة والفينة كصــوت الرعد . هنــا أيضا تأخذه الهيبة والرهبة ، فيشجعه جبريل ويسكن من روعه ويطمئنه بأنه النبى الأوحــد الذى اصطفــاه الله وقربه من عرشــه وكلّمه بغير حجاب . بعــد

ذلك يرى الدار التى اعـدت له فى الجنة • ثم يشرح له جبريل العجـائب التى شاهدها ، فيخبره أن النور ، والظلمة ، والنـار ، والمـاء ، واللؤلؤ ، والثـلج ، هى الحجب التى تحيط بالعرش ، وأن الملائـكة الذين هم فوق السـماء السـادسة هم حراس العرش • وأن الملائـكة الذين هم فى السـماوات التى تحت السـادسة هم المنوط بهم التسبيح بحمـد الله • وأن جبريل أرفع منزلة من هؤلاء جميعـا • وأن ملائـكة سـماء السماوات أو عليين الذين يحيطون بالعرش هم الـكروبيم ، الذين يشـعون نورا قويا لا يجرؤ الملائـكة الذين هم فى السماوات الأسفل منهم أو الذين يحيطون بهم أن ينظروا اليـه والا فقـدوا أبصارهم •

(ع) وبعـد أن ينتهى جبريل من تفسيراته وتعليلاته ، تبدأ مرحلة النزول ، فينزلان كالسهم الذى يخرج من القوس أو كالريح • ولا يختلف وصف الجنـة فى هـذه الرواية عمـا جاء فى القرآن • يرى النبى سدرة المنتهى التى لا يستطيع أحـد أن ينعتها لضخامتها ، والتى تنتهى اليها أعمـال البشر • ويرى نهر الـكوثر وشجرة طوبى ، ثم تنتهى آخر مراحل العودة خلال سماوات النظام الفلكى ، حيث يقـابل محمد بعض الأنبيـاء ويروى لهم العجائب التى رآها • وتنتهى الرواية واذا الليـل على حاله لم يتقدم ولم يتأخر ، فيأتيان مكة وينزل محمد عن البراق ويودعه جبريل •

١٤ ــ نلاحظ هنـا أن الأسلوب الممـل والإغراق فى المغـالاة ، والتكرار المستمر ، فضلا عن خلو المرحلة الأخيرة تمـاما من أى أثر روحانى ، كلها أشـياء تجعل مقارنة هـذه الرواية بقصيدة دانتى الفنية أمرا صـعبا • كذلك نلاحظ أن هـذه الرواية نسبت فى القرن العـاشر الى مؤلف فارسى ، لا الى مؤلف عربى ، يدعى ميسرة بن عبد الربيعى : ومن ثمـة يحتمـل أن هـذا المؤلف الفـارسى الذى عاش فى القرن الثـامن الميـلادى ، كان لا يزال يحتفظ ببعض آثار العقيدة الزرادشتية التى كانت سائدة فى بلاده •

وهنـا ينبغى للقـارىء اذن أن يلقى نظرة أخرى على الفردوس قبـل أن نحـاول المقـارنة • وليجرد القصـيدة ممـا فيها من مناقشات ومحاورات ، ومن المذهب اللاهوتى الذى تعبر عنـه ، وممـا تشتمل عليـه من معارف فلسفية وفلـكية ، ومن الإشارات الـكثيرة للتـاريخ الإيطالى ، وعنـدئذ يسـتطيع بعـد أن يحيـل العملين الى خطوطهمـا البسيطة الأولية ، أن يجرى مقارنة منهجية •

١٥ ــ يبين لنـا من المقـارنة أن أكثر المشـابهات لفتا للنظر انمـا تنحصر فى تلك النزعة المثالية للوصف العام للجنة كمـا جاء فى هـذه الرواية • وهنـا نرى أن الدانتيين

قد وسعوا الهوة التي تفصل بين فردوس دانتي وأي عمل سابق من هذا القبيل(١) • وزعموا أن الشاعر تحرر من الأفكار المادية السابقة في وصف الجنة ، واستخدام المعنويات غير الملموسة ، التي هي أرق مظاهر الطبيعة ، وتصور الحياة في السماوات باعتبارها متعة بالغة من النور والصوت ، واعتبر الفردوس المملكة التي يتحرر فيها العقل من أسر البدن •

غير أن النور والغناء عنصران يظهران بكثرة في الأوصاف التي وردت في هذه الرواية الإسلامية عن الجنة • ذلك أنه فضلا عن بحر الظلمة الذي يؤلف تناقضا مع بحور النور والنار ، فان المناظر التي ورد وصفها في أثناء المراحل الرئيسية لعروج محمد ، والأوصاف الشخصية ، قد صورت كلها على أساس النور ، تماما كما فعل دانتي • ثم انه يبين جليا أن المناظر العشرين التي تتألف منها الأحداث الرئيسية ، وعلى الأخص رحلة محمد في السماء السابعة ، قد صورت بألوان زاهية جدا • كذلك نرى أن الملائكة أيضا ، وعلى الرغم من أنهم صوّروا بعض الأحيان في صورة انسانية ، وأحيانا أخرى في صور شوهاء ، كانوا دائما يشعون نورا يبهر الناظر اليهم • ثم ان مقارنة هذه الصور بأوصاف كثيرة مشابهة لها في فردوس دانتي ، تظهرنا على أن عنصر النور في كلا العملين كان سائدا(٢) • كان نور بياتريتشي يزداد مع كل مرحلة من مراحل الصعود • ثم ان دانتي رأى أرواح السعداء في كل سماء وفي سماء السماوات أنوارا متألقة ، تأخذ بعض الأحيان شكل تاج أو اكليل زهور ، وتأخذ بعض الأحيان شكلا رمزيا في صورة قوس قزح ، أو في صورة الصليب ، أو النسر ، أو غير ذلك • أما الله ذاته فضوء لا يوصف بريقه ، وحشود الملائكة التي تحيط بعرشه أجسام نورانية • كذلك نلاحظ أن كل مرحلة من مراحل رحلة دانتي قد انطبعت بطابع يلعب فيه النور دورا كبيرا • وسوف نعقد فيما بعد مقارنة أكثر تفصيلا فيما يتعلق باستخدام النور في كل من القصتين •

وكذلك الحال بالنسبة للصوت ؛ ذلك أن جميع الملائكة الذين رآهم محمد فيما عدا خازن النار وملك الموت ، كانوا يسبحون بحمد الله • ثم ان ترانيمهم هذه مأخوذة من القرآن نقلها محمد عنهم كما هي في القرآن حرفيا • وأخيرا سمع الملائكة وقد تألفت

---

(١) cf. RossI, 1, 165, 168

(٢) انظر على الأخص الأناشيد ٥ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٨ و ٢٢ و ٢٣ ومن ٢٧ الى ٣٣ من الفردوس •

أصواتهم ، وحاول أن يصف هـذه الأصوات بتشبيهات استقاها من أصوات الطبيعة . وكذلك تسبح الملائكة فى فردوس دانتى بحمد الله بعبارات مأخوذة من الكتاب المقدس . وقد حاول الشاعر أن ينقل صورة هـذا التآلف بمقارنة الأصوات التى سمعها بأصوات الطبيعة والموسيقى(١) .

١٦ — غير أن هـذه كلها لا تعدو أن تكون ملامح تشابه عامة ، فى حين أنه يوجد فضلا عن ذلك تشابه بين كثير من الفقرات ، بل تطابق فى بعض الأحيان ، يثبت العلاقة الوثيقة بين القصتين .

يؤكد محمد فى مناسبات مختلفة سرعة انتقاله التى شبهها بالسهم الذى يخرج من القوس أو بالريح . وقد استعمل دانتى التشبيه الأول فى وصف صعوده الى سماء المريخ(٢) . ثم انه قارن صعود الأرواح فى سماء زحل بسرعة الريح(٣) .

عبر محمد عـدة مرات عن عجزه عن وصف المناظر التى يراها . وكذلك عبر دانتى فى المقدمة وفى خمسة أناشيد متفرقة عن عجزه عن وصف مشاهداته فى سماء الشمس ، وفى سماء الجوزاء ، وفى سماء السماوات ، وعندما رأى مريم العـذراء ، وفى أثناء آخر مراحل رحلته عندما عرض للغز الثالوث الإلهى(٤) .

أما تعلل محمد بالقول بأن وصف بعض المناظر التى رآها أمر غير مباح له ، فطريقة استخدمها دانتى كثيرا فى الفردوس (٥) .

ثم ان الوصف الذى يبيّن فعلا الصلة القاطعة بين القصتين ، انما هو ذلك الوصف الذى استخدمه محمد فى جميع مراحل عروجه . فقد عبر لنا فى كل سماء من السماوات عن أنه كان ينبهر من شدة النور ، وأنه كان يخشى فى كل مرة أن يفقد بصره ، وأنه وضع يده على وجهه مرارا ليحمى عينيه من النور الشديد ، حيث

---

(١) قارن الفقرات الآتية من الفردوس على الأخص : ٧ / ١ — ٦ ، ١٠ / ١٣٩ — ١٤٤ ، ٨ / ٢٨ — ٣١ ، ١٢ / ٧ — ٩ . ٢٢ — ٣٠ ، ١٤ / ١١٨ — ١٢٦ ، ٢٠ / ٧٣ — ٧٥ ، ١٤٢ — ١٤٤ ، ٢١ / ١٣٩ — ١٤٢ ، ٢٤ / ١١٢ — ١١٤ ، ٢٥ / ٩٧ — ٩٩ ، ١٣٠ — ١٣٥ ، ٢٦ / ٦٧ — ٦٩ ، ٢٨ / ٩٤ — ٩٦ ، ٣٢ / ٩٤ - ٩٩ ، ١٣٣ — ١٣٥ .

(٢) الفردوس ٢ / ٢٣ — ٢٤ ، ٥ / ٩١ — ٩٢ .

(٣) الفردوس ٨ / ٢٢ — ٢٤ ، ٢٢ / ٩٩ .

(٤) الفردوس ١ / ٤ — ٩ ، ١٠ / ٤٣ — ٤٧ ، ٢٣ / ٥٥ — ٥٩ ، ٣٠ / ١٩ — ٢٢ ، ٣١ / ١٣٦ — ١٣٨ ، ٣٣ / ٥٥ — ٥٦ ، ١٠٦ .

(٥) الفردوس ٣٣ / ٩٠ ، ١٢١ — ١٢٣ ، ١٣٩ ، ١٤٢ .

كان جبريل يتدخل فيمنحه الله بصرا جديدا ، وأنه حصل أخيرا على قوة ابصار خارقة للطبيعة ، مكنته من أن ينظر بحرية وبلا خوف ولا انبهار الى الأضواء التى كانت تغشى على بصره من قبل ٠

والحق أن هذا المنظر تكرر عند دانتى كثيرا وبنفس الكلمات فى أكثر من عشر مواقف فى الفردوس ٠ انبهر دانتى فى سماء القمر بنور بياتريتشى(١) ، وفى سماء المريخ بصورة الله يحيط به الشهداء(٢) ، وفى سماء النجوم الثوابت بنور الحوارى جيمس(٣) ، وفى السماء الثامنة يتألق المسيح الذى ظهر فى صورة شمس(٤) ، حيث حاول بناء على طلب بياتريتشى أن ينظر مرة ثانية ويجرب نظره ، فيتبين أخيرا بين الظلال نجما لامعا — هو رمز جبريل — عجزت عيناه عن متابعة حركاته(٥) ثم ان نور الله كان باهرا فى السماء التاسعة بحيث انه استحال عليه أن يفتح عينيه فأغلقهما(٦) ٠ وأعمته فى السماء العاشرة لمعة برق مفاجئة فلم ير شيئا(٧) ٠ غير أن بياتريتشى هدأت من مخاوفه ٠

وهنا يقول : « شعرت حالما بلغت مسامعى هذه الكلمات ووصلت الى قلبى ، أننى أقوى مما كنت ، فقد زودتنى ببصر جديد أستطيع أن أميز به أى أنوار كانت » ثم يبالغ فى النشيد التاسع عندما يشاهد التجلى الإلهى مبالغة تفوق سابقتها ٠ رجا القديس برنار ، الذى قاد دانتى فى هذه المرحلة بدلا من بياتريتشى ، مريم العذراء أن تتفضل على دانتى وتسمح له بالصعود الى حيث النور الإلهى ٠ وعندئذ قويت عيناه واستطاع أن ينظر الى النور الثلاثى الباهر(٨) ٠

١٧ — انحصر الدور الرئيسى الذى أداه جبريل فى أثناء عروج محمد فى أنه كان دليله وناصحه ومواسيه المسرّى عنه ٠ وهذا الدور ذاته هو نفس الدور الذى خصصه دانتى لبياتريتشى(٩) ٠ ثم ان جبريل قام على أية حال بدور آخر فى بعض

---

(١) الفردوس ٣ / ١٢٨ — ٩ ٠
(٢) الفردوس ١٤ / ٧٧ ٠
(٣) الفردوس ٢٥ / ١١٨ — ١٢١ ٠
(٤) الفردوس ٢٣ / ٢٨ — ٣٣ ٠
(٥) الفردوس ٣٠ / ٤٦ — ٥١ ٠
(٦) الفردوس ٢٨ / ١٦ — ١٨ ، ٢٩ / ٨ — ٩ ٠
(٧) الفردوس ٣٠ / ٤٦ — ٥١ ٠
(٨) الفردوس ٣٠ / ٥٥ — ٦٠ ٠
(٩) الفردوس ٣٣ / ٥٢ — ٥٤ ، ٧٦ — ٨٠ ٠

الأحيان · مثال ذلك ، أنه طلب من الله أن يساعد محمدا ، وطلب من محمد أن يشكر الله لسماحة له بزيارة الجنة · وهذا منظر له مقابل فى النشيد العاشر من الفردوس ، وذلك عند ما هتفت بياتريتشى فى سماء الشمس قائلة(١) : « اشكر ، اشكر شمس الملائكة (أى الله) التى سمت بك الى هذه الشمس المرئية بفضل نعمتها » أما أكثر المتشابهات لفتا للنظر فما يأتى : تقود بياتريتشى دانتى فى الفردوس حتى سماء السماوات ، حيث يأخذ مكانها القديس برنار(٢) · وكذلك قاد جبريل محمدا أيضا فى جميع المراحل ثم تركه وحده فى آخر مرحلة ، وهى التى صعد فيها الى سماء السماوات · وانتقل محمد الى الحضرة الإلهية على رفرف روحانى نورانى · وهنا نقع على مشابهه هامة ؛ ذلك أن الرفرف الذى نزل من أعلى وحمل محمدا الى الحضرة الإلهية له ما يقابله أيضا عند دانتى فى « الإطار الدائرى الإكليلى » الذى رآه دانتى فى السماء الثامنة نازلا من سماء السماوات ، والذى عاد اليها يحف بمريم العذراء(٣) ·

ثم أن الحلول التى زودت بها بياتريتشى دانتى ، أو تلك التى زوده بها بعض أهل الجنة فيما يتعلق بمشكلات اللاهوت والفلسفة ، انما لها ما يقابلها فى رحلة محمد الى السماء · ذلك أن جبريل هو الذى فسر لمحمد الأشياء الغامضة التى رآها ، وان كان مالك حارس النار أو رضوان حارس الجنة قد فسرا له بعض هذه الغوامض أحيانا · وهنا ينبغى أن يلفت نظرنا على الأخص ذلك التشابه بين أحداث المرحلة الأخيرة من مراحل العروج ، عند ما شرح جبريل لمحمد فى أعلى السماوات من يكون الملائكة الذين يسكنون فى كل سماء ، وبين الحديث الطويل الذى ألقته بياتريتشى فى السماء الثامنة حول طبيعة ووجود حشود الملائكة المختلفة · كذلك نرى أن كلا من بياتريتشى وجبريل قد خصصا للملائكة الكروبيم مكانا فى أقرب الدوائر الى الله ، وجعلا الدوائر الأخرى لمراتب من الملائكة أقل درجة من الكروبيم(٤) · حقا ان علم الملائكة المسيحى ، المستمد من اللاهوت اليهودى ومن غيبيات مدرسة الإسكندرية ، انما يختلف عن علم الملائكة الإسلامى من عدة وجوه · ولكن اذا نظرنا اليوما من وجهة نظر أدبية ، وجدنا أن هذا الاختلاف لا يؤثر فى التشابه فى سياق الأحداث والوقائع ·

---

(١) الفردوس ١٠ / ٥٢ ـ ٥٤ ، ٢ / ٢٩ ـ ٣٠ ·

(٢) الفردوس ٣١ / ٥٨ ـ ٦٠ ·

(٣) الفردوس ٢٣ / ٩٤ وما بعده ·

(٤) الفردوس ٢٨ / ٩٤ ، ٩٨ ـ ١٠١ ، ١١٨ ـ ١٢٠ ·

١٨ ـ نوجه النظر الآن الى الملائكة الذين رآهم دانتى ، وأولهم ذلك النسر الهائل الذى يتكون من آلاف من الملائكة ، والذى رآه الشاعر فى سماء المشترى(١) · ولقد أعجب جميع دارسى دانتى بجمال النسر وبأصالة فكرته · ومع ذلك فانه يحق لنا على التأكيد أن نقترح هنا أن الصورة مستوحاة من الديك الذى رآه محمد فى أول مراحل صعوده · والحق أن هناك تشابها كبيرا بين التصورين · فنسر دانتى عبارة عن مخلوق من أرواح كثيرة له وجوه وأجنحة ، هى أرواح السعداء والصالحين التى تشع نورا باهرا ، والتى ترتل سويا ، وتدعو بنى آدم أن يعيشوا حياة فاضلة · ثم ان هذا النسر يخفق بجناحيه اذا رتل ثم يضمهما اذا سكت(٢) ·

وكذلك الديك الذى جاء ذكره فى القصة الإسلامية ، يخفق بجناحيه اذا سبح تسبيحاته الدينية وصاح ليقوم القائمون الى الصلاة ، ثم يضمهما ويسكت · والحقيقة أن الرواية الثالثة من هذه المجموعة التى جاء ذكر الديك فيها ، لم تشر الى الطبيعة الروحانية لهذا الديك ، غير أن روايات أخرى وأحاديث صحيحة أشارت صراحة الى انه ملك · وفضلا عن هذا تكرر فى الروايات الإسلامية كثيرا ذكر رؤية النبى الملائكة ضخام الحجم جدا ، يتكون كل منهم من عدد هائل من الوجوه والأجنحة ، تتألق كلها نورا ساطعا ، وتسبح بألسنتها التى لا تعد ولا تحصى بحمد الله ، واذن فلا غرابة أن يتناول شاعر فنان بارع مثل دانتى هاتين الصورتين ويدمجهما معا ليخرج فى النهاية بفكرة نسره الجميل ·

أما الملائكة ذووا الأجنحة الذهبية الذين يطيرون فوق وردة الطوباويين التى ترمز الى دار النعيم(٣) فى الفردوس ، فيلوح أيضا بأنها نقلت عن رؤية محمد فى السماء الأولى للملك الذى نصفه ثلج ونصفه نار · ذلك أن هؤلاء الملائكة الذين صورهم دانتى « لهم وجوه مشتعلة · · · وبقية أجسامهم أبيض من الثلج » ·

١٩ ـ ثم ان التشابه لم ينته عند هذا الحد ، بل انه امتد أيضا الى الخطوط العامة لفقرات بأكملها · تدللب بياتريتشى من دانتى فى سماء النجوم الثوابت أن ينظر

---

(١) الفردوس ١٨ .. ٢٠ ·

(٢) [illegible] ١٠٣ ـ ١٠٨ ، ١٩ / ١ ـ ٦ ، ٣٤ ـ ٣٥ ، ٢٧ ـ ٣٩ ، ٩٥ ـ ٩٧ ، [illegible] ٩١ ـ ٩٢ ، ١٦ / ١٠ ـ ١٢ ، ٢٠ ـ ١١ ·

(٣) [illegible] ١٠/ [illegible]

الى أسفل ليرى كم من العوالم يوجد تحت قدميه ، حتى تتأكد أن بصره قد زود بقوة خارقة • وعندئذ يصيح دانتى قائلا : « نظرت الى الكون كله والى الكواكب السبع ورأيت الأرض وضحكت من منظرها المؤسف الحزين » ، « لقد ظهرت الكواكب السبع جميعا أمام ناظرى وتكشفت ، فكم هى ضخمة وسريعة ، وأى مسافات شاسعة تفصل بينها » •

يتبين اذن على التأكيد أن الخطوط العامة لهذه الفقرة ليست أكثر من نقل صريح وادماج بارع لواقعتين وردتا فى الرواية الثالثة : أولا عند ما وصل محمد الى العرش ونظر اليه فهان فى نظره الكون كله ، وبدت له السماوات والأرضون والجنات والكون كله الى جانب العرش كحبة خردل فى أرض فلاة ، وثانيا عندما حلت فيه تلك القوة الروحية الكاشفة عندما تحققت له رؤية الله ، فسأله جبريل أن ينظر الى أسفل ليجرب قوة ابصاره الخارقة للطبيعة ، فنظر فرأى بسهولة جميع الأشياء المدهشة الباهرة التى كادت تعميه من قبل ، ثم رأى الكون كله تحت قدميه بسماواته تتلألأ فى أكمل بهائها ، ثم رأى سطح الأرض •

٢٠ ـ نتقدم الآن ببرهان أخير لا يدحض ، نستقيه من آخر الأحداث التى توجت الفردوس ، عند ما تجلى الله لدانتى ورأى الماهية الإلهية فى كامل بهائها • ولا شك فى أن دراستنا لهذه الرؤية ستكون مفيدة جدا • فالماهية الإلهية عند دانتى عبارة عن مركز مضىء يتألف من تسع دوائر متحدة المركز من الملائكة الذين لا يكفون عن الدوران حول هذا المركز ، وهم ينشدون : « أوصنّا للرب » • وتتكون كل دائرة من حشد لا يعد ولا يحصى من الملائكة(١) : يشغل أول دائرتين الملائكة الكروبيم والسيرافيم • لا يطيق دانتى النظر الى هذا النور ، غير أنه سرعان ما يزوّد بقوة ابصار تمكنه من النظر والرؤية • ثم انه يعترف بعجزه عن وصف هذه الرؤية ، ذلك أن التذاذه فى هذه اللحظة أنساه كل شىء • وفضلا عن ذلك فلو افترض أنه استطاع أن يتذكر ما رأى ، لاستحال على بشر فان أن يصف هذه الرؤية • أما محاولة دانتى وصف الثالوث الأقدس والتجسد فلا محل لذكرها هنا • وأما وصفه للرؤية فينحصر فى التأمل الروحى الثابت المتدرج ، ونشوة الانبهات ، وذلك الاشراق الذى حل بذاته من نور الرب(٢) •

---

(١) الفردوس ٢٨ / ١٦ ـ ١٨ ، ٢٥ ـ ٣٤ ، ٨٩ ـ ٩٣ ، ٣٠ / ١٠٠ ـ ١٠٥ •

(٢) الفردوس ٣٣ / ٥٧ ـ ٦٣ ، ٩٣ ـ ٩٤ ، ٩٧ ـ ٩٩ •

حاول دارسوا دانتى طويلا وبلا جدوى البحث عن أصل هـــذا التجلى المدهش الذى وصفه دانتى ؛ ذلك أن أيا من القصــص الدينية التى درسها كبــار العلمـــاء والدارسين بعناية تامة ، مثل لا بيتى ، ودانكونا ، وأوزانام ، وجراف ، لم تزودهم بأدنى تشابه لهذا التصــور الهندسى لدوائر الملائــكة المتحدة المركز ، والتى لا تكف عن الدوران حول نور الرب • وعلى الرغم من ذلك فان التشابه الــكبير اللافت للنظــر بين قصيدة دانتى والقصـــة الإسلامية يثبت اثباتا قاطعا قوة البرهان الذى نستند اليه • جاء فى القصـــة الإســـلامية أن صفين من الملائكة يحيطان بالعرش ، وأن الصف الأول منهما من الكروبيم • وجاء فيها أيضا أن هؤلاء الملائكة يسبحون بحمد الله ويشعون نورا باهرا ، وأن عـــدد دوائر الملائكة تسعا أيضـــا • وهى متحدة المركز ، ولا تكف عن الدوران حول العرش • وأما الله فقد وصفه كل من محمد ودانتى بأنه مركز نور لا يمكن وصفه • وفضـــلا عن هذا يصف كل من البطلين رؤية الله مرتين — فقـــد تبين محمـــد قبل أن يبدأ مرحلته الأخيرة ، وكان جبريل لا يزال فى صحبته العرش الإلهى ، ثم رآه مرة ثانية بعد أن تركه جبريل • وكذلك رأى دانتى التجلى الإلهى من الســـماء التاسعة وهو لا يزال بصحبة بياتريتشى ، ثم رآه مرة ثانية فى آخر مراحل الرحلة • ثم ان الآثار النفسية التى خلّفتها الرؤية فى نفس كل مذهما كانت متشابهة • انبهر محمد بالنور وخشى أن" يفقد بصره ، ثم منحه الله قدرة على الرؤية حتى يطيق النظر الى النور الإلهى ، وهو أيضا لم يستطع أن يصف العرش ولا أن يتذكر الا أنه انبهر بجمال الرب وأشرقت ذاته بنوره الأقدس •

ثم ان هـــذه ليست كل المشابهات ؛ ذلك أن القصتين تشتركان فى كثير من التفاصيل الصغيرة ، غير أن الملامح الأساسية للتشابه التى أوردناها فيما سبق ربما تكفى فعلا لتزودنا ببرهان على الصلة بين القصتين •

٤

المجموعة الثالثة — تداخل قصتى الإسراء والمعراج

١ — تكون قصص هذه المجموعة توليفة حقيقية من قصص المجموعتين السابقتين ، ولا تبدو احداثها ان" تكون تكرارا لمــا سبق • وعلى الرغم من اننـــا نعتبر قصـــص هذه المجموعة غير ذات أهمية كبيرة ، فأنها على أية حال تعبر عن مرحـــلة متميزة فى تطور القصة الاصلية • نلاحظ أن قصتى الإسراء والمعراج كانتا منفصـــلتين فى

المجموعتين السابقتين ، غير أنهما هنا تداخلتا وانصهرتا فى قصة واحدة • ولذلك فاننا سوف نكتفى بعرض رواية واحدة من روايات هذه المجموعة ، تكفى لتوضيح نموذج من قصص القرون الوسطى المبكرة غير المسيحية ، والتى تروى ، كما فعل دانتى ، فى أحداث متسلسلة ، رحلة الى النار والمطهر والفردوس •

وقد تكون الرواية التى سنعرضها فيما يأتى أقدم روايات هذه المجموعة ، ذلك أنها وردت فى تفسير الطبرى الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى • ولنلخصها فيما يأتى :

الرواية الوحيدة من المجموعة الثالثة

٢ ــ يوقظ جبريل ــ الذى يأتى منفردا أو معه بعض الملائكة ــ محمدا فجأة وهو نائم فى بيته ، أو فى المسجد الحرام • ثم يطهره ويصحبه فى رحلة أرضية الى القدس ، ومن ثم يصعد به الى السماء • وتجرى أحداث هذه الرواية كما يأتى : يقابل محمد فى بداية رحلته امرأة ناشرة شعرها ، عليها من كل زينة خلقها الله من الحلل والجواهر والدر والياقوت ، قد أشرق حسنها وجمالها ، تناديه أن يقف حتى تكلمه ، فلم يقف ولم يلتفت اليها • ويفسر جبريل له ما تعنى هذه المرأة بقوله : انه لو أجابها لاختارت أمته الدنيا على الآخرة • بعد ذلك ، أو قبل ذلك فى بعض الروايات ، صاح به صائحان : واحد عن يمينه وواحد عن شماله أن يقف ، فلم يقف • فأخبره جبريل أن الصائح الأول هو داعى النصارى ، ولو أجابه لتنصرت أمته من بعده ، وأن الصائح الثانى هو داعى اليهود ، ولو أجابه لتهودت أمته من بعده • ثم يقابل عفريتا يحاول هو الآخر أن يغريه عن طريقه ، ولكنه لا يلتفت اليه عملا بنصيحة جبريل • وأخيرا وبعد أن يتخلص من جميع الإغراءات ، يصل الى حيث يرحب به ابراهيم وموسى وعيسى •

أما الرؤى التى رآها فيما بعد ، فتعبر عن قصص رمزية أو تصف ضروب العذاب التى رآها فى النار التى يشبه بعضها ضروب العذاب التى وردت فى الروايات السابقة ، والتى يختلف بعضها عنها • رأى محمد أولا قوما يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان • ويخبره جبريل أن هؤلاء هم المجاهدون فى سبيل الله الذين يضاعف لهم الله الحسنة بسبعمائة ضعف • بعد ذلك مر بأولئك الذين ترضخ رؤوسهم بالحجارة كما فى الرواية الثانية من المجموعة الأولى • ثم رأى قوما على أقبالهم وأدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم فى القاع ، يأكلون

الضريع والزّقوم وحجارة جهنم ورصفها اليحموم ، وهم الذين لا يؤدون صدقات أموالهم • ثم رأى قوما بين أيديهم لحم نضيج فى قدور ، وآخر خبيث نىء ، يدور عليهم هذا الخبيث دون هذا النيىء ، هؤلاء هم الزناة من الرجال والنساء الذين يتركون ما أحل الله لهم ويطلبون فعل المحرم • ثم مر بخشبة على الطريق ، لا يمر بها شيء الا مزقته ، وترمز الى الذين يقعدون على الطريق فيقطعونه ويصدون عن سبيل الله • ثم مر برجل قد جمع حزمة حطب لا يستطيع حملها وهو لا يزال يضيف اليها ، ويرمز الى الرجل عنده الأمانات لا يقدر عليها وهو عليها يستزيد • ثم مر بقوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت الى خلق جديد ، وهؤلاء هم خطباء السوء والفتنة يقولون مالا يفعلون ، ثم مر على جحر يخرج منه ثور عظيم ، فاذا أراد أن يرجع من حيث خرج لا يستطيع ، ويرمز الى الشخص الذى يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها • ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وفيه ريح المسك ، وسمع صوتا ، أخبره جبريل أنه صوت الجنة تقول لله آتنى ما وعدتنى به ، فقال الله : لك كل مسلم ومسلمة • ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة ، فقال ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يارب آتنى ما وعدتنى ، قال لله : لك كل مشرك ومشركة •

بعد ذلك يصل الى بيت المقدس حيث تنتهى رحلته الأرضية • وهناك يصلى والملائكة تحف به ، بالأنبياء الذين يثنون عليه بأطيب الثناء ، منهم ابراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى • ثم يأخذه عطش شديد فيجيئه جبريل باناء من خمر واناء من لبن واناء من ماء ، فيشرب من اللبن والماء فيثنى جبريل على اختياره كما جاء فى الرواية الأولى من المجموعة الثانية • وأما قصة العروج الى السماء فتكاد تكون مطابقة تماما لروايات المجموعة الثانية • غير أننا نلاحظ أنه عند ما يصل الى السماء السابعة يحدث تغير بسيط فى أحداث الفقرة التى أدخلت على هذه الرواية والتى استقاها المؤلف من الرواية الثانية من المجموعة الأولى • رأى ابراهيم وهو جالس على باب الجنّة بين قوم جلوس بيض الوجوه ، وقوم فى ألوانهم شىء ، ورأى الذين فى ألوانهم شيء يقومون فيدخلون نهرا فيغتسلون فيه ثم يخرجون ، وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم يدخلون نهرا آخر فيغتسلون فيه ثم يخرجون وقد خلص من ألوانهم شيء ، ثم يدخلون نهرا ثالثا فيغتسلون فيه فتخلص ألوانهم وتصير مثل ألوان أصحابهم ، ثم يجلسون الى أصحابهم • وعندئذ يخبره جبريل أن هؤلاء البيض

الوجوه قوم لم يلبسوا ايمـانهم بظلم ، وأما الذين كان فى الوانهم شىء فقوم خلطوا عمـلا صالحا وآخر سيئا فتابوا فتـاب الله عليهم • أما هـذه الأنهار فأولها رحمة الله ، والثـانى نعمة الله ، والثالث سقاهم منـه ربهم شرابا طهورا • ثم يرى فى المرحلة الأخيرة ، كمـا فى الرواية الأولى من المجموعة الثانية سـدرة المنتهى ، وتختم الرحلة بحديث بين الله ومحمد •

٣ ـ لا تهمنا هـذه الرواية على أية حال كمـا نوهنـا من قبل من حيث التشابه والمقارنة ، بقـدر ما تهمنا من حيث انهـا عبارة عن انصهار وتداخل روايات المجموعتين الأولى والثـانية • وبمـا أن تاريخ تأليف هـذه الرواية ليس أقـدم من التاريخ الذى رويت فيـه نتف من هنـا وهناك من قصـتى الإسراء والمعراج ، اذن يلوح لنـا بأنّ رواة الأحاديث المسـلمين قد عمدوا الى صهر القصص المختلفة وتضمينها رواية واحـدة منـذ عصر مبكر • وهـذا المنهج الذى اتبعوه لا شـك راجع الى اعتبارات فنية ، أكثر من رجوعه الى اعتبـارات لاهوتيـة • وأن الغرض الذى رموا اليـه اتجـه الى ارضـاء نزعات الفضول عنـد المؤمنين بتقديمهم لهم رواية واحدة ، لا الى تبرير وجود روايات متعارضة ونتف من هنـا وهناك لقصـة واحـدة • ولقـد تضمن هـذا الهدف الأخير ضرورة قبولهم جميع الروايات المختلفة على أنهـا صحيحة ولهـا سند يوثق به • وهـذا أمر أثر كثيرا فى مفسرى العصور التالية ، ممـا سنعرض له فيمـا بعد • أما هـذه الرواية فخالية تماما من هـذا الأثر ، ذلك أن الطبرى الذى وصلتنا عنه ، وهو من كبار علماء الدين ، قـد سجل هـذه الرواية باعتبارها مجرد أقوال القصـاصين ، ولم يذكر أى شىء عن صحتها أو سندها •

٤ ـ لا تشـتمل هـذه الرواية على جديد غـير بعض الأحداث والملامح الوصفية التى وردت فى رحلة العروج • أما الجزء الأول من الرحلة ، أى قصـة الإسراء ، فليس أكثر من ترديد لمجمـوعة أخرى من الروايات • ذلك أن الأحـداث الجـديدة التى وردت فيهـا ، هى على وجـه الدقة تلك الرؤى التى تتعلق بالحقـائق ، ولـكنها ترمز الى فـكرات مجردة أو الى فضـائل أو رذائل • هنـا اذن نقع على عنصر جـديد ، أى القصـة الرمزية الأخلاقيـة ، وهى من الملامح الواضـحة فى قصـيدة دانتى • أوضح فوسلر(١) كيف نجح دانتى فى ادماج صيغتى أسلوب القرون الوسطى الخيـال غير الناضجتين ، أى الصيغة الدينيـة أو الشبيهة بأسلوب سـفر الرؤيا ، والصيغة الدنيوية

(١) Vossler II, 216

أو الرمزية • وامتدح أصالة دانتى وابتكاريته ، لأن قصصه الرمزية كما لاحظ عن حق ، ليست مستقاة من أعمال كابلا أو برودنتيوس أو آلان الليلى • اذن فان استعمال الأسلوب الرمزى بكثرة فى هذه الرواية الإسلامية التى نحن بصددها أمر على جانب من الأهمية • ومما لا شك فيه أننا نستطيع أن نعتبر بعض الرؤى التى وردت فيها ، نماذج لمناظر فى الكوميديا الإلهية • غير أن مجرد ورودها بهذا العدد فى قصة اسلامية تبين أنها قد أثرت من نواح أخرى تأثيرا كبيرا فى دانتى ، أمر من الأهمية بمكان • ومن ثمة نستطيع أن نفترض فرضا معقولا هو أن الأصل الذى استقى منه دانتى قصصا رمزية أخرى ضمنها قصيدته ، والذى لا يرى فوسلر أنه مستمد من السوابق المسيحية والكلاسيكية ، يمكن نسبته الى الأدب الإسلامى •

٥ ـ سوف نقوم بدراسة منهجية نبحث فيها هذه النقطة فيما بعد • وأما الآن فنكتفى بأن نستشهد بمثال نموذجى لتكييف دانتى للرموز الإسلامية التى أدخلها فى كوميديته الإلهية • ان التشابه بين المرأة العجوز التى ظهرت لمحمد عند بداية رحلته باعتبارها رمزا للدنيا وما فيها من اغراءات ، وذلك المنظر الذى رآه دانتى عندما وصل الى الدائرة الخامسة من المطهر واضح جدا • فالمرأة العجوز التى رآها محمد ، والتى تخفى تحت الحلل الباهرة والجواهر الثمينة التى تتزين بها ، آثار الزمن فى حسنها ، قد حاولت أن تنحيه عن الطريق القويم بالتملق وحركات الإغراء ، فلا يستجيب لها ، ويفسر له جبريل فيما بعد المغزى الكامن فى هذه الرؤية ، بقوله ان هذه المرأة انما ترمز الى الدنيا ، ولو أنه أجابها لاختارت أمته الدنيا وما فيها من اغراءات على نعيم الآخرة •

أما دانتى فانه حلم وهو يجتاز الدائرة الرابعة من المطهر(١) ، بامرأة كسيحة برقانه تتمتم وتنظر اليه شزرا • وأنها كانت تخفى عيوبها لدرجة أن دانتى لم يقاوم اغراءها الا بصعوبة • وعندئذ كشف فرجيل له عن البشاعة المختفية تحت ملابسها ، ولكنه لم يفسر له معنى هذه الرؤيا الا فيما بعد • فأخبره أن المرأة هى الساحرة الأبدية التى وجدت على الأرض منذ أن وجد الإنسان ، وهى تدمر الرجال باغراءاتها ، على الرغم من أن كل انسان حر فى أن يتجنبها كما فعل دانتى •

---

(١) المطهر ١٩ / ٧ ـ ٣٦ ، ٥٥ ـ ٦٠ •

لا شك هنا اذن فى أن الخطوط العامة لكل من الرؤيتين متطابقة ، على الرغم من أن دانتى أدخل فى التفاصيل شيئا من الأفكار الكلاسيكية(١) ، التى لم ترد فى القصة الإسلامية • والواقع أن جميع مفسرى الكوميديا الإلهية يتفقون على أن هذه الرؤية رمز لسعادة الدنيا الزائفة (٢) تماما كما فسر جبريل لمحمد رؤيته لتلك المرأة باعتبارها رمزا لنعائم الدنيا الزائلة • ولا مرية اذن فى أن التطابق له مغزاه •

٦ ـ وأخيرا ، فان التشابه بين الملامح الوصفية لجنة ابراهيم فى هذه الرواية والمطهر فى الكوميديا الإلهية أمر يلفت النظر • تطهر دانتى قبل أن يدخل الجنة ثلاث مرات فى ثلاثة أنهار مختلفة • أولا بعد أن غادر الجحيم وغسل له فرجيل بناء على نصيحة كاتو البقع التى كانت على وجهه اثر زيارته لدركات الجحيم ، فعاد وجهه أبيض نضرا كما كان(٣) • ومرة ثانية وثالثة قبل أن يغادر المطهر عندما غمسه ماتيلدا وستاتيوس فى مياه الليث والإيونى ، اللذين تمحو مياههما من العقل كل ذكريات الخطيئة ، وتجدد قوة الروح الخيرة الخارقة للطبيعة ، اعدادا لها للتمتع بنعائم الجنة(٤) •

يظهر جليا أن فكرة هذا التطهير الثلاثى مأخوذة رأسا من ذلك المنظر فى الرواية الإسلامية حيث تغسل أرواح التائبين فى الأنهار الثلاثة الموجودة فى جنة ابراهيم • أما الآثار ففى كلتا القصتين مادية ومعنوية • ذلك أن اللون الطبيعى قد عاد الى أجسادهم ، وتطهرت أرواحهم من الآثام بالتوبة ، ومن ثمة أعدوا بنعمة من ربهم لدخول الجنة •

٥

تعليقات المفسرين على القصة

١ ـ لا شك أننا لو تتبعنا تطور هذه القصة خطوة خطوة ، لكان ذلك عملا خارجا عن اطار بحثنا ، وحتى لو كان تتبعنا هذا أمرا ممكنا فى حدود معرفتنا

---

(١) أى قصة يوليس والصيرانات الخرافية •

(٢) og. Fratioelli '310' n. 7. Landino, folio 269 scartazzini 536 and 539

(٣) المطهر ١ / ٩٤ ـ ٩٩ ، ١٢٤ ـ ١٢٩ •

(٤) المطهر ٣١ / ١٠٠ ـ ١٠٣ ، ٣٣ / ١٢٧ ـ ١٢٩ ، ١٤٢ ـ ١٤٥ •

المحـدودة بتسلسل الروايات والقصص التى ألفت فى هـذا الفرع من الأدب الإسلامى ؛ وعلى أية حال فان الفـائدة المرجوة لبحثنا من مثـل هـذا العمل ـ لا مشاحة ـ قليلة • والأدب الدينى على العموم أدب محافظ فى المقـام الأول ، والأدب الإسلامى الدينى من أكثر الآداب الدينية محافظة • اتخـذت قصـة المعراج فى خلال قرنين من الزمان صورا متعددة ، وزودت كل رواية منهـا بأسانيد تضفى عليها صـفة الصحة والشرعية ، حتى لقـد استغل البعض قرابات النبى لتحقيق غرضهم •

والحق أن جماهير المؤمنين لم تجـادل فى صـحة هـذه الروايات والأسانيد • ومن ثمـة حدث أن تبلورت القصة نهائيا فى صورة واحدة أخيرة ، انصهرت فيهـا الروايات الرئيسية التى اعتبرت صحيحة •

ولقـد قام بهـذا العمـل الفقهاء والمفسرون فى محاولة للموافقـة بين عـدد من القصص المتناقضة • أما أقـدم روايات القصـة فى صورتها الجديدة فرواية المجموعة الثالثة التى سـبق عرضها ، ومن ثم اعتمدت هـذه الرواية وظلت نهائية • أما جميع الروايات التى ظهرت بعـد ذلك فـكانت اما تفسيرات لهـا ، واما تـكييفات رمزية صوفية ، واما تقليدات أدبية • وممـا لا ريب فيـه أن مادة أدبية غزيرة كتلك التى بثتهـا فى أوربا قصـيدة دانتى بعـد ذلك بقرون قلائل ، قـد نمت وترعرعت حول هـذه القصـة • وفيما يلى عرض ملخص للمجموعات الثلاث التى ذكرناها آنفا نستبين منه كيف تناول الفقهـاء ورجـال الأدب هـذه القصة بعد أن تبلورت فى صـورتها النهائية ، وتوسعوا فى تفاصيل المشاهد التى رآها النبى أثناء رحلته السماوية •

سادت تفسيرات الفقهـاء على العموم ورجحت على جميع الروايات الأخـرى • ولا غرو فان جميع كتب تفسير القرآن قد تناولت الآية الأولى من سورة الإسراء بالشرح والتفسير • ولقد أمعن هؤلاء المفسرون فى النظـر فى مختلف الأحاديث التى روت هذه القصة وحققوها بناء على البينات والأسـانيد التى ذكرهـا الفقهـاء الموثوق بهم • كذلك خصصت كتب الأحاديث الصحيحة صفحات منهـا لهذه القصـة فى صـورها المختلفة • ويوجد عدد من الـكتب الشـبيهة فى تاريخ الإسلام وفى سيرة محمـد والأنبيـاء خصص فى كل منها فصل عن قصـة المعراج التى يعتبرها جميع المسلمين حقيقة تاريخية(١) •

---

(١) جمع فكتور شوفان Victor Chauvin قائمة كاملة بالكتب التى ألفت فى سيرة محمـد فى كتابه Bibliographie des Ouvrages Arabes ous Relatifs aux Arabes Ix وإذا شئنا ما يتعلق بالمعراج خاصة فانظر نفس المرجع الجزء العاشر ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ •

أما أكثر التفسيرات أهمية فتلك التى كتبها الفقهاء الذين جمعوا مادتهم من الأعمال التى سبق ذكرها • ولقد ظهر أحد هذه المباحث فى عصر مبكر يرجع الى القرن العاشر الميلادى ، كتبه أبو الليث السمرقندى ، ذكر فيه بخاصة الحديث الذى دار بين الله ومحمد(١) • والواقع أن هذا النوع من الأدب لم يبلغ ذورته قبل القرن الثانى عشر • وعلى أية حال لم تصلنا مؤلفات فى هذا الموضوع يرجع تاريخها الى عصر أسبق بمثل تلك الغزارة (٢) •

اهتم معظم مؤلفى هذه الروايات تقريبا اهتماما أساسيا بتنسيق الروايات المختلفة لقصتى الإسراء والمعراج ، ووضعوا حلا لهذه المشكلة اما بتجميع الروايات المختلفة كلها فى رواية واحدة ، واما بافتراض أن النبى قد صعد الى السماء عدة مرات • ثم أثاروا مسائل أخرى ، مثل التاريخ الذى حدث فيه العروج الى السماء ، أو المكان الذى بدأ منه • والواقع أن هؤلاء المؤلفين قد تمادوا فى تفسيراتهم وأدخلوا على القصة فيما أدخلوا أشياء كثيرة ، منها المعنى الصوفى الذى ينطوى عليه تطهير النبى قبل التعريج به الى السماء ، وتفسيراتهم لشكل بناء المنازل الموجودة فوق سماوات النظام الفلكى أو تتابعها ، وآرائهم فى رؤية الله • وتكشف لنا هذه الكتابات على أية حال وفى الحدود التى تعنينا فيها المقارنة ، عن تطابق واحد غريب حقا ، هو أن لكوميدية الإسلام الإلهية تماما كما لكوميدية دانتى ، حشدا غفيرا من المعجبين المتحمسين الذين درسوها دراسة عميقة من حيث جميع مراحلها ووجوهها • ذلك أن هؤلاء المعجبين قد بحثوا فى جميع المعانى التى تحتملها كل كلمة وفسروها على جميع وجوهها ، حتى لقد اهتموا بأتفه التفاصيل ، ودققوا تدقيقا عميقا ، يدفعهم الى ذلك الورع الدينى أكثر مما تدفعهم البواعث الأدبية واللغوية •

٢ — هذا التطابق أمر طبيعى ولا يحمل فى طياته أى دليل على التشابة • أما أن هذه التفسيرات تكمل النص التقليدى للقصة فأمر أكثر أهمية • ذلك أن مناظر جديدة وأحداث كثيرة قد ظهرت فى الرواية التى انصهرت فيها الروايات السابقة كما ذكرنا من قبل ، لا يمكننا من حيث سند صحتها وتاريخ تأليفها ، الا أن ننسبها الى تلك

---

(١) Brocklmann 1,196

(٢) تبين المؤلفات التى ذكرها شوفان Chauvin ان احسن المؤلفات فى قصة المعراج واحد من القرن العاشر ، وآخر من القرن الثالث عشر ، واثنان من القرن الرابع عشر ، وواحد من القرن الخامس عشر ، وأربعة من القرن السادس عشر ، واثنان من القرن السابع عشر ، واربعةمن القرن الثامن عشر ، وواحد من القرن التاسع عشر • وهنا حدث كما يحدث فى جميع آداب الدنيا ، اذ تنحى الأعمال الجديدة الأعمال القديمة ، فاصبحت قصة المعراج للغيطى التى ألفت فى القرن السادس عشر هى القصة الشائعة فى القاهرة ، والتي نطبع ببعض الأحيان مع حاشية الدردير •

الروايات التى ذكرناها فى المجموعات الثلاث آنفــا ، أو الى غيرها من الروايات المعاصرة لهــا(١) • وسوف لا نذكر هنــا غير الأحداث الجديدة التى تتشابه بوضوح مع مناظر من كوميدية دانتى(٢) •

٣ ــ بينمــا محمد على البراق فى بداية رحلة الإسراء ــ وقبــل أن يزور مملــكة العذاب ــ ســـد عليــه الطريق عفريت من الجن بشعلة من نار • فلما هاجمه العفريت وطارده ، علمــه جبريل كلمات اذا قالهن طفئت شــعلة العفريت وخر لفيــه ، ففعــل ذلك ونجا (٣) •

وهنــا نقع على منظر مشــابه تمــاما عنــد دانتى ، ذلك أن دانتى وفرجيل عندما وصلا الى الخندق الخامس من الدائرة الثامنة للجحيم ، هاجمهما عــدد من العفــاريت مسلحين برماح ، يقودهم شيطان أسمر اللون شديد البأس • وعندئذ عمل فرجيل على تهدئة مخاوف دانتى وتلا أمرا مقتضــبا ، فتــلاشى غضب الشــيطان وسقط ســلاحه عند قدميه (٤) •

٤ ــ أدخل بعض المؤلفين أحــداثا جديدة على واقعــة العروج ذاتهــا • أول هــذه الأحــداث وأهمها ذلك الســلم ، أى المعراج الممتــد من المسجد الأقصى فى القدس الى السماء • وعليه تعرج أرواح بنى آدم الى السماء ، له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب ، وهو من جنــة الفردوس منضــد باللؤلؤ ، عن يمينــه ملائكة وعن يساره ملائــكة • وهــذا هو المعراج الذى صــعد عليه محمــد وجبريل حتى انتهيــا الى باب من أبواب سماء الدنيا فى طرفة عين (٥) •

نقع هنا أيضا على تشابه كبير بين هذا المنظر والمنظر المشابه الذى جاء فى النشيدين الواحــد والثانى والعشرين من الفردوس • يرى دانتى فى ســماء زحل سلما ذهبيا يؤدى

---

(١) عمد مؤلفو هــذه الأعمال عن طريق الرجوع الى رواة الحديث القــدماء وأصحاب محمد ، الى ان يحققوا صحة الأحداث التى ذكروها • الحق مؤلف اول رواية ذكرت فى Ms. 105 Gayangos Collection بروايته ذيلا وضع فيه قائمة كاملة بالثمانية وثلاثين صحابيا الذين يفترض أنهم رووا عن النبى قصة المعراج كلها او بعضها (fol, g2, recto).

(٢) اخــذنا الأحــداث التى ذكرناها من المباحث المطبوعة وغير المطبوعة التى ذكرت آنفــا •

(٣) الغيطى ٤١ والدردير ٧ ؛ Ms. 105, Gayangos Collection fol. 120

(٤) الجحيم ٢١/٢٢ ــ ٣٣ ، ٥٨ ــ ١٠٥ •

(٥) الغيطى ٤٤ ، الدردير ١٤ ، Ms 105 Gayangos Collection, fol. 123 and 232 v°

الى آخر المنــازل السماوية ، تنزل على درجاته أرواح المؤمنين والصالحين • وما أن طلبت مقــه بياتريتشى أن يصعد عليه ، حتى وجد نفسه عنــد قمته فى وقت أقل ممــا يستغرقه الإنسان ليسحب يده من النار(١) •

٥ ــ نادرا ما يظهر الأنبياء الذين يسكنون فى السماوات التى زارها محمد منفردين• كمــا فى الروايات السابقة ، وانمــا يظهر كل منهم وقد التف من حوله جماعة من المؤمنين الذين كانوا حواريين له فى الأرض • فيرى هارون فى السماء الخامسة وهو يروى قصصا من الــكتاب المقدس لجماعة من كفار اليهود • ويقــابل حنوكا أو موسى أو ابراهيم ويناقش معهم بعض المسائل اللاهوتية(٢) • كذلك يقابل النبى غير هؤلاء عــددا من شخصيات الــكتاب المقدس أو الإسلام • ويرى فى الســماء الخامسة مريم أم موسى فى صحبة مريم العــذراء(٣) • ويرى فى السماء السابعة جماعتين من المسلمين ، ترتدى احداهما ملابس بيضــاء والأخرى رمادية(٤) • ويظهر له عنــد ما يرى نور العرش من فوقه ، رجل لا يعرفه ، وعندئذ يبين له جبريل أن هــذا الشخص عبــارة عن رمز لضروب النعم التى تنتظر أولئك الذين كرسوا أنفسهم للصلاة والتأملات الروحية(٥) • ويرى النبى حزقيــال بين الســماء والأرض ، وقــد أحاطت به هالة من النور وهو منهمك فى صلاته(٦) • ثم يرى بلالا أول مؤذن فى الإسلام(٧) •

ويرى واحــدا من أحب أصحابه اليــه هو أبو بكر ، الذى يقوده فى آخر مراحل رحلة العودة بعــد أن يتركه جبريل(٨) • وأخيرا يرى جارية من جوارى الجنة فيسالها لمن أنت ؟ فتقول : لزيد بن حارثة(٩) •

تقــدم لنــا هــذه المجموعة من الروايات ، بمــا تشتمل عليــه من وفرة الأحداث وكثرة الشــخصيات الثــانوية ، تصميما للقصة الإسلامية يختلف تمــاما عن تصميمات

(١) الفردوس ٢١ / ٢٨ ــ ٣٣ ، ١٣٦ ــ ٧ ، ٢٢ / ٦٨ ــ ٦٩ ، ١٠٠ ــ ١١١ •
(٢) الغدطى ٤٤ وما بعدها ، والدردير ١٤ وما بعدها •
(٣) Ms 105 Gayangos Coll. fol. 124 v° line 7
(٤) المرجع السابق fol. 126 v°
(٥) المرجع السابق fol. 127 v°
(٦) المرجع السابق fol. 232 v°
(٧) كنز العمال ٦ / ٢٩٣ نمرة ٥٠٧٩ •
(٨) Ms. 64 gayangos Coll. fol. 115 v°
(٩) تفسير الطبرى ١٥/١٢ •

الروايات السابقة ، ولا يختلف كثيرا عن تصميم الكوميديا الإلهية • فقد تصور دانتى أيضا منازل السماوات مليئة بالصالحين والمنعم عليهم ، الذين يوزعون على مختلف السماوات تبعا لفضائلهم أو للمهن التى كانوا يتعاطونها • ثم ان كل جماعة من هذه الجماعات تتناقش فيما بينها ، أو تناقش دانتى ذاته فى مسائل الدين والفلسفة • وكان هؤلاء فى أغلب الأحيان مسيحيين ، غير أنه كان هناك أيضا عدد من اليهود أو الوثنيين ، بعضهم من مشاهير شخصيات العصور القديمة ، ولكن كان معظمهم اما من أصدقاء دانتى واما من معارفه ، الذين رسم لتصرفاتهم الأخلاقية صورا رائعة •

لا ندعى فى الحقيقة أن القصة الإسلامية فى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل تطورها ، يمكن أن تقارن من حيث الفن الشعرى بالكوميديا الإلهية • غير أننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن نقرر أيضا بأن التشابه بين القصتين من حيث سياق أحداثهما العام ، ومن حيث دور كل من البطل والشخصيات الأخرى فى كليهما أمر بعيد الاحتمال أو أنه وقع بمجرد المصادفة(١) •

٦

القصص الرمزية الصوفية

المستقاة من قصة المعراج

١ — قر رأى علماء الإسلام فى آخر الأمر على رواية من هذه الروايات اعتبروها صحيحة السند وقبلوها باعتبارها وحيا الهيا ، ومن ثم تبلورت فى صورة نهائية ، ولم يعد خيال المؤمنين حرا طليقا فى أن يدخل عليها اضافات أو تصورات جديدة • ومع ذلك فقد عوّض هذا الحرمان من اضافة أحداث جديدة ، تعويضا كبيرا بطريقة

---

(١) يلاحظ أن محمدا رأى فوق باب الجنة مكتوبا : (الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر) انظر الغيطى / ٨٦ والدردير / ٢٠ • كذلك نلاحظ هنا أن محمدا فى روايه المجموعة الثالثه سمع صوتا من النار يصف ضروب العذاب المعدة وينادى الله طالبا منه ان يرسل الآثمين • ثم انه يوجد ايضا مكتوبا على جباه اللوطيه والقتلة فى النار الإسلامية انهم « يئسوا من رحمه الله » [قره العيون ٣١ وكنز العمال ٢٠٨٦/٧ ، ٣١٧٣] يقابل هذا عند دانتى [أن من يدخل النار يفقد كل أمل] فاذا كان دانتى على معرفه بهذه العبارات الإسلاميه ، اذن يسهل عليه بطبيعة الحال ان يؤلف بينها ويجمعها فى الكتابه التى وضعها على باب النار ، ذلك أن المفهومات الروحانيه التى وضعها فى مردوسه من شانها أن تحول عندما دون تصور أى أبواب ماديه أو كتابات عليها •

أخرى من طرق التطوير والتوسع كانت أكثر قدرة على تنمية القصة • ومن ثم تعرضت القصة فى صورتها الأخيرة لتعديلات أدبية ذات شأن •

اندمجت التعليقات والحواشى التى وضعت أصلا لشرح الكلمات والمعانى الغامضة فى أصل القصة ، التى فقدت بساطتها القديمة من خلال التعبيرات المجازية والتحسينات اللفظية ، ثم انها أصبحت موضوعا لقصص ألفها أصحابها شعرا منثورا أو صاغوها قصائد شعرية فى بعض الأحيان ، أطلق فى تأليفها العنان لخيال الشرق الجامح • وهنا اشتركت الشخصيات الثانوية ، وبطلا القصتين أى محمد وجبريل ، والله ذاته ، فى مناقشات طويلة عمد مؤلفوها الى السجع وأفعموها بضروب المجاز ، والفكرات المبهمة • وفضلا عن ذلك قدموا لنا أشياء غير حية مثل العرش باعتبارها أشياء حية ، وشخصوا حيوانات سماوية مثل الحية التى تحيط بالعرش ، والدابة التى حملت محمدا ، وانطقوها أحاديث طويلة • وأخيرا وصفوا ممالك الحياة الأخرى وصفا غنيا بالتفاصيل التى استمدوها من القرآن والأحاديث النبوية المتعلقة بالجنة والنار(١) •

٢ ـ اقتصرت هذه المحاولة الأولى من محاولات التوسع على مجرد تطويل نص القصة • ثم تبع ذلك حشد كبير من التكييفات الرمزية أو الصوفية ، انصرف فيها العروج الى السماء ـ الذى يفترض انه حقيقة تاريخية اختص بها محمد ـ الى مخلوقات أخرى مادية أو روحانية ، اما حقيقية واما مجازية ، أرضية أو سماويه • وهذه المخلوقات عرجت الى سماوات النعيم عن طريق نفس المراحل التى مر بها محمد فى عروجه الى السماء • وسوف نقتصر الآن على ذكر بعض هذه القصص •

٣ ـ أشهر هذه القصص وأكثرها شيوعا قصة عروج الروح الى السماء بعد الموت • يقود الروح الملاك المكلف بها فتفتح لها أبواب السماوات الى أن تقف بين يدى الله ليقاضيها • وفيما يلى ملخص هذا الصعود •

يتكرر هنا عند مدخل كل سماء المنظر الذى ورد ذكره فى قصة المعراج ، ذلك أن خازن كل سماء لا يسمح للملك الحافظ للروح بالمرور ، الا بعد أن يكشف له عن نفسه وعن الروح التى معه • فاذا كانت نفسا طيبة مطمئنة استقبلت بالترحاب ، واذا كانت نفسا خبيثة استقبلت باللعنات • وتجتاز النفس فى كل سماء من السماوات

---

(١) Cf. MS 105 of the Gayangos Coll., fol. 218, 218, 223 V, 225, 245 and 246 in which fragmets in rhymed prose and verse are inserted dealing with the miraj.

السبع اختبـارا فى ركن من أركان الإسـلام ، أو فى قاعدة من قواعد السلوك فيـه بالترتيب التالى : الاعتقاد ، الصلاة ، الإحسـان ، الصـوم ، الحج ، طاعة الوالدين ، حب الإخوان ، الحمية فى الدين ، نقاء القلب • وعنـد ما تصل الروح الى سدرة المنتهى تصـعد لتقف بين يدى الله من خلال بحر من نور ، ثم من ظلمة ، ثم بحر من نار ثم بحر من ماء ثم بحر من ثلج ثم ترفع الحجب التى تحجب العرش وتبدأ الروح فى تلقى أوامر الله ذاته(١) •

٤ ــ تصور لنـا روايات أخرى مشابهة الملائكة الحافظين وهم يقدمون لله كل يوم الأعما لالطيبة التى يقوم بهـا الناس الموكولين بهم(٢) •

ثم انه يحق لأى من خزنة السماوات السبع أن يرفض قبول العمل الطيب اذا ما كان صاحبه مدينا بأى اثم كان • ولا تمر من السماوات السبع الا تلك الأعمـال التى يكون باعثها الحب الإلهى ، حتى تصـل فى النهاية الى الحضرة العلية ، حيث يعلن الله قبولها •

٥ ــ بدأت هذه التكييفـات المبكرة أولا بنسـبة العروج الى مفهومات غيبية مشخصة أو الى أرواح أناس ماتوا ، غير أن محمدا ذاته هـو الذى يروى القصـة ، وذلك بقصـد تزويدها بسلطانه • والحق أن الاحترام الدينى العميق للنبى كان سـببا فى منع أى انتهاكات أو تجاوزات للحدود المتفق عليها • ومع ذلك فان الصـوفيين لم يلبثوا طويلا حتى انتحلوا لأنفسهم دور البطل ، الذى كان حتى ذلك الحين مقصورا على محمد فحسب(٣) • ولقد برر الصوفيون جراءتهم هذه بتفسيرهم لعروج محمـد الى السماء وقولهم ان الله رفعه الى السماء ليشـهد بنفسه أقصى درجات النعيم الذى يسرى من ذلك الجمال الأقدس عنـدما يتجلى له الله ، وليتحرر قلبه من جميع القيود

---

(١) التذكرة ١٨ ، ابن مخلوف ١ / ٥١ ــ ٥٢• رجـاء مقارنة الاختبـار الذى تخضع له الروح فى هـذه الرواية بمـا تتلقاه من تعاليم دانتيه حـول الفضائل اللاهوتية الثـلاث فى السـماء الثامنـة الفردوس ٢٤ ــ ٢٦ • ومما يجدر ملاحظته أيضا العلاقة الوثيقـة بين كـل سـماء واحـدى الفضـائل المميزة للروح التى تنجح فى الدخول اليها ، وهذا هو ما يميز البناء المعنوى لفردوس دانتى
cf. Rossi, I, P. 147

(٢) منهاج العابدين ٦٩ •

(٣) اعتبر العلماء هذه الجسارة من جانب الصـوفيين اعتداء على عقـائد الدين • وفى البواقيت (١٧٤/٢) دليل على ذلك ، اذ يشجب الشعرانى اقوال ابن عربى الذى يدعى بانه زار الجنة والنار • على أن الصوفيين شرحوا عجرفتهم هذه بنظريتهم التى قرروا بها امكانية اكتساب الولى لـكرامة النبى • انظر Cf. 'Asin, 'Abenmasarra, 82.

الأرضية(١) • ثم أصبح طبيعيا بالنسبة للصوفيين أن يعمموا هـذا التفسير ويطبقوه على العروج الحقيقى أو الرمزى للروح التى تحطم قيودها الأرضية عبر السـموات الى الله • ويعزى الى أبى زيد البسطامى وهو من أشهر كبار الصوفيين الأوائل الذين عاشوا فى القرن التاسع الميلادى ، أنه عرج الى السـماء فعلا حتى وصـل الى عرش الرحمن عن طريق نفس المراحل التى اجتازها محمد فى صعوده(٢) •

بلغت القصة بهذا الادعاء ذروة تطورها ، وأصبح فى امـكان الصوفى باعتبـاره طرازا من البشر قادرا على أن يصـل الى الكمال بالتطهـر التدريجى من الشـهوات أن يرتفع الى ذرى التأملات الروحية التى تمكنه من أن يتذوق أولى مراحل النعيم الأبدى فى رؤية الله •

٦ ــ أما أهم هذه التكييفات الأخيرة للقصة فتلك الأعمـال التى أنتجتها قريحة محيى الدين بن عربى المرسى أمير الصوفية الأندلسين ، الذى توفى قبل ميلاد دانتى بخمس وعشرين سنة(٣) • بنى ابن عربى أحـد مؤلفاته على قصـة المعراج ، ورمى من ذلك الى كشف مغـزى أخـلاقى خفى • ومن ثم عالج الموضـوع على أنه مذهب مقصور على فئة قليلة من الناس ، يتعلق بالأسرار التى تتكشف لروح الصـوفى فى أثنـاء صعودها الى الله • ويوجد هذا المؤلف الذى لم يطبع للأسف حتى الآن ، فى عدة مخطوطات بعنـوان : « الإسراء الى المقـام الأسرى »(٤) • ونكتفى بعرض صورة شاعرية منه فى الفقرة التالية ، تبين منهجه العام •

---

(١) تفسير القمى النيسابورى ١٥ / ٦ • ويعلل بعض الصوفيين تضمين عروج النبى الى لسـماء فى النظام الإلهى بالضرورة المـاثلة فى أن محمدا قـادر على أن يفسر الحياة الأخـرى استنادا الى رؤيته لها رأى العين • وانظر cf. ms 105 gayangos coll., fol. 213 : الحر يفيش ص ١٠٤ •

(٢) cf. ms 105 fol., 214, line 2 inf.

(٣) انظر Asin, Aben masarra. 110 — 115 حيث استشهد المؤلف بمؤلفات اخرى له بمؤلف استاذه ربيرا عن حياة ومنهج ابن عربى •

(٤) يوجد فى مخطوطة (Kgl. Bibliothek, Berlin (nos. 2,901/2) وفى قبنـا (no. 1,908) وبناء على Brockemann, 1, 443, no. 16 . وتوجد نسخة اخرى فى حوزة المؤلف أهداها له صديقه العلامة حسن حسنى عبد الوهاب ، أستاذ التاريخ بالخلدونية فى تونس • ويشتمل هذا الكتاب على ١٠٨ ورقات أغلبها مجرد تفسيرات • يقرر ابن عربى فى المقدمة أن الموضـوع الذى يعالجه هو عروج الروح الى السماء ، وقد كتبها نثرا وشعرا وبأسلوب خلط بين المجـاز والحقيقـة الحرفية ، يبدأ قائلا : « خرجت من أرض الأندلس متجهـا الى القدس اعتمد على دين الإسـلام [illegible] الزهد ، وزادى نكران الذات » ويروى لنا أنه قابل شابا له طبيعة روحانية ، أرسلته السـماء ليقـوده • غير أن شخصا آخر يقوده فى أثنـاء صعوده الى السماء من القـدس يصفه بأنه « مبعوث العناية الإلهية » الذى صعد معه للسماوات السبع حتى وصلا الى الحضرة الإلهية •

الصوفيون هم ورثة الأنبياء الذين يسيرون على سننتهم ويتبعون تعاليمهم · وهم اذ يكرسون كل حياتهم للتأملات الروحية ، ولممارسة أسرار القرآن ، ولا يكفون عن ذكر حبيبهم الله ، يصلون فى النهاية الى الحضرة العلية · والبراق ، تلك الدابة السماوية تحملهم الى أطباق السماوات فى رحلتهم اليها ، وهى رمز الحب الإلهى · وأما القدس ، تلك المدينة المقدسة ، فرمز النور والحق ، وعندها تبدأ أولى مراحل العروج · وهنا يمكث الصوفيون قليلا الى جانب الحائط حيث مربط الأنبياء كما كانوا يفعلون ، وهو يمثل صفاء القلب ، ولا يقربه المدنسون · وبعد أن يتناولون اللبن رمز الفطرة ، يطرقون باب السماء · فاذا دخلوا رأوا الجنة والنار ، وعندئذ يشاهدون بعيونهم اليمنى سعادة أصحاب النعيم ، ويبكون بعيونهم اليسرى على ما يرون من أهوال نيران جهنم · وأخيرا يصلون الى سدرة المنتهى رمز الإيمان والفضيلة ، ويأكلون ملء بطونهم من ثمرها ، وعند ذلك تبلغ أسمى قوى الإنسان ذروة كمالها · ثم يصلون بعد هذا الإعداد الى آخر مرحلة فى رحلتهم وينكشف عنهم الحجاب وتظهر لهم المعانى الباطنة الكامنة فى سر الأسرار(١) ·

لا شك فى أن المعانى التى تنطوى عليها هذه القصيدة الرائعة البارعة من حيث تفسيرها لقصص دانتى الرمزية أمر واضح جدا · يبين لنا دانتى(٢) ذاته عن ثلاثة معان خفية بثها فى كل من الكوميديا الإلهية و « المادبة » · فقد رمى الى وضع ثلاث قصص رمزية ، احداها شخصية والثانية أخلاقية ، والثالثة فيها تأويلات باطنية لنصوص دينية · فاذا نظرنا الى الكوميديا الإلهية فى ضوء هذه المفهومات ، اذن لوجدنا أنها عبارة عن قصة رمزية معقدة تفصح عن حياة دانتى ذاته ، وخلاص الجنس البشرى · ذلك أن دانتي ـ الذى يمثل الجنس البشرى ـ قد انحرف عن سواء السبيل ، ولكنه استطاع أن يحطم قيود الشر عن طريق النظر العقلى والإيمان

---

(١) يكرر ابن عربى فى عدد من مؤلفاته قصصا رمزية مشابهة وتكييفات صوفية لقصة المعراج · فقد كرس فصلا باكمله (رقم ٣٦٧) من الجزء الثالث من الفتوحات المكية (ص ٤٤٧ ـ ٤٦٥) لموضوع المعراج وفيه عرض تفسيرا صوفيا مختصرا لقصة المعراج النبوى ، وضمنه تكييفا للقصة بحيث طبقها على عروج الصوفيين أو الأولياء الى السماء وما يتمتعون به من لذة روحية · ويفترض عندئذ أن معراجا طويلا كمعراج محمد قد رفع بين الأرض والسماء ، فصعد المؤلف كما صعد محمد الى السماء وناقش هناك الأنبياء مناقشات طويلة فى المسائل اللاهوتية والصوفية ·

(٢) In the Epistola a Can Grande scala (Opere minori, III, epist. XI, no. 7, P. 514).

والعناية الإلهية . وأما تكفيره عن الذنوب وتطهيره من الآثام ، فأمران ترمز اليهما رحلته الى المطهر والجحيم . وبعد أن يكون عندئذ قد بلغ مرتبة الكمال الأخلاقى ، يصعد من ثمة عن طريق التأملات الروحية الى حيث النعيم الأبدى فى جنان الله ، وهكذا نرى أن دانتى ، مثله مثل الصوفيين المسلمين عامة وابن عربى بخاصة ، قد استفاد من الحقيقة التاريخية التى تحدث عنها المفسرون ، والتى تتمثل فى عروج رجل من بنى البشر الى السماء ، حتى يرمز الى الحالة الصوفية الكامنة فى تجدد الأرواح بالإيمان والفضائل الروحية(١) .

ومن ثم ينبغى لنا أن نضيف هذا التطابق المثير الذى تنطوى عليه أهداف القصتين الى المشابهات الأخرى الكثيرة بينهما . وبما أن الخصية الرمزية للكوميديا الإلهية ، هى فى واقع الأمر أقوى برهان على أصالتها الفكرية فى نظر النقاد ، اذن لما أخطأنا لو أننا تعمقنا فى بحث هذه المشابهات المدهشة . والحق أنه توجد مشابهات واضحة بين لحدى قصص ابن عربى الأخرى وقصيدة دانتى .

٧ ــ استخدم ابن عربى فكرة المعراج هذه فى كتابة « الفتوحات الملكية » . وجعلها الموضوع الرئيسى لفصل كامل عنونه (فى معرفة كيمياء السعادة) . وفيما يلى ملخص للأفكار التى وضعها ابن عربى فى هذه القصة الرمزية(٢) ان الغرض الذى ترمى اليه النفس منذ اليوم الذى ملكها الله فيه تدبير البدن هو طلب العلم بذلك الذى استخلفها ، وهو الله . وتلتقى النفوس وهى فى طلب الطريق الموصلة الى ذلك ، برسول منجنسها ، مبعوثا من الله ليبين لهم طريق العلم الموصل اليه والذى فيه سعادتهم . فتقبل بعض النفوس عن طيب خاطر أن يعرفها هذا الرسول بذلك الطريق حتى تسلكه ، وترفض نفوس أخرى بدعوى أنه لا فرق بينهم وبين هذا الرسول فى المعرفة ، وانما تريد أن تستنبط الطريق الى معرفة الله من ذاتها لا عن طريق تقليد الرسول . فيتبع الأولون الرسول ومقلديه فيما أخبر به من العلم ، ويتبع الآخرون الأدلة العقلية من النظر الفكرى .

---

(١) Cf. Monarchia (Opera Minori, II, 404). Likewise Fratichelli, pp. 28 — 31 of preface to his edition of the Divine Comedy Also Rossi, 1, 152—157.

(٢) الفتوحات المكية الجزء الثانى الفصل ١٦٧ ص ٣٥٦ ، ٣٧٥ .

وعندئذ تبدأ القصة الرمزية الصوفية ، ويبدأ البطلان (كل يتبع فئة من الفئتين السابقتين) وهما رجل دين وفيلسوف(١)،فى رياضةالنفس وتهذيبالأخلاقوالمجاهدة ، وهى المشاق البدنية من الجوع والعبادات العملية البدنية كالقيام الطويل فى الصلاة والدءوب عليها ، والصيام ، والحج ، والجهاد · هذا بما شرع له أستاذه ومعلمه المسمى شارعا ، وهذا بالنظر العقلى · وفى هذه المرحلة تتطابق تعاليم الدين والفلسفة من الناحية العملية ، وينجح كل منهما فى كبح جماح نفسه والتغلب على حكم الشهوات الطبيعية العنصرية ·

بعد هذه المرحلة ، يبدأ العروج الفعلى الى السماء ، وهو عروج شبيه بالعروج النبوى · وتشمل المراحل السبع الأولى صعودا الى السماوات السبع : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، والتى يزورها المسافران بالتتابع ، فى حين يركب الفيلسوف براق الفكر ، ويركب المقلد (أو التابع) رفرف العناية الإلية · ولكن على الرغم من أن كليهما وصل الى أبواب السماء فى نفس الوقت ، فان استقبال كل منهما كان مختلفا · ذلك أن أنبياء كل سماء كانوا يستقبلون التابع بالبشر والترحاب ، فى حين يضطر الفيلسوف الى أن ينظر حتى يستقبله الملائكة الروحانيون (الذين يحركون الأفلاك فى علم الكون عند الأفلاطونيين المحدثين) والذين يقتصردورهم فى هذه القصة الرمزية على خدمة الأنبياء · أما التابع فيسر سرورا كبيرا ، وأما الفيلسوف فلا يزداد الا غما على غم بسبب اختلاف المعاملة التى يلقاها كل منهما ، وهو يشهد من بعيد ذلك الاستقبال الحار الذى يقابل به الأنبياء التابع ، ولا يستطيع أن يدرك الا نتفا من الأسرار التى يبوح بها الأنبياء للتابع · وهذا لا يعنى على أية حال أن الفيلسوف قد أهمل على الإطلاق · كلا ؛ فان الملاك الروحانى المكلف بكل سماء كان يرشده على أية حال فى مشكلات العلوم الطبيعية ، أو الكونية ، التى تخضع للتأثيرات الطبيعية التى يباشرها الكوكب المختص بها · وهنا يجد الفيلسوف أن الأنبياء انما يشرحون معانى هذه المشكلات للتابع من وجهة نظر أرقى وأوضح مما يمكن أن تفسره العلوم الطبيعية وحدها ·

---

(١) يسمى ابن عربى رجل الدين بالمقلد او التابع ، ويسمى الفيلسوف بصاحب النظر ·

ومن ثمة ادخل ابن عربى بطريقــة بارعة أفكــارا كثيرة من مذهبه اللاهوتى ، وأصبح المؤلف موسوعة حقيقية فى الفلسفة واللاهوت والتنجيم ، وضعت فى صيغــة محادثات ومحاورات أجراها الأنبياء ٠

يقف التابع من علم آدم وهم فى سماء القمر على التاثير الخلقى للأسماء الإلهيــة ، الذى هو سبب وعلة جميــع المخلوقات ٠ ويقف صاحب النظر من الملاك الروحانى على ما لفلك القمر من تاثير فى كل ما يوجد تحت فلكه ، من حيث الاستحالات فى أعيان الأجسام المركبة من الطبيعة العنصرية ، والاستخلاف العنصرى فى تدبير الأبدان ، وعلل الزيادة والنمو فى الأجسام القابلة لذلك ، وعلل النقصان ٠ وأما التــابع فعلم سببها الأولى الذى لا يدركه العقل ، والذى يكمن فى التاثير الخفى لأسماء الله ٠

ثم يرتقيان فى معراج الأرواح الى ســماء عطارد ، وفيهــا ينزل صاحب النظر عنــد (الكاتب) أى الروحانى الموكول به أمر هــذه السماء ، وينزل التابع عنــد عيسى ابن مريم وعنــده يحيى ابن خالتــه ، فيتحــدثا معه فى أمر المعجزات ، وعلى الأخص فى شرف بعض الــكلمات وجوامع الــكلم ، وحقيقــة كلمــة « كن » واختصاصــها بكلمــة الأمر لا بكلمة المــاضى ، ولا المســتقبل ولا الحال ٠ ويكشف عيسى روح الله لحواريه التــابع عن أسرار المعجزات التى صنعها فى أرض يهوذا ويتضح للتــابع أن جميع هــذه الأمور مثل معجزات الشفاء ، واحياء الموتى ، وغيرها ممــا صنعه عيسى ، انمــا هى من تأثيرات هــذه السماء الثانية وتابعة لهــا ٠ وهى معجزات سببها ما يتمتع به عيسى من قوى كيماوية خارقة للعادة ٠ ويعلم صاحب النظر من الــكاتب أن مثــل هــذه الأمور عندما تحدث بصورة طبيعية تكون آثارا للقوى التى يتمتع بهــا هــذا الملك على الأجسام التى تحته فى العــالم العنصرى ٠ وهــذا كل ما يتلقى صاحب النظر فى هــذه السماء من علم ٠

وتســتمر الرحلة على هــذا المنوال ، ويظل الفرق واضحا بين ما يتلقاه كل من التابع وصاحب النظر كمــا يتبين من المثالين السابقين ٠ وسوف نــكتفى بعرض ملخص للمعلومات التى يتلقاها كل منهما فى كل سماء :

يلقى فى ســماء الزهرة يوسف الى التابع ما خصه الله به من العلوم المتعلقة بصور التمثيل والخيال ، ذلك أنه كان من الأئمة فى علم التعبير ، ويفسر له نظام الــكون وجمــاله وتناسقه ٠

يتلقى التابع عند ادريس فى سماء الشمس الأسباب الفلكية لغشيان الليل النهار ، والنهار الليل ، وكيفية حدوث هذه الظاهرة الطبيعية ، وسر الالتحام بينهما وما يتولد فيهما من المولدات .

ويتلقى عن هارون فى سماء المريخ حديثا طويلا فى حكم الشعوب ، ويعلم منه أن فى ألواح موسى الهدى والرحمة لا القهر والذلة .

وفى سماء المشترى ، يشرح موسى مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود ، ويبدأ بتفسير المعجزة التى حدثت عند ما تحولت عصاه ، حية تسعى ، وينتهى الى القول بأن الأعيان لا تنقلب ، والعصا لا تكون حية ، والحية لا تكون عصا ، ولكن الجوهر القابل صورة العصا يقبل صورة الحية ، فهى صورة يخلعها الحق القادر الخالق عن الجوهر اذا شاء ، ويخلع عليه صورة أخرى ، وأما الاستحالات فأمر محال ، ولا تحدث الا فى عقل الرائى حينما يدرك بعينه أن العصا أصبحت حية فى حين كونها عصا .

وأخيرا يلتقى التابع فى سماء زحل بابراهيم الخليل ، الذى يلقاه وهو مسند ظهره الى البيت المعمور ، فيجلس التابع هناك بين يديه حيث يفسر له ابراهيم مشكلات الحياة الأخرى . وأما صاحب النظر فينزل فى بيت كيوان ملك هذه السماء ، وهو بيت قفر موحش . وعند ما يسأل ابراهيم التابع عن صاحب النظر ويعلم أنه ليس مسلما يرفضه ، ثم يأمر التابع بدخول البيت المعمور فيدخله دون زميله صاحب النظر الذى يقف منكوس الرأس حزينا : ويخرج التابع من الباب الذى دخل منه ، ثم يرتحل من عنده طالبا العروج ، ويبقى صاحب النظر هناك حيث يقال له قف حتى يرجع صاحبك فانه لا قدم لك هنا ، فيقول أسلم وأدخل تحت ما دخل فيه صاحبى . فيقال له : ليس هذا موضع قبول الإسلام ، فاذا رجعت الى موطنك الذى منه جئت أنت وصاحبك ، فهناك اذا أسلمت وآمنت واتبعت سبيل من أناب الى الله انابة الرسل المبلغين عن الله ، قبلت كما قبل صاحبك .

بعد ذلك تبدأ المراحل التالية من العروج ، وهى تعبر على العموم ، فيما عدا ما يحدث فى سماوين من سماوات النظام الفلكى ، عن مناظر تتعلق بالأفكار الصوفية والنظريات اللاهوتية . يصل التابع أولا الى سدرة المنتهى ، وهى ترمز الى أعمال السعداء

من النبيين وأتبــاع الرسل • ويعاين هنالك أربعة أنهار ، منها نهر كبير أعظم تنفجـر منــه ثلاثة أنهار كبار • أما النهر الكبير الأعظم فهو القرآن ، والأنهار الثلاثة الأخرى هى التوراة والزبور والإنجيل •

ثم يرقى التابع الى فلك المنازل (فلك النجوم الثوابت) فيلقاه من هنالك من الملائكة والأرواح الكوكبية ، ويرى آلاف المنازل التى تسكنها هــذه الأرواح ، ويزورها ، ويعاين درجات الجنــات ويذوق من كل النعائم التى أعدها الله للصالحين من عباده •

ويشاهد من آخر الأفلاك وهو فلك البروج عجائب الجنان ، ويعلم أن التــكوينات التى تتكون فى الجنان انمــا هى من حركة هــذا الكوكب • بعد ذلك يصل الى الكرسى فيرى القدمين اللتين تدلتا اليه فينكب من ساعته الى تقبيلهما • تعطى احدى هاتين القدمين ثبوت أهل الجنات فى جناتهم ، وهى قدم الصــدق ، وتعطى القــدم الأخرى ثبوت أهل جهنم فى جهنم على أية حالة أراد ، وهى قــدم الجبروت •

ثم يزج به فى النور الأعظم فيغلبه الوجــد ، ويسمع حركات الأفلاك ولهــا نغمات طيبة مستلذة تستلذ بها الأسماع • ثم يخرج من ذلك النور الى موضع الرحمة العامة التى وسعت كل شىء وهو المعبر عنــه بالعرش ، الذى يظهر له وقــد حمله خمسة ملائــكة هم اسرافيل وجبريل وميكائيل ورضوان ومالك ، وثلاثة أنبيــاء هم : آدم ، وابراهيم ، ومحمــد • ومنهم يقف على أسرار الــكون الخفيــة وهى التى يشــتمل عليهــا علم العرش وحملته •

أما المراحــل الأخــيرة فتنتمى كلهــا الى عالم الروحانيــات ، أو عالم الأفــكار الأفلاطونية • وأخيرا ينتقــل الى العماء وهو أول الإينيات ، وهو الحق المخلوق به كل موجود ســوى الله • وهو بمثــابة تجل الهى أزلى ونمط للمــادة الأولية العــامة للخالق والمخلوق فى ثيوصوفية ابن عربى الإمبيذقليسية المزيفة(١) • ومن هــذا العماء يبتدىء بالترقى والمعراج فى أســماء التنزيه الى أن يصل الى الحضرة التى يشهد فيها أن التنزيه يحده ويشير اليه ويقيده ويستشرف على العــالم بأسره : المعنوى والروحانى والجسم الجسمانى • وتنتهى الرحلة بهــذه الرؤية ، ويعود الى زميله صاحب النظر الذى يجده قــد أسلم ، وأصبح قادرا على أن يشارك فى نعائم التأملات الصوفية(٢) •

---

(١) راجع كتاب المؤلف Abenmasarra P. 111 وما بعدها ، لتقييم هــذه الرموز فى مذهب ابن عربى •

(٢) لاحظ العلاقة القوية بين هذه القصة الرمزية وقصة ابن الطفيل « حى بن يقظان » •

٨ ـ لا شك فى أن وجوه التشابه بين هذه الرحلة الصوفية الرمزية وعروج دانتى الى السماء انما تبدو واضحة جدا • والحق أن التمعن فى دراسة الفقرات التى لخص فيها دانتى فى مؤلفيه Monarchia و Epistola a Can Grandc della Scala المعانى الغامضة التى تنطوى عليها الكوميديا الإلهية ، انما يبين لنا بوضوح تام كيف يتفق تفسير دانتى لمراميه مع قصة ابن عربى الرمزية • لقد تخيل كل من المفكرين رحلته باعتبارها رمزا لحياة الروح فى هذه الدنيا التى وضعها الله فيها ، لتستعد لبلوغ مرماها الأخير ، وهو التلذذ بنعيم الرؤية الإلهية • ولا مرية فى أن كلا الكاتبين قد اعتقد أن هذا المرمى أمر لا يمكن الوصول اليه الا بتدخل من فوق الطبيعة ، أو بالتعمق فى دراسة العلوم الإلهية • ذلك أنه على الرغم من أن الفكر الفلسفى وحده جدير بأن يقود الإنسان فى المراحل الأولى من رحلته الصوفية ، أى تمكينه من ممارسة الفضائل ، فان نور العناية الإلهية وحده هو القادر على رفعه الى الجنة ، رمز أسمى الفضائل • أما الفرق الرئيسى بين القصتين الرمزيتين فيكمن فى الحقيقة الماثلة فى أنه بينما يشتمل مؤلف ابن عربى على بطلين للقصة ، يقتصر دانتى على بطل واحد يقوده بالتتابع دليلان هما : فرجيل وبياتريتشى ، يمثلان الفلسفة واللاهوت • على أن هناك فرقا آخر ، هو أن فرجيل لا يصحب دانتى الى سماوات النظام الفلكى السبع ، التى يصعد اليها الفيلسوف فى قصة ابن عربى • وهذا أمر يرجع الى أن أفلاك الكواكبفى النظام الذى وضعه ابن عربى للكون ، باعتبارها تابعة الى العالم العنصرى ، قد دخلت فى اطار التأملات الفلسفية • وهنا نجد أن ابن عربى كان على التأكيد منطقيا أكثر من الشاعر الفلورنسى الذى اهتم بتمجيد بياتريتشى باعتبارها شخصا حقيقيا أكثر من النظر اليها باعتبارها رمزا • أما أثر هذا الاختلاف فتزيله فى واقع الأمر الحقيقة التى تستبان اذا ما نظرنا الى دانتى وهو يقوم بدور مزدوج عندما يبدأ عروجه الى السماء مع بياتريتشى ؛ أولا باعتباره فيلسوفا حنكته التجارب والتعاليم التى اكتسبها منفرجيل ، وثانيا باعتباره لاهوتيا يتلقى العلم الآن على يدى بياتريتشى • وهكذا نرى دانتى وقد عمد فى بعض السماوات الى التفكير كفيلسوف مستقلا عن مساعدة بياتريتشى أو أى من أصحاب النعيم الذين يكشفون له عن أسرار المشكلات الصوفية أو الخارقة للطبيعة • وهذا على وجه الدقة ما حدث فى قصة ابن عربى • ثم ان الفليسوف يتلقى فى كل سماء المعارف التى تكشف له كيف تحدث الظواهر الطبيعية فى العالم الواقع تحت فلك القمر ، نتيجة للقدرة التى تختص بها هذه السماء أو تلك على احداث هذه الظواهر • هذا بينما يتلقى رجل الدين من الأنبياء

نفس المعلومات التى يتلقاها الفيلسوف فى المسائل المتعلقة بالطبيعة ، فضلا عن تنويره فى المسائل الصوفية واللاهوتية •

واليك بعض ملامح التشابه فى أحداث كل من القصتين تساعدنا على توضيح هذا التطابق :

٩ — يبين دانتى فى جحيمه أن أرواح أصحاب النار تقيم اقامة دائمة فى الدور التى تنزل بها • وأما أصحاب النعيم فى الفردوس فينزلون من سماء السماوات أو عليين حيث يقيمون الىسماوات النظام الفلكى المختلفة ، ويستقبلون دانتى بالترحاب ، ومن ثمة يشعر بدرجات النعيم المختلفة • ويفترض دانتى على أية حال عودتهم الى سماء السماوات ؛ ذلك أنه يراهم فى سماء النجوم الثوابت مرة ثانية وقد تجمعوا فى حشد واحد كبير(١) •

وهذه فكرة طبقها ابن عربى فى قصته • فقد كان الأنبياء ينزلون الى مختلف السماوات للترحيب به ، ولكنه رأى فى سماء النجوم الثوابت أرواح جميع المنعمين معا ، ورأى عند العرش آدم وابراهيم ، اللذين كان قد رأى أحدهما فيما قبل فى السماء الأولى ، والثانى فى السماء السابعة •

أما الفيصل الذى رأى دانتى فى ضوءه أول الأمر كيف وزعت الأرواح فله وجهان : وجه يتعلق بالأخلاق ووجه يتعلق بالتنجيم • ذلك أن أصحاب الجنة كانوا اما يظهرون فى سماء الكوكب الذى كانوا تحت تأثيره ابان حياتهم على الأرض ، واما فى سماء أعلى أو أسفل بحسب درجتهم فى الحياة التى عاشوها على الأرض • وهذا مبدأ نقع عليه فى قصة ابن عربى الرمزية ، ذلك أن الأنبياء عنده لم يظهروا بحسب ترتيبهم التاريخى • فبينما نجد آدم فىالسماء الأولى ، نجد ابراهيم فىالسابعة ، وكل من موسى وهارون فى سماء مختلفة ، وعيسى فى السماء التالية لسماء آدم • من هذا نرى أن المبدأ الذى حكم هذا الترتيب هو اما اعتبار المنزلة الشرفية الأكبر ، أو التفوق الأخلاقى • وفضلا عن ذلك ، فان السماوات فى قصة ابن عربى قد سميت بأسمائها ، وليس حسب الترتيب العددى كما فى الروايات السابقة • من هنا نرى أن هناك علاقة شبيهة بهذه بين كل سماء والأرواح التى تسكنها فى فردوس دانتى ، هى عند ابن عربى بين السماوات والأنبياء الذين يظهرون فى كل منها • والحقيقة أن احدا من المؤلفين لم يفصح صراحة عن المغزى الكامن وراء هذه العلاقة • غير

---

(١) Rossi, 1, 151

أن علاقة أخرى ذات مغزى هام تتضح لنـا من أن يوسف المشهور بجماله وعفتـه ، قـد وضع فى سـماء الزهرة ، ووضع موسى صاحب الشريعة الإسرائيلية وقاهر فرعون ، فى سماء المشترى كبير آلهـة الرومان وقاهر التيتـان ، وأما عيسى كلمة الله فوضع فى سماء عطارد رسول الآلهة واله الفصاحة(١) ٠

وأخيرا يستبين لنا أن تلك الفـكرة التى سيطرت على دانتى وحفزته الى استعراض معارفه وعلمه الغزير ، على حسـاب المظهر الفنى لعمله ، لهـا ما يقابلها فى القصـة الإسلامية : فقـد جعل دانتى من الكوميديا الإلهية مبحثا علميا حقيقيا ، بتلك البحوث الفلسفية واللاهوتية المطولة وما اليهـا ، التى وضعها على لسان بياتريتشى وغيرها بقصد تثقيف هـذا الزائر الذى يجتاز السماوات ٠ وكذلك لجأ ابن عربى الى منهج شبيه لعرض مشكلاته الثيوصوفية ، عند ما عمـد الى أن يجعل الأنبياء يناقشونها مناقشات مطولة ومعقدة(٢) ٠

اذن فكل من قصة ابن عربى وقصـيدة دانتى تتشابهان فى مادة الصـياغة ، والأحداث ، والمرمى الرمزى ، وفى شخصياتهما الرئيسية والثانوية ، وفى تصميم سماوات النظام الفلـكى ، وفى الاتجاه التعليمى للفـكرات التى قدمها كل منهمـا ، وفى استخدام الأساليب الأدبية لإخراج موسوعة معارف قومية ٠ وفضلا عن هـذه المشابهات لا ينبغى أن ننسى التشابه فى الإبداع الأدبى والفنى لـكل من العملين ، ونحن ازاء كل هذه الأسـباب لا نبالغ ألبته اذا قلنا ان قصـة ابن عربى هـذه ، هى أقرب المؤلفات العربية الى فردوس دانتى بخاصـة ، والى الـكوميديا الإلهية بعامة ، وعلى الأقل فى حدود اعتبارنا أن قصيدة دانتى قصة رمزية أخلاقية تعليمية ٠

Rossi, 1, 147

(٢) عمدنا بسبب هذا الغموض الى تلخيص هذه القصـة الرمزية فيما سـبق ٠ والحق أن كلا من القصتين يشتمل عـلى فـكرات من جميـع فروع الفلسفة واللاهوت ، فضـلا عن الإشـارة فى كلتيهما الى الأسرار الـكامنة فى بعض الأرقام او الأعـداد ، والى السـحر والتنجيم والـكمياء وغيرها من علـوم السحر ٠ وعلى الجملة يبين جليا ان ابن عربى ضمن قصته الرمزية موسوعة المعارف الشائعة فى عصرة ، كما فعل ذلك دانتى فيما بعد ٠

٧

المحاكيــات الأدبيــة للقصــة

١ ـ ربما كان تكييف أحداث المعراج النبوى الى قصة بطلها أحد أولياء الله ، وهو رجل من لحـم ودم ، أمـرا مسـموحا به للصوفيين الذين ادعوا أنهم قادرون روحيـا على بلوغ درجة الـكرامة التى يتمتع بها الأنبياء ، والذين رموا دائمـا من تاليف مثل هذه التكييفات الأدبيـة الى أغراض دينية • أما أن ينسب العروج الى السماء الى مجرد رجل من الآثمين العاديين ، فأمر أقرب ما يكون الى الاستهانة وقلة الاحترام ، وعلى الأخص عندما ينم الغرض عن انتهـاك للمقـدسات ، وينم الأسـلوب الأدبى الذى يختاره الـكاتب ، عن استهتار بالقيم ، أو عن سخرية تجديفية •

لا يوجد على أية حال غير قليل جدا من المؤلفات التى نهـج كتابها هـذا المنهج • والحق أنه لم يصلنا غير مؤلف واحد من هذا الطراز ، يعتبـر مؤلفه نسـيج وحـده بين الكتاب الذين تهجموا على الاسلام •

٢ ـ هذا هو الشاعر الأعمى أبو العلاء المعرى ، الذى لا يزال شهيرا فى العالم الإسلامى ، بل في أوربا أيضـا • وهو سورى الأصل عاش فى القرنين العاشر والحادى عشر من الميلاد ، وهو الملقب بفيلسـوف الشعراء وشاعر الفلاسـفة • ألف رسـالة الغفران ، وهى فى حقيقـة الأمر محاكاة بارعة لتلك الروايات البسـيطة التى دارت أحداثها حول قصـة الإسراء فحسب ، التى لم يصعد فيها محمد الى السـماوات السبع •

ويلوح أن الـكاتب قـد رمى الى غرض مزدوج ؛ فقـد انتقد بطريقة فى منتهى الرقة واللطف لا تـكاد تلمس ، قسوة أولئك الذين يتمسكون بالفضائل ، والأخلاق ، التى تناقض فى الواقع رحمة الله الواسعة ، واحتج ضد ادانة كثيرين من رجال الأدب وعلى الأخص الشعراء ، الذين على الرغم من أنهـم آثمون ومشركون ، كانوا شهيرين فى عالم الأدب سواء قبل الإسلام أو بعده • ورسالة الغفران رد على أحـد أصـدقاء أبى العلاء ، الشاعر الحلبى ابن القارح ، الذى ندد ـ على الرغم ممـا يكنه من اعجاب بأبى العلاء ـ بالأدباء الذين يستهينون بالدين ، أو الذين ينغمسون فى الملذات الحسية •

رمى أبو العلاء ، من غير أن يشـير الى شـمول الرحمة الإلهية ، الى أن يبين عن طريق المهارة الأدبيـة أن كثيرين من الشـعراء المتحـررين ، أو حتى الوثنين الذين

تابوا فى النهاية ، قد عفى الله عنهم أو أدخلهم جنته • وعلى أية حال لم يجنح أبو العلاء الىالاستفاضة فى الأمور اللاهوتية ، بل انها كانت عنده فى الدرجة الثانية من الأهمية • وأما الغرض الرئيسى من الرسالة فانحصر فى نقد وشرح أعمال الكتاب الذين تعرض لهم •

ولقد استطاع أبو العلاء أن يحقق الغرض المزدوج الذى رمى اليه ، بطريقة بارعة فى تنسيق التقريظات والنقود الأدبية فى سياق وضعه لأحداث قصته الشبيهة بقصة محمد التى زار فيها الحياة الأخرى •

٣ - (أ) يروى أبو العلاء كيف رفع الله ، ابن القارح بمعجزة الى السماء اثابة له على كتاباته فى الدفاع عن الدين وتمجيد لله فى رسالته •

(ب) وهناك يدخل ابن القارح حديقة تظللها اشجار ضخمة طوال تاخذ كل شجرة منها ما بين المشرق والمغرب ، واسع ظلها ، لذيذ جناها • يستند اليها التائبون • ويجرى فى حديقة النعيم هذه أنهار من الماء واللبن والعسل والخمر ، تشفى صدور الشعراء الذين يعيشون فيها • وهنا يعيش هؤلاء الأدباء فى سلام ووئام تام بعد أن تحررت قلوبهم من الحسد الذى كان يعكر عليهم صفو حياتهم على الأرض • وقد تجمع هنا وهناك جماعات من الشعراء والروائيين والنحويين والنقاد والفلاسفة ، وقد اشتركوا جميعا فى محادثات ودية • وعند ما يقترب منهم ابن القارح ، يسمع أبا عبيدة وهو يحدث عن الفروسية فى الجاهلية ويذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والأصمعى النحوى وهو ينشدهم من الشعر ما أحسن قائله كل احسان ، وعندئذ يشترك ابن القارح فى المناقشات ، ويعبر عن أسفه لأن بعض شعراء الجاهلية لم يدخلوا الجنة لأنهم لم يسلموا •

بعد ذلك يركب نجيبا(١) من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، ويسير فى الجنة على غير هدى ينشد أشعارا جاهلية • وفجأة يسمع صوتا يسأله : لمن هذا الشعر ؟ فيجيب بأنه للشاعر الهجاء ميمون الأعشى ، الذى يظهر عندئذ ، ويخبر ابن القارح كيف تشفع له النبى وخلصه من النار على الرغم من حبه للخمر • بعد ذلك يقابل ابن القارح كثيرين من شعراء الجاهلية ؛ الذين وسعتهم رحمة الله ودخلوا الجنة على الرغم من وثنيتهم • ويناقش كلا منهم مناقشات طويلة حول مؤلفاتهم •

---

(١) النجيب ، الكريم الفاضل الحسيب من الحيوان •

(ج) أحداث هذه الرحلة كثيرة جدا لدرجة يستحيل معها الإشارة اليها كلها ، أو نقل سلاسل المناقشات الحية فى المسائل العميقة التى أدخلها أبو العلاء ببراعة فى رسالته • لقد قابل المسافر (ابن القارح) أشهر الكتاب ، الذين يتجمعون فى ندوات منتقاة تتجمع وتتفرق ، يتصل ابن القارح بكل منها فى أثناء مروره ويتحدث مع المجتمعين ، ثم يتابع طريقه • وغالبا ما يشار الى أحد الشعراء الغائبين ، وعند ما يبدى ابن القارح رغبة فى مناقشته ، يشيرون الى بيت الشاعر أو يقوم دليل معه ليوصله اليه •

(د) وعلى الرغم من أن هذه السياحات خلال الجنة مفعمة بالأحداث والاستطرادات التى ترفع من قيمة هذا العمل الأدبى ، فانها على اية حال قليلة الأهمية من حيث مقارنتها بقصيدة دانتى(١) •

(هـ) والآن يحضر المسافر حفلة سمر فى الجنة تغنى فيها وترقص كواعب يرفلن فى وشى الجنة على أنغام الموسيقى • وأخيرا يجد نفسه بين صورتين من الحور العين بهره ما يراه من جمالهما • فيقبل على كل واحدة منهما ويرتشف رضابها ويتمثل بأبيات من شعر امرىء القيس • فتستغرق احداهما ضاحكة ، فيسألها مم تضحك ؟ فتسأله ان كان قد عرفها ؟ فيقول : أنت من حور الجنان اللواتى خلقهن الله جزاء للمتقين • غير أنه يعلم منهما أنهما امرأتان كان يعرفهما جيد المعرفة على الأرض احداهما حمدونة أقبح نساء حلب ، التى تزوجها رجل يبيع سقط المتاع وطلقها لرائحة كرهها فى فمها ، والأخرى توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم

(١) اعتذر أحد الشعراء ، وهو تميم بن أبى الذى أراد أن يستفهم منه ابن القارح عن قول من أقواله بانه ما أدخل الجنة ومعه كلمة واحدة من الشعر ولا الرجز ؛ ذلك انه حوسب حسابا شديدا فنسى شعره عندما كان قاب قوسين أو ادنى من الوقوع فى النار • وهنا ينتهز ابن القارح الفرصة ليروى المغامرات التى وقعت له قبل أن يدخل الجنة • بعد أن يفشل فى اقناع رضوان بادخاله الجنة بغير اذن من العلى القدير ، ينصرف الى خازن آخر ويحاول أن يستميله بمدحه بالشعر ولكن دون جدوى • عندئذ يلجأ حمزة بن عبد المطلب عم النبى فيحيله على على ابى طالب فيسأله على عن بينته اى عن صحيفة حسناته • فيقول له الكتاب الذى فيه ذكر توبته قد سقط منه فرجع يبحث عنه فما وجده • فيطلب منه تقديم الشهود ، غير أن عليا يرفض قبول الشهادة فى نهاية الأمر • وبينما هم على وشك جره الى النار يلمح فاطمة بنت محمد ومعها خديجة وابناء محمد : القاسم ، والطيب ، وابراهيم ، على افراس من نور فيتشفع بها فتأمر أخاها ابراهيم ان يدع الرجل يتعلق بركابه • وتطير بهم الخيل من الزحام ، وعند عبور الصراط يتعثر فتأمر فاطمة احدى جواريها بحمله ، فتحمله الجارية ويعبرون الصراط • وعند باب الجنة يسأله رضوان ان كان معه جواز بالمرور ، فلما يعجز عن تقديم الجواز يمنعه من دخول الجنة ، وهنا يلتفت ابراهيم بن محمد فيراه قد تخلف عنه ، فيرجع اليه ويجذبه جذبة فيدخله الجنة •

ببغـداد ، وتخرج الـكتب الى النسخ ، فصارت فى الجنة أنصع من الكافور • وفى هذه الأثناء يمر بهم ملك من الملائكة ، يبين له كيف يتميز أصـــحاب النعيم ، يخبره بأنه يوجد فى الجنـــة نوعان من الحوريات ـ أولاء اللاتى خلقن فى الجنـــة ، واللاتى أصلهن من أهل الأرض ودخلن الجنة اثابة لهن على فضائلهن وتوبتهن •

(و) أثارت ضروب النعيم التى تمتع بها المسافر فى الجنة رغبته فى زيارة النار ، حتى ينظر الى أهلها وما هم فيه ، فيعظم شكره لله على النعيم • ومن ثمة بدأ المرحـــلة الثانية من رحلته المدهشة •

(ر) يرى فى بـــداية الرحلة مدائن ليست كمدائن الجنة ، ليس عليها ذلك النور الشعشعانى • فلما يسأل بعض الملائـــكة عنهـــا يخبره الملك بأن هـــذه جنة العفاريت الذين آمنوا بأن محمدا رسول الله • واذا بشيخ جالس على باب مغارة هو الخيتعـــور أحد بنى الشيصبان الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد آدم ، وهم ليســـوا من ولد أبليس • يسأله المسافر عن أشعار الجن ويناقشه فيها ، وفى اللغة التى يتكلمونها • فيشبع الخيتعور فضوله ، وينشده ملحمة الجان البطولية •

(ح) يستأذن المسافر من الخيتعور ، وما ان يخطو عدة خطـــوات حتى يفاجأ بأسد رهيب يسد عليه الطريق • فيقف ، وعندئذ يلهم الله الأســـد أن يتكلم فيخبـــره بأنه أسد القاصرة (مسبعة بوادى القاصرة بطريق الشـــام) الذى ألهمه الله أن يتجوع لعتبة بن أبى جهل أياما وهو فى طريقه الى مصر ، تحقيقا لقول النبى : « اللهم ســـلط عليه كلبا من كلابك » ، وأنه جاءه وهو نائم بين رفاقه وأدخل الجنة لذلك •

(ط) يتخلص المسافر من هـــذا الخطر ثم يتقـــدم فى طريقه ، وعلى حين فجأة يعترض ذئب هائج طريقة • غير أن مخاوفه تزول بسرعة عند ما يخبره الذئب بأنه الذئب الذى كلم الأســـلمى الـــذى يعـــرف بمكلم الذئب على عهـــد النبى وهـــداه الى الإسلام(١) •

(ى) ويقابل عند أقصى الجنة شاعرين من شعراء الجاهلية ، همـــا : الحطيئـــة

---

(١) تتضمن كثير من المعجزات التى نسبها المؤمنون الى محمد انه كان يستخدم حيوانات مثل الحمير او المعز او الغزال وعلى الأخص الذئاب فى تعليم رسالته للعرب •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العبسى الذى يخبره بأنه وصل الى الشفاعة ودخل الجنة بالصدق • والخنساء السلمية التى أخبرته أنها أحبت أن تنظر الى أخيها صخر فرأته كالجبل الشامخ تضطرم النـــار فى رأسه • هنا مدخل النـــار •

(ك) عند هذه الحدود الفاصلة بين الجنة والنار ينظر فيرى ابليس وهـو يضطرب فى الأغلال والسلاسل ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية • فيقول له : الحمد لله الذى أمـكن منك يا عـدو أوليائه ؛ لقـد أهلـكت من بنى آدم طـوائف لا يعـلم عددها الا الله • فيسأله ابليس : من الرجل ؟ فيخبره أنه رجل من حلب صـناعته الأدب • فيقول ابليس : بئس الصناعة ، انها تهب قليلا من العيش لا يشبع بها العيال ، وأنهـا لمزلة بالقدم وكم أهلكت مثلك ، فهنيئا لك اذ نجوت ، فأولى لـــك ثم أولى ، ويرجـــوه أن يخبره عن بعض أخبار الجنة التى أراد أن يعرفها •

(ل) وفى هـذه الأثناء يرد ذكر الشاعر الأعمى البذىء بشـار بن برد الذى فضل ابليس على آدم فى بعض أشـعاره • وفى الحال يخرج بشار من أعماق النار وقد أعطى عينين لينظـر الى ما نزل به من النـكال ، والزبانية تفتح عينيه بـكلاليب من نار • وبعد أن يرثى ابن القارح لحاله ، ينتهز الفرصة ليستفهم منه عن بعض المعـانى الغامضة فى شعره ، غير أن بشارا لم يكن عندئذ فى حالة مزاجية تسمح له بالـكلام ، فلم يجبه •

(م) يسأل المسافر بعد ذلك عن امرىء القيس بن حجر ، فيقال له ها هو ذا بحيث يسمعك • وعدئذ تبدأ مناقشة طويلة حول بعض النقاط الغامضة فى قصـائد الشاعر • وفى أثناء الحديث ، يلمح المســافر عنترة أحـد أصحاب المعلقات الذى تغنى بالفروســية العربية • وعلى الرغم من أنه كان يتلفت فى السعير يمينا وشمالا ، أجابه عن جميع الأسئلة التى وجهها اليه فيما يتعلق بشعره •

(ن) يرى المســافر بعد ذلك عـددا من شـعراء الجـاهلية واحدا بعـد الآخـر ، فـيرى علقمة بن عبدة الفحل ، وطرفة بن العبـد ويسـألهما عن حياتهما على الأرض ويثنى على شـعرهما • غير أن طرفة يرفض كل ثناء ، ويقـول : وددت أنى لم أنطق مصراعا ، وعـدمت فى الـدارالزائـلة المرعى الخصـيبة ، ودخلت الجنـة مع الهمـج والرعاع • وهنا يلفت المسـافر عنقه يتأمل فاذا هو بأوس بن حجر شـاعر الحرب والصيد والقنص ، وقد غلب عليه الظمـا فلا يسـتجيب لأسئلته • بعد ذلك يرى رجـلا فى النـار لا يميزه من غيره فيسأله : من أنت أيهـا الشقى ؟ فيقول : أنا أبو كبـير

الهـذلى • فيحاول اسـتجوابه غـير أنه لا يلقى منـه أى جواب ؛ ذلك أن الشاعر كان يقاسى عذابا شديدا •

(س) ثم اذا هو برجل يتلوى من وجـع الضرب ، فيقال له انه الأخطل التغلبى • وهو الشاعر المسيحى فى بلاط بنى أميـة ، والذى كانت قصائده السافرة وأشعاره اللاذعة ضد الإسلام هى التى أدت الى هـذا المصير • يتأمله المسافر ويوبخه بطريقه ساخرة مهينـة عن حياة الفسق والفجور التى عاشها مع الخليفة يزيد بن معـاوية ، فيزفر الأخطل زفرة تعجب لها الزبانية ، ويتحسر على أيام يزيد ، ويتذكر ضروب العربدة والمسـاخر التى كانت تجـرى فى قصر الخليفـة فى دمشـق ، ذلك القصر الذى كانت حوائطه تردد أهاجيه البذيئة فى الإسلام ، والتى كان يتغنى بها الخليفة منتهكا مقدسات الدين • تطـرب هذه الذكريات الشـاعر ، فيبدأ فى القـاء احدى هذه الأهاجى ، غـير أن هـذا يثير ابليس ذاته الذى يؤنب زبانيته على تركهم لأمثال هذا الفاسق •

(ع) فلما يمل من خطـاب أهل النـار ، ينصرف الى قصره المشـيد ، فاذا صـار على ميـل أو ميلين ذكر أنه لم يسـأل عن مهلهـل التغلبى ، ولا عن المرقشـين ، وأنه أغفل الشنفرى وتأبط شرا • فيرجع أدارجـه وينـادى المهلهل : أين عـدى بن ربيعة ؟ فيقال له : هـو يسـمع حوارك • ثم يسـأل عن المرقش الأكبر ، فاذا هـو فى أطباق العذاب ، ثم يسـأل عن المرقش الأصغر ، والشنفرى الأزدى ، وتأبط شرا • وعلى الرغم من أنه قـد أمطرهم بأسئلته عن حيواتهم وغرامياتهم وأشعارهم فانهم لم يردوا عليه الابشق الأنفس • وعندئذ يتحقق من عدم جدوى أية محاولات أخرى • فكيف عن البحث والسؤال ويعود الى الجنة •

(ف) وفى طريق عودته تقع بعض الأحـداث التى جـاء ذكـرها فى المقـدمة • يقابل آدم ويسأله عن بعض الأشـعار المنسوبة اليه ؟ • فيجيب آدم بدماثه ولطف بأنه على الرغم من أنه كان يتكلم العربية فى الجنة قبل هبوطه منها ، فانه عندما هبط تـكلم السريانية ، ولم ينطق بغيرها الى أن هلك • فلما رده الله الى الجنة عادت اليه العربية ، فى حين أن الأشعار التى يسأله عنها لا بد الفت على الأرض كما تدل على ذلك معانيها ، وبعد أن يتناولا حديثا عارضا فى بعض المسـائل الأدبية ، يترك آدم ، ويضرب سائرا فى الفردوس فاذا هو بروضة مونقة ، واذا هو بحيات يلعبن ويتماقلن ، يتخافضن ويتثاقلن •

(ص) ويلقى فى غيطان الجنة الجارية التى كانت تنتظره ، فتسأله عن سبب تأخره ، وتقرعه تقريعا لطيفا على ذلك ، فيعبر لهـا عن تلك الرغبة الجامحة التى أحسها

بضرورة التحدث الى الشعراء فى النار • فلما قضى من ذلك وطرا عاد اليها ، وهو الآن على استعداد لأن يلقى بنفسه فى أحضان النعائم التى تنتظره فى الجنة • وعندئذ يسيران فى أهاضيب الفردوس ورمال الجنان ، فى حين تنشده الجارية بعض أبيات رقيقة من شعر امرىء القيس •

(ق) وفى تلك الأثناء يعرض له حديث امرىء القيس فى « دارة جلجل »(١) فينشىء الله حورا عينا يلعبن فى نهر من أنهار الجنة ، وفيهن حورية تفضلهن حسنا كصاحبة امرىء القيس •

(ر) ثم يمر بأبيات منخفضة ليس لها ارتفاع أبيات الجنة ، فيسأل عنها فيقال له : هذه جنة الرجَّز أى شعراء الرجز ، فيناقشهم فى شعر الرجز • ثم يتكىء على مفرش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملن ذلك المفرش ، فيضعه على سرير من سرر أهل الجنة ، وهو من زبرجد أو عسجد يقدر له أن يعيش فيه الى الأبد •

٤ — يستبين لنا من أول وهلة أن الملخص الذى عرضناه آنفا لهذه المحاكاة الأدبية البارعة لقصة المعراج النبوية ، انما يعبر عن مشابهات كثيرة للكوميديا الإلهية •

نرى أول شىء أن العنصر الفوقطبيعى ، وهو أوضح معالم قصتى الإسراء والمعراج ، قد اختفى تقريبا • نجد البطل هنا اذن كما هو فى قصيدة دانتى مجرد رجل عادى • كذلك لم تكن الشخصيات الثانوية فى المقام الأول أنبياء أو أولياء ، وانما مجرد أناس عاديين ، غالبا ما كانوا كفرة تائبين • ومن ثمة فان المسحة الواقعية والفنية التى أضفاها دانتى على الجزئين الأول والثانى من كوميديته ، لهما ما يقابلهما فى هذا العمل الإسلامى المبكر • على أن التطابق فى الواقعية ليس على التأكيد صفة مطلقة فى كلتا الروايتين ، غير أننا من ناحية أخرى اذا ما نحينا الاختلافات جانبا لحظة واحدة ، اذن لأظهرت لنا مقارنة منطقية رتيبة عن ملامح التشابه بينهما والتى يمكن أن نصنفها تحت عنوانين : أولا ، الخطط العامة المشتركة فى كلا الروايتين ، وثانيا ، الأحداث الواقعة التى تتشابه أو التى تتطابق تطابقا تاما فى كليهما(٢) •

---

(١) اشارة الى قصة امرىء القيس مع ابنة عمه فاطمة وصواحباتها فى دارة جلجل ، والقصة مذكورة فى معلقته •

(٢) تلخص هنا الاختلاف الأساسى بين القصتين : الواقعية واضحة جدا عند أبى العلاء ، حتى لقد اقتربت محاكاته فى بعض الأحيان الى مجرد محاكاة لقصة المعراج المحمدية على سبيل السخرية • وهنا لا نجد أى تطابق بينها وبين كوميدية دانتى ، التى لم يتخلل جديتها عنصر السخرية الا نادرا • =

٥ ـ لجأ أبو العـلاء ـ تحقيقا لغرضه المزدوج فى تأليف مبحث يجمع بين الأفكار اللاهوتية والأدبية فى نفس الوقت ـ الى حيـلة بارعة ؛ هى أنه جعـل ابن القـارح بطل روايتـه ، يقابل عددا كبيرا من الأشخاص فى الجنـة والنـار على السواء • وبذلك زحم المؤلف ممـالك الحيـاة الأخرى بعـدد غفير من الرجال والنسـاء ، نصـارى ، ومسلمين ، ووثنيين ، نبـلاء ودهمـاء ، أغنيـاء وفقراء ، شـبان وشيوخ • وأغلب هؤلاء آثمون ، وكلهم على وجه التقريب من الشـعراء ورجال الأدب • ذلك أن الغرض الذى رمى اليـه المؤلف ، انحصر كمـا أسلفنا من قبـل فى النقـد الأدبى ، وفى فـكرة ثانوية أخرى هى شجب الآفاق الضيقة لرجال الدين فى عصره • ثم ان جميع الشخصيات تقريبا شخصيات تاريخية ، وأغلبهم من مشاهير الـكتاب ، بعضهم معاصرون له ، أو عاشوا قبل عصره بقليل •

اختلف توزيع هـذه الشخصيات فى الجنة أو النـار ؛ ذلك أن البطل كان يقابلهم مجتمعين فى جماعات صـغيرة ، تتـكون كل منها من طبقة من الـكتاب ، مثل علماء فقه اللغـة ، أو شعراء الحماسة ، أو الرجز ، وهكذا ، غير أنهم من نـاحية أخرى كانوا يظهرون فرادى فى النـار •

كان بطل ابى العـلاء كثيرا ما يسـأل عن أحـد الـكتاب الذين يريد رؤيتهم ، وعندئذ يشـير اليـه الكتاب الذين يتحدث معهم عن مسكنه ، أو يرسلون معه دليـلا يدله عليه • وكان الشخص المطلوب رؤيتـه يظهر فى بعض الأحيـان من تلقـاء نفسه ، عندما يخفق المسافر فى معرفته ، ويضطر الى أن يسأله عن اسمه •

انحصرت المنـاقشات ، سـواء فى الجنـة أو فى النـار ، وفى المقـام الأول ، حول المسائل الأدبية المتعلقة بأعمال هؤلاء الـكتاب • وفضلا عن هـذا نقع هنـا وهنـاك على تلميحات عن الفضائل أو الرذائل التى أدت بهـذا أو بذاك الى الجنة أو الى النار •

كان من شأن الموقف التسـامحى الذى اتخـذه أبو العـلاء ازاء بعض الرجال الذين أدخلهم الجنـة أو النـار ، أن يؤدى على التأكيد الى صراع بينـه وبين رجال الدين والعامة ضيقى العقول ، الذين لا شك رأوا فى موقفه هـذا ؛ اذ وضع رجالا فى الجنـة

= كذلك لايوجد تشابه فى تصميم الممالك الأخروية ، ذلك ان رحلة ابى العلاء قد نفذت على مستوى واحد • وعلى الرغم من أنه وضع النار فى قاع بركان فان بطل روايته لم يزر دركاتها • وهناك خلاف اسـاسى آخر هو ان بطل رواية أبى العلاء ليس المؤلف • ثم ان النظام الذى اتبعه ابو العلاء مخالف لذلك الذى اتبعه دانتى • فقد وصف الجنة قبل النار • واخيرا ، تبدأ الرواية عند أبى العلاء فى صميم الموضوع بغير مقدمات : ذلك أن الأحداث التى وقعت عند مدخل الجنه ، لم يروها المسافر الا فى أثناء مناقشاته مع الشعراء الذين قابلهم فيها •

كانوا على الأرض كفرة أو خلعاء فاسقين ، ضربا من انتهاك المقدسات • كذلك نرى فيما عدا ذلك أن المشاعر الشخصية أو التعاطف الأدبى ومشاركته الوجدانية لبعض الكتاب قد أثرت فى أعماق نفسه • فقد كان منظر الهالكين فى جميع الأحوال تقريبا يثير شفقته فيرثى لحالهم ، ولم يهزأ من بعض التعساء ويمطرهم بسخريته اللاذعة الا نادرا ، فى حين كان يهنىء المنعمين بالجنة من أعماقه بحظهم السعيد •

أما دانتى فقد لجأ هو أيضا الى نفس هذه الوسائل ، وان كان مستوى تصميم الكوميديا الإلهية أكبر كثيرا من مستوى تصميم رسالة الغفران • لقد عمل دانتى بنفس المنهج الذى اتخذه أبو العلاء ، ولكنه تخطى مجرد الهدف الأدبى الذى رمى اليه المؤلف الإسلامى ، وتصور قصته فى اطار أكثر ثراء من حيث التفاصيل ، وتخيلها رحلة الى ممالك الحياة الأخرى تقع فوق الوجود المادى • ومن ثمة سمح له هذا المنهج أن يعرض جميع آرائه ، لا تلك المتعلقة بالأدب فحسب ، وانما كل آرائه فى مختلف مجالات النشاط العقلى • والحق أن الكوميديا الإلهية موسوعة علمية احتوت معارف القرون الوسطى • وفيها عبر دانتى عن آرائه فى الإنسانية عموما ، وعن أحوال ايطاليا فى القرن الثالث عشر الميلادى ، وعلى الأخص فلورنسا ، وعن الأدب والفنون الأخرى • ولم يعرض دانتى هذا كله فىقصيدته بطريقة تجريدية أو موضوعية ، وانما عرضه كما تصوره فى عقله تحت تأثير مزاجه الشاعرى • وهكذا نرى أن دانتى انما رمى كما رمى أبو العلاء فى المقام الأول الى عرض معارفه الأدبية ، واصدار الأحكام على كبار رجال الأدب العربى ، الى أن يدون فى قصيدته الإلهية سجلا لعلمه الواسع وآرائه فى الدين والسياسة والفن كما هى فى عصره • ولذلك أصبح عدد الشخصيات فى الكوميديا الإلهية أكثر كثيرا منه فى رسالة الغفران • ولكن على الرغم من أن دانتى كون جماعات أكثر ، فانها ظلت عنده خاضعة لنفس المبدأ ، أى نوعية • فقد أحل دانتى محل الفئات الأدبية المختلفة فى القصة الإسلامية ، فئات رتبها بحسب الحرفة أو المنزلة الاجتماعية • كذلك نرى أن شخصيات الكوميديا الإلهية ، اما خرافية ، واما تاريخية ، واما معاصرة للمؤلف ، وقد صورت كلها بواقعية صارخة •

ثم ان الأرواح التى رآها أبطال قصة دانتى فى الجنة انما كانت تظهر لهم فى مجموعات ، بينما كانت تظهر فى الجحيم فرادى • وبذلك أصبحت حلقات أبى العلاء ،

هى تلك الدوائر التى رآها دانتى فى كل من الجنان التى زارها ، وتتـكون من لاهوتيين ، أو عسكريين ، أو قضاة ، أو غيرهم ٠

تبدأ المناقشات التى جرت بين دانتى والأرواح التى قابلها بطريقة مماثلة ٠ فهو اما أن يسأل عن روح معينة ، فيقوده دليـل الى حيث تسكن ، واما أن تظهر له الروح التى يطلبهـا فجاة ، والتى يعجز عن معرفة صاحبهـا ، ومن ثمـة يضطر الى أن يسأله عن اسمه(١) ٠

أما أن المناقشات التى دارت فى قصـيدة دانتى قد عبرت عن مجموعة مختلفة من الموضوعات ، لا مجرد مناقشـات أدبيـة فحسب كمـا عنـد أبى العلاء ، فأمر طبيعى ، غير أن المناقشـات فى كل من الروايتين كانت على الدوام تدور حـول أحداث وقعت فى أثنـاء حياة هـذه الأرواح ، أو حول غوامض الدنيـا الأخرى ٠ وفضلا عن هـذا ، تحمل بعض المنـاقشات التى جرت بين دانتى والشعراء والفنانين فى الجحيم أو المطهر ، ملامح من التشـابه المدهش المثير للمنـاقشات الحيـة التى جرت فى رواية أبى العلاء ٠ عند ما يقابل دانتى أستاذه السابق برونيتو لانيتى ، يتبادل الآراء حول أحداث وقعت لهما على الأرض ، ويذكر برونيتو أن النحوى بريسكيان ، والمحـامى فرانشسـكو داكورسو ، من بين زملائه الهالـكين فى النـار ٠ وأخيرا ينصحه بالرجوع الى قصيدته « الـكنز »(٢) : ويقابل دانتى الموسيقار الفلورنسى كاسـيلا فى المطهر ، ويرجوه أن يغنى احدى الأغانى التى ألفها دانتى ولحنها كاسيلا(٣) ٠ ويتعرف الشاعر سورديلو الى فرجيـل ويثنى على شـعره(٤) ٠ ويناقش أوديريسى فى الفن الإيطالى ، ويمتـدح جوينيتشيلى جويدو وكافالـكانتى جويدو(٥) ٠ ويحكى الشـاعر اللاتينى بابينيوس ستاتيوس قصـة حياته لدانتى وفرجيل ، ويحدثهما عن تأثير قصيدته ثيبايد وأخيليد على قصيدة فرجيل الأنيـد ٠ وعنـدما يكشف فرجيل عن شخصيته ، يمتدحه بابينيوس ويستشهد ببعض أبيـات من قصيدة الأستاذ العظيمة ٠ ولـا يسأل بابينيوس فرجيل عما صار اليه حال شعراء مثل تيرينس وبلوتس ، يخبره فرجيل عمـا لقى هـذان ، وعما لقى غيرهمامن الشعراء القدماء فى الحياة الأرضية (٦) ٠ويتقدم بوناجيونتا أحـد الشعراء

---

(١) cf. Rossi, 1, 163, 164, 166, 167 .

(٢) الجحيم ١٥ ٠

(٣) المطهر ٢ ٠ (٤) المطهر ٦ ــ ٨ ٠ (٥) المطهر ١١ ٠

(٦) المطهر ٢١ ــ ٢٣ ٠

العــاديين فى عصر دانتى ، ويعرف دانتى بنفســه ، ويناقش الأسلوب الجــديد الذى استخدمه دانتى فى قصائده ، ويعترف بأن هــذه القصائد تفيض بشاعرية أعمق كثيرا من شاعرية جاكوبو دا لانتينو ، أو جيوتونى دا أريتزو(١) ويقــابل دانتى أخيرا شاعر بولونيــا الــكبير جويدو جوينيتشيلى ، بعــد أن طهرته النــار من أدران فسوقه وفجوره • ويرحب به دانتى على اعتبــار أنه أبو وأستاذ الأسلوب الجديد الرائع • غير أن جويدو يحيله بكل تواضع الى الشــاعر البروفانسى أرنولد دانيــال ، ويشــير اليــه وهو واقف بالقرب منهمــا ، وبينمــا يتقــدم دانتى نحو الشــاعر التروبادور ليجاذبه أطراف الحديث ، يحييه هــذا بالقــاء بعض أبيات من الشعر بلغته البروفانسية الأم (٢) •

ثم ان هنــاك تشابها واضحا آخر يتضح لنــا من روح التسامح التى عبر عنهــا كل من المؤلفين باخراجهما من النار عددا من مشاهير الوثنيين أو الــكفار • ومن ثم وضــع دانتى اينيــــاس ، ويوليوس قيصر ، وصــــلاح الدين ، وســقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، وفرجيل ، وشيشرون ، وسنيكا ، وابن سينا ، وابن رشد ، فى اللمبو (٣) (يقابل الأعراف فى الإسلام) ، ووضع كاتو فى المطهر(٤) • (يقــابل الصراط فى الإسلام) • ووضع القديس توما الأكوينى فى نفس الســماء مع أحــد كبــار معارضيه ، سيجييه البرابنتى ، وهو من أتبــاع ابن رشــد(٥) • ووضــع الملك داود مــع تراجان وريفيوس الطروادى(٦) • ثم اننــا نراه من ناحيــة أخرى ، قــد حكم على أشخاص كثيرين ، منهم بابوات وأمراء بالنــار ، لمجــرد التحيز ضــدهم • وأخيرا نلاحظ أن مشاهدة دانتى لنعيم الجنة أو لعذاب جهنم ، قد أثار فى قلبه نفس المشــــاعر التى ثارت فى قلب بطل القصة الإسلامية ، ســواء عبرت عن الإعجاب والشفقة ، أو السرور والغضب(٧) •

٦ — وفضــلا عن ذلك فان مقارنة بعض أحداث الرواية الإسلامية ببعض أحــداث الكوميديا الإلهية ، سوف يكشف لنا عن مشابهات أكثر لفتا للنظر من المشــابهات التى تستبان لنــا من المنهج العــام •

(١) المطهر ٢٤ •
(٢) المطهر ٢٦ •
(٣) الجحيم ٤ •
(٤) المطهر ١ •
(٥) الفردوس ١٠ •
(٦) الفردوس ٢٠ ؛ وانظر (الفردوس ٩ / ٣١ — ٣٦) حيث وضــع كــرنيتزا التى غلبت شهــرة غرامياتها عن توبتها فى الفردوس •
(٧) cf. Rossi, 1, 163

من هـذه الأحداث مقابلة ابن القارح لحمدونة الحلبية وتوفيق الزنجية ، اللتين ظن أنهما حوريتان من حوريات الجنة ، ولم يتعرفهما حتى كشفتا عن شخصيتهما ٠

هـذا المنظر يشابه الفقرات التى وصف فيها دانتى مقابلته للابيا السـينية فى المطهر وبيكاردا دونانتى الفلورنسية فى سماء القمر ، وكوننتزا البادوية فى سماء الزهرة مشابهة قوية جـدا ٠ روت له الأوليان المحن التى قاستاها فى حياتهما الزوجية ، كمـا فعلت حمدونة ٠ ثم ان دانتى أعجب بجمال بيكاردا الفائق ، كمـا أعجب ابن القارح بجمال توفيق الزنجية وتعجب من بياض لونها ٠ اضافة الى هـذا ، نرى أن الجميلات الثلاث اللاتى قابلهن دانتى قـد كشفن له عن شخصياتهن التى لم يتعرفها ، تمـاما كمـا فعلت حمدونة وتوفيق اللتان لم يعرفهما ابن القارح وكان يظن أنهما حوريتان من حوريات الجنة(١) ٠

٧ ـ تكشف الرحلة التى قام بها بطل القصة الإسلامية للنار بعد مقابلته مباشرة لحمدونة وتوفيق ، عن مشـابهات أخرى ، وان كان تتـابع الأحداث معكوسا ؛ ذلك أن دانتى زار النـار قبل الفردوس ٠

اعترض دانتى فى بداية رحلته نمر وأسـد وذئبـة ٠ وبعـد أن تخلص من هـذه الأخطار قابل فرجيل أمير الشعراء القدماء ، الذى يقوده الى حديقة اللمبو ، حيث يسكن عباقرة الفـكر فى العصـور القديمة ٠ ثم يبدأ النزول الى الجحيم ٠

نعود الى بطل القصـة الاسلامية ، فنراه يزور الخيتعور رئيس الجـان قبل أن تعترضه أية أخطار ٠ وكان الخيتعور جالسا عنـد مدخل منازل الجان يتغنى بملحمتهم البطولية ٠ وهـذه الحديقة تمثـل اللمبو عنـد دانتى ؛ اذ هى منطقة متوسطة بين النار والجنة ٠ ثم ان دارسى دانتى قـد حاولوا تفسير المعنى الذى رمى اليه الشـاعر بهـذه الصورة الرمزية للحيوانات الثـلاثة التى سـدت طريقه الى الجحيم(٢) ٠ ومهمـا يكن من أمر الفروض التى لا تعـد ولا تحصى التى تقـدم بهـا المفسرون ، فاننـا لا نقـع فى أى مكان على نموذج أوضح من نموذج القصـة الإسلامية ، احتذاه دانتى فى تصويره لهـذا الحادث ٠ وقد ذكرنا من قبل أن ذئبا وأسدا اعترضا طريق بطل القصة الإسلامية

---

(١) المطهر ٥ / ١٣٣ ؛ الفردوس ٣ / ٤٩ ؛ ٩ / ٣٢ ٠

(٢) Cf. Fraticelli, L Della Primae Principale allegoria del Poema di Dante (in La Divina Commedia), pp. 18—27. For the bibliography on this point see Rossl, 1, 173.

وهما حيوانان من الثلاثة التى هاجمت دانتى • ويلوح أن دانتى عندما استوحى المنظر الذى وضعه من المصـــدر الإسلامى ، قـــد كيفه ببعض التحوير ليتطابق مـــع مراميـــه الرمزية(١) •

٨ ـ نقع ايضا على حدث آخر فى القصة الإسلامية شبيه جـــدا بمنظر فى قصيدة دانتى ، هو المقـابلة التى حدثت بين آدم والمســافر الإسلامى عندما عاد الأخـــير من النار ، وتباحث مع آدم فى اللغة الأصلية التى كان يتكلمها • أمـــا دانتى فقـــد قابل هو الآخر آدم فى السماء الثامنة ، ودار بينهما حديث حول اللغة التى كان يتـــكلمها أبو البشر فى جنة عـــدن •

٩ ـ واخيرا ، يذكرنا المنظران اللذان صـــورهما أبو العـــلاء عنـــد رجوع ابن القارح من النـــار الى الجنـــة ، بحدثين وقعـــا فى المطهر عنـــد دانتى بعـــد صعود الشـــاعر مباشرة الى الجنة السماوية • ذلك أنه يلوح جليـــا بان الحوريات اللاتى استقبلن المسافر الإسلامى بعبارات التقريع الرقيقة لتاخره ، ثم تجاذبن معه أطراف الحديث وهم يسيرون خلال بســـاتين مزهرة ، كن النمـــوذج الذى استقى منـــه دانتى تصويره لمـــا تيـــلدا صاحبة العينين اللامعتين والفم الباسم ، التى انتظرت دانتى عنـــد مدخل الغـــابة فى الجنة الأرضية ، والتى أجابت على أسئلته بكياسة وفطنة ، وهمـــا يسيران فى مروج يانعـــة مزهرة • وفجاة يلحظ دانتى على شاطىء نهر من أنهـــار الجنة موكبا رائعا تسير فى منتصفه حبيبته بياتريتشى وقـــد أحاط بهـــا عدد من العذارى والشيوخ • وكذلك راى ابن القـــارح منظرا أدهشه ، هو أولاء الحوريات اللائى تجمعن عنـــد حافة نهـــر من أنهـــار السماء ، وهن يحطن بحورية من حوريات الجنة هى حبيبة امرىء القيس •

١٠ ـ اذا القينا نظرة عامة على كلا المؤلفين ، يتضح لنـــا أن أبا العلاء رمى الى غرض فنى فى المقـــام الأول ، وهـــذا ما رمى اليه دانتى أيضا فى كوميديته • ذلك أنه على الرغم ممـــا يمكن أن توصف به الكوميديا الإلهية بأنها موسوعة معارف لاهوتيـــة أو قصة رمزية أخلاقية ، أو غير ذلك ، فانهـــا قبل كل شىء عمـــل رائع فى نطاق الفن الأدبى ، فيـــه روى الشـــاعر قصـــة الحياة الأخرى بمـــا أوتى من وحى شاعرى • وكذلك استعرض أبو العلاء مهارته الفائقة فى معالجة الفنيات الصعبة للأوزان العربية ،

---

(١) استشهد فوسلر (Vossler, 11, 169) بسفر ارميا ٥ / ٥ ، حيث ذكر فيه النمر والأسد والذئب ، غير اننا نرى ان التشابه مع القصة الإسلامية اكثر توافقا ، ذلك انه جاء فى هذه القصة ان الذئب والأسد كانا يعترضان طريق ابن القارح الى النار •

وعلى الرغم من أن رسالة الغفران لم تكتب فى واقع الأمر شعرا ، فان الشاعر العربى قد أغناها بكل ضروب التفخيم التى يتصف بها ذلك الأسلوب الشاعرى الذى يعرف فى الأدب العربى بالشعر المنثور •

٨

ملخص المقارنات

١ ـ عمدنا فى الفصول السابقة الى رسم صورة مفصلة لأصل وتطور القصة الدينية التى تصف اسراء محمد وعروجه الى ممالك الحياة الأخرى فى العالم الإسلامى • ولقد درسنا الروايات المختلفة التى حيكت حول هذه القصة دراسة دقيقة وقارناها بكوميدية دانتى ، ووضحنا وجوه التشابه بين القصتين • وفيما يلى اجمال للنقاط التى حققناها •

نسج الخيال الشعبى فى العالم الإسلامى حول آية قرآنية أشارت الى رحلة اعجازية قام بها محمد الى ممالك الحياة الأخرى ، عددا من الروايات المختلفة حول القصة • ورأينا كيف وقع مؤلفو هذه القصص على صيغ مختلفة من صيغ التعبير والصياغة فى أقوال رواة الأحاديث ، الذين وصفوا مرحلتى الرحلة الأساسيتين ، أى زيارة جهنم والصعود الى الجنة ، كانت مليئة بكثير من التفاصيل الزاخرة بمختلف الفكرات • وكيف شاعت جميع هذه الروايات فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ابتداء من القرن التاسع الميلادى ، وكيف انصهرت مرحلتى الرحلة فى بعض الروايات المبكرة انصهارا أدى الى تكوين قصة واحدة مرتبطة الأحداث كما فى الكوميديا الإلهية •

٢ ـ تشترك جميع هذه الروايات فى أن محمدا ، هو الذى يروى الرواية كما فعل دانتى • بدات كل من الرحلتين ليلا بعد أن يوقظ بطل القصة من نوم عميق • يعترض أسد وذئب فى احدى القصص التى حاكى فيها المؤلف المسلم قصة المعراج ، أى فى رسالة الغفران ، طريق المسافر المؤدى الى النار ، وكذلك يعترض طريق دانتى نمر وأسد وذئبة • واضح جدا أن الخيتعور ملك الجان ، الذى قابله المسافر المسلم ابن القارح ، هو المقابل لفرجيل أمير شعراء الأعصر القديمة الذى قاد دانتى الى حديقة اللمبو • يظهر فرجيل امام دانتى ، تماما كما يظهر جبريل امام محمد ، يبذل كل من هذين الدليلين أقصى جهده ليرضى فضول المسافر • التحذير الذى يتلقاه كل

من بطلى القصتين عنـدما يقتربا من النار متطابق ، هو سماع أصوات متخالطة منكرة وارتفاع السـنة النيران • يرفض كل من خازنى النار شديدى البأس فى كل من القصتين السماح للمسافر بالنظر الى النـار ، حتى يهدأ غضب كل منهما بعـد أن يسمع أمرا من السـماء ، يكون دليـل كل من المسافرين هو الذى استحث السماء على اصداره • عفريت الجن الذى طارد محمـدا بشـعلة من نار فى بداية رحلة الاسراء ، له نظير فى الكوميديا الإلهية • هو الشيطان الذى هاجم دانتى فى الخندق الخامس من الدائرة الثامنة • يتلو فرجيل أمرا مقتضبا فيسقط السلاح من يد الشيطان ، تماما كمـا يعلم جبريل محمدا كلمات يقرؤها فيخر العفريت لفية •

أما التصميم العـام للجحيم فصورة طبق الأصل من النار الإسلامية • فكل منهما على صورة قمع كبير أو مخروط مقلوب ، يتكون من أطبـاق بعضها فوق بعض ، كل طبق منها مخصص لفئة معينة من الهـالكين • ينقسم كل طبق من هـذه الأطباق الى دركات مختلفة لمختلف درجات الجرم • وكل طبق أشـد حرا من الذى فوقه ، وكلمـا عمق الطبق اشتدت العقوبة تبعا للإثم • ثم ان النظام الأخلاقى فى كل من النارين متشابه ، ذلك أن التـكفير عن الذنوب فى كليهما اما مشابه للإثم الذى ارتـكبه الشقى واما نقيضه • وأخيرا تقع كل منهما فى أعماق الأرض تحت مدينة القدس •

ثم اننـا نقع أيضا على مشابهات كثيرة بين ضروب التعذيب فى كل من النارين • مثال ذلك أن الزناة الذين تتقاذفهم هنـا وهناك زوبعة جحيمية عنـد دانتى ، تتقاذفهم فى النار الإسلامية ألسنة هائلة من النيران تطوح بهم الى أعلى والى أسفل • أما وصف الباب الأول من أبواب النـار الإسلامية فينطبق تماما على الصورة التى وصفها دانتى لمدينة ديس ، أى بحر من نار على سواحله مدن من نار فيهـا توابيت من نار ، يسبح المرابون فى بعض الروايات الإسلامية فى نهر من دم ، كمـا يسبح عنـد دانتى أولئك الذين ارتـكبوا جرائم عنف فى نهر من دم أيضا ، يحرسهم زبانية يلقمونهم أحجارا من نار • رأى دانتى النهمين واللصـوص تعـذبهم الحيـات ، وكذلك تنهش الحيـات فى النـار الإسلامية الظالمين وأكلة أموال اليتامى والمرابين • العطش الشديد الذى يقاسيه المزورون فى الـكوميديا الإلهيـة ، يقاسيه فى النـار الإسلامية شاربو الخمر • يقاسى المزورون عنـد دانتى من بطونهم المنتفخة ، ويقـاسى المرابون فى النـار الإسـلامية كما جاء فى احدى الروايات عذابا مشابها • يحك جريفولينو وكابوتشيوقشور جروحهم المجذامية فى جحيم دانتى ، وكذلك يفعل النمامون والمغتابون فى النار الإسلامية •

يمنح الشياطين فى جحيم دانتى المخادعين بحرابهم من الخروج من بحيرة فيها قار يغلى ، وكذلك يقاسى الأبناء العاقون فى النار الإسلامية الذين ينخسهم الزبانية بحرابهم كلما صاحوا طالبين الرحمة وهم غائصون فى لهيب النيران المتأججة ٠

ويذبح الشياطين فى جحيم دانتى مثيرو الشقاق والفتنة ، وكلما عادت اليهم الحياة من جديد ذبحوهم وهكذا الى أبد الآبدين ، وهى نفس العقوبة التى يعاقب بها فى نار الإسلام أولئك الذين يقتلون أنفسهم ٠

٣ ـ يشجع جبريل محمدا على صعود الجبل الوعر ، تماما كما يشجع فرجيل دانتى على صعود جبل المطهر ٠ تظهر الصور الرمزية بكثرة فى كلا القصتين ٠ وهى تتفق فى بعض الأحيان من حيث الرمز والمعنى ٠ مثال ذلك : المرأة التى حاولت على الرغم من بشاعتها أن تغرى دانتى فى الدائرة الرابعة من دوائر المطهر ، فهى تكاد تكون صورة مطابقة للعجوز الناشرة شعرها التى حاولت أن تغرى محمدا فى بداية رحلته ٠

وفضلا عن ذلك يتفق جبريل وفرجيل على أن المرأة التى قابلت محمدا أو تلك التى قابلت دانتى ، انما ترمز الى فتن الدنيا الباطلة ٠

يفصل نهر الجنة عن المطهر فى كل من القصتين ، ويشرب كل من محمد ودانتى من ماء النهر ، ثم ان هـذا ليس كل شىء ؛ ذلك أن دانتى اغتسل بعد زيارته للنار ، غسلا مطهرا ثلاث مرات ٠ وغسل فرجيل بيديه ـ بناء على نصيحة كاتو ـ وجه دانتى ، وعند تركهما للمطهر تغطس ماتيلدا دانتى وستاتيوس فى نهرى ليث وايونى اللذين تمحى مياههما جميع الآثام ٠

وفى القصة الإسلامية تتطهر الأرواح ثلاث مرات أيضا فى أنهار تجرى فى جنة ابراهيم ، تجعل مياهها وجوههم بيضاء ناصعة وتطهر نفوسهم من الآثام ٠

يقابل ابن القارح حورية جميلة عند باب الجنة تستقبله استقبالا حسنا ، فيصحبها ويسيران معا فى رياض الجنة ، حتى يرى عددا من الحوريات يحطن بحبيبة الشاعر امرىء القيس وهن يسرن على شاطىء النهر ٠

وكذلك يقابل دانتى عند ما يدخل الجنة الارضية فتاة حسناء هى ماتيلدا ، ويسير معها فى مروج مزهرة ، ويلمح على شاطىء أحد الأنهار موكبا رائعا فى منتصفه حبيبته بياتريتشى يحيط بها فتيات جميلات وشيوخ ، وهى فى طريقها من الجنة السماوية لزيارته ٠

٤ ـ تصميم كل من الجنة فى القصة الإسلامية وفى كوميدية دانتى متطابق ، وعلى الأقل فى حدود النظام البطلميوس الفلكى • ذلك أن كلا من محمد ودانتى قد قابلا فى السماوات التسع لهذا النظام الفلكى (أى أفلاك الكواكب السبعة وفلك النجوم الثوابت ثم الأبراج) أرواح الذين أنعم الله عليهم بالجنة ، والذين ينتهون جميعا الى سماء السماوات أو عليين وهى آخر السماوات • وفضلا عن هذا كله تتطابق تسمية هذه السماوات التسع فى كل من القصتين فى بعض الأحيان تبعا لأسماء هذه الأجرام السماوية • وكذلك يتشابه النظام الأخلاقى بين الفينةوالفينة ، مثال ذلك : تجميع الأرواح فى الأفلاك المختلفة تبعا لتفاضلهم ، أو توزيعهم بعض الأحيان ـ سواء فى القصة الإسلامية أو فى كوميدية دانتى ـ بناء على تبعيتهم لفلك معين حسب نظريات التنجيم ، أو بناء على مزيج من نظريات التنجيم ونظريات الأخلاق •

ولا مشاحة فى أن وصف الجنة فى بعض روايات القصة الإسلامية كان وصفا روحانيا يتطابق مع الصورة التى خلدت الفردوس فى الكوميديا الإلهية • مثال ذلك : أن ظاهرتى النور والصوت قد استخدمتا وحدهما فى كلا القصتين لتعبرا عند انطباعات محمد ودانتى فيما يتعلق بالسماوات الأثيرية • ثم ان النور الذى كانت درجة لمعانه تزداد فى كل مرحلة قد بهر كلاً منهما • خشى كل منهما من أن يحرق النور عينيه فكان يرفع يديه ليضعهما على وجهه ، فيهدىء دليله من مخاوفه ويضفى عليه الله قوة تمكنه من أن يطيق النظر الى هذا النور الباهر • عبر كل منهما عن عجزه عن التعبير عن آيات الله التى رآها • صعد كل منهما خلال الهواء يقوده دليله بسرعة شبيهة بسرعة الريح أو السهم • كانت الواجبات المناط بها كل دليل متعددة الوجوه ، فانهما لم يقودا المسافرين ويهدآ من مخاوفهما فحسب ، وانما كانا يتضرعان الى الله نيابة عنهما ، ويطلبان منهما أن يشكرا الله على ما حبا كلا منهما من منه •

وكما تخلت بياتريتشى عن دانتى فى آخر مراحل صعوده ، فكذلك تخلف جبريل عن الصعود مع محمد عند ما أتته الملائكة بالرفرف الأخضر الذى حمله الى الحضرة الإلهية •

قابل محمد فى كل من سماوات الكواكب وفى مختلف المنازل عددا كبيرا من أنبياء الكتاب المقدس ، تحيط بهم أرواح أتباعهم على الأرض • كما قابل كثيرين من مشاهير الشخصيات التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس وفى التاريخ الإسلامى • ودخل فى القصص الأدبية ـ التى حاكت قصة الإسراء والمعراج النبوية (رسالة

الغفران) ــ عدد من الرجال والنساء ، كانوا جميعا على وجه التقـــريب ــ بغض النظر عن انتمائهم لجميع الأديان والرتب الاجتماعية ــ من مشــاهير الـكتاب فى التاريخ الإسلامى • وكان كثيرون منهم معاصرين لبطل القصـــة أو من معارفة ، وقـد ظهرت كل فئة منهم فى حلقة خاصة بفرع المدرسة الأدبية التى تنتمى اليهــا • وهكذا رأينــا أن" كلا من الجنة والنـــار فى هذه القصة التى حاكى فيهــا المؤلف الإسلامى قصة الإسراء والمعراج المحمــدية ، قد اكتظت بتلك الجماعات الغفـيرة من الشخصــيات الثانوية التى تؤلف صورة ملفتة للنظر للـكوميديا الإلهيــة • ثم ان كلا من المؤلفين قــد لجئآ الى نفس الأساليب لإدخال شخصيات جديدة فى المناظر التى عرضها ، فـكان المسافر فى هذه القصة أو تلك اما يسأل عن روح معينة ، واما تظهر هذه الروح فجأة وتظـل غير معروفة له ، حتى تقوم روح أخرى قريبة منه ، بتعريفه بصــاحب هــذه الروح • كان المسافران فى كلتا القصتين يتحدثان مع الأرواح فى الجنــة والنار حول موضوعات أدبية أو لاهوتية ، أو حول أحداث وقعت على الأرض لصاحب الروح •

وأخيرا نرى أن كــلا من المؤلفين قــد وزعا الأرواح فى مختلف منــازل العــالم الآخر تسيطر على كل منهما روح من التسامح تلقــاء الآثمين ، وان تأثر كل منهمــا فى بعض الأحيــان بعوامل شخصية • عبر كل منهما ــ عند مشاهدته لأرواح المنعمين أو الأشقياء الهالــكين ــ عن سروره واغتباطه أو عن شفقته ورثائه لحالهم ، فضــلا عن أن كلا منهمــا كان من حين لحين يعبر عن شــعوره بالارتياح لمــا يلاقى بعض التعســاء من آلام فى نارجهنم • ثمّ ان أحداث العروج فى قصــة المعراج وفى قصــيدة دانتى لم تتطابق من حيث المبنى العام لـكل منهما فحسب ، بل ان كثيرا من أحداث الجنة فى كليهما تتشابه ، ان لم تتطابق تمام التطابق •

يرى دانتى ــ مثلا ــ فى سماء المشترى نسرا كبيرا يتألف من عدد لا يحصى من الأرواح اللامعة ، كله أجنحة ووجـــوه ، وهو دائم التحـــذير لبنى آدم بأن يتبعـــوا الطريق القويم ، يخفق بأجنحتــه ثم يســكت • وكذلك رأى محمــد مــلكا هائلا فى صورة ديك يخفق بأجنحته ويصيح ليقوم المصلون الى صلاتهم ثم يســكت • ثم انه رأى أيضا ملائــكة لكل ملاك ألف جنــاح ، وألف رأس ، فى كل رأس ألف وجــه • فى كل وجه ألف فم ، فى كل فم لســان يســبح الله تعالى بألف لغة • فاذا أدمجنــا هاتين الصورتين الإسلاميتين معا ، اذن لخرجنا بصــورة النسر الهائل الذى وصــفه دانتى •

رأى دانتى ـ فى سماء زحل ـ سلما ذهبيا يؤدى الى أعلى السماوات • ورأى أرواح السعداء وهى تهبط على هذا السلم ، فصعد عليه هو وبياتريتشى كما أشارت اليه ، فى أقل « مما تسحب يدك من النار » وأما محمد فرأى هو أيضا فى أثناء صعوده سلما يصعد من القدس الى أعلى السماوات ،تحف بجانبيه الملائكة ، له مرقاة من فضة ، ومرقاة من ذهب ، ومرقاة من الزبرجد ، تصعد عليه الأرواح ، فصعد عليه يقوده جبريل فى أقل من طرفة عين •

قابل دانتى ـ فى الجنة ـ بيكاردا احدى مواطناته فى فلورنسا ، وكونتزا احدى مواطنات بادوا ، وهما معروفتان له معرفة جيدة • وكذلك قابل ابن القارح فى رسالة الغفران امرأتين يعرفهما : حمدونه مواطنته من حلب ، وتوفيق البغدادية ـ وفى كلتا القصتين تعرّف كل من أولاء النساء المسافر بنفسها ، وتحكى له مشكلات زواجها على الأرض ، أو تتركه مأخوذا بجمالها الفتان •

يقابل ابن القارح آدم فى الجنة ويتحدث معه عن اللغة الأصلية التى كان يتكلمها فى جنة عدن • وكذلك فعل دانتى تماما •

يتشابه الاختبار الذى خضع له دانتى فى السماء الثامنة حول فضائله اللاهوتية ، بذلك الاختبار الذى تخضع له روح المسلم فى بعض القصص الرمزية التى حاكت قصة المعراج النبوية •

الملائكة الذين يطوفون حول الوردة الطوباوية فى الفردوس عند دانتى ، وجوههم من نار وأجسادهم أبيض من الثلج ، لهم ما يقابلهم فى القصة الإسلامية ، ذلك الملك الذى رآه محمد ، نصفه من ثلج ونصفه من نار •

يحث دليل كل من محمد ودانتى صاحبه ، بعد أن يصلا الى السماء التى تقع فوق سماوات النظام الفلكى ، على أن ينظر الى أسفل ، فيرى مندهشا صغر هذا العالم الأرضى بالنسبة للكون الأعلى •

يتشابه التجلى فى كل من العروجين (أى عروج محمد وعروج دانتى) ؛ فقد وصف كل منهما رؤية الله كما يأتى : الله مركز نور باهر ، يحيط به تسع دوائر متحدة المركز من الملائكة لا يحصيهم العد ، تنطلق منهم اشعاعات مدهشة • أما العرش فعند مركز هذه الدوائر • رأى كل من محمد ودانتى جلال هذه الدوائر مرتين وهى تدور بلا توقف حول النور الإلهى ، مرة من بعيد قبل أن يصل الى

نهاية رحلته ، ومرة ثانية عنـد ما يمثل أمام العرش • كذلك كان الأثر الذى تركته الرؤية فى عقل كل منهما متشـابها • بهر النـور كلا منهما فى بداية الأمر حتى لقـد تصـور أنه فقد البصر ، ولـكنه يستعيد قوة الإبصـار شيئا فشـيئا حتى يطيق النظر الى النور • يعجز كل منهما عن وصـف الرؤية ، ولا يتذكر الا أنه قـد انبهت بجمال الرب وأن ذاته أشرقت بهذا الجمال الأقدس •

٥ ـ ثم ان هـذا كله ليس خاتمـة المطاف فى تبيـان المشابهات بين القصـتين ، ذلك أننـا نقع على روح عامة مشتركة تسرى فى جميع مراحلهما •

نرى مثلا : أن المعنى الأخلاقى الذى رمى اليه دانتى قـد عمـد اليه من قبل وأفصح عنـه الصوفيون المسلمون ، وعلى الأخص ابن عربى • استخدم الصوفيون المسـلمون تلك الأحداث المفعمة بالحركة والمشاعر المثيرة ـ التى افترضوا أنهـا صحيحة ـ والتى جاءت فى رحلة قام بهـا رجل من بنى البشر ـ هو محمد ـ الى مملكة الجحيم السفلية ، والى المـالك السـماوية ، وهدفوا من ذلك الى أن يرمزوا الى تجـدد الروح عن طريق الإيمـان وممارسة الفضائل اللاهوتية • ثم ان هـذه الرحلة كانت فى مفهوم دانتى وعند ابن عربى من قبل رمزا لحياة الإنسـان الأخلاقية ، ذلك الإنسان الذى وضـعه الله على الأرض ليحدد بنفسـه مصير ذاته ، وليبلغ أقصى درجات النعيم التى تتمثـل فى رؤية الحق ـ أى الله ـ وهـذا أمر لا يستطيع بلوغه بدون الامتثال باللاهوت • ذلك أن قواه العقلية تستطيع فقط أن تقوده فى خلال المراحل الأولى من رحلته ، التى ترمز الى الفضائل الأخلاقيـة والفـكرية • أما المنـازل النورانية التى توجد فى الجنة ، التى تمثـل الفضـائل اللاهوتيـة ، فلا يسـتطيع بلوغهـا الا عن طريق العنـاية الإلهية • وعلى ذلك لم يعـد الزائر لهـذه المالك السـماوية فى قصـة ابن عربى وغيرها من القصص التى حاكى فيهـا مؤلفوها ـ قصـة الإسراء والمعراج النبوية ـ محمـدا ، بل ولا وليـا من أولياء الله الصالحين ، وانمـا رجل آثم عادى ، تمـاما كمـا فعل دانتى ؛ اذ صور نفسه فى قصيدته باعتباره فيلسوفا ، أو لاهوتيا أو شاعرا • وكذلك نجد أن الشخصيات الثانوية ، وحتى تلك التى كانت تظهر فى الجنة ، عبـارة عن رجال حقيقيين من الصـالحين أو الآثمين ، وكثيرا ما كانوا من الـكفرة التـائبين • من هـذا نرى أن المعروج الإسلامى الى ممـالك الحيـاة الأخرى ، قـد جمع فى رواية واحـدة بين العناصر المتناقضة للواقعية من ناحية ، والمثـالية الرمزية من ناحية أخرى ، تماما ، كما فى قصيدة دانتى •

٦ ـ تتميز كل من قصيدة دانتى وقصة عروج ابن عربى بغموض الأسلوب • ويحاول كل من الكاتبين استعراض معارفه الواسعة بأن ينطق شخصيات روايته محادثات طويلة مبهمة فى الفلسفة واللاهوت والفلك • أما اذا وضعنا فى حسباننا ، فضلا عن ذلك ، أن العروج الإسلامى قد جذب ـ كما جذب عروج دانتى ـ حشدا غفيرا من المفسرين ، الذين حاولوا أن يكتشفوا المعانى الكثيرة التى تنطوى عليها أدق التفاصيل ، وأن رسالة الغفران التى كتبها أبو العلاء ، قد أملاها على الشاعر غرض محدد ، هو توريث الأجيال التالية تحفة فريدة من الفن الأدبى ، وأن شعرها المنثور يعبر عن صعوبات فنية ، تبلغ فى درجتها أو ربما تفوق ، الصعوبات التى لقيها دانتى فى كتابة مجموعات أبياته الثلاثية ، فاننا ازاء هذا الحشد من الأدلة والبراهين ، لا نملك الا التسليم بالحقائق التالية باعتبارها حقائق لا تقبل الجدل :

٧ ـ أنه وجد فى الأدب الإسلامى قبل أن يتصور دانتى قصيدته الرائعة بستة قرون على الأقل ؛ قصة دينية تروى أحداث رحلة قام بها محمد الى ممالك الحياة الأخرى • وأنه فى غضون الفترة التى مرت بين القرنين الثامن والثالث عشر من الميلاد ، تضافر عدد غفير من رواة الأحاديث واللاهوتيين والمفسرين والفقهاء والصوفيين والفلاسفة والشعراء المسلمين ، على نسج خيوط روايات دينية ، تدور حوادثها جميعا حول القصة الأصلية • وأن هذه الروايات كانت فى بعض الأحيان مجرد اسهاب واستفاضة فى أحداث القصة الأصلية ، وأنها كانت فى أحيان أخرى تكييفات رمزية ، أو محاكيات أدبية • ثم اننا نستبين جليا من مقارنة جميع هذه الروايات مجتمعة بقصيدة دانتى ، أن هناك نقاط تشابه كثيرة ، بل تطابقا مطلقا فى بعض الأحيان ، فى التصميم العام والبناء الأخلاقى للجنة والنار ، وفى وصف ضروب التعذيب أو النعيم ، وفى الخطوط العامة لسياق الأحداث المثيرة المفعمة بالحركة ، وفى المعانى الرمزية ، وفى الأدوار التى يقوم بها بطل الرواية والشخصيات الثانوية ، وأخيرا فى القيمة الأدبية الحقيقية •

٨ ـ أما المشكلات الممتعة التى تثيرها هذه المشابهات ، فسوف نعرض لها فيما بعد ، ولكننا الآن نريد أن نقول كلمة فى أصل القصة الإسلامية ، نواجه بها اى اعتراضات قد تثار •

ليست قصة المعراج أول قصـة من نوعها ، ذلك أننا نقع على قصص مشابهة لها فى آداب الحضارات القديمة ، غير أن مسالة أصـل قصـة المعراج ليس على أية حال بذى قيمـة كبيرة • والحق أنه لا يصعب علينـا أن نقع على مشابهات لقصة المعراج الإسلامية فى عروجات موسى وأخنوخ وباروخ وأشعيا ، أو فى صعود عيسى ابن مريم الى السماء ، وصعود القديس بولس الى السماء الثالثة • غير أن أيا من هذه الرجـلات والعروجات لم تنم عن ضروب التطوير والتحوير فى الآداب التى تنتمى اليها ، مثلما حدث للقصة الإسلامية ، ولم تزخر بمثل ما زخرت به هـذه القصـة الأخيرة •

— — — — —

الفصل الثاني

مقارنة الكوميديا الإلهية

بقصص اسلامية أخرى عن الحياة بعد الموت

١

مقـــدمة

١ ـ تثير المشابهات القريبة التى تحملها كوميدية دانتى الإلهية لقصة المعراج ، والتى تبيناها فيما سبق ، عددا من المشكلات الخاصة بتاريخ الأدب ، وهى كلها مشكلات تتعلق بمسألة الأصالة والإبداع فى قصيدة دانتى • وهى مشكلات على جانب كبير من الأهمية تقتضينا أن نتعمق فى بحث ودراسة القصيدة فى مختلف أجزائها ـ اللمبو ، والجحيم ، والمطهر ، والفردوس ـ حتى نستطيع أن نقرر اذا ما كان كثير من الملامح الوصفية ، بل أحداث ومناظر برمتها ، على الرغم من أنها لا تبدو شبيهة بقصة المعراج ، هى مع ذلك قريبة الشبه بقصص ومعتقدات اسلامية أخرى •

٢ ـ نبدأ أولا بعرض مختصر لنظرية الإسلام فى الحياة الأخرى • ذلك أن هذا أمر سوف يمكننا من أن نقبل أو نرفض منذ البداية ترجيح وجود مشابهات بين مفهومات دانتى والعرب فى الحدود التى تتفق أو تختلف فيها النظرية الدينية الإسلامية مع تعاليم المسيحية حول نفس النقطة •

٣ ـ الحق أن كلا من الدينين الإسلامى والمسيحى لا يتفقان فى مفهوم من مفهوماتهما أكثر مما يتفقان حول الحياة الأخرى • تعيش الروح بناء على الدينين فى أربع حالات مختلفة • ولقد قدم لنا كبار علماء الإسلام فى القرن الحادى عشر آخر المفهومات المحددة حول هذه النظرية ، وعلى الأخص اللاهوتى الأخلاقى الكبير الغزالى(١) •

حالة العذاب الأبدى التى تخضع لها أرواح المسلمين الذين أنكروا الله وانغمسوا

---

(١) أحياء علوم الدين ١٧/٤ ـ ٢٣ ؛ اتحاف السادة المتقين ٥٤٨/٨ وما بعدها •

فى ملذات الدنيــا ، هى نفس حالة العذاب الذى تحدثنا عنــه المسيحية • أما اذا كان عذاب النار فى المسيحية عذابا جسديا ومعنويا ، فــكذلك تخضع نفس المسلم الى عذاب جسدى أبدى فى جهنم ، فضلا عن ألهــا المبرح لاشتياقها الى الله •

ثم ان النعيم الأبدى الذى يلقاه المسلم فى الجنة ، يقابل ما يلقاه المسيحى أيضا ، وهى حالة تلك الأرواح التى عاش أصحابها مؤمنين ايمــانا صادقا وماتوا أبرياء أو تائبين من جميع وصمات الذنوب • وهؤلاء ثوابهم مضاعف ، ذلك أنه فضلا عن اللذات الحسية التى وعــد بهــا الدين الإسلامى المؤمنين الصالحين من أتباعه ، فانهم يمــارسون فى الجنة ضربا من النعيم المطلق يحققه لهم تأملاتهم الروحية للنور الإلهى •

أما الحالتــان اللتان تعيش فيهما روح المسلم بين الجنة والنار فقريبتا الشــبه من حالتى أرواح المسيحيين فى المطهر واللمبو • يقرر الغزالى أن العقوبة التى يخضع لهــا المسلم فى الصراط (مطهر الإسلام) تختلف عن تلك التى يلقاها فى النار ، من حيث أنها مؤقتة لا أبدية • حقــا ان المطهر المسيحى عبارة عن المكان الذى تكفر فيــه الأرواح عن الخطايا البسيطة ، أو عن الخطايا الــكبيرة التى يكون اثمها قــد زال ، فى حين أن المطهر الإسلامى قــد خصص لأولئــك الذين ظلوا حتى وفاتهم مؤمنين بقلوبهم ، ولم يمنعهم عن التوبة الا الموت ، على الرغم من أن ذنوبهم كبيرة • والإيمــان الذى ينجى هــذه الأرواح ، بنــاء على قول الغزالى ، ليس ذلك الإيمــان الــكاذب وانمــا الإيمــان الصادق الذى تعبر عنــه المشاعر والأعمال الصالحة • وهــذا الإيمان الصادق بالله وبشــفاعة نبيــه ، هو اذن فى الواقع نفس روح التوبة التى تشترطهــا المسيحية لخلاص المسيحى •

أما الحالة الرابعة التى تمثل اللمبو المسيحى ، فهى تمــاثل حالة تلك الأرواح التى لميخدم أصحابها الله ولم يغضــبوه ، والذين أعفوا من العقاب وان حرموا من النعيم الأبدى ، وهــذه حالة المجانين ، والمعتوهين ، وأطفــال الــكفار ، والبــالغين الذين لم يسمعوا قط بدعوة الإسلام ، والذين ماتوا وهم يجهلون كفرهم •

لا مرية اذن فى أن العرض السابق يكفى لتبيــان التشــابه بين الأسس الأخلاقية التى تقوم عليها كل من مفهومات الإسلام والمسيحية فيمــا يتعلق بالحياة الأخرى • ولا عجب اذن أن نعلم أن حجة كبير مثــل القديس يوحنا الدمشقى قــد اعتبر الإســلام ضربا من المسيحية يجنح الى الهرطقة ، وذلك بقدر ما ينكر التثليث وألوهية المسيح(١) •

---

(١) Cf. De Haeresibus Opera Omnia Paris Vol. 1,110-115 No loo

وقد قرر الغزالى ذاته حجة الإسلام الكبير أن جميع تعاليم المسيحية حقيقة لا يأتيهـا الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، فيما عـدا هاتين النقطتين(١) ٠

٢

اللمبو الإسلامى (الأعراف) فى الـكوميديا الإلهية

١ ـ كانت أول مناطق العالم السفلى التى زارها دانتى هى تلك المنطقـة التى خصصت للأرواح التى لم يحسن أصحابها ولم يسيئوا ٠ ولقد أطلق دانتى على هذا المكان اسم « لمبو(٢) » ٠

استعمل كتّاب العصـور القديمة ؛ مثل : فرجيل ، وأوفيـد ، وسـتاتيوس ، الاسم اللاتينى « لمبوس Limbus » بمعنى الشراريب « الهدب » أو « الزيق » أو الحرف الذى يزين الجزء الأسفل من الثوب ، وهو على أى حال اسم يكتنف أصـله الغموض ٠ أما الاسم الذى استعمله الـكتاب المقدس ورجال الإكليروس للدار التى تنزل فيها الأرواح التى لم تأثم ولم تحسـن فهو « حضن ابراهيم » لا « اللمـبو » على الإطلاق ٠ ولا يعرف فى الحقيقة من الذى أدخل هذا الاستعمال فى الأدب المسيحى ٠ فقد ظهر فجأة فى أعمال المفسرين الذين تناولوا أعمال بطرس لمبارد ، وهم من معاصرى دانتى ، الذين أطلقوا هذا الإسم على دار الأطفال غـير المعمـدين ، والآباء الذين جاء ذكرهم فى العهد القديم(٣) ٠

وضع دانتى هذه الدار فوق النار مباشرة ، كما لو كانت ملحقة بها ، وقسـمها قسمين : القسم الملاصق للجحيم ، وهو المخصص لأولئك الذين لم يأثموا ولم يحسنوا(٤)

(١) يقول الغزالى : « فلو قيل لا اله الا لله عيسى رسول الله : نفر عن ذلك طبعك وقلت هـذا قول النصارى فكيف اقوله ؟ ٠ ولم يكن لك من العقل ما تعرف به ان هـذا القول فى نفسه حق وان النصرانى ما مقت لهـذه الكلمة ولا لسائر الكلمات بل لكلمتين فقط : إحداهما قوله الله ثالث ثلاثة ، والثانية قوله محمد ليس برسول الله ، وسائر اقواله وراء ذلك حق » القسطاس المستقيم ص ٦٠ ٠

(٢) الجحيم ٤/٤٥ ٠

(٣) Cf. Petavius, Dogm. Theolog. Iv (Pars sec) lib 3, oap. 18, — 5. The texts Ducange refers to in his Glossarium (s.v.) are later than the twel gth century, St Thoma s in the Summa the ologia (Pars 3, q. 52) Calls the limbo of the Patriar chs infernus and Sinus Abrahae, but in the Supplenemtum tertiae partis (G. 69,) he already adopts the name Limbus.

(٤) الجحيم ٣/٣٤ ٠

وللملائكة الذين ظلوا محايدين فى أثناء عصيان ابليس لله(١) • والقسم الثانى اللمبو الأصلى ، وهو عبارة عن واد مظلل عميق ، يوجد فى منتصفه قصر يحيط به سبعة أسوار ، لها سبعة أبواب تؤدى الى مرج جميل(٢) •

يسكن اللمبو الأطفال الذين ماتوا أبرياء ، ولكن لم يعمدوا ، والرجال والنساء الذين عاشوا حياة صالحة ، ولكنهم كانوا اما وثنيين مما قبل المسيحية ، أو مسلمين ولكن من مشاهير الشعراء ، أو الأخلاقيين أو الفلاسفة أو الأبطال(٣) •

أما العذاب الذى يخضع له هؤلاء فمعنوى صرف ، سببه اشتياقهم الى رؤية الله • وهم يعتبرون اذ حرموا من نعائم الجنة ، وأعفوا من العقاب الجسدى ، معلقين بين الجنة والنار(٤) • ولقد هيأت لهم هذه الحالة الوسط فرصة خاصة مكنتهم من الاطلاع على شئون كل من الناعمين بالجنة والهالكين فى النار ومعرفتهم • وبذلك كان فرجيل على اتصال مباشر ببياتريتشى من اللمبو(٥) ، وكان يقود دانتى فى الجحيم والمطهر ، ويسمى له نزلاء النار والشياطين ، الذين يبدو واضحا أنه يعرف وجوههم معرفة جيدة •

٢ ـ والحق أن خلو الكتاب المقدس وجميع الكتابات اللاهوتية تقريبا من سوابق للصورة التى وضعها دانتى فى قصيدته ، أمر لا ينبغى أن نناقشه طويلا • ذلك أن الإسم ووصف المكان ، ذلك الوصف الغنى بالتفاصيل ، وتصنيف سكانه ، بحيث جعلوا وثنيين أو حتى مسلمين ، فضلا عن تفاصيل حياتهم وأحوالهم ، كلها أمور لا يمكن أن نجد لها تبريرا كافيا فى العقيدة الكاثوليكية ، التى تحفظت كثيرا فيما يتعلق بهذه الأمور وبغيرها من شئون الحياة الأخرى وما فيها من بعث وحساب •

أما الإسلام فكان موقفه مخالفا تماما • وذلك أن عدم وجود أحد أو سلطة معصومة فى الإسلام تفرض على المؤمنين الحدود الفاصلة بين معتقدات الدين وحرية الفكر ،

---

(١) الجحيم ٣٨/٣ •

(٢) الجحيم ١٠٦/٤ ، ١١٠ ، ١١٦ •

(٣) الجحيم ٢٨/٤ وما بعدها •

(٤) الجحيم ٢٨/٤ ، ٤٢ ، ٤٥ ، الجحيم ٥٢/٢ •

(٥) الجحيم ٥٣/٢ ، ٧٥ •

كان سببا فى دخول عدد كبير من الخرافات والأساطير على المفهومات الإسلامية ، وعلى الأخص من اليهودية والمزدية والمسيحية الشرقية ، نسبها الذين ادخلوها الى النبى وصحابته ، حتى يضفوا عليها صفة الشرعية التى تكاد تطاول القرآن .

وقد يزودنا البحث فى هذا الاتجاه بمفتاح يفسر لنا الغوامض التى تكشف لمبو دانتى ، ذلك الموضوع الذى تركه اللاهوت المسيحى بغير حل .

٣ — يتحدث القرآن عن دار من دور العالم الآخر سماها « الأعراف »(١) تقع بين منازل السعداء ومنازل الأشقياء . فالأعراف سور بين الجنة والنار . والأعراف جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض ، ومنه قيل : عرف الديك ، لارتفاعه على ما سواه من الجسد ، سمى بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض(٢) . من هذا نرى أن معنى الكلمة يشابه معنى كلمة لمبو Limbus ، ولكن بينما لم تأخذ كلمة « لمبو »معنى دار من دور الحياة الأخرى حتى القرن الثالث عشر الميلادى ، اتخذت الكلمة العربية هذا المعنى ، بالإضافة الى معانيها الأصلية ، منذ عصر محمد(٣) .

وضعت القصص الإسلامية أوصافا متباينة للأعراف ، فقد ذكرته مرة على أنه واد جميل تتناثر فيه أشجار الفاكهة ، أو على أنه واد يقع خلف جبل مرتفع ، أو باعتباره حائطا مستديرا عظيم الارتفاع ، أو مجرد ربوة أو جبل . فاذا جمعت هذه الأوصاف معا خرجنا بصورة لا تختلف كثيرا عن الصورة التى رسمها دانتى للمبو ، وعلى الأخص اذا أكملنا الصورة بالوصف الذى تكرر فى قصة المعراج لجنة ابراهيم ولمدخل جهنم ، الذى يشبه ذلك القصر الذى يكون القسم الملاصق للجحيم من اللمبو عند دانتى ، وله سبعة أبواب وسبعة أسوار . والحق أن هذا القصر الذى جعل له دانتى سبعة أسوار وسبعة أبواب ، يكاد يكون صورة طبق الأصل

---

(١) القرآن : سورة الأعراف ٧ آية ٤٦ .

(١) اتحاف السادة المتقين ٥٦٤/٨ ؛ تفسير الخازن ٩٠/٢ .

(٣) قد يكون المعنى اللاهوتى لكلمة اعراف مشتقا من اخرويات القديس افرايم الذى قسم الجنة السماوية الى قمة ، ومنحدر ، ثم حافة وضع فيها الآثمين الذين عفى الله عنهم حتى يوم القيامة ، حيث يصعدون الى القمة . Cf. Tixeront, Hist. des dogmes, 11, 220.

للقصر الإسلامى الموجود فى الجنة الذى يحيط به ثمانية اسوار ، وله ثمانية أبواب(١) • وهنا يلوح لنا كما لو أن دانتى بخلطه التصميم الإسلامى للجنة والنار معا ، قد استهدف ان يرمز الى الطبيعة الحيادية للأرواح التى تعيش فى اللمبو •

يبيّن علماء الإســلام ومنهم الغزالى ذاته أن الأعراف هى دار أولئك الذين لم يكونوا لا أتقياء ولا فاسقين • ولقد صنف المفسرون المسلمون ـ بناء على هذه النظرية ـ الطوائف التى ستدخل الأعراف كما يأتى : شهداء الجهاد فى سبيل الله الذين حرموا من الجنة لعقوقهم لآبائهم ، والعلماء الذين أبطل غرورهم فضائلهم التى كانوا يستحقون من أجلها دخول الجنــة ، وأطفــال المســلمين والــكفار ، وأخيرا الملائــكة الذكــور ، أو الجــان الذين آمنوا برسالة محمد • ولا شك فى أن هــذه الطوائف تتطابق تطابقا واضحا مع الطوائف التى وضعها دانتى فى اللمبو ، وهم الأطفال الذين لم يعمــدوا ، والأبطال ، والشــعراء ، والفلاسفة الذين أبطل عــدم ايمانهم ما تحلوا به من فضائل • أما من حيث الملائكة الذكور ، فأمرهم يكتنفه الغموض تماما كما يكتنف ملائكة دانتى الذين ليسوا ذكورا ولا أناثا •

وأما العذاب الوحيد الذى يناله أصحاب الأعراف فينحصر كما جاء فى القرآن ، واتفق عليه المفسرون ، فينحصر فى اشتياقهم الى الجنة • «لم يدخلوها وهم يطمعون»(٢) وهؤلاء هم الذين تساوت حسناتهم بسيئاتهم فاعتدلت كفتا ميزانهم فلم ترجح احداهما على الأخرى ، فيظلون فى الأعراف معلقين بين الجنة والنــار(٣) • وهم اذ يــكونون فى هذا الوضع ، يستطيعون التعرف الى الســعداء فى الجنـــة أو الأشقياء فى النار ، والتحدث اليهم(٤) •

---

(١) الفتوحات المكية ٤١٦/١ ، ٥٦٧/٣ ، ٥٧٧ : مختصر تذكرة القرطبى ٨٨ •

(٢) سورة الأعراف آية ٤٦ ، اتحاف السادة المتقين ٥٦٥/٨ ، كنز العمال ٢٠٣/٧ رقم ٢٣١٢ ، تفسير الخازن ٩١/٢ ، تفسير النسفى والفيروز ابادى فى تفسير ابن عباس ١٠٢/١ •

(٣) قارن الفقرات التى استشهدنا بها بعاليه من الإتحاف وتفسير الخازن بالجحيم ٥٢/٢ ، ٤٥/٤ •

(٤) نقع على ملامح تشابه اقل لفتا للنظر ، غير اننا نستشهد بها هنا ايضا على اية حال ، مثال ذلك ما يذكرنا به ذلك الحشد الكبير الذى يجرى وراء حامل اللواء (الجحيم ٥٢/٣) بقصص اسلامية كثيرة من قصص يوم الحساب ، تصف الجماعات المختلفة التى تسير وراء حملة الرايات :

يعقد للمسلمين لواء الحمد يحمله محمد ، وتعقد للمكفوفين راية بيضاء وتجعل بيد شعيب فيسير أمامهم • وتعقد لأهل البلاء أى المجذومين راية خضراء وتجعل بيد ايوب • وتعقد للشباب المتعففين راية =

٣

النار الإسلامية فى الكوميديا الإلهية

١ ـ استفاض محبو دانتى فى جميع العصورفى التغنىبالأصالة والابداعالكامنين فى تصور الشاعر لتصميم الجحيم · كتب كريستوفورو لا ندينو(١) الفلورنسى فى القرن الخامس عشر يقول : « اننا لا نملك الا أن نصف قصيدة دانتى بأنها رائعة جدا ، ولا نستطيع أن نقارنها بأى ابتكار » · وقرر روسى(٢) فى العصر الحديث ، بعد ان بين ضآلة الأوصاف المعروفة عن النار قبل دانتى ، وفقر المصادر القديمة ، والمصادر المتعلقة بالكتاب المقدس التى كان فى مستطاع الشاعر الرجوع اليها فى هذا الموضوع « أن عبقرية الشاعر وابداعه ، فضلا عن خياله الجامح ، كانت أسبابا جعلته يبالغ كثيرا فى تصوير أحداثه ، ويتمادى فى تزويدها بمختلف الأفكار الخصبة ، فجاء بكل ما هو جديد وأصيل ومبتكر · ثم انه أضفى تصورا هندسيا جديدا على تصميم كل جزء من أجزاء قصيدته » والحق أن اعجاب الناقد له ما يبرره · ولكن ينبغى قبل تأكيد الأصالة والإبداع فى تصور دانتى باعتبارهما أمرين لا يقبلان الجدل وفوق كل شك : أن نبين أولا أنه لم يكن يوجد أوصاف مشابهة لأوصاف دانتى فى آداب ديانات أخرى · وهذا أمر حاول النقاد تبيانه فى أحوال كثيرة · مثال ذلك أن فوسلر عرض ملخصا كاملا للبحوث التى قام بها الدانتيون فى محاولتهم استكشاف سوابق دينية أو فلسفية أو فنية للكوميديا الإلهية(٣) · ومما لا شك فيه أنه أظهر علما مدهشا فى تجميع ما أسماه بدراسة السوابق التى مهدت

=خضراء وتجعل بيد يوسف · وتعقد للمتحابين فى الله راية صفراء ، وتجعل بيد هارون ، وتعقد للبكائين من خشية الله راية ملونة وتجعل بيد نوح·وتعقد للشهداء راية مزعفرة وتجعل فى يد يحيى·وتعقد للفقراء راية صفراء وتجعل فى يد عيسى · وتعقد للأغنياء راية ملونة وتجعل فى يد سليمان · ويحمل امرؤ القيس لواء الشعراء الى النار · (العلوم الفاخرة ١/١٥٤ ، ٢/٨ ، ١٤) ·

أما فيما يتعلق بالزنابير والذباب الذى يضايق سكان مدخل النار عند دانتى ، فله مقابل ايضا فى القصص الإسلامية التى تصور النار مليئة بجميع ضروب الحشرات ما عدا النحل (اللآلىء المصنوعة ٢/٢٤٥) ·

(١) Cf Landino, on the 14 th Page of the Preliminary study

(٢) Rossi, 1, 139-140 cf., D'Ancona, Precursori. 28-31, 36, and Passim.

(٣) Vossler, 1, 21

للقصيدة الرائعة • اعتمد على الأساطير التى تشتمل عليها الأديان السابقة على المسيحية، وعلى ما جاء فى العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس باعتبارها مصادر للكوميديا الإلهية • غير أنه استثنى دينا واحدا من بحوثه هو الدين الإسلامى(١) • ومع ذلك فان الإسلام ، فى الواقع هو أكثر الأديان جميعا من حيث ثرائه بالقصص التى تتعلق بالحياة الأخرى(٢) • ثم ان الاسلام ظهر بعد جميع الأديان وانتشر بسرعة فى بلاد يسكنها أكثر شعوب الدنيا القديمة تدينا ، وهذا أمر ساعد بطبيعة الحال على عملية استيعاب المسلمين لمختلف القصص والروايات الدينية القديمة • ثم اننا لا نقع فى الحقيقة فى أى معارف دينية أخرى على أوصاف دقيقة ومفعمة بمختلف الصور للحياة الأخرى وللدور التى تسكنها الأرواح السعيدة أو الشقية ، مثلما نقع على ذلك فى القرآن ، وفى الأدب الدينى الذى بنى عليه • ولا مرية فى أن مقارنة النار الإسلامية بجحيم دانتى سوف تلقى ضوءا جديدا على مسألة أصالة وابداع الشاعر العظيم فى تصوير جحيمه •

٢ ـ نبدأ بالخطوط العامة لكل من التصورين ، ومن ثم نقرر أول ما نقرر أننا لا نقع على أوصاف طوبوغرافية محددة فى القرآن للنار ، غير أن المفسرين المسلمين يتفقون مع دانتى فى تحديدهم لجهنم تحت الأرض • ويصورها لنا القصص الدينى الإسلامى على أنها هوة مظلمة عميقة ، أو فتحة مقعرة فى باطن الأرض ، اذا ألقيت فيها الصخرة العظيمة تهوى بها سبعين خريفا ما تفضى الى قرارها(٣) • ويقع شفير

---

(١) الحق انه يصعب علينا ان نفسر صمته التام ازاء هذه النقطة ، ذلك ان اى تاثير يمكن ان تكون اساطير وروايات المصريين او الأشوريين او البابليين او الفينيقيين قد احدثته فى الكوميديا الإلهية ، لا بد اقدم كثيرا من قصص الإسلام ، ومع ذلك نراه يخصص فقرة كاملة لكل من هذه الشعوب ولم يخصص سطرا واحدا للإسلام •

(٢) Cf. Chantepie, Hist. des rel. Reference to the Quotations in the inde s.v. Enfer, will show that the Moslem hell is superior to all others in wealth of descriptive detail .

(٣) كنز العمال ٢٤٤/٧ رقم ٢٧٥٦ ، ٢٧٩١ •

جنهم كما فى الـكوميديا الإلهية عنـد القدس ، بجوار أو خلف الحائط الشرقى لمعبـد سليمان· ونلاحظ هنـا أن دانتى وضع القدس السماوية على خط عمودى مع القدس الأرضية ، وهذا وضع حدده المسلمون من قبل للجنة ، اذ وضعوها فى السـماء على خط عمودى مع القدس كما سنرى فيما بعد ·

غير أنه لا يزال يوجد مشابهات أخرى · فقد رأينـا فى الرواية الثانية من المجموعة الثانية من قصة المعراج التى عرضناها فيما سبق ، أن تصميم النـار الإسلامية شبيه بتصميم دانتى لها ، هى عبارة عن مجموعة من الطبقات المسـتديرة المتحـدة المركز تقع الواحدة منها فوق الأخرى · ولقد ابتـكر المفسرون المسلمون هذا التصور لتركيب النار وهم يحاولون تفسير الآية القرآنية : « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جـزء مقسوم » ثم ان عقبة اعترضت هؤلاء المفسرين أعجـزتهم عن تفسـير هـذه الآية ، هى المعنى الحرفى لـكلمة « باب » وعندئذ لجئوا الى تفسير مجازى لهذه الـكلمة بمعنى طبقة ، ومن ثم مكنهم هذا التفسير من تصور النـار باعتبارها سجنا يتـكون من سبع خنادق أو أبيار ، كل منها معد لطبقة معينة من الأشقياء(١) · وعمد المفسرون الى نسبة هذا التفسير الى على بن أبى طالب ليعطوه سندا قويا(٢) ·

« قال على : أتدرون كيف أبواب جهنـم ؟ قالوا : كنحـو أبوابنا ؟ قال : لا ، ولكنها هكذا ، ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده » ·

ثم ان هذه الفـكرة فى تفسير أبواب النـار باعتبارها مستويات متوازية ، قد شاعت فى روايات كثيرة نسبت الى على بن أبى طالب ، أو الى ابن عباس · واستخدمت كلمة « طبق » بدلا من كلمة « باب » كل واحد منها فوق الذى تحته · ولقد بالغ المفسرون مبالغة كبيرة فى تحديد المسافة التى تفصل بين كل طبق والذى يليه(٣) ·

---

(١) نلاحظ أن هذا التفسير المجازى ليس له اى تبرير لغوى ، ذلك أن المعاجم العربية لا تحدثنا على الإطلاق عن مثل هـذا المعنى لـكلمة « باب » وجاء فى معجم لين Lane الجزء الأول ص ٢٧٢ ، أن الـكلمة استعملت فى مصر بمعنى غرفة دفن أو كهف فى جبل ، وهو معنى مشتق من كلمة بيب القبطية .

(٢) كنز العمال ٢٧٨/٨ رقم ٣٠٧٩ ·

(٣) كنز العمال ٢٧٨/٨ رقم ٣٠٧٨ ؛ تفسير الطبرى ٢٥/١٤ ؛ تفسير الخازن ٩٦/٣ ؛ وانظر ايضا q. MS 234, Gayangos coll. fol. loov.

وجاء عن ابن عباس عن النبى انه قال « بين كل ارض الى التى تليها مسيرة خمسمائة عام وهى سبعة اطباق الأرض » ·

ونقع فى أحاديث اخرى على كلمة استعملت مرادفة لـكلمة « باب » أو « طبق » وهى كلمة خندق (انظر كنز العمال ٢٦٣/٣ رقم ٤٢٣٥) ·

وأما التقسيم السُباعى فمن الصفات المميزة للوصف الإسلامى العام للكون ٠ فقد ذكر القرآن أن السماوات والأرضين والبحار وأبواب جهنم والجنان كلها سبعات ٠ غير أن دانتى قسم كلاً من ممالك الجحيم والمطهر والفردوس الى عشرة أجزاء ، وليس ذلك براجع الى أكثر من فكرة سيطرت عليه حول شرف بعض الأرقام(١) ٠ وعلى الرغم من أن التطابق هنا لا ينصرف الى العدد ذاته ، فان المبدأ الذى يكمن فى أساس الوصف العام للكون فى الإسلام وعند دانتى ، هو مبدأ مشترك ٠

لكل من أطباق النار الإسلامية اسم معين ، وملامح طوبوغرافية خاصة به ، وهو معد لطبقة معينة من الأشقياء الذين يلاقون فى النار نفس العقوبة ، وكل هذا ينطبق تماما على جحيم دانتى ٠ غير أنه من الصعوبة بمكان أن نلم هنا بجميع الأوصاف المتباينة التى وردت فى مختلف الروايات ، ان لم يكن هذا أمرا مستحيلا ٠ كذلك لا ندعى بأنها تشترك فى كل التفاصيل مع وصف دانتى للجحيم ٠ غير أن عرضا مختصرا ـ لقليل من هذه الروايات ـ سوف يكشف عن الملامح العامة للمشابهات المشار اليها آنفا : نقع على حديث يرجع تاريخه الى القرن الهجرى الثانى يمدنا بتفصيل عن أقسام النار جاء فيه (٢) :

١ ـ النار سبع دركات ؛ أولها جهنم ، للموحدين يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، والثانى لظى للنصارى ، والثالث الحطمة لليهود ، والرابع السعير للصابئين والخامس سقر للمجوس ، والسادس الجحيم للمشركين ، والسابع الهاوية للمنافقين ٠

وتقسم مأثورات أخرى الأرضين السبع التى جعلها الله أجزاء للأرض التى نعيش عليها ، وهى تتطابق مع سبعة أبواب جهنم كما يبين مما يأتى (٣) ٠

الأولى من الأرض تسمى أديما ؛ وهى التى يسكنها بنو آدم ، والثانية بسيطا ، وهى مسكن الريح أو سجن الريح ، فيها أناس يأكلون لحومهم ويشربون دماءهم ، والثالثة ثقيلا ، فيها أناس وجوههم مثل بنى آدم وأفواههم مثل أفواه الكلاب ، وأيديهم كأيدى الإنس وأرجلهم كأرجل البقر وآذانهم كآذان المعز ، وأشعارهم كأشعار الضأن ٠ والرابعة بطيحا فيها حجارة الكبريت التى أعدها الله لأهل النار ٠ والخامسة الهين فيها حيات جهنم أفواهها كالأودية تلسع الكافر فلا يبقى منه لحم ولا وضم ٠ والسادسة ماسكة فيها دواوين أهل النار وأعمالهم وأرواحهم الخبيثة ،

---

(١) Rossi.I 141

(٢) تفسير الخازن ٩٦/٣ ـ ٩٧ ٠

(٣) كنز العمال ٢١٨/٣ رقم ٣٤٠٧ ٠ بدائع الزهور ٨ ـ ٩ ٠

والسابعة ثرى جعلها الله مسكنا لإبليس وجنوده وفيهـا عشه فى أحـد جانبيه سموم وفى الآخر زمهرير ، وقد صـفد بالحديد : يد أمامه ويد خلفه ، فاذا أراد الله أن يطلقه لمن يشاء من عباده أطلقه •

لا شك فى أن فارقا كبيرا يفصل بين هـذا المخطط البسيط ، وذلك البناء الأخلاقى المعقـد الذى وضعه دانتى لجحيمه • غير أنه ينبغى لنا على اية حال أن نضع فى حسابنا أننا لا نتعرض هنا للاعمال المتقنة لكتاب ناضجين ، (وهـذه أعمال سوف نتعرض لهـا فى مراحل قادمة من بحثنا) ، وانمـا لقصص شعبية عاشت ولا تزال تعيش فى أفواه العامة • ثم اننا لم نستشهد بها باعتبارها المقابل لجحيم دانتى ، ولكن باعتبارها صورا مجملة يمكن أن نقع فيها على مشابهات عامة مع قصيدة دانتى ، لابل تفصيلية ايضا(١)• ونلاحظ ممـا سبق ان البسيط من الأرض تقابل دائرة دانتى الثانية ، التى هى مصـدر الريح •

ثم نلاحظ أنه يوجد فى الهين حيات كبار تنهش الآثمين ، كمـا تفعل حيات مشابهات باللصوص عنـد دانتى فى الدائرة الثامنة ، واخيرا نرى ان المنطقة الثلجية فى آخر الأرضين تشابه تمـاما أسفل دوائر دانتى ، التى يوجد فيها لوسيفر الذى يقابل ابليسا عنـد المسلمين وكذلك نلاحظ أن القصص الإسلامية صورت ابليس مغلولة احدى يديه الى صدره ، والأخرى الى ظهره ، تمـاما كمـا يظهر المـارد افيالتس عند دانتى(٢)•

وكلما تعمقنا فى دراسة الأحاديث المختلفة واستعرضنا عددا أكبر منها ، وجدنا أن كل حديث يضيف تفاصيل أخرى غنية بالصور المتباينة ، ومن ثم يفقـد الوصـف بساطته الأولى وتتضح معالمه وتصبح بارزة تماما مثل الصور التى يقدمها لنـا دانتى ، ولقـد جمع زهاد الإسـلام هذه الرويات ، ودونوها فى المجمـوعات التى وصلت الى أيدينا(٣) • ولا مرية فى أن مقارنة الصورة التى قدمها لنا هؤلاء المؤلفون للنار فى الإسلام

(١) نستبين شعبية أوصاف النار من الحقيقة الماثلة فى انهـا دخلت فى قصص الف ليلة وليلة • فقـد زار تميم الدارى وبلوقيا النار ، حيث شاهد الأخير سبعة أطباق ، فيها : (١) المسلمون غير التائبين (٢) المشركون (٣) ياجوج وماجوج (٤) الشياطين (٥) المسلمون الذين اهملوا فى صـلاتهم [٦] اليهـود والنصارى (٧) المنافقون • ولاحظ بلوقيا أن قسوة العقوبات تزدادمع العمق ، وروى أن بين كل بابوبابطبقة مسيرة الف سنة ، وان فى الباب الأول تلالا واودية وبيوتا وقصورا ومدنا تعد بالسبعين الفا •

(٢) الجحيم ٣١/٨٦ •

(٣) تعتبر تذكرة القرطبى من أكثر هـذه المجموعات ثراء من حيث الأوصاف التى جاءت بها عن الحياة الأخرى ودورها وقصورها الخ • وكانت شائعة فى الشرق وفى الغرب على السواء •• وهى التى اعتمدنا عليها فى المقام الأول فى مقارنتنا هذه •

بجحيم دانتى ، انما تفصح عن مشابهات مدهشة ،وهنا نرى أن جحيم دانتى قد صور مثل النار الإسلامية ، غنيا بكثير من المناظر الجبلية ، ومناظر الماء ، ومختلف المناظر مثل الصخور ، والتلال ، والجبال ، والخنادق ، والأبيار ، والوديان ، والأنهار ، والبخار ، والبحيرات والتوابيت ، والسجون ، والقصور ، والقناطر ، وتحمل كثيرا من هذه الملامح الطوبوغرافية اسماء خاصة فى كل من الأوصاف الإسلامية واوصاف دانتى • ثم ان دانتى اتبع نفس المبادىء التى اتبعها المؤلفون المسلمون • ذلك أن دانتى اما سمى الأجزاء المختلفة بأسماء الذين ينزلون فيها مثل دار الخونة ، واما سماها بناء على الأوضاع الطبيعية والأخلاقية للمكان ذاته • كما سمى الدائرة الثامنة مالبولج • ثم أن أجزاء النار فى الإسلام لها فيما عدا أسماء الأطباق المختلفة التى ذكرناها آنفا ، أسماء كثيرة وضعت لها بناء علىالملامح الطوبوغرافية التى تميزها •

مثال ذلك : أن ظل اليحموم جبل من دخان جهنم • وأن سجين صخرة يعذب عليها الفاسقون ، وأن خندق السكران بئر يخرج من قاعة صديد ودم يروى به شاربو الخمر عطشهم ، وأن الموبق واد يجرى فيه نهر من نار ، وأن الآثام اسم لواد آخر ، وأن الويل أعمق الوديان يتجمع فيه صديد يشربه المشركون ، وأن الخبال والحزن اسمان لواديين آخرين ، وأن لملم اسم واد مستدير ، وأن الغساق عين فى جهنم يسيل اليها سم كل ذات سم فيستنقع ، ويوتى بالآدمى فينغمس فيها غمسة فيسقط جلده من عظامه فيخر لحمه فى عقبية كما يجر الرجل ثوبه جزاء وفاقا(١) • وتأخذ بعض اجزاء النار أيضا أسماءها من نزلائها المشهورين ، مثل : دار الظالمين التى أخذت اسمها من فرعون ، ودار المشركين التى أخذت اسمها من أبى جهل(٢) •

يستبين لنا من هذا المختصر اذن أن النار فى الإسلام تتطابق مع جحيم دانتى من حيث أنها هوة عميقة فى باطن الأرض ، تتكون من أطباق أو دوائر كل منها فوق الأخرى ، تتناسب مع العذاب المعد للأشقياء فى كل منها ، وأن كل طبق من هذه الأطباق فى الإسلام ، أو كل دائرة عند دانتى ، مقسم الى اجزاء ثانوية ، وأن كل

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى ١٩ ، ٣٩ ، ٧٤ ؛ كنز العمال ٧٦/٣ رقم ١٤٣٦ ؛ ٢١٧/٥ رقم ٤٤٧٩ ، ٤٤٨٤ ، ٧ / ٢٤٥ رقم ٢٧٧٧ • قرة العيون ١٢ •
اللالىء المصنوعة ٢٤٥/٢ ، تفسير الطبرى ١١٤/٢٣ ويلاحظ أن اسماء كثير من منازل النار مأخوذة من القرآن•

(٢) قرة العيون ١٢ ، ٣١ ، اللالىء المصنوعة ١٩٦/٢ •

جزء من أجزاء النار فى الاسلام ، وفى جحيم دانتى يحمل اسما خاصا ، وينزل فيه طبقة معينة من الآثمين ٠

غير أننا لا نستطيع على أية حال ـ ومهما قلّبنا أوجه النظر ـ أن نفسر تشابه التصورين فى الخطوط العامة ـ مثلا ـ على أساس أن كليهما قد استمد من مثال مسيحى قديم مشترك ؛ ذلك أن العلم المسيحى الخاص بالأخرويات ـ سواء فى الكنيسة الشرقية أو الغربية ـ علم فقير جدا من هذه الناحية(١) ٠ كذلك لا نستطيع من ناحية أخرى أن نرجع هذه الاوصاف الغنية بمختلف المناظر الى الإسلام ذاته ، وانما نستطيع أن نبحث عن أصول هذه التصميمات المعقدة هناك بعيدا نحو الشرق ، وعلى الأخص فى المعتقدات البوذية(٢) ٠

٣ ـ وضع رواة الأحاديث الأوائل خطوطا عامة للنار ، بنوها على أساس ما استطاعوا تجميعه من معلومات فى هذا الموضوع ٠ غير أن المفسرين الذين أتوا بعدهم فى القرون التالية ، تناولوا هذه التصورات وغذوها بتفاصيل كثيرة غنية بمختلف المناظر ، وعمد الصوفيون ـ على الأخص ـ الى تزيين هذه الروايات بتفسيرات خيالية ٠

كان ابن عربى المرسى الأندلسى من أشهر الصوفيين المسلمين الذين عاشوا قبل دانتى ، وقد بينا فيما سبق كيف تتشابه عروجاته الى السماء بكوميدية دانتى ٠ والحق أنه خصص فصولا بأكملها فى كتابه الضخم « الفتوحات المكية » لوصف النار ، التى

---

(١) لم يجد القديس توما الأكوينى اوصافا طوبوغرافية محددة فى الثورات المسيحية ، ولم يذكر شيئا خلاف ما جاء فى الأفكار اللاهوتية بان « الجحيم تحت الأرض » ٠

وافترض القديس ازيدور الأشبيلى ان تكون النار « فى الجهة المقابلة لنا من الأرض المسكونة » غير أن هذه الفكرة لم تعد شائعة فى القرن الثالث عشر ٠ وتقع فى خريطة للعالم توجد فى مخطوطة فى المكتبة الأهلية بمدريد (Cf. Boletin de la Real Societiah Geographica. Vol. L. p. 207)

وفى مكتبة الاسكوريال منسوبة الى القديس ازيدور ، وعلى الرغم من انها تنتمى فعلا الى القرن الثالث عشر ، فقد جاء فيها : ان جهنم فى باطن الأرض « فى اعمق اعماقها » ٠ ونلاحظ ـ للغرابة ـ أن وصفها هنا مخالف لوصف دانتى وللوصف الإسلامى ، ذلك انها صورت على انها ضيقة من اعلى واسعة من اسفل ٠ ولا نعتقد أن هذا يراجع الى شىء اكثر من خطا فى تفسير الأصل الإسلامى الذى نقلت عنه ٠

(٢) Not in the Vedas. cf. Chantepie. Hist. des rel. 349 and 382. Also Roeské. L'enfer cambodgien (in Journal Asiatique, Nov.-Dec. 1914, 587-606). For the rabbinical hell cf. Buxtrope Lexicon chaldaicum (Basle, 1639). p. 231 a.

تصفها المأثورات الإسلامية بأنها بئر أو هوة عميقة عمقا خياليا ، تتكون من سبعة أطباق(١) ومما لا شك فيه أن التجديدات التى أدخلها الصوفية تمثل أهمية كبيرة • ذلك أننا نرى قبل كل شىء أن التعساء قد وزعوا على أطباق النار السبعة ، تبعا لطبيعة آثامهم ، وللعضو الذى ارتكبوا به هذه الآثام ، مثل العين ، والأذن ، واللسان ، واليد ، والبطن ، والفرج ، والقدم • وبذلك لم يعد المبدأ الذى يحكم التوزيع على منازل النار تحكميا ، وانما أصبح أخلاقيا ، تماما كما فى الكوميديا الإلهية • والواقع أن ابن عربى خلط بين المبدأين ، وذلك فى الحدود التى قسم فيها كل طبق من أطباق النار أربعة أقسام خصصها للكفرة ، والمشركين ، والملحدين ، والمنافقين على التوالى • وفضلا عن ذلك ، وبناء على مبدأ مختلف ، قسم كل طبق الى نصفى دائرة ، أحدهما للأشقياء الذين ارتكبوا آثاما خارجية أى الذين أثموا فعلا ، والآخر للذين أرتكبوا نفس الذنب ولكن داخليا أى بنيتهم • وأخيرا قسم كل طبق الى مئات من الأقسام الثانوية ، التى قسمها بدورها الى دور أو غرف بحيث كان عدد دركات النار بقدر عدد درجات الجنة (٢) •

غير أن ابن عربى ذهب الى أبعد من هذا ، ذلك أنه اعتاد استعمال الرسوم الهندسية لتوضيح أكثر ضروب الفكر الميتافيزيقى غموضا وابهاما • ومن ثمة لجأ الى هذه الطريقة لتفسير تصوره للنار (٣) • وبما أنه كان من تلاميذ ابن مسرّة ، فقد تصور النار على أنها ثعبانية الشكل • ولما كانت النار الإسلامية شبيهة بجحيم دانتى ، تتكون من بناء عام من عدة أطباق دائرية الواحد منها فوق الآخر ، يتصاغر قطرها مع العمق ، فأن نظرة عامة عليها تعطينا شكلا يتكون من دوائر متحدة المركز لا تختلف كثيرا عن اللفات

---

(١) الفتوحات المكية ٣٨٧/١ ـ ٣٩٦ ، ٨٠٩/٢ ، ٨/٣ ، ٥٥٧ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ • وقد نضيف هنا الى الملامح المذكورة بعاليه ملامح اخرى • ذلك أن فى النار حرا وزمهريرا • ويقاسى زعماء الطوائف عذابا خاصا ، واما ابليس فيقاسى اشد العقوبات جميعا • والعذاب فى النار ، مادى ومعنوى • واهل النار كما عند دانتى (cf. Rossi. I. 151) لا يتركون الدرك الذى يعذبون فيه (الفتوحات ٢٢٧/٣) وأخيرا يضفى ابن عربى ضربا من الواقعية على الصور التى وصفها كما لو انه رأى الأصل فى الحقيقة • يقول فى كتاب الفتوحات المكية ٣٨٩/١ •

« وفى هذه الرؤية رايت من دركات اهل النار من كونها جهنم ، لا من كونها نارا ، ما شاء الله ان يطلعنى عليه منها ، ورايت فيها موضعا يسمى المظلمة نزلت فى درجة خمس درجات ورايت مهالكها » •

(٢) سوف نشرح مسالة التناسق بين الجنة والنار فى الإسلام فيما بعد عندما نتناول بحث الجنة •

(٣) Cf. Asin. Abenmasarra, pp. 111 and 161

الحلزونية للثعبان(١)٠وهذا هو فى واقع الأمر الرسم البيانى الذى وضعه ابن عربى للنار فى كتابة « الفتوحات الملكية »(٢) ، كما يظهر فى الشكل رقم ١ ٠

ثم ان الدانتين عمدوا هم أيضا الى الرسوم البيانية لتوضيح أوصاف الشاعر ، فوضعوا رسوما لتصميم بناء النار وغيرها من ممالك الآخـرة ٠ وهكذا نقع فى « كتاب مانفريدى بورينا »(٣) على رسم بيانى أفقى للنار ، (انظر الجزء الأعلى من الشكل رقم ٢) يكاد يكون مطابقا تماما لرسم ابن عربى٠أما الاختلاف الأساسى فينحصر فى عدد الدوائر أو الأطباق ، التى يوجد منها سبعة عند ابن عربى وعشرة عند دانتى ٠ ثم ان بورينا وضع رسما للمسقط الرأسى للنار (انظر الجزء الأسفل من الشكل رقم ٢) ٠ يشبه مقطعا لمسرح مدرج له عشر درجات أو صفوف ٠ ونقع على نفس هذا المسـقط فى طبعة فراتيتشلى للكوميديا الإلهية ٠ أما ابن عربى فلم يضـع رسما مشـابها ، ولكن نقع فى الموسوعة التركية ma' rifet Nameh لإبراهيم حقى(٤) على المسقط الرأسى للنار الذى وضعه الصوفيون المسلمون ٠ وان نظرة الى رسم نقلناه لهـذا الرسم فى الشكل رقم ٣ ، تبين أنه مطابق تماما للمسقط الرأسى الذى وضعه الدانتيون لجحيم دانتى ٠

٤

النار الإسلامية فى الكوميديا الإلهية ـ تكملة

١ ـ نتابع الآن بعد أن درسنا التصميم الهندسى أو الوضع العام لبناء النار ، دراسة الفئات التى حكم عليها بدخول النار ، وضروب التعذيب المختلفة التى تطبق على كل فئة منها ٠ ولقد تبينا فيما سبق من المقارنات التى عقدناها بين قصة المعـراج والكوميديا الإلهية الملامح العامة للتشابه فى هذا الخصوص ٠ مثال ذلك : مبدأ تطبيق العقوبات ، الذى أطلق عليه الدانتيون ـعن جدارة ـمبدأ مقابلة الأذى بمثله٠أما المشابهات الأخرى فى نظام تطبيق العقوبات ، فقـد نتغاضى عنهـا باعتبار انهـا قـد تكون راجعة

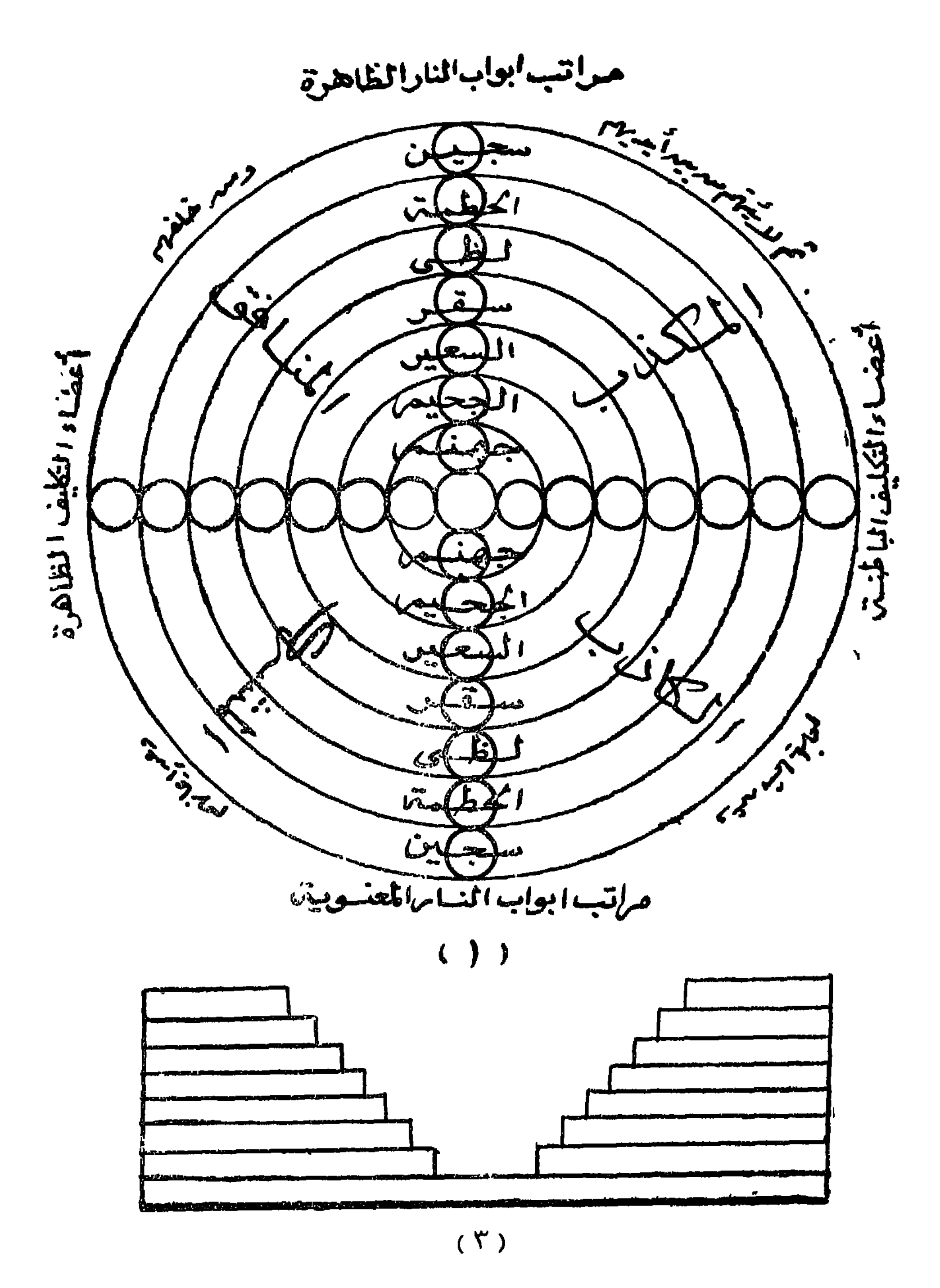
---

(١) الفتوحات المكية ٣٨٨/١ ، Cf. Abenmas arra, 109 .

(٢) الفتوحات المكية ٥٥٧/٣ ٠

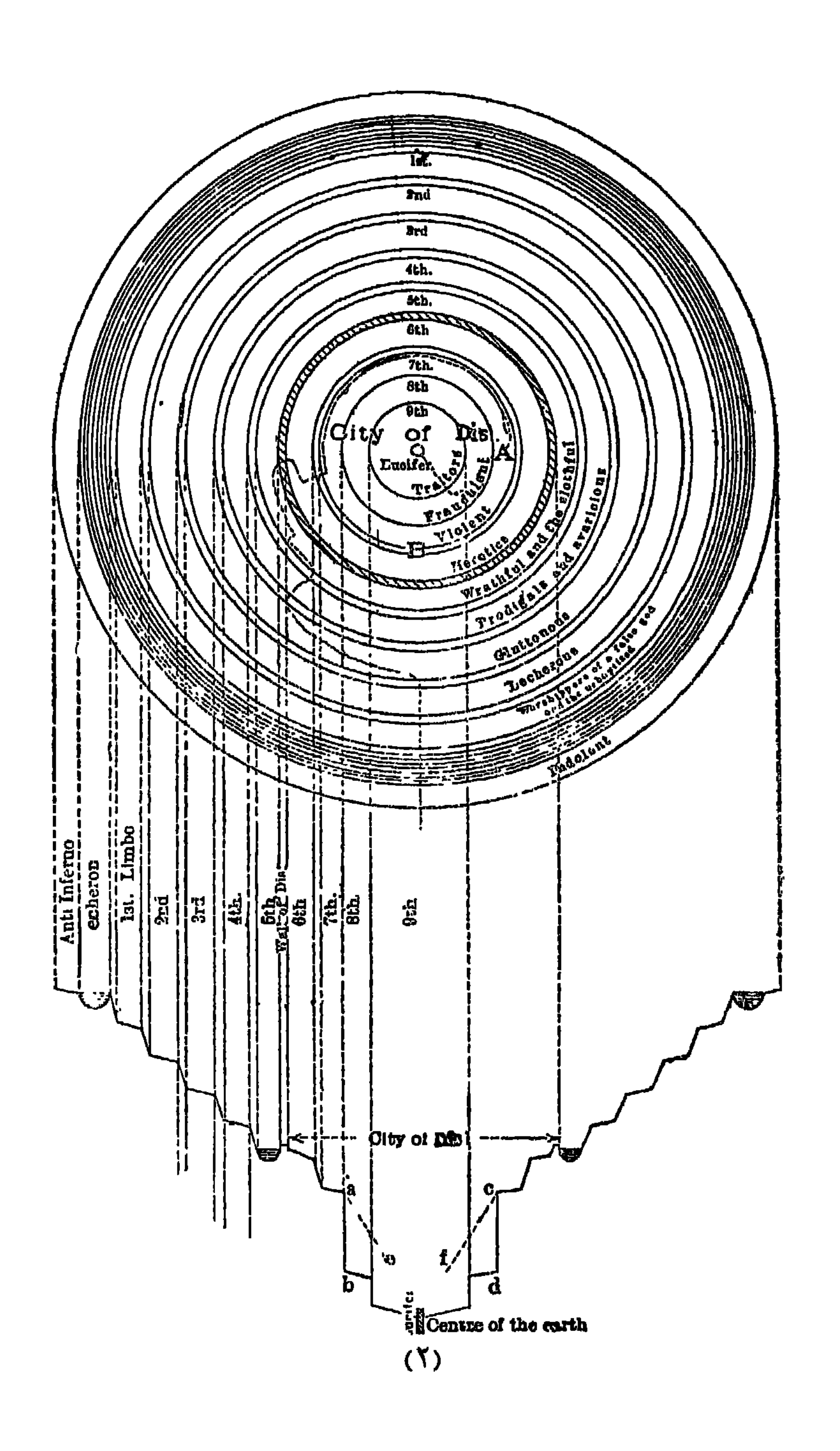
(٣) Manfredi Porena ; Commento grafico alla Divina Commedia Per use delle scuole (Milan 1902)

(٤) نقلنا هنا هـذا الرسم عن الرسمين اللذين وضعهما المؤلف التركى للـكون واللذين وردا فى كتاب كارادى فو « Fragments d'eschatologie musulmane » ص ٢٧ ، ٣٣


مراتب ابواب النار الظاهرة
سجين
الحطمة
لظى
سقر
السعير
الجحيم
جهنم
أعضاء التكليف الظاهرة
أعضاء التكليف الباطنة
مراتب ابواب النار المعنوية

(١)

(٣)


1st.
2nd
3rd
4th.
5th.
6th
7th.
8th
9th
City of Dis.
A
Lucifer.
Traitors
Fraudulent
Violent
Heretics
Wrathful and the slothful
Prodigals and avaricious
Gluttonous
Lecherous
Worshippers of a false God or the unbaptised
Indolent
Anti Inferno
Acheron
1st. Limbo
2nd
3rd
4th.
5th
Wall of Dis
6th
7th.
8th.
9th
City of Dis
a
b
c
d
e
f
Centre of the earth

(٢)

الى التقليد المستقل المشابه لقانون مقابلة الشر بمثله(١) • وأهم من ذلك تشابه التفاصيل المفعمة بالمناظر المختلفة ، التى نستبينها فى أحداث كل من الوصفين •

مثال ذلك : أننا لو تتبعنا خطى دانتى ودليله ، تنبهنا فى الحال الى حقيقة واضحة هى أنهما لا يتجهان الى اليمين قط ، وانما يتجهان دائما الى اليسار • وهنا فسر الدانتيون هذا الأمر الذى لا مغزى له تفسيرا رمزيا • ويلوح بأنهم على أية حال قد غفلوا عن أن هذا المسلك هو فى الحقيقة تعبير اسلامى • ذلك أن الصوفيين وعلى الأخص ابن عربى قد قرروا : أنه لا يوجد فى النار اتجاه الى اليمين • وهذا الاعتقاد مبنى فى واقع الأمر على ما جاء فى القرآن أن السعداء الذين سيدخلون الجنة هم أصحاب اليمين الذين « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » ومن ثم استنتج ابن عربى أن الهالكين فى النار هم أصحاب الشمال أى الذين يتجهون نحو الشمال ، فقال : بأن المؤمن فى الآخرة لا شمال له ، كما أن أهل النار لا يمين لهم(٢) •

٢ — يرى دانتى فى الدائرة الثانية من دوائر النار : الزناة يتقاذفون هنا وهناك فى ظلام زوبعة جحيمية • وهذا منظر نستطيع أن نتبين صورته العامة فى الرواية الثانية من المجموعة الأولى من قصص المعراج التى تناولناها آنفا ، وفى القصص التى تصف اجزاء النار فى الإسلام على أنها سبعة أطباق ، وتشير الى الطبق الثانى على أنه محبس الريح • وفضلا عن هذا ينسب الرواة الى محمد قوله : أن الله يعذب بريح سوداء مظلمة من يشاء من أهل النار(٣) • وهذه الريح هى نفسها الريح العقيم التى أرسلها الله الى قوم عاد لمعاقبتهم على شرورهم • وهو منظر تكرر فى الأوصاف التى جاءت على

---

(١) نقع عى عقوبات مبنية على هذا المبدأ فى عدد من روايات المعراج ، غير انها ترد فى عدد كبير من الأحاديث الأخرى التى تصور عذاب الأشقياء فى نار جهنم أو تصف أحداث يوم الحساب • تروى لنا هذه الأحاديث أن اللصوص يعاقبون بقطع كلا اليدين ، وأن الكاذب تقرض شفتيه بمقراض من حديد ؛ وأن شاهد الزور والمرأة التى تضايق زوجها يعلق من لسانه ، وأن القضاة الظالمين يظهرون عميا ، والنواحات بالسكراء يهيمون وهن ينبحن كالكلاب ، وأن الذين يقتلون أنفسهم يعاقبون الى أجد الأبدين بان تقتلهم الزبانية بالسكاكين ثم يعودون خلقا جديدا فيذبحون من جديد وهكذا • وأما المتكبرون فيصيرون نملا يدرسهم أهل النار • وتجبر فئات أخرى على أن تحمل الأداة التى ارتكبوا بها ذنوبهم كوصمة عار ، فيحمل شارب الخمر الكوز فى عنقه ، ويحمل المطففون فى الكيل موازين من نار فى أعناقهم • (قرة العيون ١٢ — ٢٥ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٤٣ • واللالىء المصنوعة ٢/١٩٥ ، كنز العمال ٧/٢٠٨٦ ، ٣١٧٣ Gayangos coll. Ms. 64, fol. 15 vo: Ms 172 fol. 33 vo

(٢) الجحيم ١٨/٢١ ، ٢٩/٥٣ ، ٣١/٨٢ • القرآن : سورة الحديد / ١٢ وسورة التحريم / ٨ ، الفتوحات المكية الجزء الأول ص ٤١٢ السطر ١٤ •

(٣) خريدة العجائب ١٨٢ •

السنة المفسرين للقرآن وللأحاديث النبوية بعبارات جد شبيهة بأوصاف دانتى(١) :

ساق الله سحابة سوداء بما فيها من النقمة على عاد ، وأوحى الى الريح أن تخرج عليهم فتنتقم له منهم ، فخرجت بغير كيل ولا وزن حتى رجفت الأرض مما يلى المشرق والمغرب • « فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ٦٩ : ٧ » فلما دنت منهم نظروا الى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض ، فتبادروا الى البيوت فلما دخلوها دخلت عليهم الريح فأخرجتهم منها فهلكوا • فلما أهلكهم الله أرسل عليهم طيورا سودا لتلقيهم فى البحر فالقتهم فيه •

ولنقارن الآن هذا المنظر بما جاء فى الكوميديا الإلهية : زوبعة جحيمية ، ريح سوداء مظلمة تتخللها اشعاعات ارجوانية(٢) تهب بعنف وبلا انقطاع ، تزأر كالبحر العاصف ، وقد اكتسحت الفاسقين فى دوامتها ، تقلبهم على هـذا الجنب وعلى ذاك ، وتتقاذفهم هنا وهناك ، وتدفعهم الى أعلى والى أسفل ، وكلما أصابتهم بالجراح الثخينة ، علا صياحهم من الكرب والألم المبرح الذى يعانون منه •

نرى اذن أن تشابه الوصفين قد امتد الى نفس الكلمات التى صيغ بهـا النص ذاته(٣) •

٣ ــ ولننزل الآن الى الدائرة السادسة من جحيم دانتى ، ثم نعود الى الرواية الثانية من المجموعة الثانية من روايات « قصة المعراج » • حيث رأى محمد بحرا من نار ، على ساحله ألف مدينة من نار فى كل مدينة ألف قصر من نار فى كل قصر سبعون ألف تابوت من نار يتعذب فيها الأشقياء •

أما التشابه الحرفى لهذا المنظر بمدينة ديس التى تقع فى الدائرة السادسة من جحيم دانتى ، والتى جاء وصفها فى الأناشيد التاسع والعاشر والحادى عشر من الجحيم ، فقد أوضحناه فيما سبق • ونضيف هنا أيضا أن عقاب بعض أهل النار فى توابيت من نار قد ذكر فى عدد من القصص الإسلامية التى ورد بها وصف لعقوبات النار(٤) •

٤ ــ عقوبة اللوطية فى الحلقة الثالثة من الدائرة السابعة فى الجحيم لهـا ما يقابلها أيضا فى النار الإسلامية ، يصورهم دانتى هائمين على وجوههم يذرعون الدائرة التى يسكنونها لا يكفون عن ذلك ، تحت مطر من نار يسفع أجسادهم العارية(٥) •

---

(١) تفسير الخازن ١٠٤/٢ ، قصص الأنبياء ٤٠ •

(٢) الجحيم ٨٩/٥ •

(٣) قارن قصص الأنبياء ٤٠ السطور ١٨ و ٢١ ، ٢٤ ، ٢٢ ا ٢٧ ، ٣٣ و ٣٤ و ٣٧ بالجحيم ٣١/٥ و ٤٩ و ٥١ ، ٨٩ ، ٨٦ ، ٣٢ ، ٣٣ و ٤٣ و ٤٩ بالتتابع •

(٤) قرة العيون ص ٣ و ٢٠ وكنز العمال ١٨٨/٨ رقم ٣٢٨٨ •

(٥) الجحيم ١٤ و ١٥ و ١٦ •

ويرى دانتى من بين الأشقياء فى هذه الدائرة أستاذه برونيتولاتينى ، الذى يعبر له بينما يسيران جنبا الى جنب عن دهشته وحزنه لأنه وجده فى هذه النار ، وهى عقوبة لا تتناسب مع التعاليم الحكيمة التى تلقاها منه على الأرض ٠

نستشهد بعدد من الأحاديث باعتبارها نموذجا احتذاه فى تصويره لهذا المنظر ٠ نرى أولا : أن فى النار الإسلامية عقوبة شبيهة بهذا المنظر النارى شبها كبيرا ٠

ان الحميم أو (شواظ النار والنحاس) يصب على رأسه فينفذ حتى يخلص الى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يمزق قدميه ثم يعاد كما كان(١) ٠

وجاء فى القرآن على التخصيص فى الإشار الى ما سوف يصيب الأشقياء من عذاب قوله « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » سورة الرحمن : ٣٥ ٠

أما الأحاديث الأخرى فتشير الى العقوبة التى سوف تحل بالعلماء والحكماء الذين تناقضت أعمالهم مع أقوالهم وتعاليمهم : « فى جهنم رحى تدور بعلماء السوء فيشرف عليهم بعض من كان يعرفهم فى الدنيا فيقول : ما صيركم الى هذا وقد كنا نتعلم منكم ؟ فيقولون : انا كنا نأمركم بالأمر ونخالفكم الى غيره ٠ وفى رواية أخرى أن أناسا من أهل الجنة يطلعون الى أناس منأهل النار فيقولون : بم دخلتم النار فو الله ما دخلنا الجنة الا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : اناكنا نقول ولا نفعل(٢) ٠

نستبين اذن من مقارنة هذه النصوص بما ذكرنا آنفا من أحداث الكوميديا الإلهية أن التشابة امتد الى صيغة التعبير ذاتها ٠

٥ ـ يضم أول أودية مالبولج فى الدائرة الثامنة من جحيم دانتى القوادين ، الذين يجلدهم الشياطين وهم يفرون منهم عراه(٣) ٠ وهذه العقوبة هى ذاتها العقوبة التى

---

(١) كنز العمال ٢٤٦/٧ رقم ٢٨٠٠ وابن مخلوف ٤١/٢ ، وتفسير الخازن ٣٤٨/٤ ـ ٩ ٠

(٢) كنز العمال ٢١٣/٥ رقم ٤٣٨٣ ، ٢١٤ رقم ٤٤١٥ ، ٢١٧ رقم ٤٤٧٩ و ٤٤٨٤ ٠ ابن مخلوف ٣٧/٢ ، مختصر تذكرة القرطبى ٧٤ ٠

(٣) شرح فرجيل لدانتى قبل ان يغادر الدائرة التى قابل فيها برونيتو هيدروغرافية النار (اى اوصافها المتعلقة بالمياه مثل الانهار والبحيرات الخ ٠) وحدثه عن الأنهار الأربعة التى تنبع من جزيرة كريت ٠ وحدثه عن التمثال المقام على جبل ايدا على صورة شيخ كبير ، صنع من الذهب والفضة والنحاس والحديد والصلصال وهو تمثال فيه شقوق فى جميع اجزائه ما عدا الجزء الذهبى ، تتحادر منها الدموع التى تكون الانهار الاربعة اذا ما انسابت الى السهول (الجحيم ٩٤/١٤ وما بعده) ومهما يكن من أمر المعنى الخفى الذى رمى اليه دانتى من هذا الرمز ، وعلى الرغم من التشابه الحقيقى بين هذا التمثال وتمثال دانيال ، فجدير بالذكر ان نشير الى ان فى الأدب الإسلامى قصصاً كثيرة تتعلق بالأصل المشترك لأنهار =

ذكرت المأثورات الإسلامية انها ستحل بالزانى ، وتارك الصلاة ، والظالم حيث تغل يداه يوم القيامة الى عنقه ويضرب الملائكة وجهه ودبره وجنبه(١) ٠

غطّس دانتى المتملقين فى القذر ووضعهم فى الخندق الثانى (٢) وهى عقوبة شاربى الخمر فى النار الإسلامية ، الذين يروون عطشهم بحميم وغساق ، والحميم دموع أعينهم تجمع فى حياض النار ، والغسّاق ما يسيل من جلودهم من الصديد والدم وما يسيل من سرمهم(٣) ٠

أعدت الهوة الثالثة فى مالبولج عند دانتى بخنادق من نار ، يحترق فيها السيمونيون ورءوسهم الى أسفل ٠ يقابل هذا عقاب القاتلين فى الإسلام الذين يحبسون فى آبار من نار خالدين فيها الى أبد الآبدين(٤) ٠

٦ ـ عندما وصل دانتى الى الخندق الرابع قابل موكبا من الآثمين ، وصفهم : بأن رقابهم قد لويت بطريقة غريبة ، ذلك أن وجوههم كانت الى ظهورهم ٠ وعمد أكثر من مرة الى وصف هذا المنظر الغريب ، بقوله : بأن دموع هذه الأرواح كانت تسقط على ظهورهم ، وأن أكتافهم كانت الى صدورهم ، وأنهم كانوا يمشون الى الوراء(٥) ٠

أما هذا الضرب من التعذيب الغريب ، الذى طالما تحدث الدانتيون عن الإبداع والأصالة فى تصوره ، فليس فى واقع الأمر غير ترديد لآية من آيات القرآن :

« يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها »(٦) ٠

= الجنة الأربعة ٠ نقع عليها فى كل مكان ٠ تخبرنا هذه القصص : ان النيل والفرات وسيحون وجيحون فنبع من تمثال من الذهب والياقوت على صورة قبة ، نقع فوق جبل به أربع فتحات أو شقوق ٠ أما منابع النيل البعيدة والتى لم يكن قد اكتشفها احد فقد أدت الى نشوء قصص مشابهة ، تصف مياهه على انها تسيل من أفواه خمسة وثمانين تمثالا من البرنز أو غيره ، تقع على جبل عليه تمثال شيخ كبير هو الخضر ٠

(١) قرة العيون ٨ ، اللالىء المصنوعة ١٩٥/٢ ، الجحيم ٣٥/١٨ ٠

(٢) الجحيم ١١٣/١٨ ٠

(٣) اللالىء المصنوعة ١٩٥/٢ ، مختصر تذكر القرطبى ٧٧ ، قرة العيون ١٧ ، ابن مخلوف ٨٣/٢ ، القرآن ٥٧/٣٨ ، ٢٥/٧٨ ٠

(٤) الجحيم ١٩ ، قرة العيون ٧٢ ٠ يلاحظ ايضا أن هذا الوضع الغريب قد جاء فى بعض أوصاف للنار منسوبة الى ابن عباس ، Ms 234 Gayangos Coll. fol. 105

(٥) الجحيم ١١/٢٠ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٣٩ ٠

(٦) سورة النساء ٤٧ ٠

فسر المفسرون هـذا التحذير الذى وجهه الله لليهود الذين ينكرون صدق القرآن اما حرفيا واما مجازيا • ولقـد سجل الطبرى فى تفسيره المعانى المختلفة الحرفيـة والمجازية(١) • غير أن المعنى الحرفى هو الذى شاع ، اعتمادا على اعتقاد اسلامى ، أساسه ما جاء فى بعض روايات التلمود : من أن بعض الشياطين يظهرون للإنسان بنفس هـذه الصورة الشوهاء(٢) • وكذلك صورت القصص الإسلامية التى تناولت وصف أحداث يوم الحساب بعض الآثمين على أنهم عادوا الى الحياة ثانية فى هذه الصورة ، وجوههم الى أقفيتهم ، ليقرءوا كتاب ادانتهم وهم فى هذا الوضع(٣) •

والحق أن الإثارة التى تعبر عنها هـذه الصورة قد طبعتها فى العقل الإسلامى ، حتى لقـد استخدمها الوعاظ من فوق منـابرهم لوعظ الأندلسيين الذين تنصروا بعـد هزيمة العرب فى أسبانيا • كمـا استخدمها المفكرون مثل : الغزالى فى كتاباتهم(٤) •

٧ ـ ثم انه يبين ايضا أن عذاب المنافقين فى الخندق السادس فى مالبولج مأخوذ من منظرين شائعين فى المـأثورات الإسلامية ، خلطهما دانتى معـا • وصف دانتى هؤلاء المنافقين بأنهم يمشون متثاقلين ، يئنون تحت عبء عباءات من رصاص ، يبهر النظر بريقها(٥) • وجاء فى الروايات الإسلامية المتعلقة بيوم الحساب : أن البخلاء سوف يمشون فى النار لايكفون عن المشى وهم يحملون الأموال التى اختزنوها • كذلك يصور كل من القرآن والتقاليد الإسلامية الآثمين ، وعلى الأخص أصحاب الشهوات الجسدية • بأن سرابيلهم ستكون من قطران ، وأنهم سوف يأتون يوم القيامة تشتعل وجوههم نارا ، فاذا دخلوا جهنم ألبسهم مالك سرابيل من نار (٦) •

٨ ـ خصص دانتى الخندق السابع فى مالبولج لعذاب اللصوص • ويخبرنا بأنه رآهم وهم يتخبطون هنـا وهناك فى محاولة يائسة للهرب من الأفاعى التى كانت تلتف حولهم تنهشهم من رقابهم ووجوهم وسررهم بأنياب يسرى منها سم شديد يحيل أجسادهم رمادا ، ثم يعادون خلقا جديدا ، ويتكرر التعذيب(٧) • وهنا نجد أن دانتى

---

(١) تفسير الطبرى ٥/٧٧ •

(٢) ومنهم من كانت وجوههم الى اقفيتهم وتخرج النار من فيهم (القزوينى ١/٣٧٣) •

(٣) مختصر تذكرة القرطبى ٤٧ السطر ١٠ •

(٤) Colleccion de textos aljamiados by Gil Ribera and Sanchez (Saragossa, 1888) pp. 69 and 71.

احياء علوم الدين ٤/٢١ ـ ٢٢ ، اتحاف الساده المتقين ٨/٥٦١ •

(٥) الجحيم ٢٣/٥٨ ـ ٧٢ •

(٦) القرآن ـ سورة ابراهيم ٥٠ ، تفسير الطبرى ١٣/١٦٧ ـ ٨ ؛ قرة العيون ٢٦ •

(٧) الجحيم ٢٤ ، ٢٥ •

استعار هذه الصورة وزينها بملامح استقاها من الشعراء الكلاسيكيين ، وعلى الأخص من أوفيد • فاذا ما نحينا جانبا هـذه الملامح ، تبينا أن الصورة التى رسمها دانتى لهذا الضرب من العذاب تتشابه تشابها كبيرا مع عـدد من مشاهد العذاب التى يكثر وصفها فى القصص الإسلامية التى تصف لنـا أحداث الحساب وما يجرى فى جهنم ، وعلى الأخص تلك القصص التىوردتفى قرة العيون ، ومفرحالقلب المحزون ، لابن الليث السمرقندى ، وهى مجموعة من القصص استشهدنا بكثير منها فى بحثنا هـذا ، واعتمدنا عليها كثيرا • واليك هـذا الوصف الذى يستبان منه شبه كبير بوصف دانتى(١) « من ملك نصابا ولم يزكه جاء يوم القيامة فى صفة ثعبان عيناه تتقدان نارا وأسنانه من حديد ، فيجرى خلف مانع الزكاة فيقول له : أعطنى يمينك البخيلة حتى اقطعها ، فيهرب مانع الزكاة فيقول له : وأين المهرب من الذنوب ؟ فيلحقه ويقطع يمينه بأسنانه ويبلعها ، ثم تعود كمـا كانت ثم يقطع اليسرى وكلما قطع بأسنانه صاح صيحة من الوجع فيرتعد منـه أهل الموقف » • ـ « ان فى النار واديا يقال له : للم ، فيه حيات ، كل حية نحو رقبة الجمل طولها مسيرة الشهر ، تاسع تارك الصـلاة فى ذلك الوادى ، فيغلى سمها فى جسده سبعين سنة » • ـ « وان فى جهنم واديا يسمى : جب الحزن ، فيه عقارب كل عقرب قدر البغل الأسود له سبعون شوكة ذؤابة من سم تضرب تارك الصلاة ضربة وتفرغ سمها فى جسده فيجد حرارة سمها ألف سنة ، ثم يتهرى لحمه على عظمه » • ـ « يخرج شارب الخمر من التابوت بعـد الف عام فيجعل فى سجن حيات وعقارب أمثل من الجمال يأخذونه بقدميه » • ـ « آكلوا الربا بطونهم بين أيديهم كالبيوت تغلى حيات وعقارب » • ـ « يكوى الزبانية عيون الزناة بمسامير من نار ، كمـا نظرت الى الحرام ، ويغلوا أيديهم بأغلال من نار كمـا امتدت الى الحرام ، ويقيدوا أرجلهم بقيود من نار كمـا مشت الى الحرام » •

« ان الـكافر يسلط عليه فى قبره شجاع أقرع فياكل لحمه من راسه الى رجله ثم يكتسى اللحم فياكله من رجله الى راسه فهو كذلك » •

٩ ـ يرى دانتى عنـد مدخل الخندق التاسع فى مالبولج : منظرا رهيبا تعجز عن وصفه الـكلمات(٢) • أى جمعا من الذين بذروا بذور الفتنة والشقاق ، يسـوقهم الشـياطين حول الوادى وهم يضربونهم بالسيوف فتاتى الضربة على راس الرجـل فتفلقه نصفين ، ثم يعودون خلقا جديدا ، ليضربهم الشياطين من جديد • وضـع

(١) قرة العيون ٢٥/٢ ، ٣٧ ، ٦٥ ، كنز العمال ٢٨٠/٧ رقم ٣٠٨٧ •

(٢) الجحيم ٢٨ •

دانتى هنـا عـدة صـور للعـذاب فى النـار : موسـكا ديلى أوبرتى ، وقـد قطعت يداه ، برا تران دى بورن مقطوع الرأس ، وهويحملرأسه منشعرها فى يده كأنه يحمل مصباحا • والحق اننـا نقع على هـذه الصورة العـامة التى رسمها دانتى وعلى المناظر التى صورها فى القصص الإسلامية •

« من قتل نفسـه بسكين لم تزل الملائكة تطعنه بتلك السكين فى أودية جهنم الى أبد الآبدين • كلما ذبحوه يسيل من حلقه دم أسود من قطران ثم يعـود كما كـان ثم يذبح • هكذا تكون عقوبته الى أبد الآبدين »(١) •

« يسعون بين الحميم والجحيم يدعون بالعويل والثبور ، فرجل يجر أمعاءه ورجل يسيل فوه قيحا ودما » •

وتصور قصص اسلامية مختلفة من هـذا القبيل الأشقياء وهم يدورون فى النار كمـا يدور الحمار برحاه ، وهم يجرون امعاءهم التى مزقتها الزبانية الذين يدورون خلفهم • كذلك طبق بعض الرواة المسلمين هـذه العقوبة ذاتها على رجلين عرفا بقسوتهما ، همـا الخليفة الأموى الخامس عبد الملك بن مروان ، وقائده الحجاج المتعطش للدماء ، اللذان يصوران اما وهما يجران أمعاءهما فى النار ، واما وهما يقتلان سبعين قتلة فى نظير كل جريمة قتل ارتكباها على الأرض(٢) •

وكذلك نقع على مقابل فى القصص الإسلامية للعقوبة التى طبقها دانتى على موسكا ديلى أو برتى ، فى عقوبة اللصوص والبخلاء •

« انه لا يقتطع رجل مالا الا لقى الله عز وجل يوم القيامة وهو أجذم »(٣) •

واخيرا يلوح تماما أن الصورة التى وضعها دانتى لبرترانـدى بورن : عبـارة عن تكييف لمنظر من المنـاظر التى جاءت فى المـأثورات الإسلامية عن يوم القيـامة :

« يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة حتى يدنيه من العرش ، ورأسه بيده تشخب أوداجه دما ، ويقول : يا رب ، سل عبدك فيم قتلنى ؟ »(٤) •

---

(١) قرة العيون ٧١ •

(٢) كنز العمال ١٨٨/٨ رقم ٣٢٨٨ ، ٢١٤/٥ رقم ٤٤١٥ ، شرح الصدور ٣٠ ، ١٢١ •

(٣) كنز العمال ٣٢٧/٥ رقم ٥٧١٧ ، قرة العيون ٦٥ •

(٤) كنز العمال ٢٨٧/٧ رقم / ٣٢٠١ ، ٣٢١٨ ، ٣٢٢١ ، ٣٢٢٣ ، ٣٢٢٤ •

١٠ — يرى دانتى فى آخر خندق من خنادق مالبولج المخادعين والغشاشين ، والمزورين وجميع الفئات المشابهة وهم يقاسون ضروبا مختلفة من العذاب • رأى بعضهم قد تكوم فوق بعض ، ورأى بعضا آخر يسيرون على أرجلهم وأيديهم ، ورأى غيرهم يحكون جلودهم من الجرب ، أو وهم يمزقون بعضهم بعضا بأسنانهم ، وآخرين اضطجعوا على الأرض بطونهم مفتوحة وهم يقاسون آلام عطش لا يرحم(١) •

وهذه كلها عقوبات وردت آنفا فى الرواية الثانية من المجموعة الثانية من قصص المعراج ، للهمازين واللمازين والمرابين وشاربى الخمر • كذلك نقع على قصص اسلامية كثيرة تصور عذاب بعض الآثمين بصورة شبيهة أكثر الشبه بهذه الصورة التى وضعها دانتى • فيقال : « ان الجرب يسلط على أهل النار فيحكونه حتى تبدو عظامهم فيقولون : بم سلط علينا ذلك ؟ فيقال : بايذائكم أهل الإيمان » • أو « أنهم سوف يقاسون جوعا شديدا فيقطعون من جنوبهم اللحم فيأكلونه » أو « ان شاربى الخمر فى الدنيا عطشهم يوم القيامة عطشا شديدا فينادون : واعطشاه ؛ اسقونا شربة من الماء » (٢) •

٥

النار الإسلامية فى الكوميديا الإلهية (خاتمة)

١ — اضطر دانتى ودليله — وهما فى طريقهما الى الدرك المعد للخونة — أن يعبرا هوة عميقة يسكنها أشقياء عمالقة ، من الذين عصوا الله ، وعلى رأسهم نمرود وعمالقة الأساطير القديمة مثل افيالتس ، وبرياريوس ، وانتيوس • وانحصرت مهمة الاخير فى أن يتناول الشعراء بين يديه ، ويضعهم برفق فى أعمق هوة من أعمق دائرة من دوائر النار (٣) ولقد أعجب دانتى كثيرا أن يبالغ فى تقدير حجم هؤلاء العمالقة • فقال بأن رأس النمرود كان فى حجم المخروط الكبير الذى يعلو كنيسة القديس بطرس ، أو بعبارة أخرى : أكثر من خمس قامات فى الارتفاع والعرض • أما بقية أعضائه فتتناسب مع هذا الرأس ، وبذلك يكون طول قامته — بناء على أقوال مفسرى الكوميديا — حوالى ثلاث وأربعين قامة •

---

(١) الجحيم ٢٩ ، ٣٠ •

(٢) كنز العمال ٢٤٧/٧ رقم ٢٨٢٦ • MS 172 Gayangos Coll. fol. 34 ،فقرة العيون ١٢ •

(٣) الجحيم ٣١ •

والحق أن المؤلفات المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية لا تزودنا بتفسير كاف لهذا المنظر • صحيح أن شخصيات العمالقة موصوفة وصفا جيدا فى الكتاب المقدس ، وفى الأساطير القديمة ، غير أن أيا من هذه المصادر لا يبرر وجودها فى النار • هذا فى حين تزودنا المصادر الإسلامية من أول وهلة بمفتاح هذا اللغز • فقد خصصت الكتب الإسلامية التى تناولت موضوعات الآخرة ويوم الحساب وما الى ذلك ، فصولا بأكملها لقصص رويت عن النبى تصف أحجام الكفار الهائلة ، الذين يسكنون أعمق دركات النار ، كما جاء فى قصيدة دانتى ، والذين بولغ فى تقدير أحجامهم فعلا ، ولكن بنسب رياضية تماما كتلك التى افصح عنها دانتى(١) •

« يسودّ وجه الكافر يوم الحساب ، ويمد فى جسمه ستون ذراعا ، ويلبس تاجا من نار ••••• من كان من أهل النار عظّموا وفخّموا كالجبال ••••• ان الرجل من أهل النار ليعظم فى النار حتى يصير الضرس من اضراسه كأحد ••••• ان غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا » •

أما الغرض من اعطاء الكافر هذا الحجم الكبير ، فتعريض أكبر قدر ممكن منه للنار • ثم ان افتراضنا للأصل الإسلامى للصورة التى وضعها دانتى لهؤلاء العمالقة انما تدعمه حقيقتان : أولا أن ابليس قد وضع فى أعمق دركات النار بنفس الصورة التى وضع بها دانتى العملاق اميالتس ، يد الى صدره والأخرى الى ظهره(٢) • وثانيا أن الإسلام أدخل نمرود وفرعونَ فى النار خالدين فيها أبدا ، ضمن الطوائف التى تكبرت على الله ؛ والذين وضعوا فى نفس الدرك الذى يعذب فيه ابليس لعصيانه(٣) • وكذلك أدان دانتى نمرود بنفس الخطيئة ، ووضعه فى مدخل أعمق دوائر جحيمه ، التى فيها لوسيفر (ابليس) •

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٧٥ ، كنز العمال ٢١٢/٧ رقم ٢٣٠١ ، ٢٣٧ رقم ٢٦٦٨ ، ٢٦٧١ ، ٢٨٠١ ، ٢٨٠٨ • وفضلا عن ذلك فان وجود عمالقة فى النار امر تقليدى فى الاسلام ، ذلك أن قوم عاد الذين حكم عليهم القرآن بدخول النار ، كانوا عمالقة • ونقع فى قصص الأنبياء ص ٣٩ ، على وصف أحد هؤلاء العمالقة ، ومقارنة راسه بقبة كبيرة • كذلك نجد أن التشابه فى حجم هؤلاء العمالقة هنا وهناك تشابه غريب حقا • جاء فى مختصر تذكرة القرطبى (ص ٧٥) أن غلظ جلد الكافر اثنانً وأربعونً ذراعا •

(٢) المرجع السابق ٨٩ ـ ٩٠ •

(٣) احياء علوم الدين ٢٤٠/٣ ، الفتوحات المكية ٣٩٣/١ ، اللالىء المصنوعه ١٩٦/٢ •

٢ ـ يقاسى جميع سكان هـذا الدرك الأسفل عقوبة واحدة ، هى عذاب الزمهرير ٠ وتحتفظ بحيرة كوكيتس التى تستغرق هـذا الدرك كله بدرجة تجمدها عن طريق الهبّات الثلجية الباردة التى تحدثها أجنحة لوسيفر ٠ وقد وضع دانتى فى مياهها المتجمدة أربع طوائف من أهل النار ، وصورهم فى أوضاع مختلفة(١) ٠

ولا أظن اننـا نحتاج هنـا الى ايضاح أن اخرويات الكتاب المقدس لم تشر الى اى عذاب بالزمهرير ٠ أما العقيدة الإسلامية فواضح جـدا انهـا تضع هـذا العذاب على قـدم المساواة مع عذاب النار(٢) ٠ حقا ان القرآن قـد اشار الى هـذا الضرب من العذاب اشارة غامضة فى قوله : « متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا »(٣) ٠ غير أنه ذاع عدد من الأحاديث المنسوبة الى محمد فى تفسير هذه الآية ، تبين أن « عذاب الزمهرير » ضرب من ضروب التعذيب فى النـار ، وهو فى واقع الأمر عذاب اشـد قسوة من عذاب النار(٤) ٠

ولا يرجع ادخال هـذا العذاب فى التصميم الإسلامى للنار الى مجرد الرغبة فى التعبير عن تنـاقض العقوبات ، وانمـا هو راجع ـ على الأرجح ـ الى اسـتيعاب النظريات الإسلامية لبعض المعتقدات الزرادشتية ٠ يقول الجاحظ فى القرن التاسع الميلادى : ان هـذا العـذاب معروف فى نار زرادشت الفارسى ، الذى يقدس عبادة النـار(٥) ٠ فاذا كان مفسر مثل الطبرى قـد قبل هـذه العقوبة بعـد ذلك بقرن من الزمان بغير تردد ، اذن يحتمل أيضا أنها ادخلت فى نفس الوقت الى المعتقدات الإسلامية من طريق الزرادشتيين الفرس الذين دخلوا فى الإسـلام ٠ وأهم من ذلك أن بعض الأحاديث قد فسرت « الزمهرير » الذى جاء فى القرآن على أنه جب به ماء متجمد(٦) ٠ « قالوا : ما زمهرير جهنم يا رسول الله ؟ قال : جب يلقى فيه الكافر فيمزق ـ من شدة بردها ـ بعضه من بعض » ٠

فاذا وضعنا فى أذهاننا أن لكلمة « زمهرير » معنى علميا هو « أقصى ضروب الريح

---

(١) الجحيم ٣٢ ، ٣٤ ٠
(٢) الفتوحات المكية ٣٨٧/١ ٠
(٣) القرآن ـ سورة الإنسان الآية ١٣ ٠
(٤) Gayangos Coll. Ms 172 fol. 34 and 234 fol. 105,
(٥) كتاب الحيوان ٢٤/٥ ٠
(٦) مختصر تذكرة القرطبى ٦٩ ٠

برودة » أو ذلك « الهواء المتوسط بين الأرض وفلك القمر »(١) ، يتضح لنا أن الآثمين فى الإسلام ، يقاسون ـ كما عند دانتى ـ عذابا مزدوجا ، هو عبارة عن تعريضهم للمياه المتجمدة ولهبات الريح شديدة البرودة ٠

أما الأوصاف المفعمة بمختلف المناظر المثيرة للاوضاع المتباينة التى يصور بها دانتى طوائف الخونة المختلفة ، فاوصاف تتكرر باستمرار فى كثير من ضروب العذاب فى النار الإسلامية ، وان لم ترتبط فى واقع الأمر بعذاب الزمهرير ٠ جاء فى حديث عن ابن عباس(٢) «يعاقب البعض وهم وقوف ، أو مضطجعون على جنوبهم ، او على ظهورهم ، أو وهم وقوف مستندين على أكواعهم ، فى حين يعلق كثيرون من أرجلهم » ٠ ويخبرنا قول شائع جدا « أن منهم (أى أهل النار) من تأخذه النار الى عقبة ، ومنهم من تأخذه النار الى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار الى حجزته ، ومنهم من تأخذه الى عنقه »(٣) ٠

ثم ان هناك وضعا من أوضاع العذاب فى الإسلام يتطابق مع أقسى أوضاع العذاب التى حددها دانتى للآثمين فى بحيرة كوكيتس المتجمدة(٤) :

« سوف تمسك الزبانية الكافر من الخلف ، وتكسر ضلوعه ، ثم تلوى بطنه وتقيد قدميه بشعره » ٠

٣ ـ وضع دانتى فى أعمق دركات جحيمه ، اى فى مركز الأرض سلطان مملكة العذاب « لوسيفر » ، يغطى الزمهرير جسمه كله من القدمين حتى الجزء الأسفل من صدره ٠ ولقد جعله دانتى عملاقا اشوه ، له ثلاثة رءوس ، وأجنحة هائلة كاجنحة الوطاويط ، يخفق بها فيحدث ريح الزمهرير التى تهب فى هذا الدرك ، ويبتلع بأفواهه الثلاثة ثلاثة خونة ٠ وعمد دانتى وقد تملكه الفزع من هذا المنظر الى أن يمر من بين كتفى لوسيفر المشعرين والثلج ، فوصل الى نصف الكرة الجنوبى من خلال نفق أرضى طويل ٠ وهناك يرى رجلى لوسيفر الهائلتين معلقتين فى الهواء ٠ فيخبره فرجيل بأن هذا الملك العاصى عندما القى به خارج الجنة ، اصطدم رأسه بسطح النصف الجنوبى من الأرض ، فنفذ حتى المركز وظلت قدماه هكذا حتى يومهم هذا(٥) ٠

---

(١) عجائب المخلوقات ٩٣/١ ٠

(٢) Ms 234 Gayangos Call. fol. 105 وانظر الجحيم ٣٢ / ٣٧ ، ٣٣ / ٩٢ ، ٣٤ / ١٣ ٠

(٣) مختصر تذكرة القرطبى ٨٢ ، كنز العمال ٢٤٦/٧ رقم ٢٨١٠ وانظر الجحيم ٣٤/٣٢ ، ١١/٣٤ ٠

(٤) Ms 172 Gayangos Coll. fol. 34 وانظر الجحيم ١٥/٣٤ ٠

(٥) الجحيم ٢٨/٣٤ ـ ١٣٩ ٠

أعجب النقاد اعجابا كبيرا بأصالة هذه الصورة وابتكاريتها ٠ اســـتخدم جراف كل معارفه الواسعة وبعد نظره ليكشف عن ثلاثة عناصر تكوّن الأفكار والمعتقدات بالعفاريت والشياطين عنـد دانتى : العنصر اللاهوتى المبنى على نظريات القديس توما الأكوينى ، والعنصر الشعبى الذى يتناســب مع الأفكار الشـائعة فى عصره ، والعنصر الخاص بدانتى الذى اكتسبه فى أثناء دراسته بجامعه بولونيا ٠ ولقد ضمن جراف العنصر الأخير هذا الوصف فقال :

٤ ـ اننا مهما أعجبنا بقوة وصف دانتى وجماله ، ومهما قال النقـاد ، فاننـا لا نعجز عن الوقوع على نماذج أصلية لهذا الوصف فى الأدب الدينى الإسلامى ٠

بينا من قبل أن وضع ابليس مثبتا فى أعمق دركات النار ، مفهوم شائع فى كثير من الأوصاف الإسلامية ٠ ثم انه ما كان ليوضع فى مكان آخر طبقا لمبدأ تقسيم الأشقياء بحسب ذنوبهم ؛ ذلك أن ابليس الإسلام ، هو مثل لوسيفر (ابليس المسيحية) تماما أبو جميع المعاصى ضد الله ، ولذلك فانه ينبغى أن يقاسى أشد العقوبات ٠

غير أن تشابه الصورتين انمـا يمتد الى طبيعة العذاب ذاته ٠ يقرر ابن عربى بصورة قاطعةأن ابليس معرضلعذاب الزمهرير ، اذ أنه‌يبنى قوله هذا على أساس أن ابليس من الجان وقـد خلق مثلهم من النار ، فيكون عـذابه بالزمهرير(١) ٠ ثم ان معاصرى ابن عربى قـد عللوا مناعة الشياطين ضد نار جهنم بناء على مفاهيم مشابهة ٠ قال أبو الحسن الأشعرى : ان الشياطين ـ وهم ملائكة عصاه ـ مخلوقون من نار ، وبناء على ذلك فانهم لا يتأثرون بعذاب النار(٢) ٠

أما فيما يتعلق بصورة لوسيفر الشوهاء ، فان مسألة تعدد الأوجه هى ذاتها وصمة العار التى تفرض على الخونة فى النار الإسلامية جزاء نفاقهم ٠ ثم اننا ينبغى أن ندرك أن لوسيفر هو فى واقع الأمر أكبر الخونة لعصيانه لله ٠ ولذلك وضعه دانتى فى درك الخونة ٠ يقول حديث مبكر من الأحاديث المكذوبة من كان ذا وجهين ولســانين فى الدنيا ، جعل الله له وجهين ولسانين فى النار »(٣) ٠ وكذلك نقع فى قصص أخرى مبكرة على وصــف للشــياطين يصورها مخلوقات شــوهاء ذات رأسين(٤) ٠ ثم ان النار ذاتها

---

(١) الفتوحات المكية ٣٩١/١ ٠

(٢) MS 64 Gayangos Coll. fol. 1-27

(٣) اللآلىء المصنوعة ١٩٦/٢ ٠

(٤) نقع فى عجائب المخلوقات ٣٧٣/١ على حديث يخبرنا عن معاملة سليمان الشياطين والجان ، له أهميته من حيث دراسة العقود الإسلامية المتعلقة بالشياطين والعفــاريت ، فيه تشابه كبير بالصــورة التى وضعها دانتى ، وعلى الاخص من حيث الأسماء (أنظر فى هذه النقطة الدميرى ٢٣٧/١ ، وتفســير الخازن ٢٠١/٣ ونزهة الناظرين لعبد الضرير ١٨٨) ٠

لم تعتبر مكانا للعذاب وانها اعتبرت تجسيدا له ، وقد صورتها بعض الأحاديث على انها وحش كبير له رءوس يخرج ألسنته ويلقط بهـا مختلف فئات أهل النـار ، بل ان بعض الرويات حددت هذه الرءوس بثلاثة (١) • وأخيرا نرى أيضا أن القصص الشعبية التى رويت حول رحلات خيالية كثيرا ما جاء فيها أوصاف لوحوش مشابهة : مثال ذلك : هـذا الوحش المسمى ملـكان ذو الجناحين والرءوس الـكثيرة والوجوه المختلفة ، الذى يلتهم حيوانات البحر التى تصـعد الى جزيرته ، أو دهلان الذى تصوره القصص على أنه شيطان يركب طائرا يشبه النعامة ويأكل لحوم الناس الذين ينزلون الى جزيرته فى المحيط الهندى(٢) •

يبقى بعد ذلك أن ننظر فى هبوط ابليس من الجنة • وهنا لا نجد غير اشارة واحدة وردت فى الأدب المسيحى السابق لدانتى فى هبوط ابليس ، هى الفقرة القصيرة من انجيل لوقا ١٠ـ١٨ : « فقـال لهم رأيت الشيطان ساقطا مثل البرق من السماء • » وأما القرآن فيصف عصيان ابليس وطرده من الجنة فى أكثر من سبع آيات • وعلى الرغم من أن هـذه الآيات لم تعطنا أى تفاصيل عن كيفية هبوطه،فاننا نقع على أحاديث كثيرة تصف العقوبة التى فرضها الله على آدم ، وحواء ، والحية ، وابليس(٣) • ثم انه توجد اضافة الى ذلك مجموعة من القصص المتعلقة بنشأة الكون ، تكمل قصة اهباط ابليس •

أشرنا فى فصل سابق الى الرويات التى تصف تقسيم الأرض الى سبع أؤضين ، تقابل السبع السماوات • ولقد رمت هذه الروايات الى تفسير القصص المتعلقة بنشـأة الكون وهى فى النهاية عبارة عن تفسير لآية قرآنية مقتضاها أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله* •

تقول القصة : « أن السماوات والأرض كانتا رتقـا ففتقهمـا الله ثم بعث من تحت العـرش ملكا فهبط الى الأرض حتى دخـل الأرضـين السـبع فوضعهـا على عاتقه ، احدى يديه فى المشرق والأخرى فى المغرب باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى ضبطها فلم يكن لقدميه موضع قرار » (٥) •

(١) كنز العمال ١٠٩/٢ رقم ٢٦٥٢ ، مختصر تذكرة القرطبى ٧٠ •
Gayangos oll. Ms 64, fol. 24 and Ms 234, fol. 94

(٢) خريدة العجائب ٨٧ ، ٩٥ •

(٣) قصص الأنبياء ٢٦ • (٤) اشارة الى الآية ٣٠ من سورة الأنبياء •

(٥) قصص الأنبياء ٣ « يبين أن الغرض المباشر من هذه القصة هو فى واقع الامر تفسير ثبات الأرض فى وسط الفضـاء ، غير أن تكييف هـذا المفهوم لأغراض اخرى تعبر عن أوصاف مثيرة فامر شائع فى المحاكيات الأدبية •

لم تذكر القصة أن ابليس هو هذا الملك ، ولكن يلوح أن الحقيقة الماثلة فى انه القى به من عرش الرحمن الى الأرض ، قد تؤيد ما نرمى اليه ٠

ثم ان ادماج هاتين القصتين معا ، قد يؤدى الى تكوين نموذج احتذاه دانتى ٠ وأما أن هذا الغرض له ما يبرره ، فأمر نستطيع تبيينه باستعراضنا لمختلف ملامح التشابه التى تقدمها الأوصاف الإسلامية التى تصور ابليس على انه ملك القى من الجنة لعصيانه الله ، فاخترق طبقات الأرض عند اصطدامه بها وانغمس فى الزمهرير ، وظلت قدماه فى الفضاء ٠ وهو فوق ذلك يحمل طبقات الأرض المختلفة ٠ أما أنه زود بأجنحة فلأنه ملك من الملائكة ولكن خطيئته كانت سببا فى تشويه صورته ، فأصبح مسخا رهيبا ذا رءوس متعددة يلتهم الأشقياء ٠

٦

المطهر الإسلامى (الصراط) فى الكوميديا الإلهية

١ ـ مر دانتى ودليلة خلال ممر متمعج مظلم من مركز الأرض الى سطح النصف الجنوبى منها ليصل الى شطئان المطهر ، الذى تصوره الشاعر جبلا مرتفعا على صورة قمع أقطع ، يقوم فى منتصف محيط لا نهائى الاتساع ٠ وينقسم هذا الجبل الى سبع مصاطب ينزل فى كل درجة منها فئة معينة من الخطاة وعند السفح منطقتان ملحقتان بالمطهر ، تنتظر فيهما أرواح المهملين والعاقين ، الإذن لها بالدخول ٠ وعلى قمة هذا الجبل سهل واسع يجاوز السماء الأثيرية هو الجنة الارضية ٠ نرى اذن جبل المطهر عند دانتى مقسم الى سبعة أو تسعة أو عشرة منازل ، ترتبط بعضها ببعض بممر وعر شديد التحدر ٠ أما الأرواح التى وضعها دانتى فى المطهر فهى تلك الأرواح التى ارتكبت خطايا بسيطة ، أو خطايا كبيرة ولكن لم تكفر عنها تكفيرا تاما ، ولذلك فانها تكفر عن هذه الخطايا فى المنازل المتتابعة تحت حراسة الملائكة الذين يقودونهم فى أثناء صعودهم ٠ وهذه مهمة تجعلها صلوات أصدقائهم على الأرض أسهل كثيرا ٠ ثم ان دانتى خضع هو أيضا الى هذا التطهير ، وان انطوى خضوعه على معنى صوفى ، اذ رسم ملاكه الحافظ على جبهته سبع مرات حرف P ، وهو رمز الإثم ، الذى محى شيئا بعد شىء فى المصاطبالسبع ٠ وكان صعودهم يسهل كلما ارتفعوا ، وأخيرا يصل الشاعران دانتى وفرجيل الى القمة ، أى الى الجنة الأرضية ، حيث يطهر دانتى روحه بأن يغتسل فى نهرين ، وبذلك يعد لدخول الفردوس ٠

٢ ــ لا يوجد شيء فى العقائد المسيحية المتعلقة بالأخرويات يمكن أن نستشم منه تبريرا لهذا الوصف المفصل المحدد لوضع المطهر • ثم ان حياة المطهر ــ باعتباره حالة خاصة تمر بها الروح للتكفير المؤقت عن الآثام ــ لم تصبح عقيدة من عقائد المسيحية الا بعد قرن من الزمان من ظهور الكوميديا الإلهية(١) • ولم يذكر موضع المطهر على الإطلاق ، لا فى مجمع فلورنسا الذى عقد فى ذلك القرن ، ولا فى مجمع ترنت ، ولا فى أى مناسبة اخرى ، ذلك أن الكنيسة فى حقيقة الأمر قد عمدت دائما الى تجنب الأوصاف الخيالية لممالك الآخرة ، وعلى الأخص المطهر (٢) • غير أن هذا لايعنى على اية حال أن المطهر من ابتكارات القرن الخامس عشر ، كلا ، فان الاعتقاد به فى واقع الأمر له جذور عميقة فى فلسفة القرون الوسطى ، وفى كتابات آباء الكنيسة وتقاليدهم ، فضلا عن ذكره فى الكتاب المقدس ذاته • غير أن هذه العقيدة لم تتجاوز قط مجرد قبولها على انها تعبير عن حالة من حالات الروح ، فضلا عن أن التعاليم الإكليروسية ، وعلى الأخص تعاليم الكنيسة الغربية ، قد صمتت دائما وتحفظت كثيرا فيما يتعلق بموضعه وبتفاصيله الوصفية • والحق ان احدا قبل دانتى لم يحاول وصف المطهر ، غير بعض كتاب ؛ منهم : هيوالسانفكتورى ، والقديس توما الأكوينى ، وريكاردو دى ميديا فيلا • وكانت محاولاتهم متواضعة جدا ، وأما أوصافهم فتختلف كثيرا عن أوصاف دانتى • وقد اختتم لاندينو استعراضه لجميع النماذج الكلاسيكية والمسيحية التى يمكن أن يكون دانتى قد احتذاها بقوله : غير أن دانتى رجل ذو عبقرية فذة ، وابتكارات قيمة ، اوجد له بها مكانا جديدا يختلف اختلافا تاما عن جوهر الآراء المسيحية »(٣) •

٣ ــ رأينا من قبل أن الإسلام أخذ بمبدأ المطهر باعتباره حالة تكفير مؤقت يخضع لها جميع الآثمين الذين ماتوا مسلمين • أما اذا أردنا أن نحدد موضع المطهر الإسلامى وطبيعة المحن التى ستخضع لها الروح ، ينبغى لنا أن نستعرض ما جاء من أوصاف مختلفة فى القصص الإسلامية الكثيرة التى حيكت عن الحياة بعد الموت • فقد أحدثت العقائد المختلفة المتعلقة ببعث الجسد وبالحساب الأخير ضربا من البلبلة فى عقول اللاهوتيين المسلمين الذين حاولوا أن يحددوا مسالة الثواب والعقاب الذى

---

(١) Cf. Tixeront, II 200, 220, 350, 433 and III 270, 428

(٢) Cf. Perronte, 11, 122.

(٣) Landino, Prologue to Purg., fol. 194 also to Inf, 111, fol. 25 and 26,

ينتظر الأرواح فى خلال الفترة ما بين الموت والبعث فى اليوم الآخر • هل تخضع الأرواح وحدها ، أم الأجســاد أيضا للثواب والعقاب ؟ هل يحس الجسد الميت بالألم الجسمانى والسعادة الروحية اذا لم يبعث فى القبر ؟ ثم أى فائدة من حساب اليوم الآخر اذا كان الثواب والعقاب سيبدآن بعـد الموت ؟ أما أنه يستحيل علينا أن نستخلص مجموعة معينــة من القصص ، أو أن نميز بين تلك التى تصف التطهير الذى يتبـع الموت فورا وتلك التى تصف التطهير الذى يتبـع الحســاب الأخير ، فلذلك نــكتفى بأن نعرض بعض الملامح الوصفية نأخذها بدون تمييز من مجموعة كبيرة من القصص ، ونقارنها بمــا يقابلها من مناظر فى الكوميديا الإلهية •

يصور الإسلام المطهر (الصراط) على أنه قـريب من النـــــار ، ولكن منفصــــل عنهــا • وفى حين توصف النـــار بأنها فى باطن الأرض ، يوصف المطهر بأنه فوق الأرض لا فى باطنها • ويؤيد هـذا القول ، فضـــلا عن هــذه الملامح الطوبوغرافية ، حديث يصف الخطوط العامة للتــكفير عن الآثام(١) •

« ان لجهنم بابين ، أحدهما يسمى الجوانية ، والآخر يسمى البرانية ، فأما الجوانية فالتى لا يخرج منها أحد ، وأما البرانية فالتى يعذب الله فيها أهل الذنوب والموجبات من أهل الإيمان ما شاء الله أن يعذبهم ، ثم يأذن الله للملائكة والرسل والأنبياء ، ولمن شاء من عباده الصالحين فيشفعون لهم فيخرجون منها وهم فحم فيلقون على شـــاطىء نهر فى الجنة يسمى نهر الحياة ، فينضح عليهم فينبتون كما تنبت الحبة فى الحميل ، فاذا استوت أجسادهم قيل : ادخلوا النهر ، فيدخلون ويشربون منـــه ، ويغتسلون فيخرجون ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة » •

نرى اذن أن المرحلة الأخيرة التى اجتازها دانتى فى المطهر ، والتى فى أثنـــائها محيت من على جبهته العلامة التى ترمز للإثم ، واغتسل فى مياه نهرى الليث والإيونى ، ثم دخل الجنة الأرضية ، هى نفس المرحلة التى تحدثنـــا عنهـــا هـذه القصة الإسلامية ، بتفاصيلها النموذجية الشبيهة أيضا بتلك التى أشرنا اليها من قبل فى روايات المعراج •

ثم اننا نقع أيضـــا على رواية ضمن مجموعة أخرى من قصص الآخــرة تصف الصراط وصــفا مطابقــا تمــاما لوصف دانتى : « جبــل بين الجنة والنـــار يحبس فيه المذنبون »(٢) •

---

(١) كنز العمال ٢٤٢/٧ رقم ٢٧٢٥ و ٢٧٣٠ : ٢١٨/٧ رقم ٢٣٧٦ •

(٢) اتحاف السادة المتقين ٥٦٦/٨ ، ويلاحظ أن الحديث المنسوب الى ابن عباس لا يمكن أن يرجع تاريخه الى ما بعد القرن العاشر الميلادى •

حقـا ان المطهر هنـا اما اختلط مفهومه باللمبو ، واما تداخل معه ؛ ذلك أن هـذه المنطقة هى الأعراف ، التى يسـكنها الذين تساوت حسناتهم بسيئاتهم • غـير أنه ما دام سيدخل هؤلاء المذنبون بعـد أن يتطهروا من ذنوبهم فى نهر الحياة الى الجنـة ، فان خواص المطهر هنـا تـكون هى الغالبة •

المطهر الإسلامى اذن عبـارة عن تل أو جبل يقع فوق النـار وخارجها ، ويمتـد بينهـا وبين الجنة • أما الأوصاف المتعـددة التى تحدثنا عنهـا القصص المختلفة ، والتى استقاها المسلمون من أخرويات الديانة الفارسية فتتعلق بجسر أو ممـر ينبغى للأرواح أن تعبره قبل أن تتمكن من دخول الجنة (١) • ذلك أن الشـنفات الفـارسى أو الجسر المنير الذى يمتـد فوق النـار بين الجنـة وجبل يرتفع من مركز الأرض ، قـد أخـذ فى الإسلام صورا متعددة لمر أو طريق ما ، فأخـذ صورة بنـاء مرتفع ، أو قنطرة ، أو جسر ، أو ممر أو منحـدر صعب الارتفاع وتنطبق كل هـذه الأوصاف فيما عـدا الجسر على المطهر عنـد دانتى ، بل ان جبل دانتى أيضـا لا يعدو فى الحقيقة أن يكون غير جسر كبير ، هو الطريق الوحيـد للمرور من الأرض الى الجنـة ، يرتفع فوق النار ، أو على حـد تعبير المصطلح الإسـلامى فوق ظهرانى جهنم ، أو فوق متن جهنم(٢) •

٤ — يقول ابن عربى فى معرض حديثـه عن الـكلمات المنسوبة الى محمد فى هـذا المعنى فى كتابه (الفتوحات المـكية) : « والطائفة التى لا تدخل النـار انمـا تمسـك وتسأل وتعـذب على الصراط ، والصراط على متن جهنم غائب فيهـا ، وما ثم طريق الى الجنة الا عليـه »(٣) • ويكمل ابن عربى الصـورة فى فقرة أخرى ، يخيل الينـا كمـا لو أنه يتحدث فى الحقيقة عن تصـور دانتى لهذا الجسر ، يقول : « ويوضـع الصراط من الأرض علوا على استقامة الى سطح الفلك المـكوكب ، فيكون منتهاه الى المرج الذى هو خارج سور الجنة ، وأول جنة يدخلها النـاس هى جنة النعيم »(١) •

---

(١) راجع مجموعة من القصص فى هذا الخصوص فى مختصر تذكرة القرطبى ٥٨ وما بعدها • وفى العلوم الفاخرة ٢٥/٢ وفى اتحاف السادة المتقين ٤٨١/١٠ وما بعدها •

(٢) ينبغى أن نلاحظ ان جبل المطهر عند دانتى انمـا يرتفع فوق نصف الكرة الجنوبى ، الـذى يغطيه المـاء من جميع نواحيه ، ويصل فى ارتفاعه الى السماء الأثيرية ، وهى آخر سـماء من سـماوات الدنيا الواقعة تحت فلك القمر ،ويلاصق الجنة • واما أساسه ففوق النـار ، ومدخله فى النصف الشـمالى للأرض بجوار القدس •

(٣) الفتوحات المكية ٤١١/١ ، اتحاف السادة المتقين ٤٨٢/١٠ •

(٤) الفتوحات المكية ٥٧٣/٣ •

ونقع فى قصص أخرى على صراطين ، يجب على الأرواح التى عبرت الأول من غير أن تقع ، أن تعبر الثانى أيضا • ويعبر عن الثانى فى الغالب بأنه قنطرة مرتفعة بين الجنة والنار ، وهى مكان يستخدم للتكفير المؤقت عن الذنوب ، وفيه تحبس الأرواح حتى تقضى ما عليها من ذنوب ، ثم تستقبلهم الملائكة وتقودهم على الصراط الذى يؤدى الى النعيم الأبدى(١) •

أما التشابه بين مطهر الإسلام ومطهر دانتى فأكثر لفتا للنظر على أية حال اذا اعتبرناه من حيث صورته التى أعطاها له الصوفيون الذين ضاعفوا القنطرة الأولية ، الى عدد من المنازل والغرف والخوخات • وهنا يرسم لنا ابن عربى كعادته الصورة بأقصى ما يمكن من التفاصيل(٢) • ذكر ابن عربى ان الخلائق يوم الحساب سيقفون خمسين موقفا كل موقف منها ألف سنة ، يهمنا منها المواقف الأخيرة : ذلك انها سبعة وتشبه سبعة مواقف فى مطهر دانتى : يؤمر بالخلائق الى الصراط ، فينتهون اليه وقد ضربت عليه الجسور على جهنم وهى ادق من الشعر ، واحد من السيف ، وقد غابت الجسور فى جهنم مقدار اربعين ألف عام ، وهى سبعة جسور ، يحشر العباد كلهم عليها وعلى كل جسر منها عقبة مسيرة ثلاثة آلاف عام ، وعلى تلك الجسور ملائكة يرصدون الخلق ليسأ لوا العبد عن الإيمان بالله ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والطهر ، والمظالم ، فاذا جاز كلا من هذه جاز الى الجنة •

وما ان بدأ رواة الأحاديث وكتاب القصص الدينى يتجهون هذا الاتجاه ، حتى تخطى خيال المؤمنين الحدود الضيقة للصورة التى رسمنا حدودها فيما سبق ، وتعددت المناظر الطوبوغرافية باضافة مظاهر أخرى جزئية مقسمة الى عشرة أو اثنى عشرة أو خمسة عشر جزءا • وهنا أيضا نرى أن المبدأ الذى حكم هذه التقسيمات كان أخلاقيا • هذا على الرغم من انه ينبغى لنا أن نعترف أن التوزيع لم يكن منطقيا ولا مبنيا على أى مذهب لاهوتى أو فلسفى ، وانما كان على الأرجح نتيجة لرغبة أولئك الذين يضعون أنفسهم فى موضع العلماء الذين يفتون فى قضايا الضمير والسلوك ، ولا يتركوا ذنبا بغير حساب • ومن ثمة انحصرت النتيجة فى أنهم عددوا كثيرا من العيوب والمناقص المختلفة المتغايرة الخواص •

ونحن ازاء تعدد الصور وغزارة التفاصيل التى جاءت أوصافها فى الأدب الإسلامى المتعلق بالأخرويات ، عن الصراط وهو مكان التطهر من الذنوب ، انما يبين لنا

---

(١) العلوم الفاخرة ٣٣/٢ ، كنز العمال ٢٣٧/٧ رقم ٢٦٧٧ •

(٢) الفتوحات المكية ٤٠٣/١ ـ ٤٠٦ •

بوضوح أن تصــور دانتى لطوبوغرافية هــذا المكان ، أمر يصعب فعــلا الادعاء بأنه ابتــكارى •

٥ ـ أما أوصافه فيمــا يتعلق بضروب العذاب فى المطهر فلم يدع أحــد بأنها كانت ابتكارية ؛ ذلك أن دانتى استنفد كل ما فى جعبته من تصــورات للعــذاب فى جحيمه ، وأصبح تصوره لضروب جديدة من العذاب امرا صعبا على التاكيد • ولذلك نكتفى الآن باجراء مقارنة مختصرة جدا بالمناظر الإسلامية •

انحصرت العقوبة التى وضعها دانتى للعاقين والمهملين فى أنهم ســوف يحبسون خارج حــدود منطقة التــكفير عن الذنوب مــدة غير محدودة ، ووصفهم بأنهم ســوف يظلون هنــاك عنــد سفح الجبل ، فى انتظــار مســاعدة أصــدقائهم واهاليهم ، الذين يفترض أن صلواتهم من اجلهم ستقصر أمد الغضب الإلهى • هنا وفى هذا المكان الملحق بالصراط عرف مانفريد الصقلى وبيلاكوا دانتى بنفسيهما ، ورجــواه أن يبلغ أصدقاءهما على الأرض بمصيرهما التعس • وكان بيلاكوا جالسا فى ظل صخرة كبيرة وقد وضع رأسه بين ركبتيه ، وتبدو عليه علامات اكتئاب شديد •

والحق أن الأدب الإسلامى مفعم بمناظر من هذا القبيل ، هى عبارة عن أرواح المعذبين فى الصراط تتراءى لأهاليهم وأقربائهم فى الأحلام وترجوهم ان يصلوا من أجل راحتهم الأبدية(١) • واننا لنقع على منظر بالذات من ضمن المناظر الكثيرة التى تملأ صفحات هذا النوع من الأدب ، تحمل تشابها لافتا للنظر لوصف دانتى السابق • ظهر دلف ابن أبى دلف العجلى أحــد قواد المــامون لولده دلف فى المنام :

« رأيت أبى فى المنام فى دار وحشة وعرة سوداء الحيطان واذا فى أرضها أثر الرماد ، واذا أبى عريان واضع رأسه بين ركبتيه ، فقال لى كالمستفهم : دلف ؟ قلت : نعم أصلح الله الأمير • فانشأ يقول :

أبلغن أهلنــا ، ولا تخف عنهم ... ما لقينــا فى البــرزخ الخنــاق

قد سـئلنا عن كل ما قــد فعلنــا ... فارحمــوا وحشتى وما قد الاقى

ثم قال : أفهمت ؟ ثم أنشأ يقول :

فــلو أنا اذا متنــا تركنــا ... لــكان الموت راحــة كل حى

ولــكنا اذا متنــا بعثنــا ... فنســأل بعــده عن كل شئ

(١) خصص المسلمون كتبا باكملها لهذا الموضوع ، مثل شرح الصدور للسيوطى ، ومختصر تذكرة القرطبى ، والعلوم للفاخرة لأبن مخلوف • وقــد رجعنا كثيرا لهــذه الــكتب الثلاثة •

ويستطرد دلف فيقول : وانصرف ، فانتبهت (١) ٠

٦ ـ وضع دانتى عقوبات المطهر والجحيم على أساس مبدأ العلاقة المتبادلة بين الذنب والعقـوبة ٠ ومن ثم وضـع الأرواح التى تطهرت من ذنب الـكبر فى الدائرة الأولى ، ووصفهم بأنهم كانوا يمشون وقد ثقلت كواهلهم تحت وطأة ما يحملون من حجارة ثقيلة ٠ وهذه هى نفس العقوبة التى وضعها الإسلام للبخلاء والذين أثروا من طرق شريرة ٠ جاء فى بعض الروايات المنسوبة الى محمد أنه قال(٢) :

يابنى عبد مناف ، يابنى عبد المطلب ، يابنى ٠٠٠اعلموا أن أولى الناس بى يوم القيامة المتقون ، وأن تكونوا أنتم مع قرابتكم فذاك ، لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالدنيا تحملونها على أعناقكم فتقـولون : يا محمد ، فأعرض عنـكم بوجهى وأقـول أما النسب فأعرف ، وأما العمل فلا أعرف » وقوله : « ويجـاء بصاحب المال الذى لم يطع الله فيه وماله بين كتفيه كلما أنكفأ به الصراط قال ماله : ويلك ألا أديت حق الله ؟ »

وتصوّر قصص أخرى البخلاء فتخبرنا بانه يجـاء بصاحب المـال الذى لم يطع الله فيه وماله بين كتفيه كلما أنكفأ به الصراط قال ماله : ويلك ألا أديت حـق الله فى ؟؟ ٠ فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور ٠

ويصور دانتى فى الدائرة الثانية الحسودين وقـد خيطت جفونهم ، يبكون بمرارة وهم يصلون طلبا للغفران ٠

هنا أيضا نجد أن العمى ـ ولو فى صورة مخففة ـ عقوبة من العقوبات التى خصصها الإسلام لأولئك الذين يقولون مالا يفعلون ٠ جاء فى أحـد الأحاديث المـكذوبة(٣) ٠

« ومن قرأ (القـرآن) ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى ، فيقـول : رب لم حشرتنى أعمى وقـد كنت بصيرا ؟ فيقول : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ٠ ثم يؤمر به الى النار » ٠

ونقع عند دانتى على طائفة من المغضوب عليهم وقـد غشيتهم سحابة من دخان كثيف فى الدائرة الثالثة ، أخفتهم تماما وان سمعت أصواتهم ٠

وهذه هى نفس العقوبة التى أشار اليها القرآن فى قوله : «فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هـذا عـذاب اليم »(٤) ثم ان المفسرين لـما تناولوا هاتين

(١) شرح الصـدور ١٢١ ٠

(٢) كنز العمال ٢٥٢/٣ رقم ٤٠١٣ ، كنز العمال ١٧٥/٨ رقم ٣٠٥٤ و ٣٠١٧ و ٥٧٣٦ ٠

(٣) اللآلىء المصنوعة ١٩٦ ٠ القرآن ٨٢/٦ ، مختصر تذكرة القرطبى ٧٣ ٠

(٤) القرآن ١٠/٤٤ ـ ١١

الآيتين ، وصفوا تفاصيل لهـذه الصورة ، تشبه المنظر الذى وضعه دانتى شبها لافتا للنظر(١) ·

هو دخان يجىء قبل قيام الساعة يملأ ما بين المشرق والمغـرب يمكث فى الأرض أربعين يوما وليلة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه · اما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ؛ وأما الكافر فيكون بمنزله السكران يخرج الدخان من أنفه ومنخـــره وعينيه وأذنيه ودبره ، وقيل هذا الدخان من آثار جهنم يوم القيامة · ويرى الرجل بين السماء والأرض الدخان فيحدث الرجل فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان · »

أما العقوبة التى فرضت على الكسالى فى الدائرة الرابعة من دوائر المطهر ، وهى الجرى بلا انقطاع ، فيمكن التغاضى عنها على اعتبار أنها قليلة الأهمية · وأما عقوبة البخـــلاء فى الدائرة الخامســة فاكثر لفتا للنظر ، وهم الذين رآهم دانتى منبطحين وجوههم الى الأرض ، مقيدة أيديهم وأرجلهم ، يتفجعون على المصير الذى أتوا اليـــه ، وتتحادر دموعهم غزيرة على خدودهم ·

ولاغرو فان الحزن والألم النفسى مظهران نموذجيان من مظاهر المطهر الإســلامى (الصراط) ، يتكرران فى أوصاف ما يجرى فى منازله ومواقفه المختلفة(٢) ·

« من شك فى الجنة والنار والبعث والقايامة ، بقى فى جوعه وعطشه وغمه وكربه ألف سنة حتى يقتضى الله فيه بما يشاء » ·

وفضلا عن ذلك نرى أن الوضع الغريب الذى صور فيه دانتى البـخلاء ، هـو نفس الوضع الذى فرضه الإسلام للمذنبين عموما ، ولشاربى الخمر خاصة ، يظهرون به على الصراط يوم الحساب · جاء فى حـديث عن النبى « ان الذى أمشــاهم على أرجلهم فى الدنيا ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم يوم القيامة »(٣) · ويصف مؤلف (قرة العيون ومفرج القلب المحزون) عقوبة شاربى الخمر كما ياتى(٤) « يأتى شارب الخمر يوم القيامة ··· فيقوم مغلولة يداه مقيدة بالسلاسل على وجهه يستغيث من العطش فيسقى من الحميم فيستغيث من الجوع فيطعم من الزقوم فيغلى فى بطنه » وجــاء فى حـــديث نبوى يتعلق بعبور الصراط ما يــأتى(٥) : « فمن النــاس من

(١) تفسير الخـــازن ١١٢/٤ ـ ١١٣ ، مختصر تذكرة القرطبى ١٣١ ، المطهــر ١٤٢/١٥ ــ ١٤٥ ، ٥/١٦ ـ ٧ و ٣٥ ــ ٣٦ ·

(٢) الفتوحات المكية ٤٠٤/١ ـ ٤٠٦ ·

(٣) كنز العمال ٢٤٦/٧ رقم ٢٨٠٩ ·

(٤) قرة العيون ١٩ وانظر المطهر ٧١/١٩ ــ ٧٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ·

(٥) احياء علوم الدين ٣٧٦/٤ ·

يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس المجرى ، ومنهم من يسعى سعيا ، ومنهم من يمشى مشيا ، ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم من يزحف زحفا •»

تعذب الأرواح فى الدائرة السادسة من مظهر دانتى عن رذيلة الشره بالتجويع والإعطاش ، ثم بتاميلهم فيما يرغبون فيه لإشباع جوعهم واطفاء عطشهم ، وذلك بجعلهم يرون ويشمون ثمار شجرتين ، أصلهما من فروع الشجرة الكبيرة التى تنمو فى الجنة الأرضية •

ولقد رأينا من قبل أن تلهف الأرواح الجائعة العطشى على ما يسدون به الجوع ويروون به العطش ، من الخصيات المميزة لضرب من العـذاب فى المطهر الإسلامى

ومن المشابهات الغريبة أن احدى القصص الإسلامية قد كررت حادثة الشـــجرة ثلاث مرات(١) « ••• فترفع له وهو على الصراط شجرة فيقول : اى رب أدننى من هـذه الشجرة لأستظل بظلها وأشرب من مائها • فيقول الله تعالى : يابن آدم فلعلك ان أعطيتـكها تسـأل غيرها •• ، فيقول : لا يارب ، ويعـاهده أن لا يسـأل غيرها وربه سبحانه وتعالى يعذره ؛ لأنه يرى مالا صبر عليه فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هى احسن من الأولى فيقول : يارب أدننى ، وهكذا حتى ترفع له الشجرة الثالثة • » وعلى الرغم من أن نهاية القصتين مختلفة ، فان الخطوط العامة للحادثة متشابه جدا فى كلتا القصتين •

أما آخر دائرة من دوائر مطهر دانتى فخاصة بالتكفير عن خطيئة الاغتلام ؛ اى الانقياد للشهوة • وتعذب الأرواح فى هذه الدائرة بالعطش وبسفع النار ، وهم يصيحون بالله أن يعفو عنهم ويغفر لهم • ولقد تكلم دانتى مع عدد من هؤلاء ، ورجوا منه أن يتشفع لهم •

النار فى واقع الأمر أكثر ضروب التعذيب شيوعا ، وقد ذكرت فى جميع العقائد الخاصة بالآخرة تقريبا • وانها لفى بعض هذه العقائد الصورة الوحيدة من صـور العقاب • ولا أظن أنه من الضرورى أن نذكر هنا المنـاظر المتماثـلة فى الأوصـاف الإسلامية للحياة الأخرى(٢) • ثم اننـا نلاحظ على أية حال أن علماء المسلمين قد حرصوا على أن يفرقوا بين النار المطهرة فى الصراط ونار جهنم الأبدية •

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٨٠ •

(٢) وصفت النتيجة الطبيعية لهذا الضرب من العذاب ، اى العطش الشديد والبكاء المر باسلوب ينم عن المبالغة الشرقية الشديدة • جاء فى قرة العيون ص ١٥ : « ان من شرب الخمر فى الدنيا عطشـه يوم القيامة عطشا شديدا ،يحرق فؤاده ويخرج منه لسانه على صدره » • وجاء فى كنز العمال ٢٤٦/٧ رقم ٢٨١١ • « ويرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى يصـير فى وجوهم كهيئة الأخدرد ولو ارسلت فيه السفن بارت » •

أما العقوبة الأولى فمؤقته الغرض منها التطهير ، وبذلك تكون العقوبتان محدودتين من حيث المدة والمدى ، ومتناسبتين مع طبيعة الذنب الذى جعلت الكفارة من أجله •

والحق أنه يوجد كثير من القصص التى تصف الدرجات المختلفة لهذه العقوبة ، والتى تخبرنا بالتفجعات والتوسلات التى يوجهها المعذبون للملائكة ولمحمد ولأولياء الله الصالحين ، راجين اياهم أن يتشفعوا لهم عند الله(١) •

٧

جنة الإسلام الأرضية فى الكوميديا الإلهية

١ ــ صور دانتى قمة جبل المطهر على أنها سهل متسع فيه حديقة بالغة الجمال وهذه هى جنة البرزخ أو الجنة الأرضية ، أو جنة عدن التى عاش فيها آباؤنا الأوائل عند ما كانوا لا يزالون فى حالة براءة تامة • تجول دانتى فى هذه الجنة العابقة برائحة الزهور ، يداعب خديه المبللتين بالدموع نسيم عليل يفوح منه طيب الجنة ، وسار فى ظلال أشجار يانعة خضر ، تصاحب النغمات الرقيقة لحفيف الريح فى أوراقها تغاريد آلاف من الطيور ، حتى وصل الى نهر رائقة مياهه ، فتبع مجراه • ومشى تصاحبه على الشاطىء الآخر فتاة حسناء هى ماتلدا ، تجمع الزهور وهى تسير ، وتشرح له طبيعة هذه الحديقة • وهنا تنتهى مهمة فرجيل الذى سوف يتركه بعد قليل ، ذلك أنهم رأوا فجأة موكبا رائعا من الفتيات والشيوخ فى أحسن زينة يتقدم نحوهم من وراء النهر ، وهم يجرون مركبة تحف بها الملائكة ، فيها حبيبة الشاعر بياتريتشى ، التى تستقبلها أغانى الترحيب • وعندئذ تناديه بياتريتشى باسمه وتوبخه لإهماله النصيحة القدسية التى وجهتها له فى المنام ، ولخيانته لها اذ انغمس فى

---

(١) انظر مختصر تذكرة القرطبى ص ٨١ فى وصف نار الصراط : يرفع معاشر الأشقياء وهم يساقون الى النار اصواتهم بالنحيب والبكاء ، فيذكرهم ذلك القول بنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم (أى القول : أو ليس انزل على محمد صلى الله عليه وسلم) فيقولون : وا محمداه وا محمداه ، اشفع لمن امر به الى النار من أمتك ، فمنهم من تاخذه النار الى كعبية ، ومنهم من تاخذ النار الى ركبتيه ، ومنهم من تاخذه النار الى صدره • فاذا انتقم الله تعالى منهم على قدر كبائرهم وصغائرهم وعقوقهم واصرارهم ، يقول الله : يا جبريل انطلق فاخرج من فى النار من امة محمد ، فيخرجهم جماعات بعد جماعات وقد امتحشوا من النار فيلقيهم على نهر على باب الجنة يقال له نهر الحياة ، فيمكثون فيه حتى يعودوا انضر مما كانوا ، يعنى أحسن صورة وجمالا ثم يامر بادخالهم الجنة •

وتذكر روايات اخرى أن الشفيع لم يكن محمدا بل كان رجلا عاديا •

علاقات غرامية أخرى أقل جدارة ، ولآثامه • يرتبك دانتى ويعلن توبته ويعترف بعدم جدارته بحبها ، بعد ذلك تلقيه ماتلدا والفتيات الاخريات الـــلاتى يخدمن بياتريتشى فى مياه نهر الليث اذ تجمعن عند شاطئه • فلما يشرب دانتى من مياهه يتطهر من خطاياه وينسى جميع ذنوبه • ثم يستغرق فى نوم عميق فى ظل شجرة الجنة ، وأخيرا يستحم فى نهر الإيونى ويخرج منه «وقد ولد من جديد كأنه شجرة غيرت أوراقها ، وأصبح طاهرا ومستعدا للصعود الى النجوم »(١) •

بيّن جراف بعد دراسة دقيقة لقصــص القرون الوســطى التى تناولت الجنــة الأرضية ، أنه يوجد سوابق للموضــوع الذى اختــاره دانتى لهــا ، وذلك أن كتابا غيره كانوا قد وضعوا هذه الجنــة فى النصف الجنوبى من الـكرة الأرضــية ، فوق قمة جبل مرتفع(٢) • غير أنه أكــد أن أحدا قبل دانتى لم يفــكر فى وضــعها فوق قمة جبل المطهر • وهنا نرى أن دراسة للأدب الدينى الإســلامى ســوف تفصح عن أهميــة كبيرة تتعلق بهــذا الموضــوع ، ذلك انهــا تسـوف تمدنا بالمفتاح لهذا اللغز الطوبوغرافى ، اذ هى ستــكشف عن مشابهات فى الخطوط العامة وفى التفاصيل بين الفــكرات الإسلامية وهذا المنظر الأخير من مناظر المطهر •

٢ ــ أثارت مسألة موضع الجنة التى وضع الله فيها آدم وحواء منذ عصور الإسلام الأولى مجادلات حامية • والحق أن المفسرين المسلمين قد خلطوا عند تفسيرهم لمــا جاء فى القرآن عن هــذه الجنــة بين الجنــة الأرضــية وجنة النعيم التى توجد فى جنان السماء(٣) • ويقول بعض المفسرين على أية حال انها توجد فى الأرض فوق أعلى جبال المشرق • وهذا التفسير هو فى واقع الأمر أقرب التفاسير الى ما جاء فى القرآن ، ذلك أن طرد آدم وحــواء الى الأرض انما يعنى أن الله أهبطهمــا فحسب من قمة الجبــل الى سفحه(٤) ، ثم ان فى ذلك أيضــا تفسيرا لنعيم جنة عدن واختــلافها عن غيرها من الأماكن فوق سطح الأرض • وأما وجهة النظر هذه ، التى اعتنقهــا بعض المفسرين منذ عصر مبكر فى واقع الأمــر ، فقــد أذاعهــا فلاســفة المعتزلــة وصــوفيوها وتمسكوا بهــا • وكان منذر بن سعيد قاضى قرطبة الكبير ، واحد المعتزلــة الزاهدين بطلها المغوار فى القرن التاسع •ثم هــذه الفكرة أصبحت من الأفكار الشائعة فى الإسلام من خلال رسائل اخوان الصفا فى القرن العاشر •

---

(١) المطهر ٢٨ ــ ٣٣ ، Cf. Rossi, 1, 150 .

(٢) Graf. Miti, 1, 5

(٣) سجل ابن قيم الجوزية فى كتابه مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (الجزء الأول ص ١١ ــ ٣٤) مختلف الآراء وذكر اهم أصحابها سواء فى المشرق أو المغرب الإسلامى •

(٤) سورة البقرة ٣٦ •

« الجنة بستان من المشرق على رأس جبل الياقوت الذى لا يقدر أحد من البشر أن يصعد هنالك • وهى طيبة التربة معتدلة الهواء شتاء وصيفا ، ليلا ونهارا ، كثيرة الأنهار ، مخضر الأشجار ، مفننة الثمار والفواكه والرياض والأنهار ، كثيرة الحيوانات غير المؤذية والطيور الطيبة الأصوات اللذيذة الألحان والنغمات » (١) •

هذه الجنة الأرضية التى تصفها هذه الفقرة وصفا شبيها بوصف دانتى ، كانت اذن فوق أعلى جبل من جبال الأرض • أما أى الجبال هو ؟ فأمر يصعب تحديده ، ذلك أن الآراء اختلفت كثيرا حول هذه النقطة • فقد جعله بعض المؤلفين فى سوريا أو فى فارس ، وجعله غيرهم فى بلاد الكلدان أو فى الهند (٢) • وأخيرا شارع الاعتقاد بأن هذا الجبل فى الهند (٣) • ويشير اخوان الصفا الى الجبل على أنه « جبل الياقوت » ، وهو الجبل الذى يذكره الجغرافيون العرب فى سيلان ، ويعرف الآن باسم « قمة آدم » • ويرى هذا الجبل الذى يرتفع فوق مستوى الماء فى المحيط الهندى بسبعة آلاف قدم ، القادمون فى البحر من مسافات بعيدة • وتفسر لنا هذه الحقيقة ولا شك — مبالغة الكتاب فى وصف ارتفاعه ، ذلك أنهم افترضوا أنه يصل الى السماء •

أما الاسم الذى لا يزال يحمله هذا الجبل فتخليد للقصة الإسلامية • وقد خلف لنا ابن بطوطة ، الرحالة المغربى الشهير فى القرن الرابع عشر ، الذى سافر الى نهاية العالم المعروف فى ذلك الزمان ، وصفا حيا مفصلا عن وعورة الصعود فيه وصعوبتها ، ذلك أن الرحالة المسلمين كانوا دائما ينزعون الى صعوده اعتقادا منهم بأن على قمته صخرة فيها أثر قدم أبينا آدم (٤) •

ولقد رأينا فيما سبق أن جبلا يرتفع فى وسط جزيرة تقع فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية ، وهو — فى تصور دانتى — الجبل الذى تقع على قمته الجنة الأرضية •

---

(١) رسائل إخوان الصفا ٢/١٥١ .

(٢) Cf DHerblct Bidlictthéque Orientale s. v. gnnat, p.p. 373 773 - 816

(٣) الديار بكر • تاريخ الخميس ١/٦١

(٤) ابن بطوطة ٤/١٧٠ وما بعدها .

ويقع هذا الجبل ــ طبقا لما جاء فى أقوال المسلمين ــ فى منتصف جزيرة فى المحيط الهندى(١) والحق أن الجزيرة التى تحدث عنها دانتى عبارة عن جزيرة صغيرة تقع فى الجهة المقابلة للقدس من كرة الأرض ، فى حين أن جزيرة سيلان تقع فى المنطقة الاستوائية • غير أن الاختلاف فى الطوبوغرافيا هنا اختلاف بسيط لا أهمية له(٢) •

٣ ــ اشار جراف الى أن تصور دانتى لموقع الجنة الأرضية لم يكن شيئا جديدا فى أدب القرون الوسطى المسيحى ، ولذلك فان التشابه فى هذه النقطة وحدها مع الأفكار الإسلامية لا يكفى لإثبات التأثير الإسلامى • ولكن هناك عنصرا فى طوبوغرافية دانتى لم يتردد جراف ــ كما سبق ــ فى نسبته الى عبقرية الشاعر الابتكارية وبراعته وحدها ، هو موقع الجنة الأرضية فوق جبل التكفير عن الذنوب ، وتصور دانتى له باعتباره هدف الآثم فى صعوده الشاق ، وآخر مرحلة من مراحل التطهر ، التى تخلو فيها الروح تماما من آثار الذنوب ، وتصلح من ثمة الى عبور عتبة النعيم الأبدى(٣)

يوجد فى الأدب الدينى الإسلامى مجموعة من القصص من بين القصص الكثيرة التى تتناول موضوع دخول الأرواح الى الجنة السماوية ، تصف المغامرات التى تصادف هذه الأرواح منذ الوقت الذى يتمون فيه عبور الصراط أى ممر التطهر • تخبرنا هذه القصص أنه يقع الى جانب الصراط ذلك المرج البديع الذى يقع خارج سور الجنة السماوية ، وكأنه آخر مراحل التطهر ، وعلى الرغم من أن هذه القصص لم تقرر ان هذا المرج هو الجنة الأرضية ، فان الأوصاف التى تضعها له هى نفسها أوصاف الجنة الأرضية • فقد جاء فى وصفه أنه مرج بهيج مزهر ، يرويه نهران فقط ، تتطهر الأرواح فى مياههما من الآثام ، ويشربون منهما • وبعد التطهر تستريح الأرواح فى ظل أشجار يانعة ــ كما فعل دانتى ــ ثم تقودها جوقة من الملائكة

---

(١) ظل الاعتقاد بأن الجنة الأرضية تقع فوق قمة آدم سائدا فى الإسلام حتى القرن السادس عشر ، حيث كتب الشعرانى فى ميزانه (١٩٣/٢) فى ذلك القرن يقول بان الجنة التى سكنها آدم ليست الجنة السماوية ••• وانما هى الجنة التى تقع فوق قمة جبل الياقوت • وهى الجنة التى اكل فيها آدم التفاحة ، فاهبط الى الأرض •••• والتى سوف يعود اليها جمع أبناء آدم الذين يكونون مؤمنين بالله • أما الخطاة فيمرون أولا بالنار المطهرة •

ولقد كرر الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر ١٧٢/٢ هذه الفقرة بالنص تقريبا ، ونسبها الى كاتب ما ، اعتقد أنه العالم الرياضى مسلمة المدريدى الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى •

(٢) ونلاحظ ــ على ــ اية حال ــ ان القدماء اعتقدوا ان سيلان تقع فى الجهة المقابلة لنصف الكرة الشمالى (Cf. Reclus' Géogr. Univ' Loc. cit,)

(٣) f. Graf, Miti, 1, 5,

الى جنة النعيم • ثم ان هناك تشابها مثيرا آخر ، هو ان حورية حسناء تقابل روح المؤمن ، هى عروسه فى الجنة ، التى طالما انتظرت مقدمه ، وهى تتلهف على الاتصال به فى حب روحانى عفيف •

٤ ـ يدعونا التشابه الذى يفصح عنه الوصف السابق الى ان نقوم بدراسة أكثر تفصيلا لهذه القصص ، والى أن نعقد مقارنة بين الحدث السابق وقصة دانتى • وقد جاء فى الروايات المبكرة لهذه القصة التى بناها المفسرون على نص قرآنى(١) ما يلى :

« ان اول ما يدخل اهل الجنة يعرض عليهم عينان يشربون من احدى العينين فيذهب الله ما فى قلوبهم من غل ، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق الوانهم وتصفوا وجوههم وتعرف فيها نضرة النعيم »(٢) •

وهذا اطار سرعان ما ملأه المفسرون التقليديون ، الذين وضعوا مع الزمن القصة التى نقلها الينا فى أكمل صورها التقليدية شاكر بن مسلم • وهى قصة طويلة يكتفى بأن نذكر هنا أهم الفقرات التى تعنينا فحسب(٣) •

« اذا جاوزوا الصراط وقطعوا مسافته وجعلوا جهنم خلف أظهرهم أفضوا الى طريق الجنة ومعهم ملائكة الرحمة والفوز يهنئونهم • فاذا قاربوها وأشرفوا عليها وصل اليهم من نسيم طيبها وعطرها وبرد نعيمها ما تراح له نفوسهم فينسون به ما جاز عليهم من العناء فى مواقف القيامة وما كابدوه فى تلك المواطن من الشقاء ••• فيرفع لهم عند باب الجنة شجرتان عظيمتان لم ير العالم مثل طيبهما ، وظلهما ، وكمالهما . وحسنهما ، وبهجتهما ، وحسن أغصانهما ، وحسن زهرتهما ، وطيب ثمرتهما ، ونضارة ورقهما ، وحسن فروعهما ، وترنم أطيارهما ، وبر نسيمهما (٤) •••• وعند ساق كل شجرة منهما عين من ماء عذب بارد زلال يسيلان فى نهرين أخرين فى مثل صفاء القوارير على ضوع من الكافور ، وحصباء من لؤلؤ وياقوت منثور •••• وعلى حافتى كل نهر أنواع من حديقة وبشتان قد أينعت أشجاره وأزدهرت أنواره وتدلت ثماره وغردت أطياره • فاذا نظروا الى تلك الشجرة مالوا اليها وتصدوا

---

(١) القرآن ٧/٤٣ ، ١٥/٤٧ : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ••• » •

(٢) مختصر تذكرة القرطبى ٩٩ • وانظر العلوم الفاخرة لابن مخلوف ٢/٦٠ لمزيد من الروايات المختلفة لهذه القصة •

(٣) العلوم الفاخرة ٢/٦١ •

(٤) العلوم الفاخرة ص ٦١ السطر ٨ و ص ٦٢ الأسطر ١ ، ٢ ، ١٢ • وانظر المطهر ٢٨ السطر ٧ والسطرين ١٢ ، ١٤ •

نحوها فينغمسون فى ذلك الماء الجارى فى النهرين غمسة واحدة يغتسلون فيها اغتسالا تاما ويتنظفون تنظيفا عاما يذهب عنهم درن الأجسام ، وتعود اليهم صحة الأجسام حتى يبدو عليهم بهجة ذلك المقام الكريم ، ويعرف فى وجوههم نضرة النعيم ، ثم يشربون من ماء احدى العينين شربة تبرد أكبادهم وصدورهم وتذهب عنهم لهب الحر الذى كابدوه ، والعناء الذى باشروه ، وينزع ما فيهم من غل الصدور وحسدها وكدر الدنيا ونكدها ، ثم يميلون الى العينين الاخريين فيتوضأون من مائها ، ثم يخرجون الى الشجرتين فيستريحون الى ظلهما ٠٠٠٠ فعند ذلك تناديهم الملائكة من قبل رب العالمين يقولون لهم : يا أولياء الله ليست هاتان الشجرتان لكم بمنزل ولا دار ، وان لكم عند الله محلا وقرارا ، فقوموا وامضوا أمامكم فهنالك مأوى الراحة الدائمة والنعمة القائمة ٠ فيقولون من مقامهم ويسيرون تلقاءهم فى سبيل الجنان يؤمنون الصوت المنادى من بستان حتى تتلقاهم خدمهم وخولهم من الحور العين والولدان بالنجائب والخيل المحلاة ٠٠٠٠ يحيونهم بالسلام والتحيات ويهنئونهم بالسلامة والفوز والنجاة ٠ ٠ ٠ ٠ مرحبا بك يا ولى الله ، ادخل منزلك عزيزا كريما ٠ فيدخل فاذا فى القبة جوراء يقصر جمال كل الحور دون جمالها ويقل كل كمال دون كمالها ، عليها سبعون حلة من ألوان شتى يشم طيب المسك والكافور من أردانها وأطرافها ، يكاد يخطف الأبصار نور وجهها ويذهب الألباب بهجة بهائها بما كساها الله عز وجل من الحسن والجمال والبهاء والكمال ، وبما عليها من الحلى والحلل وكل ملبس بهى لولا ما رزق الله ولية المؤمن من القوة فى الإبصار لذهب بصره ووهمه بنور ما يرى منها وبهاء ما يبدو عنها ٠ فينادى ذلك الوليد القائم : يا ولى الله ، هذه زوجتك الكريمة ، وقرينتك العزيزة الزعيمة ، سيدة الحور ، ومقصورة القباب والخدور ٠ فاذا رأته وثبت من فراشها وثبة لا تتمالك اسراعا اليه وشوقا لما لديه ، فتقبل بالبشرى والترحيب عليه تقول : يا ولى الله ، طال ما تمنيتك ، حتى رأيتك لم ترى عينى مثلك ولا قرت دونك ، الود منى لك وكيد ، والشوق اليك شديد ، أنا من أزواجك النواعم والكواعب اللواعب ٠ فيتعانقان مليا ٠٠٠ ويبقى معها ما شاء الله » ٠

يتضح لنا جليا من هذه القصة نقاط تشابه كثيرة ٠ مثال ذلك أن وصف المناظر الطبيعية الخلابة فى كلتا القصتين متطابق تمام التطابق ٠ ثم ان صياغة القصتين قد حفلت بنفس التشبيهات المنمقة فى وصف جمال الجنة ، من حيث كثرة الزهور ، والهواء العطر ، والجو الجميل ، والنسيم العليل الذى يحمل غناء الطيور ٠ ثم انه لم يرد

سواء فى القصة الإسلامية أو فى قصيدة دانتى غير ذكر نهرين اثنين فقط ، هذا فى حين ذكر الكتاب المقدس أربعة أنهار فى الجنة • وأخيرا تضم كل من الجنتين ممرا الى الطهر ، الذى يعتبر فى الحقيقة آخر مرحلة تمر بها الأرواح وتخضع فيها للتطهر الأخير من وصمة الإثم وتعد نهائيا لدخول مملكة النعيم : فتغتسل الأرواح فى كلا النهرين وتشرب من مياههما • ثم ان أثر هذا الغسل المضاعف مشابه أيضا ، ذلك أنه يمحو كل آثار الآثام المادية والمعنوية ويزود الروح بحياة جديدة • وبعد الغسل تستريح الروح فى ظل شجرة يانعة • وأخيرا يأتى موكب الحوريات والشبان الذين يقدمون للروح عروس الجنة ، ويتقابل العريس والعروس وينصرف كل منهما الى الآخر •

٥ — لم يقع أحد من قبل بالرغم من البحوث الدقيقة المستفيضة ، على سابقة ادبية لهذا المنظر الأخير(١) • ومع ذلك فانه يعبر فى حقيقة الأمر كما يقول الدانتيون عن أهمية فائقة فى تفسير قصيدة دانتى برمتها ، ذلك أنه لا يلقى ضوءا فحسب على الألغاز التى تسبقه ، وانما ينبىء بالأحداث التى سوف تأتى فيما بعد • والحقيقة أنه ليس فى قصيدة دانتى من شىء ، سواء من حيث أحداث النزول الى الجحيم أو الصعود الى السماء ، فيما عدا هذا المنظر الذى يصف فيه مقابلته لبياتريتشى ، يمكن أن يزودنا بتفسير مناسب • ثم انه ينبغى لنا من ناحية أخرى أن نعترف بأن هذا المنظر لا يحمل غير أثر قليل جدا من روح المسيحية ، فضلا عن أنه يقف على طرفى نقيض مع الزهد والاشمئزاز الشديد من الحب الجنسى ، وهما عنصران مميزان للأدب الإكليروسى عموما ، وأدب القرون الوسطى المسيحى بخاصة(٢) • أما أن يختتم شاعر نهاية رحلته الى ممالك الآخرة ، بمقابلته لمحبوبته التى فقدها ، فتعبير عن خيال شاعرى نعجز تماما عن التماس أصول له فى الأعمال الأدبية المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية • كان دانتى يعلم تماما أن هذا التصور جديد فى الآداب المسيحية والكلاسيكية • ثم ان تمجيد بياتريتشى ، وهو الغرض الأساسى لقصيدة دانتى كما

---

(١) لم يجد لا لابيتى ولا دانكونا اى اثر لمثل هذا المنظر فى الأدب المسيحى أو الأدب الكلاسيكى •
اما ... (Ozanam p, 4) فلم يستشهد بغير « رؤية راعى هرمس » - The Vision of the Shepherd of H ، التى تصف كيف أن فتاة أراد الراعى يوما ما أن يتزوجها ، تظهر له فى المنام وهى نازلة من السماء ثم تدعوه الى خدمة الله • وعلى اية حال فهذه القصة لم تكن معروفة فى اوربا قبل القرن السادس عشر • بناء على ما جاء فى كتاب باتيفول (Batiffol p . 26) •

(٢) Cf. Vossler, 1, 199, et seq

يقر هو نفسه ، كان يبدو له أمرا جديدا ، حتى لقد لاحظ قبل أن يكتب قصيدته بسنين ، عند ما كانت لا تزال تختمر فى عقله « أنه انما تمنى أن يقول لها ما لم يقله أحد لغيرها من قبل »(١) • ولا شك فى أن تمجيد بياتريتشى أمر ينبع مباشرة من روح الفروسية التى ألهمت الشعراء التروبادور فى بروفانس بجنوبى فرنسا ، والشعراء الإيطاليين أصحاب «الأسلوب الجديد الرائع» ، ومن ذلك الحب الروحانى والرومانتيكى للمرأة الذى يكمن فى أعماق هذه الحركة الأدبية الجديدة ، ومن ذلك الخليط من الصوفية واللذائذ الحسية الذى يعبر عنه مزاج دانتى ، الرجل والشاعر • ولقد تكشف لنا هذه التفسيرات عن طريقة تفكير الشاعر ، ولكنها لا تحل لغز الشكل الأدبى الخارجى الذى عبرت عنه عقليته فى تصوير هذا الحدث الذى وقع فى الجنة الأرضية • وسوف نبين فى فصل لاحق من هذا البحث أن أصل حركة « الأسلوب الجديد الرائع » أمر ينبغى أن ننشده بكثير من الترجيح خارج المسيحية • والحق أن الحب الرومانتيكى قد ألهم شعراء العرب قبل ظهور التروبادور فى أوربا بزمان طويل • وقدم مادة غزيرة لعقول الصوفيين المسلمين التأملية • وهنا يكفى أن نشير الى الحقيقة الواضحة الماثلة فى أن حدثا طرازيا من أحداث الكوميديا الإلهية مثل مقابلة دانتى لبياتريتشى هو فى واقع الأمر غريب عن روح المسيحية ، وغير مسبوق فى القصص المسيحية ، ولكن له متابلا لافتا للنظر فى المأثورات الإسلامية • ثم أن القصة الاسلامية التى أشرنا اليها فيما سبق ليست نسيج وحدها فى الأدب الإسلامى ، بل أنها على الأحرى تمثل الجنة • والحقيقة أن الجنة الإسلامية ليست فحسب ، كما سنبين فيما بعد ، مجرد المرحلة الختامية فى تطور سلسلة من القصص التى تحدثنا عن دخول الروح المنعمة الى جنة يباشر فيها السعداء الملذات الحسية ، كما انطبع هذا المفهوم فى عقل الطبقة المثقفة فى أوربا ؛ ذلك أنه يوجد فى جنة الإسلام ، الى جانب الملذات الحسية ، صورة أخرى من صور النعيم وصفها الزهاد والصوفيون المسلمون ، تكشف عن جنة حب أنقى وأطهر ، فيها الى جانب الحوريات العين والزوجات اللاتى عرفهن المنعم بالجنة فى حياته الأرضية ، عروس روحانية أيضا تنتظره • وهذه خطيبته السماوية التى انتظرت دائما وترقبت مقدم حبيبها ، الذى سوف تقوده فى طريق الفضيلة ، وتلهمه التطلع الى المرامى السامية ، والتى لا تكف عن حثه على المثابرة حتى يصل الى نهاية النصر عندما يجمعهما النعيم الأبدى • وعندما تصعد الروح السعيدة أخيرا بعد الموت الى

---

(١) La Vita Nuova xl 111

الجنة ، تكون هذه الحبيبة السماوية الجميلة المشرقة الحسن تنتظره وتستقبله ، ولكنها أقرب الى رفيقة روحانية ومخلصة أخلاقية ، تتمنى للروح السعادة والنصر ، وتوبخه على تخليه عنها بعض الأحيان الى ضروب من الحب الأرضى • ولا شك فى أن الصورة التى تصور بها القصص الإسلامية هذه العروس السماوية ، شبيهة شبها لافتا للنظر بالصورة التى وضعها دانتى لبياتريتشى •

٦ — جاء فى كتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون المؤلف فى القرن العاشر الميلادى وصف مشابه جدا لدخول الروح السعيدة الى الجنة (١) •

« يأتى رضوان ويخلى للولى قبة مع عروسه عليها الحلل والحلى ، فتقول للولى : ياولى الله ، قد طال شوقى اليك ، فالحمد لله الذى قد جمع بينى وبينك • فيقول المؤمن يا أمة الله من أين تعرفيننى وأنت ما رأيتنى قبل هذا اليوم أبدا ؟ فتقول العروس : أن الله سبحانه وتعالى خلقنى لك وكتب اسمك على صدرى ، وأنت قد كنت فى دار الدنيا تعبد الله سبحانه وتعالى وتصلى وتصوم فى طول الأيام والليالى ، وقد كان الله عز وجل يأمر رضوان فيحملنا على جناحه فنشرف عليك وعلى افعالك المليحة ويقول لنا هذا سيدكم •

وكلما اشتقنا اليك نخرج من أبواب القصورفنقول لرضوان : والله ماندخل الى قصورنا حتى ترينا ساداتنا ، فيحملنا رضوان الى الدنيا فتنظر كل حوراء سيدها وهو لا يعلم ، فان وجدته فى ظلام الليل يصلى تفرح وتقول له اخدم تخدم ، وأزرع تحصد يا سيدى ، فى الله درجتك وتقبل طاعتك ، وجمع بينى وبينك بعد أن تعيش عمرا طويلا ، وتفنى بعد ذلك فى خدمة الملك الجليل وينيل أشواقنا منكم ونرجع بعد ذلك الى منازلنا فى الجنة وأنتم فى الدنيا تعملون ، وما من مؤمن فى الدنيا الا وله فى الجنة خدم وغلمان وجوار يرونه وهو لا يعلم ، فاذا وجدوه فى الخدمة يفرحون واذا وجدوه غافلا حزنوا » •

ونقع على قصة أخرى من نفس المجموعة ، منسوبة الى ابن وهاب أحد رواة الأحاديث ، تصف اشتياق العروس السماوية لعريسها وهو لا يزال فى حياته الأرضية(٢) •

« يقال للمرأة من نساء أهل الجنة وهى فى السماء ، أتحبين أن نريك زوجك من من أهل الدنيا ؟ فتقول نعم ، فيكشف لها عنه الحجاب وتفتح الأبواب بينها وبينه

---

(١) قرة العيون ١٢١ •

(٢) العلوم الفاخرة ١٢٩/٢ •

حتى تراه وتعرفه وتعاهده بالنظر حتى تستبطىء قدومه وتشتاق اليه كما تشتاق المرأة الى زوجها الغائب • ولعله يكون بينه وبين زوجته فى الدنيا ما يكون بين النساء وأزواجهن ، فتغضبه زوجته فيشق ذلك عليها وتقول ويحك دعيه من شرك ، انما هو معك ليال قلائل •••• ولا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا الا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فانما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك الينا(١) •

لا مشاحة فى أن التشابه بين هذين الوصفين وبين المنظرين اللذين وصف فيهما دانتى بياتريتشى عندما أتت لتساعده تلك المساعدة المعنوية ، واضح جدا على التأكيد • لما رأت بياتريتشى وهى فى السماء حبيبها الشاعر فى خطر يتهدده بخسران الخلاص الأخروى ، ومن ثم مصاحبتها فى الجنة ، نزلت من الجنة لتلتمس مساعدة جبريل فى وضع الشاعر على الطريق القريم • وهذا هو المنظر الذى وضعه الشاعر لمقدمة قصيدته(٢) • وعندما يصل دانتى الى الجنة الأرضية ، تنزل بياتريتشى مرة ثانية ، وتضيف الى تحياتها للشاعر ، توبيخها له على جنوحه عن الطريق القويم،وعلى انغماسه فى ضروب الحب الأرضى واهماله فى تتبع نصائحها الدينية التى وجهتها له فى أحلامه (٣) •

ثم أن روايات الأحلام المبنية على نفس مجموعة القصص هذه ، أمر شائع فى الأدب الإسلامى • وهى تخبرنا جميعا عن حورية ملائكية جميلة من حوريات الجنة ، تظهر للتقى المؤمن فى منامه ، وتلهمه أفكارا دينية ، وتحثه على خدمة الله ، وتعده بأنها ستكون له فى الحياة الأخرى •

جاء فى قصة رواها على الطلحى الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى ما يأتى(٤) :

« رأيت فى المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا ، فقلت من أنت ؟ فقالت : حوراء • فقلت زوجينى نفسك • قالت : اخطبنى الى سيدى وامهرنى • قلت وما مهرك ؟ قالت حبس نفسك عن آفاتها » •

وجاء فى قصة أخرى رواها أحمد بن أبى الحوارى فى القرن التاسع ما يأتى :

« رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها • وكان يتلألأ وجهها نورا •

---

(١) قارن المطهر ٥٩/٣١ •
(٢) الجحيم ٥٢/٢ •
(٣) المطهر ٧٣/٣٠ — ١٤٥ ، ١/٣١ — ٦٣ •
(٤) احياء علوم الدين ٣٦٤/٤ واتحاف السادة المتقين ٤٣٤/١٠ •

فقلت لهـا : فماذا ضوء وجهك ؟ قالت : تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها ؟ قلت نعم • قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهى ، فمن ثم ضوء وجهى كما ترى » •

وروى سليمان الدارانى وهو من كبار الزهاد الذين عاشوا فى القرن التاسع الميلادى ما يأتى(١) :

« اذا كان السحر ذهب بى النوم فى سجودى فرأيت جارية وقعت على كأنها القمر المستنير ، وعليها ثياب كأنها قطعة من نور(٢) ، فبقيت متعجبا من حسنها وحسن ثيابها ، فقالت : لا تنم يا سرور قلبى ، أما علمت انى زوجتك ؟ أينام عاقل عن مثلى ؟ قم فان صلاتك نور ، وربك مشكور ونحن سكان القصور زوجنا ربنا من أقوام كـرام ننام ، وخطابنا قيام ، والناس يأكلون ويشربون وخطابنا صيام ، واجتماعنا فى دار السلام ثم صاحت ومرت فى الهواء » •

وهناك مجموعة أخرى من القصص رواها الشـهداء فى سـبيل الله ، من زهاد الإسلام المحاربين ، الذين يقابلهم فى المسيحية فرسان الطوائف المسيحية المحاربين الذين ظهروا بعدهم •

ونلاحظ فى القصص التى استشهدنا بها فيما يلى أن مقابلة الولى لعروسه السماوية التى هى تقابله بمفردها ، واما بصحبة وصيفاتها ، قد وصفت بعبارات شبيهة بتلك التى استشهد بها دانتى ، كما يلاحظ أيضا أنه جاء فى هذه القصص ذكر لمـا صادف البطل من ضروب الحب فى حياته الأرضية •

قال عبد الرحمن بن زيد فى القرن الثامن الميلادى(٣) :

« حرضت النـاس على الغزو فقرأ القارىء ان الله اشـترى من المؤمنين انفسـهم وأموالهم بأن لهم الجنة • فقام غلام له تقدير خمس عشرة سنة ، وقد مات أبوه وورث منـه مالا كثيرا ، فقال يا عبد الرحمن ، انى أشهدك انى قد بعت نفسى ومالى بأن لى الجنة • وأخذ من جميع ماله فرسا ورمحا وآلة حرب ونفقة غزو وتصدق بالباقى • وخرج يصوم النهار ويقوم الليل ويخدمنا ويخدم دوابنا • فلما وصلنا الى بلاد الروم ، أقبل يوما يقول : وأشوقاه الى العيناء المرضية • فقلنـا : ما الخبر ؟ فقـال : رأيت فى المنام كأنى فى روضة فيها نهر من ماء واذا على شاطىء النهر حوار عليهن من الحلى

---

(١) العـلوم الفـاخرة ١٢٠/١ •

(٢) انظر المطهر ٣٣/٣٠ •

(٣) العلوم الفاخرة ١١٣/١ ، ١٢١ — ١٢٢ •

والحلل ما لا يقدر قدره ٠ فلما رأينني استبشرن وقلن هـذا زوج العينـاء المرضـية ، وقلن : نحن خدمها امش أمامك ، فاذا نهر جار من عسل مصـفي وحواليـه من النور ما أنساني ما خلفي ، وهنالك حوار ، فقلت : السلا مءعليكن ، أفيكن العيناء المرضية ؟ فقلن : يا ولي الله نحن خدمها(١) ، تقـدم أمامك ، فتقدمت فرفعت لي خيمـة من درة مجوفة ، وعلى باب الخيمة جارية عليها من الحلي والحلل ما لا أحسن منـه ٠ فلمـا رأتني استبشرت ونادت : أيتهـا العيناء المرضية ، هـذا بعلك ، فدخلت عليها وهي على سرير من ذهب مكلل بالدر واليـاقوت ، فقالت لي : مرحبا يا ولي الله ، قـد دنا قدومك علينـا ، فدنوت منها فقالت : مهـلا فان فيك روح الحياة والليلة تفطر عنـدنا ان شاء الله(٢) ٠

وروى عبد الله بن المبـارك في القرن الثامن القصة التالية(٣) ٠

« طارت شظية من المنجنيق فصـادفت ركبـة رجـل يقـال لـه نجيح ، فأغمي عليه ، فرئي يضحك حتى بدت نواجذه ٠ ثم بكى حتى سالت دموعه ، فقـال : رأيت قد انطلق بي الى غرفة ياقوته حمراء ، فاذا امرأة عجبت من نورها وجمالها ونهائها وحسنها ، فقالت : مرحبا بالجافي الذي لم يكن يسالنا من الله تعالى ، انى لست كفلانة زوجتك في الدنيا تفعل بك كذا وكذا ؟ فجعلت تذكرني كلما فعلت زوجتي في الدنيا ، فضحكت من ذلك ٠ فمددت يدي اليهـا فقـالت : تأتنـا غدا عنـد الظهر ، فبكيت لمـا حرمت منها ٠ فقتل عنـد الظهر ولحق بهـا » ٠

وروى اسماعيل بن حيـان في القرن التاسع ما شاهـده أحـد الشهداء في سبيل الله عندما أغمي عليه قبل أن يموت(٤) :

قال : « لمـا أصابني ما أصابني أتاني رجل فأخذ بيدي فمشى بي الى قصر من ياقوت فوقف على الباب فحشر غلمان متشمرين لم أر مثلهم قط ٠ ثم حشرت حـورية قالت : أنا زوجتك من الحور العين ٠ وأقبلت تحدثني وتذكرني بناء الدنيا كأن ذلك معها في كتاب » ٠

---

(١) لاحظ أن وصيفات بياتريتشي قد أخبرن دانتي أيضـا بان الله قد عينهن خادمـات لبياتريتشي (المطهر ١٠٦/٣١) ٠

(٢) قارن سؤال دانتي لما تيلدا (المطهر ٨٥/٣٢) « أين بياتريتشي ؟ » بسؤال العـريس المسـلم للجواري : « افيكن العيناء المرضية ؟ » وكذلك قارن وعـد العروس السماوية بانهما سوف يتقابلان عن قريب في الجنة ، بكلمات بياتريتشي لدانتي (المطهر ١٠٠/٣٢) ٠

(٣) العلوم الفاخرة ١١٢/١ ٠

٧ ـ نلخص ملامح التشـابه التى تستبين من مقـارنة القصة التى أوردها دانتى عند مقابلته لبياتريتشى فى الجنة الأرضية ، بالقصة الإسلامية فيما يأتى : تصور كل من القصتين هذه الجنة على أنها جنة نعيم تقع على قمة جبل شامخ يرتفع فوق جزيرة فى المحيط • وتصفها قصص اسلامية أخرى باعتبارها مرجا خارج سور الجنة ، هو فى نفس الوقت مدخل الجنة السماوية ، وآخر مرحلة من مراحل التطهر ، حيث تخضع الأرواح لعملية التطهر الأخيرة بأن تغتسل فى ميـاه نهرين • وكذلك تقـابل الروح العروس السماوية التى تستقبله وترحب به ، وهى تظهر لنا فى صورتها وتصرفاتهـا وهى تحمل شبها كبيرا لافتا للنظر لحبيبة دانتى بياتريتشى •

ثم ان بعض روايات قصة المعراج قد وصفت مرجا مشابها ، يرويه نهران تتطهر فيهما الأرواح قبل أنتدخلالجنة • وهذا المرجيسمىبجنةابراهيم • وبذلك يكونالإسلام قـد حدثنا عن ثلاث جنان تنتظر الروح بعـد الموت : جنـة ابراهيم ، أو اللمبو ، وجنة عدن أو الجنة الأرضية ، ثم الجنـة السماوية ، وجميعها تقع بين المطهر (الصراط) وسماء السماوات أو عليين • ونلاحظ أن ملامح هـذه الجنان الثـلاث قـد استبانت قسماتها فى الكوميديا الإلهية بصورة بعيدة كل البعـد عند القصص المسـيحية التى وجدت قبل دانتى •

استشهدنا من قبـل برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وهى محاكاة أدبية لقصة المعراج • تصف لنـا هـذه الرسالة منظرا شبيها • يقابل ابن القارح فى مرج يقع عند باب الجنة السماوية ، وعلى ضفاف أحـد الأنهر ، فتـاة أرسلتها العناية الإلهية لترحب به وتقوده ، فتسير به الى حيث حبيبة أمرىء القيس التى تظهـر فى أعقـاب موكب من الفتيات الجميلات(١) •

وهكذا يلوح لنـا بانه لم يكن هناك من شىء ليحول دون امتداد قصة المعراج لتشمل القصص التى استشهدنا بهـا فى هـذا الفصل ، والتى تتعلق بالحياة الأخرى • وهـذه فكرة لابد أغرت خيـال فنـان بـارع من الطراز الأول مثل دانتى ، الذى كان غارقا فى دراسة الآداب المسيحية والكلاسيكية ، والذى لم يعجز عن أن يدخل عليهـا قصة

---

(١) نلاحظ هنـا أنه لا يوجد تشابه كبير فى ملابسات هـذا المنظر ، فيما عـدا الحقيقة العامه المـاثلة فى ان كلا من بياتريتشى والعروس الاسلامية قـد قامت بمركب • وقـد استقى دانتى فى وصفه لموكب بياتريتشى من حزقيال واسفار الرؤية • واضفى عليه معنى رمزيا لبس واصحا دائمـا • وقـد لاحظ فوسلر (Vossler II, 171,) على أية حال الصبغة الشرقية للوصف •

من الأساطير القديمة والمأثورات الإكليروسية ، ليرسم صورة الجنة الأرضية التى وصفها والتى أدمج فيها مناظر من جنة عدن ، وبارناس (١) القدماء ، وجنة الإسلام السماوية .

٨

جنة الإسلام السماوية فى الكوميديا الإلهية

١ — وصلنا الآن فى مناقشاتنا الى نقطة يلوح معها أننا أصبحنا نسير على أرض خطرة . ولذلك ينبغى أن نقدم لهذا الفصل بكلمة موجزة :

ان مجرد الإشارة الى المقارنة بين فردوس دانتى وجنة الإسلام ، أمر سوف يثير على أرجح الأحوال دهشة حتى فى أذهان متوسطى الثقافة . ذلك أن أول انطباع ذهنى يجنح على التأكيد الى أن مثل هذه المقارنة لا تؤدى الا الى تبيان التنافر التام بين التصورين . والحق أنه يلوح أن روحانية فردوس دانتى بعيدة جدا عن مادية الجنة الحسية التى جاء ذكرها فى القرآن . ولكن القرآن ليس على أية حال كما ذكرنا من قبل ، المصدر الوحيد لكل التصورات والأفكار والعقائد الإسلامية . ذلك أن الأحاديث النبوية ، وتفسيرات المفسرين ، وتأملات اللاهوتيين والصوفيين ، قد لعبت دورا كبيرا قد يكون موازيا لحرفية القرآن ، فى تحديد نقاط العقيدة الإسلامية الأساسية فيما يتعلق بالجنة . وهنا نجد أن حديث عروج محمد الى السماء أمر فى غاية الأهمية . ذلك ان قصة المعراج هذه قد بينت بوضوح فى مختلف رواياتها ، أن تصور الجنة لم يكن على الإطلاق مجرد تصور عام مبنى على أسس حسية فحسب كما جاء فى القرآن ، بل على الضد من ذلك نستبين أن الصورة التى رسمتها هذه الروايات للجنة كانت من جميع الوجوه تقريبا ، صورة تعبر عن النور والألوان والموسيقى ، وهى نفس العناصر التى تعبر عن تصور دانتى للفردوس .

ويلوح أن التفسير الروحانى لنعيم الجنة لابد بدأ فى القرون الأولى للإسلام . وينسب الى ابن عباس وهو من رواة الأحاديث المشهورين وابن عم محمد قول يشير الى أن ذلك بدأ فى عصر مبكر ، جاء فيه أنه لا يوجد فى الجنة شىء من أمور هذه الدنيا ، فيما عدا أسماءها فقط . وكذلك نسب رواة الحديث أحاديث الى محمد تصف بعبارات رنانة الملذات الحسية التى سينعم بها السعداء فى الجنة ،

---

(١) جبل فى اليونان الوسطى اعتبر فى الأساطير القديمة مثوى الالاهات الشقيقات التسع حاميات الغناء والشعر والفنون والعلم .

وهى نفس الكلمات التى وصف بها أشعيا والقديس بولس نعيم الجنـــة ٠ جـاء فى الحديث عن مسلم أن رسول الله قال : « يقول عز وجل أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »(١) ٠ وجاء فى القرآن فى سـورة السجدة ١٧ : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بمـا كانوا يعملون » ٠ ثم أن كتب الأخرويات الإسلامية قـد سجلت أحاديث كثيرة نسبت الى محمـد ، يسـتبين منها أن الرؤية ، أى رؤية الله ، هى اقصى درجات النعيم المعد للأرواح فى الجنة(٢) ٠ من هـذا نرى أن الإسلام بدأ منـذ أوائل عهوده يتبين فيما عدى الجنة الحسية المذكورة فى القرآن ، فكرة جنـة روحانية شبيهة بالجنة المسيحية ، تكمن السعادة القصـوى للأرواح التى تدخلها ، فى تأمل بهاء المـاهية الإلهية ٠

٢ ـ ثارت مجادلات كثيرة فى القرون التالية لا محل لذكرها هنا ٠ ويكفى أن نذكر أنها انتهت بسعادة التصـور المعنوى للجنـة ٠ وفى الوقت الذى حـدد فيـه كبار اللاهوتيين الصورة النهائية لعقيدة الإسلام فى هـذا الخصوص ، اعتبرت الرؤية ، النعيم الأساسى فى الجنة ، ان لم تـكن قد اعتبرت النعيم الوحيد فيها ٠ واختفت اللذات الحسـية ٠

تشرب الفلاسـفة والصوفيون المسلمون بفكرات استقوها من اللاهوت المسيحى ومن الأفكار الميتافيزيقية للأفلاطونية المحدثة ، ومن ثمـة عملوا على التخلص التدريجى للتصـور الحسى للجنـة ، وذلك من خلال اعطائهم للنعائم المـادية للجنـة معانى صوفية رمزية ٠ ولقـد تبع هذا الاتجاه الفكرى مفـكرا الإسلام الكبيرين فى القرن الثانى عشر ، وهما اللاهوتى الصوفى الغزالى ، واللاهوتى الفيلسوف ابن رشد (٣) ٠ يقرر الغزالى أن جميع الدارسين فى الاسلام ـ فيما عدا الذين ينكرون خلود الروح من المـاديين ـ قد رفضوا بصراحـة فكرة ارتبـاط الشـهوات الحسـية بنعـائم الفـردوس (٤) وأكـد الفلاسـفة أن هـذه اللـذات خيـالية صرف ، وأمـا الصـوفيون فذهبوا أبعـد من ذلـك وانكـروا وجـودها ٠ ثم أن كـلا من الفلاسفة والصوفيين قـد استعاضوا عن اللذائذ الحسية التى جاء ذكرها فى القرآن بأجل اللذات وأعلاها وهى معرفة الله والنظر الى وجهه الـكريم وهى لذة لا يتصورون أن تؤثر فيها لذة أخرى ،

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٨٥ ٠ وانظر أشعياء ٦٤ / ٤ ، والرسالة الأولى الى أهل كورنثوس ٢ /٩ ٠

(٢) مختصر تذكرة القرطبى ٩٧ ويلاحظ أن هذه الأحـاديث مبنية على آيتين قرآنيتين (٢٧٢/٢ ، ٢٢/١٣) جاء فيهما اشارة غامضة الى رؤية وجه الله ٠

(٣) Cf, Asin, Algazel Dogmatica. 680, and Averroismo, 287

(٤) ميزان العمل ٥ وما بعدها ٠

وقد جعلوها موازية لجميع اللذائذ الحسية والمعنوية التى يستطيع الإنسان تذوقها(١) • غير أن هذا الإنكار التام تقريبا فى جوهره قد خفضت صورته على أية حال لتجنب تخييب آمال جماهير الناس الذين يعجزون عن تفهم مثل هذا التصور الرفيع • وعندئذ تظاهر الصوفيون والفلاسفة لحماية واجهاتهم بقبول الأوصاف الحسية التى وردت فى القرآن على أساس أنها رموز ، وأما معانيها الروحانية فمقصورة على الفئة المتنورة • ولقد استطاع الغزالى وابن رشد بطلى الإيمان والعقل ، أن يجدا وسيلة يصالحان بها بين وجهتى نظر كل من المتنورين والعامة ، وذلك بتقريرهما بأن الجنة باعتبارها الهدف الأسمى والنعيم الأكمل الذى ينشده الجميع ، هى مكان يستطيع فيه كل انسان أن يحصل على رغبته الخاصة • مثال ذلك أن أولئك الذين تعلقوا فى دار الدنيا بالأشياء الحسية ، سوف يصبحون فى الجنة قادرين على استمداد لذائذهم من النعائم الحسية فحسب ، وان لم يذكرا ما هى هذه النعائم الحسية • هذا فى حين أن أولئك الذين خلت تصوراتهم ورغباتهم من كل الشوائب الحسية ، سوف يجدون لذتهم فى التمتع بالتجلى الالهى عندما يقع فحسب •

وهكذا زودنا الغزالى وابن رشد فى الصورة التى رسماها لمعتقدات الإسلام فى القرون الوسطى بجنتين : احداهما حسية والأخرى معنوية • وجاء بعدهما بسنين قلائل الصوفى الأندلسى الكبير ابن عربى وعبر عن رأيه فى هذا الموضوع بعبارات مشابهة تماما(٢) ، قال :

«ان الجنة جنتان ، جنة حسية،وجنة معنوية ؛ فالمحسوسةتتنعم بها الأرواح الحيوانية والنفوس الناطقة ، والجنة المعنوية تنعم بها النفوس الناطقة لا غير وهى جنة العلوم والمعارف » •

غير أن هذه الصيغة لم ترض ابن عربى رضاء تاما ، فاستطرد فى شرح البواعث النفسية التى جعلت العناية الإلهية تهتم اهتماما أكبر بالجنة الحسية فى القرآن عما اهتمت بالجنة المعنوية ، وهذا أمر يناقض تماما تعاليم المسيحية التى أوحت بها السماء أيضا • يقول (٣) •

« وصف الله الجنان على حسب تفاوت عقول الناس • وقد حرص المسيح عليه

---

(١) احياء علوم الدين ٢١٩/٤ •

(٢) الفتوحات المكية ٨٠٩/٢ •

(٣) الفتوحات المكية فى اليواقيت والجواهر للشعرانى ١٩٥/٢ والكبريت الأحمر للشعرانى ايضا ١٩٤/٢ •

السلام بما أومأنا اليه من النعيم الروحانى . فقال للحواريين حين أوصاهم بوصية وفرغ منها : فاذا فعلتم ما أمرتكم به كنتم غدا معى فى ملكوت السماء عند ربى وربكم وتردد الملائكة حول العرش تعالى يسبحون بحمده ويقدسونه ، وأنتم هناك ملتذون بجميع اللذائذ من غير أكل ولا شرب(١) . وانما صرح المسيح بذلك ولم يرمز كما رمز كتابنا لأن خطابه كان مع قوم هذبتهم التوراة ومطالعة كتب الأنبياء . وكانوا متمتعين مهيئين لتصورها وقبولها بخلاف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فانه أنفق معينة فى أميين أهل برارى وجبال غير مرتاضين بعلوم ولا مقرين ببعث ولا نشور ، ولا عارفين بنعيم ملوك الدنيا ، فضلا عن معرفتهم بنعيم ملوك الآخرة . فلذلك جاء أوصاف الجنان فى كتابتهم جثمانية تقريبا ، لفهم القوم وترغيبا لنفوسهم » .

٣ - أكد عالمان مسيحيان ضليعان فى الإسلام هما المفكران الأسبانيان : ريموند لال ، وريموند مارتن ، الأدلة التى قدمها المفكرون المسلمون ، الغزالى ، وابن راشد وابن عربى ، تأكيدا تاما . والحق أن هذين العالمين لم يقعا فى الخطأ الشائع الذى ينسب الى جميع المسلمين الاعتقاد فى جنة حسية فحسب ، بل انهما كررا ما أكده هؤلاء المفكرون المسلمون بصورة حرفية تقريبا . واستشهد ريموندلال بفقرات بأكملها من كتابات الغزالى تعبر عن اسمى الأفكار الميتافيزيقية تعبيرا تاما ، تلك التىعبر فيها أمير الصوفية هذا عن اللذة المعنوية البالغة التى تحسها الروح عندما يقع التجلى الإلهى(٢) .

أما اذا كان لاهوتيان مسيحيان قد فطنا الى أن وصف الجنة الإسلامية يتطابق ، كتصور دانتى للجنة ، مع النظرية الروحانية المسيحية ، فى الوقت الذى كان دانتى يؤلف فيه كوميديته الإلهية ، فان فكرة مقارنة التصورين المبنيين على عقائد متشابهة جدا ، لا يمكن أن نعتبرها بعد ذلك أمرا لا محل له . ثم ان وجود العلاقة بين هذين التصورين الفنيين ، أى تصور الفلاسفة والصوفيين المسلمين وتصور دانتى للجنة ، أمر سوف يستبين تماما اذا نحن وضعنا فى حسباننا على الأقل أن فردوس دانتى ليس له أى شبيه سابق له فى الأدب المسيحى فى القرون الوسطى . ولقد بين الدانتيون أنه لا يوجد شىء فيما يسمى بالأعمال السابقة للكوميديا الإلهية ، كان

---

(١) هذه الفقرة المكتوبة من الانجيل لا تشير الا الى (الاصحاح ٢٣/٤٣) من انجيل لوقا .

(٢) ويموند لال فى كتابه Liber de Gentili واضح فى هذه النقطة . (op. omn, Mayence Edit. Vol. 11, p. 89)

يمكن للشاعر ان يستلهمه فى رسم صورته الرقيقة للفردوس ، وبينما كان فردوس دانتى نورا تاما ، وحياة المنعم فيها تأملا روحيا غامرا وحبا الهيا ، كانت حيـاة الجنـة فى التصور الفج لمعظم المسيحيين السابقين لدانتى ، الذين لم يكونوا غير رهبان أو شعراء رحل ، عبارة عن صورة خيالية مبالغ فيها من الحياة فى مطعم الدير أو مرتل الكنيسة أو فى قصر من قصور الإقطاعيين • وهكذا نستطيع أن نحدد التصورات الخاصة بالجنة التى شاعت فى القرون الوسطى فيما يأتى : انتشرت فى العالم الإسلامى فى وقت واحد فـكرتان متضادتان ، فكرة الجنة الحسية المستقاة من التفسير الحرفى للقرآن ، وفكرة الجنة المعنوية التى رسم صورتها الفلاسفة والصوفيون ، وانتشر فى العالم المسيحى أيضا نفس هاتين الفكرتين ، فكرة الجنة المـادية الحسية الشبيهة بمـا فى القرآن والتى شاعت وذاعت قبل الكوميديا الإلهية ، وفكرة الجنة المعنوية الروحانية التى صدرت عن الشاعر الفلورنسى وحده (١) •ولقد أظهردانتى ذاتهنفوره من تصورات المؤلفينالمسيحيين السابقين له ، فى قوله عندما أعلن صعوده الى السماء : « اذا أراد الله أن أرى عرشـه بطريقة تختلف عن التصورات الشائعة فى عصرنا هـذا » •

ولا شك فى أن العقل المسيحى اذا تحرر من تحامله الذى لا أساس له من الصحـة ضـد المفهوم الإسلامى للجنة على أنهـا مجرد جنة حسية ، فانه عنـدئذ يصبح قادرا على أن يدرك عن حق أن الإسلام ابتداء من القرن الثامن الميلادى قد بين فـكرة روحانية الجنة ، كتلك التى نقع عليها فى الرواية الثالثة من المجموعة الثانية من قصة المعراج ، كمـا سبق بيانه • وقد استفضنا فى تبيان ملامح التشابه اللافتة للنظر بين الوصف الذى جاء فى هـذه الرواية وفردوس دانتى ، فى الجزء الأول من هـذا المؤلف • ثم أن كثرة المشابهات بين العملين قد مكنتنا من اجراء مقارنة دقيقة فيما سبق ، لم يعد ينقص بعدها غير قليل لتكميل التطابق •

٤ ــ نعلم أن فردوس دانتى مكونة من حيث بنائهـا العـام من سماوات النظام الفلـكى البطلميوسى التسـع • رأى دانتى المنعمين فى السـماوات السـبع الأولى بطريق المصادفة ، حيث وزعوا فيها حسب أفضليتهم • أما مسكنهم الأصلى فسـماء السماوات اى عليين ، أو الفلك الثابت ، الذى هو الجنة الحقيقة أو السماء الإلهيـة • وفيهـا رآهم دانتى وهم جلوس على منـابر وكراسى من نور فى صورة مسرح مدرج ، بحيث ظهر جمعهم كله وكأنه وردة هـائلة من النور ، يتجلى فى وسـطها الله لـيراه

---

(١) سوف نبين فى الجزء الثالث (الفصل السادس) ان السوابق الاسلامية كانت نماذج احتـذاها مؤلفو القصص المسيحية الحسية •

الأصفياء • وسماء السماوات هذه هى القدس السماوية التى تقع فى المسقط الرأسى القدس الأرضية • أما هوة الجحيم فتقع تحت القدس الأرضية فى باطن الأرض• ويلاحظ أن هناك تناسقا تاما بين مملكة النعيم ومملكة العذاب • فكل منهما تتكون من عشر طبقات ، وكما أن العقوبة التى تطبق على التعساء فى النار تزداد شدتها مع عمق الدرك الذى ينزلون فيه ، فكذلك يوزع السعداء المنعمون بالجنة على درجاتها فى السماوات المختلفة توزيعا تصاعديا بحسب أفضليتهم(١) •

أوضحنا فيما سبق أن معظم ملامح البناء فى هذا التصميم ـ ان لم تكن كلها ـ موجودة فى رواية أو أخرى من روايات قصة المعراج المحمدى • وقد أفصحت كثير من هذه الروايات عن أن السماوات الفلكية المختلفة انما يسكنها الأولياء أو الأنبياء أو الملائكة ، الذين وزعوا عليها بحسب أفضليتهم(٢) •

ثم أن المناقشات التى دارت فى ممالك الآخرة سواء فى القصة الإسلامية أو فى قصيدة دانتى ، ليس لها على اية حال أساس من الكتاب المقدس • ذلك أنه لا العهد القديم ولا العهد الجديد قد ذكر على الإطلاق أن السماوات الفلكية مساكن للمنعمين بالجنة • وأما هذه الفكرة فقد تكون مشتقة اما من الأفكار القبلانية وأما من بعض كتابات الكتاب المسيحيين غير المعترف بصحتها(٣) • ذلك أن آباء الكنيسة والكتاب الاكليروسيين الأوائل كانوا حريصين على الا يحاولوا تحديد موقع سماء السماوات التى يتجلى فيها الله تحديدا معينا •

ولقد أعجب النقاد فى جميع أنحاء العالم بالصورة الرائعة التى جاءت فى تصميم دانتى للفردوس الخاصة بموقع القدس السماوية ، التى وضعها رأسا فوق القدس الأرضية التى تصور أنها تقع فى مركز نصف الكرة الشمالى •

وهذا التصور معروف فى الإسلام منذ القرن السابع الميلادى أى منذ عصر محمد

---

(١) Cf. Rossi I, 141 – 2 and 147.

(٢) وكذلك نقع على اعتقاد فى الاسلام بأن المنعمين يتقابلون فى دورهم فى الجنة ليتحادثوا سويا وليحيوا الأرواح الجديدة القادمة ، الذين يسألونها عن اخبار اهلهم ومعارفهم على الأرض • وتوجد احاديث كثيرة حول هذا الموضوع فى مختصر تذكرة القرطبى ص ١٧ وفى كنز العمال ٢٣١/٧ رقم ٢٥٦٨ و ٢٥٧١ وفى العلوم الفاخرة ١٤٣/٢ • ثم ان دانتى أيضا قد وصف مناقشات أجراها مع المنعمين حول احداث وبعض شخصيات عصره وعلى الأخص بيكاردا وكونتزا وكوستانتزا وفولكيتو وكاتشيا جويدا •

(٣) Cf. Vigouroux, dict. de la Bible, S. V. ciel.

ذاته . جاء على لسان الصحابى كعب الأحبار — وهو يهودى اعتنق الإسلام ، وأدخل عليه كثيرا من قصص الأحبار اليهود — ما يأتى : تقع الجنة فى السماء السابعة فوق القدس والصخرة ، لو ألقى حجر من الجنة لوقع فوق الصخرة »(١) . ولاشك أن أقوالا كهذه من أقوال أحبار اليهود المنسوبة الى كعب الأحبار ، أو الى يهودى آخر ممن أسلموا هو وهب بن منبه ، أو الى ابن عباس بعض الأحيان ، قد عملت على نشر الاعتقاد بين المسلمين بأن الجنة فى المسقط الرأسى للقدس وللهيكل . وقد وصفت بعض المؤلفات الجغرافية الإسلامية القدس فى القرن العاشر كما يأتى (٢) :

« بيت المقدس فى وسط الأرض . وأن من صلى فى بيت المقدس كانما صلى فى السماء . وانها تقاد الجنة يوم القيامة اليها ، ومنها يتفرق الناس الى النار أو الى الجنة . قال الله للصخرة هذا مقامى وموضع ميزانى وجنتى ونارى ومحشر خلقى . وقد رأى يعقوب فيما يرى النائم وهو ببيت المقدس كان سلما منصوبا الى باب السماء عند رأسه والملائكة تنزل منه وتعرج فيه . ورفع الله عيسى بن مريم الى السماء من بيت المقدس وفيه مهبطه . وأقرب بقعة فى الأرض من السماء بيت المقدس » .

وهنا ينبغى أن نلاحظ أن عددا من روايات قصة المعراج قد ذكرت أن محمدا بدأ عروجه الى السماء من نفس صخرة هيكل القدس ، وهذا أمر فسره المفسرون باستشهادهم بالقصة التى رويناها من قبل عن كعب الأحبار ، ولكن بعد تحويرها تحويرا بسيطا : « يقع باب الجنة المسمى بجبل الملائكة قبالة القدس » (٣) .

ثم ان هذا التمسك بتناسق التصميم لاشك من الخصيات المميزة للمعتقدات الإسلامية المتعلقة بالأخرويات ، والتى جاء فيها أن العالم الآخر انما يقع قبالة هذا العالم الأرضى ، ولا غرو فان جميع روايات قصة المعراج المحمدى تحدثنا عن معبد فى الجنة هو « البيت المعمور » وهو عبارة عن المقابل للبيت الحرام فى مكة . بما ان المسلمين يعتقدون بأن ابراهيم هو الذى بنى الكعبة ، فانهم ذكروا دائما فى رواياتهم أنه يقيم الى جانب هذا البيت المعمور فى الجنة . وفضلا عن ذلك ذكرت بعض القصص أن البيت المعمور انما يقع فى المسقط الرأسى للكعبة ، تماما كما تقع القدس السماوية فى المسقط الرأسى للقدس الأرضية ، وقد استشهد ابن عربى بأحد هذه القصص ، قال : « يقع البيت المعمور على سمت الكعبة ، ولو سقط منه حصاة لوقعت على الكعبة » (٤) .

---

(١) Ms 105 Gayangos coll, fol 117

(٢) أنظر الهمذانى ٩٤ — ٩٨ وكذلك معجم ياقوت ١١١/٨ مادة بيت المقدس .

(٣) Ms 105 Gayangos Coll. fol 101

(٤) الفتوحات المكية ٥٨٢/٢ .

اما هـذه الرغبة التى تملـكت عقول رواة الأحاديث من حيث تناسق التصميم فلم تنته عنـد هـذا الحد • فان مملكتى العـذاب والنعيم ، أى الجنة والنار ، انمـا تتطابقان فى تصميمهما عند المسلمين مع التصميم الذى وضعه دانتى تطابقا تامـا • وهـذا أمر يتضح لنـا من التصميم العام الذى صوره ابن عربى بدقة تكاد تـكون رياضية(١) :

« ان درجات الجنة على عـدد دركات النار ، فمـا من درج الا ويقابله درك من النار ، وذلك أن الأمر والنهى لا يخلو الإنسان ، اما أن يعمل بالأمر أو لايعمل ، فان عمل به كانت له درجة فى الجنة معينة لذلك خاصة ، وفى موازاة هذه الدرجة المخصوصة لهذا العمل الخاص اذا ترك الإنسان دركة فى النار ، لو سقطت حصاة من تلك الدرجة فى الجنة لوقعت على خط استواء فى تلك الدركة من النار » •

٥ ـ وصف دانتى عليين أو سماء السماوات التى يتجلى فيها الله لعبادة الصالحين فى الأناشيد الثلاثين والواحد والثلاثين والثانى والثلاثين من الفردوس(٢) • وصور أشعة النور التى تنبعث من مركز النور الإلهى وتشع فى عليين على أنها تحدث عددا من محيطات الدوائر المنيرة عظيمة الاتساع تقل قوة نورها مع نزولها التدريجى • وتشبه كل من هـذه الدوائر أحد صفوف المدرج المستدير ، وتتكون من ثمة من صف من المنابر

---

(١) الفتوحات المـكية ٨٩٨/٢ • وفى أسفل هذا وضـع ابن عربى تصـميما هندسيا مثل فيـه ببعض اركان الاسلام الأساسية ، وكيف تتطابق درجات الجنة مع دركات النار •

	درجات الجنة	درجات الإيمان بالصلاة	درجة الإيمان بالزكاة	درجة الإيمان بصوم رمضان	درجة الإيمان بالحج
رقائق النزول والصعود	نزول الأعراف	نزول الأعراف	نزول الأعراف	نزول الأعراف	الأعـــراف
	صـــعود رقيقـة الصعود والنـــزول	صـــعود رقيقـة الصعود والنـــزول	صـــعود رقيقـة الصعود والنـــزول	صـــعود رقيقـة الصعود والنـــزول	صـــعود
	دركات النـار	درك الـكفر بها	درك الـكفر بها	درك الـكفر بها	درك الـكفر بها

(٢) انظـر الفـــردوس ١٠٠/٣٠ ـ ١٣٢ ، ١/٣١ ـ ٥٤ ، ١١٢ ـ ١١٧ ، ١/٣٢ ـ ٨٤ ، ١١٥ ـ ١٣٨ •

والكراسى • وقد شبه دانتى الصفوف المستديرة هـذه ببتلات وردة هائلة ، كل بتـلة منها تمثل مقعدا فى هـذه الدار العليا ، وتمثل البتلات التى تقع على نفس المستوى دائرة أو صـفا من صفوف المدرج الدائرى السماوى هـذا • كذلك شبه دانتى هـذه الجنة التى يتجلى فيها الله بمملكة أو حديقة أو تل يتجمع حوله المنعمون لتشرف ذواتهم بالنور الإلهى • أما التشبيه الأساسى الذى يسـتخدمه فالوردة الطوباوية ، وهى صـورة استمدها ــ ولا شك ــ من المدرج المستدير وان لم يشر قط الى ذلك •

ولقد طبق دانتى المبدأ الأخلاقى الذى وزّع على مقتضاه المنعمين فى مختلف درجات المدرج ، بطريقة فيها تمسك شديد بالتناسق كما يتضـح من التصـميم الهندسى • لقد أخضع كل شىء فى هـذه الوردة لقانون ، ولم يترك شيئا للمصادفة • ذلك أن ارتفاع أو انخفاض كل دائرة من دوائر هـذه الوردة يتناسب مع درجة الأفضلية التى تتمتع بهـا أرواح المنعمين فى هـذه السماء ، الذين يشغلون مراكز فى يمين أو شـمال كل دائرة بنـاء على طبيعة عقائدهم سواء قبل أو بعـد المسيحية • ثم انه فصل بين قديسى العهدين : القديم والجديد بأقسام ثانوية فى كل قطاع • ووضع الرجال والنساء والأطفال والبالغين فى مختلف أنحاء الوردة فى مجموعات كل حسب الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليهـا •

والحق أن التصميم العـام قـد انطبع بالتناسق الشامل • وهكذا نجد حواء أم الخطاة من بنى البشر تجلس تحت قدمى مريم العذراء أم المسيح مخلص البشر من خطاياهم • والى يسار مريم يجلس آدم أبوالبشر ، والىيمينها يجلس بطرس ابوالكنيسة المسيحية • ويشغل السعداء مقاعدهم فى هـذه الدرجة من درجات النعيم السماوى لأحد سببين اما لأعمالهم التى يتفاضلون بهـا ، اضافة الى النعمة الإلهية ، واما بفضل النعمة الإلهية وحدها • وتشمل الطبقة الأولى البالغين ، والثانية الأطفال الذين انقذوا عن طريق عقيدة آبائهم • وتجلس طبقة ثالثة من الأطفال والبالغين فى الأماكن التى خلت من أصحابها الملائكة الذين عصوا الله • وأخيرا نرى أن الأرواح التى تشغل المنابر الرئيسية فى الدائرة الأولى ، وأن لم يصنفهم دانتى فى الواقع ، مقسـمة الى طـوائف ثلاث : أولا آباء الجنس البشرى ، والأنبياء مثل : آدم ، وموسى ، ويوحنا المعمدان ، والقديس بطرس ، والقديس يوحنا الإنجيلى ، ومن تحتهم كبار علماء اللاهوت من طوائف المسيحية المختلفة ، مثل : القديس فرانسيس ، والقديس بنديكت ، والقـديس أوغطسين • ومن تحت هؤلاء عامة النـاس ورجال الاكليروس الذين تبعوا تعـاليم أساتذتهم من رجال اللاهوت •

وعلى الرغم من اختلاف الدرجات ، فان حياة المنعمين من الناحية الجوهرية لاتختلف

فى شيء • فانهم يتوجهون بأنظارهم الى مركز النور الإلهى ، ويتأملون الله وتشرق كل طائفة منهم بمعرفته بناء على قوة ابصارهم ، التى تعتمد بدورها على حبهم لله وعلمهم به وهم على الأرض • وأما الفرق فى الدرجة فيستبين من الفرق بين قوة النور الذى تشرق به كل روح • غير أن هذا لا يتضمن أى فرق فى قوة المشاهدة ذاتها ، أو فى النعيم الروحى الذى تلتذ به الأرواح • وفضلا عن ذلك لا يشعر الذين يشغلون درجات أدنى برغبة فى احتلال أماكن فى درجات أعلى من درجاتهم ، ولا يحسون بأى شعور بالحسد ؛ ذلك أن هذا أمر يتعارض مع روح الحب الأخوى الذى يجمعهم فى حب الله •

ثم ان كل واحد منهم يعلم تمام العلم بأن اللذة التى يمارسها فى الدرجة المخصصة له هى فى الواقع أكبر مما يستحق •

٦ — لم يستطيع الدانتيون أن يستبينوا فى هذا المخطط المحدد الواضح ، غير قليل من أفكار المؤلفين المسيحيين الآخرين • والحقيقة أن تصميم دانتى لهذه الجنان قد نسب كله تقريبا فيما عدا وصفه للفردوس فى سماء السماوات ، لقدرة الشاعر الابتكارية •

ومن ثمة فانه ينبغى لنا قبل أن نصدر حكما نهائيا حول ابتكارية تصور الشاعر أو عدم ابتكاريته ، أن نلجأ الى المصادر الإسلامية نستلهمها فى هذا الشأن • وهنا نجد أن مؤلفات الصوفيين المسلمين تشكل أهمية خاصة ، وبالذات ما جاء فى الأوصاف المفصلة المفعمة بمختلف الصور الحية لعليين فى كتابات الصوفى الأندلسى الكبير ابن عربى •

يرجع تاريخ تقسيم السماوات الى سبع جنان ، تقابل دركات النار السبع ، الى عصور الإسلام الأولى • ولقد أشار ابن عباس فى حديث ذكر مرارا وتكرارا فى مختلف الكتب الدينية الإسلامية ، الى هذه التقسيمات المختلفة ، واستقى أسماءها من القرآن ، قال(١) : « الجنان سبع ، دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم » • وهنا نلاحظ أن بعض رواة هذا الحديث قد غيروا ترتيب الجنان ، فوضعوا هذه قبل تلك ، أو أضافوا اليها واحدة •

ثم انه دخل على المخطط المعمارى لهذه الجنان منذ القرن العاشر مبدأ أخلاقى يعبر عنه تدرج النعيم الذى تحصل عليه الروح من رؤية الله • يقول مؤلف « قرة العيون ومفرح القلب المحزون » الذى عاش فى سمرقند فى القرن العاشر الميلادى : ان الأرواح تحصل على هذا النعيم على فترات وبحسب أفضليتها : « يدعوهم الحق تبارك وتعالى

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٩٩ ، Gayangos coll. ms 159 fol. 2 ms. 64 fol. 25

الى زيارته كل يوم جمعة مرة ، ومن القوم من يدعوهم فى كل سنة مرة ، ومن القوم من يدعوهم فى كل شهر مرة ، ومنهم من يشاهد كل ثلاث سنين ، ومن القوم من يراه فى المدة كلها مرة واحدة ، وذلك على قدر منازلهم عند الله ومحبته وخدمتهم فى الدنيا لربهم »(١) .

وأفصحت أحاديث أخرى عند محاولة لربط الجنان السبع أو الثمان بعدد مناسب من طبقات المنعمين(٢) . مثال ذلك هذا التصنيف : السماء الأولى للأنبياء والرسل والشهداء والأولياء ، والسماء الثانية للذين أخلصوا فى صلاتهم ، والثالثة لأصحاب التأملات الدينية ، والرابعة للذين لم يتهاونوا فى أداء الشعائر الدينية ، والخامسة للزهاد ، والسادسة للذين كبحوا شهواتهم ، والسابعة للحجاج ، والثامنة للطاهرين والذين أحسنوا لجيرانهم .

وقد تناول الصوفيون مثل هذه الأحاديث وتوسعوا تدريجيا فى نظريتهم فى رؤية الله ، وهى نظرية الى جانب أنها مسيحية أصلا ، قد تأثرت بأفكار الأفلاطونية المحدثة التى أدخلتها الفلسفة الإسلامية عليها ، يقول ابن عيشون الطليطلى الذى عاش فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى : ان أهل الجنة ينظرون الى وجه الله كما ينظر أهل الأرض الى الشمس والقمر فى غير سحاب(٣) . وعدد مسلم بن شاكر بعد ذلك بقرنين الوجوه المختلفة التى يظهر بها الله للمنعمين تبعا لصفاته ، فمرة بصفة الكمال ، ومرة بنعوت الجمال ، وأخرى بمحاسن الكلام ، ومرة بأوصاف الرحمة والحنان ، ومرة بصفة الكرم والامتنان ، ومرة بصفة العلم ، ومرة بصفة الحلم : هكذا أبد الابدين(٤) .

وكمل مؤلف تذكرة القرطبى فى منتصف القرن الثالث عشر النظرية بتقريره أنه بعد كل مشاهدة للماهية الإلهية يستمر النور الأبدى مشرقا فى أرواح المنعمين ، وبذلك لاينقطع النعيم والتلذذ الذى تناله الروح من المشاهدة (٥) . وتكلم هذا الزاهد القرطبى بعد ذلك عن اختلاف فى درجة التلذذ بالمشاهدة بحسب أفضلية كل روح ، يقول : ان لكل مأمور شرعى درجة فى نعيم الجنة ، لا ينال ذلك النعيم الا بفعل ذلك الأمر (٦) . وفى القرن الثانى عشر ، استوعب الفيلسوف اللاهوتى الكبير فخر الدين الرازى جميع عناصر الموضوع التى اشتمل عليها القرآن والحديث ، ليضع مخططا عاما للجنة ، يفصح عن ثمانية أقسام ، مقسمة بدورها الى مئة درجة . وهكذا نرى أن بناء الجنة فى الإسلام فى القرن الثانى عشر عشية ظهور دانتى مباشرة ، وكما تصوره علماء الإسلام فى المشرق والمغرب ، قد اكتمل تماما من حيث قسماته العامة وتفاصيله .

---

(١) قرة العيون ١٣٢ .

(٢) Gayangos Coll. ms 64 fol 25

(٣) العلوم الفاخرة ٢/٤٧

(٤) العلوم الفاخرة ٢ / ١٥١ — ١٥٤ .

(٥) العلوم الفاخرة ٢/١٥٧ ج

(٦) مختصر تذكرة القرطبى ٨٥ .

٩

جنــة الإسلام السماوية فى الكوميديا الإلهية

(خاتمــــــة)

١ ــ نستطيع أن نقرر مطمئنين أن أحدا من المفكرين لم ينجح مثلما نجح ابن عربى فى مزج جميع التصورات السابقة المتعلقة بنظرية الجنة عموما ، فى كل متناسق واحد • ثم ان ابن عربى لم يزين مخططه للجنة بمهارته الفنية فحسب ، وانما وضحه برسوم هندسية ، حتى لقــد نستطيع أن نرى التصميم العــام لمختلف الدور السماوية فى نظرة واحدة • وهــذه هى أهم الملامح من وجهة نظرنا •

مثّل ابن عربى الكون كله بدائرة ، تنقسم الى عدد من الأفلاك متحدة المركز ، كل فلك فوق الآخر ، بحيث يزيد قطر كل فلك تدريجيا • ولا يهمنا الآن غير الأقســام التى توجد بين الأرض والعرش(١) • وتبدأ هــذه بسماء الأرض ، ثم المــاء ، ثم سماء القمر ، ثم سماء الزهرة ، ثم سماء الشمس ، ثم سماء النجوم الثوابت ، ثم فلك المنازل ، ثم سماء المحرك الأول الذى تنتهى عنــده دنيــا النظام الفلكى ؛ وأخيرا وفوق هــذا كله عرش الله ذاته وهو عبارة عن بؤرة من النور الأبدى •

وضع ابن عربى جنـــة الأصفياء بين سماء النجوم الثوابت وسماء المحرك الأول • وهنــا تقع ثمانية أفلاك أخرى متحدة المركز ، كل منها فوق الآخر تمثل الدور الثمانية للجنة السماوية : ــ

١ ــ سطح الفلك المــكوكب • ٢ ــ دار المقــامة • ٣ ــ دار الســلام • ٤ ــ جنـــة الخلد • ٥ ــ جنـــة المأوى • ٦ ــ جنة النعيم • ٧ ــ جنة الفردوس • ٨ ــ جنة عدن(٢) •

وينقسم كل من هــذه الأفلاك الثمانية(٣) الى درجات لا حصر لها ــ ويقرر ابن عربى كما يقرر دانتى أيضا أن عدد هــذه الدرجات يربو على آلاف ــ تتجمع فى مائة فئـــة

---

(١) الفتوحات المــكية ٥٧٩/٣ وفى غيرها •

(٢) الفتوحات المكية ٤١٦/١ ، ٥٥٢/٣ ، ٥٦٧ • وانظـــر اليواقيت والجواهر ١٩٧/٢ والفـــردوس ١٠٣/٣٠ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ٦٧/٣١ و ١١٥ ، ٢٦/٣٢ ، ٣٦ •

(٣) هى فى واقع الأمر سبعة فقط ، ذلك أن أولها مخصص لمحمد ولذلك ينبغى أن يضم للآخرين •

مختلفة • وهــذه بدورها تمثل عددا أقل من طبقات الأصفياء ، لا تزيد على اثنتى عشر طبقة اذا اقتصرت على اتباع محمد وحدهم • وتشتمل كل درجة على عدد من الدور أو بيوت السكن لا عدد لها •

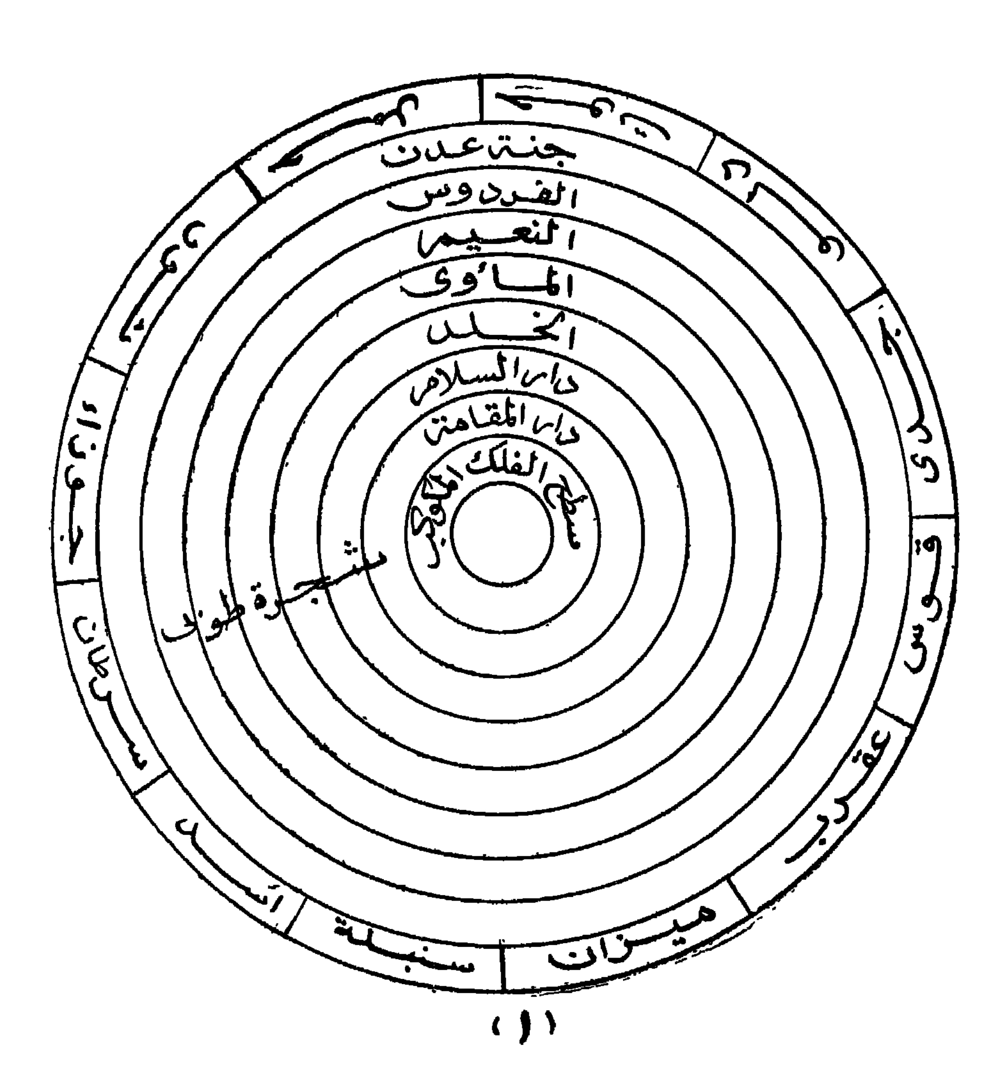
٢ ـ والآن نرى انه لا يلزمنا أن نبذل مجهودا ذهنيا مفرطا لنتبين التشابه بين هـذا التصور ووردة دانتى • لم يستخدم ابن عربى فى الحقيقة تشبيه الوردة فىنصه ، غير أن لمحة واحـدة لتصميمه الذى وضعه بنفسه بدقة هندسية كبيرة ، من شأنه أن يفصح لنا نوا عن مثل هذا التشبيه •

أما الرسم التوضيحى (رقم ١) فنقلناه بحذافيره كمـا وضعه ابن عربى فى كتابه الفتوحات المكية (الجزء الثالث ٥٥٤) • ويلاحظ أن تكوين هـذا الرسم متطابق مـع الرسم رقم ٣٢ فى كتاب مانفريدى بورينا Commento grafico alla divina commedia الذى يعبر عن وردة دانتى وقـد شبهه بورينا فى وصفه له المدرج المستدير الذى يشغل الأصفياء صفوفه •

٣ ـ وفضــلا عن هــذا التشابه فى التصميم الهندسى ، نقع على تشابه آخر بين وردة دانتى وقصة اسلامية ظللت فيها الجنة شجرة هائلة • وقد استخدم ابن عربى حديثا شهيرا جدا فى الإسلام (١) ، وأدخل فى تصميمه شجرة هائلة تخرج أصولها من سماء المحرك الأول أو سقف العرش وتظل أغصانها السماوات السبع ، بحيث يدخل غصن من أغصانها فى كل دار من دور المنعمين • ولقــد سمى ابن عربى هــذه الشجرة بشجرة طوبى • (انظر الرسم التوضيحى رقم ١) وأما اذا أردنا أن نصوّر هــذه الشــجرة بنــاء على تصميم ابن عربى للجنان السماوية ، فان الانطباع الذى تعبر عنه فروعها التى لا تعد ولا تحصى ، والتى تتدلى مظللة سائر الجنان السبع ، يوحى بسبع دوائر متحدة المركز من أوراق هــذه الشــجرة ، وهــذا هو نفس الانطبــاع الذى يحدثه النظر الى الوردة •

ويلوح أن هــذه الشجرة الإسلامية الهائلة ، التى تخرج أصولها من أعلى السماوات وتتدلى فروعها فوق السماوات السبع ، لم تكن خافيــة على دانتى • ذلك أن تصــور دانتى لسماوات النظام الفلكى (التى اعتبرها هو أيضا من حين لحين دورا للمنعمين) يفصح أيضا عن شجرة هائلة مقلوبة أصلها فى سماء السماوات ، يتطابق كل فرع

(١) قـرة العيون ١١٨ : « وقال رسول الله ان طوبى شجرة فى الجنة أصلها فى دارى وأغصــانها مظللة على قصور الجنة ، ولا دار الا عليها غصن من اغصانها يحمل كل غصن منهــا كل ثمرة • » وجاء فى نفس المرجع ص ١١٩ : « ولـكل مؤمن فى الجنة غصن من اغصانها واسمه مكتوب على ذلك الغصن » •


جنة عدن
الفردوس
النعيم
المأوى
الخلد
دار السلام
دار المقامة
سطح الفلك المكوكب
شجرة طوبى
ميزان
سنبلة
أسد
سرطان
جوزاء
عقرب
قوس
جدي
دلو

(١)

من فروعها مع احـدى سماوات النظام الفلكى ، ولقـد كوّن دانتى هـذه الصـورة عند ما وصل الى سماء المشترى(١) • كذلك ينبغى أن نعترف بأن تشبيه دانتى على أية حال ليس قريب الشبه جدا من النموذج الإسلامى بقـدر تشبيه أحـد الذين حاكوه ، وهو فديريجو فرتزى فى قصيدته(٢) Quadriregio

أما التشبيهات الأخرى التى استخدمها دانتى فى وصف الجنة عندما شبهها بحديقة مسودة ، أو بمملكة يسودها المسيح وأمه مريم ، بتل يتجمع حوله الأصفياء ليشـاهدوا النـور الإلهى ــ فتنقـع على مثلهـا جميعـا عنـد ابن عربى • فالجنـة عنـد ابن عربى هى فى واقع الأمر حديقة كبيرة تنقسم الى سـبعة أجزاء دائرية ، عليها ثمانية أسـوار بين كل سورين جنة(٣) • وأعلاها جنة عدن ، وهى قصبة الجنة التى فيها الكثيب الذى يكون اجتماع الناس فيـه لرؤية الحق تعالى(٤) • وهى أعلى جنة فى الجنات وهى بمنزلة دار الملك(٥) •

٤ ــ نواصل الآن مقارنة التكوين الأخلاقى لفردوس دانتى بذلك الذى وصـفه ابن عربى للجنة • والحق أن المظهر البارز لكل من العملين انمـا ينحصر فى اتجاه كل من الكاتبين الى المبالغة فى تحديد أقسـام وأقسـام أقسام الفئات المختلفة التى يوضع فى كل منهـا طبقـة من السـعداء • ويصرّ ابن عربى على أنه ما من عمل من الأعمـال الا وله جنة ، يقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضى أحوالهم (٦) •

أما الفئات الرئيسية فثمانية ، تمـاما كمـا يوجد فى الجسم الإنسانى ثمانية أعضاء تحكمها الروح هى : العينان ، والأذنان ، واللسان ، واليدان ، والمعدة ، والفرج ، والقدمان ، والقلب • ونحن نعلم أن هـذا المبدأ انمـا يكون أساس البناء الأخلاقى للنار ، ذلك أن كلا من ابن عربى ودانتى ، قد آمن بضرورة مراعاة التناسق التام فى تصـميم ممـالك الحياة الأخرى • وتتلقى كل فئة من هـذه الفئات الثمان جزاءها فى واحد من الأفلاك أو الطبقات التى تتكون منها الجنة السماوية •

---

(١) الفردوس ١٨/٢٨ ــ ٣٣ • وقـد علق فراتيشلى على هـذا بقوله :

In Graf, miti I, 140, note 35. for particulars about federigo Frezzi, who composed his poem in 1394, cf. Rossi. 1, 264.

(٣) الفتوحات المكية ٤١٦/١ ، ٥٦٧/٣ وانظر الفردوس ٢٠/٣٢ و ٣٩ ، ٩٧/٣١ •

(٤) الفتوحات المكية ٤١٦/١ ، ٤١٧ ، الفردوس ١٠٩/٣٠ ، ١٢١/٣١ •

(٥) الفتوحات المكية ٤١٦/١ ، ٥٧٧/٣ ، الفردوس ٢٥/٣١ ، ١١٥ ، ٦١/٣٢ •

(٦) الفتوحات المكية ٤١٥/١ ، الفردوس ٥٢/٣٢ ــ ٦٠ •

وتنقسم ضروب الجزاء الثمانية هذه بدورها الى درجات عديدة ، تعين كل منها لعمل معين من أعمال التفاضل ٠ نلاحظ مثلا : أن سن المنعم ـ وهذا مثال واحد اخترناه لتشابهه الكبير مع أفكار دانتى ـ يؤخذ فى الاعتبار عند توزيع الجزاءات ، فتعين درجة أعلى لرجل مسلم مسن عاش حياة فاضلة بلا خطيئة ، عن شاب يتساوى مع هذا الشيخ فى فضائله ، حتى ولو لم يتفاضل احدهما على الآخر بأية صورة ٠

ونقع على تشابه آخر لافت للنظر بين العملين ، ينحصر فى توزيع مختلف الأماكن التى ينزل فيها المنعمون فى كل من الجنان الثمان ٠ يقول ابن عربى : ان هناك ثلاثة أسباب تحدد هذا المكان : « واعلم أن الجنات ثلاث جنان : جنة اختصاص الهى وهى التى يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا حد العمل ، وحدهم من أول ما يولد الى أن يستهل صارخا الى انقضاء ستة أعوام ، ويعطى الله من يشاء من عباده من جنات الاختصاص ما شاء ، ومن أهلها المجانين الذين ما عقلوا ، ومن أهلها أهل التوحيد العلمى ، ومن أهلها أهل الفترات ، ومن لم يصل اليهم دعوة رسول ٠ والجنة الثانية جنة ميراث ينالها كل من دخل الجنة ممن ذكرنا ، ومن المؤمنين ، وهى الأماكن التى كانت معينة لأهل النار لو دخلوها ٠ والجنة الثالثة جنة الأعمال ، وهى التى ينزل الناس فيها بأعمالهم ومن كان افضل من غيره فى وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر(١) ٠

ثم ان ابن عربى قد بين أيضا أن النعيم الذى يناله الذين يدخلون الجنة بأعمالهم ليس فحسب على قدر هذه الأعمال ، وانما يرون ـ على حد قوله ـ ما تقتضيه أعمالهم من النعيم(٢) ٠

ولقد عدد ابن عربى وهو يضرب أمثلة يوضح بها كيفية توزيع المنعمين أربع طوائف من الطوائف الرئيسية فى الدرجات العليا : « وهؤلاء الأربع طوائف يتميزون فى جنات عدن عند رؤية الحق فى الكثيب الأبيض ، وهم فيه على أربع مقامات : طائفة منهم أصحاب منابر ، وهى الطبقة العليا ، وهم الرسل والأنبياء ٠ والطبقة الثانية : هم الأولياء ورثة الأنبياء قولا وعملا وحالا ، وهم على بينة من ربهم ، وهم أصحاب الأسرة والفرش ٠ والطبقة الثالثة : العلماء بالله من طريق النظر البرهانى العقلى وهم أصحاب الكراسى : والطبقة الرابعة : وهم المؤمنون المقلدون

---

(١) الفتوحات المكية ٤١٤/١ ، وانظر الفردوس ٤٢/٣٢ ـ ٤٧ ، وكذلك الفتوحات ٤١٥/١ والفردوس ١٣١/٣٠ ـ ١٣٢ ٠

(٢) الفتوحات المكية ٨/٣ : الجنة ينزل فيها اهلها بالفضل فيرون مالا تقتضيه اعمالهم من النعيم ، ولا يرى أهل النار من العذاب الا قدر اعمالهم من غير زيادة ولا رجحان ٠ » أى أن الرحمة الالهية اكبر من العظمة الالهية ، وانظر الفردوس ٥٨/٣٢ ـ ٦٦ ٠

فى توحيدهم (١) » • وهذا توزيع احتذاه دانتى • فقد وضع الأنبياء مثل : آدم وموسى والحواريين ، مثل : القديس بطرس والقديس يوحنا وغيرهم فى أعلى الدرجات ، ومن تحتهم كبار رجال اللاهوت المسيحى مثل : القديس فرانسيس والقديس بنديكت ، والقديس أوغسطين • ومن تحتهم عامة المؤمنين الذين تبعوا وصايا الدين(٢) • ومما يجدر ذكره أيضا أن دانتى فى وصفه لمقاعد المنعمين قد استخدم نفس مصطلحات التعبير مثل المنابر والكراسى (٣) •

فرق ابن عربى عند حديثه عن الطبقات الأربع المذكورة آنفا ــ وان كان تفريقه غامضا بعض الشىء ــ بين المنعمين من المسلمين ، وأولئك الذين كانوا ينتمون قبل الإسلام لليهودية أو النصرانية • وهذا الغموض عند ابن عربى غريب بعض الشىء : اذ أن تقسيم دانتى الثنائى لطائفتى المنعمين ، كان فى الواقع أمرا مقررا فى الإسلام قبل ابن عربى بزمان طويل • جاء فى حديث نبوى عن على بن أبى طالب تحديد واضح بهذا الخصوص (٤) •

« فى الجنة لؤلؤتان الى بطن العرش ، احداهما بيضاء ، والأخرى صفراء • فى كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة ، أبوابها وأكوابها وكيسانها من صنف واحد • والبيضاء لمحمد وأهل بيته ، والصفراء لإبراهيم وأهل بيته » •

هنا يستبين لنا تشابه واضح بين هذه الفكرة وتقسيم دانتى • فقد وضع دانتى فى تصميم وردته ، الأنبياء ، وآباء الجنس البشرى ، والقديسين الذين جاء ذكرهم فى العهد القديم من الكتاب المقدس ، فى القطاع الأيسر من الوردة ، ووضع أولئك الذين جاءوا بعد المسيح فى القطاع الأيمن (٥) • ثم أن التشابه لم يقتصر على هذا فحسب ، بل امتد الى التفاصيل • فكما أن ابن عربى جمع محمدا وآدم فى طبقة واحدة فى الكثيب الأبيض عند رؤية الله ، فكذلك وضع دانتى آدم والقديس بطرس فى نفس الدرجة فى وردة الطوباويين (٦) •

---

(١) الفتوحات المكية ٤١٧/١ ، ١١١/٢ ، ٥٧٧/٣ •

(٢) وضع لانديو (Landino, on fol. 432) هذه النقطة توضيحا كبيرا •

(٣) قارن الفردوس ٦٩/٣١ ، ١٣٣/٣٠ ، ٧/٣٢ ، ١٦/٣١ ، ١١٥/٣٠ و ١٣٢ بالفقرة التى استشهدنا بها من الفتوحات (هامش ١) •

(٤) العلوم الفاخرة ٥٩/٢ ــ ٦٠ •

(٥) الفردوس ١٩/٣٢ ــ ٢٧ •

(٦) الفتوحات المكية ١١٣/٢ والفردوس ١١٨/٣٢ •

٥ ـ يصف ابن عربى كيف يتجمع المنعمون فى الجنة لمشاهدة الله فى كتابه الفتوحات المكية ، يقول(١) :

« يتجمع المنعمون فى الجنة فى الكثيب الأبيض انتظارا لمشاهدة الرحمن ، بينما أخذت كل طائفة منهم منازلها على قدر علمهم بالله ، لا على قدر عملهم ، اذا هم بنور قد بهرهم فيخرون سجدا ، فيسرى ذلك النور فى أبصارهم ظاهرا ، وفى بصائرهم باطنا ، وفى أجزاء أبدانهم كلها وفى لطائف نفوسهم فيرجع كل شخص منهم عينا كله وسمعا كله ، فيرى بذاته ، فهذا يعطيهم اياه ذلك النور ، فبه يطيقون المشاهدة . ثم يأتيهم رسول الله فيقول لهم تأهبوا لرؤية ربكم جل جلاله ، فها هو ذا يتجلى لكم ، فيتأهبون فيتخلى الحق تعالى ، وبينه وبين خلقه ثلاثة حجب : حجاب العزة ، وحجاب الكبرياء ، وحجاب العظمة . فلا يستطيعون رؤيته بالنظر الى تلك الحجب ، فيقول الله تعالى لأعظم الحجبة عنده : ارفع الحجب بينى وبين عبادى ، فترفع الحجب فيتجلى لهم الحق خلف حجاب واحد فى اسمه الجميل اللطيف الى ابصارهم ، وكلهم بصر واحد فينفهق عليهم نور يسرى فى ذواتهم ، فيكونون به سمعا كلهم وقد أبهتهم جمال الرب وأشرقت ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس » .

« وهذه الرؤية فى حد ذاتها لاتتغير ، الا أن لها وجوها مختلفة(٢) . فالأنبياء الذين أخذوا معرفتهم بربهم من ربهم رأسا عن طريق الايمان ، الذى لايشوبه نظر فكرى ، يشاهدون ربهم بعين الايمان ، أما الولى التابع للنبى فى ايمانه ، فيرى ربه بمرآة نبيه . ثم انه اذا حصل هذا الولى أيضا معرفة ربه من طريق الفكر ، يكون له يوم الزيارة رؤيتان: رؤية علم ، ورؤية ايمان . وكذلك اذا كان النبى له بمعرفته بربه نظر فكرى ، له رؤيتان : رؤية علم ، ورؤية ايمان . وكذلك اذا كان الولى لم يحصل معرفته بربه عن عن طريق المعارف الإلهية التى جاء بها الرسل ، وانما كانت معرفته بربه عن نظر فكرى أو عن تجل الهى لقلبه ، أو كليهما ، فمثله يكون بما هو أهل نظر فى مرتبة أهل النظر فى الرؤية . وبما هو أهل ايمان فى مرتبة أهل الايمان فى الرؤية ، وبما هو أهلهما يكون فى مرتبتهما فى الرؤية . أما أولئك الذين كانت معرفتهم بربهم عن كشف الهى ، فان لز . نا على حدة يتميزون به على سائر الخلق . معنى هذا أن الثلاثة الوجوه التى يرى بها المنعم الله ، انما ترتبط بالطرق المختلفة التى حصل بها معرفته بالله وهو على الأرض . فلمثل هذا ثلاثة تجليات بثلاث أعين فى الآن الواحد . وبذلك تتدرج رؤية الأصفياء من هذه الطبقات الثلاث كما يأتى : يتقدم الأنبياء على الأولياء الأتباع ، وأما الطبقات

---

(١) الفتوحات المكية ٤١٧/١ ـ ٤٢٠ .
(٢) الفتوحات المكية ١١١/٢ .

التى ليست بأنبياء ولا أتباع وانما مجرد أولياء الله ، فأصحاب النظر منهم دون أصحاب الكشف ، فبين الحق وبينهم فى الرؤية حجـاب فكرهم ، كلمـا أرادوا أن يرفعـوا ذلك الحجاب لم يستطيعوا ، كاتباع الأنبياء كلما همـوا برفع حجب الأنبيـاء عنهم حتى يرونه دون هذه الواسطة لم يستطيعوا ذلك ، فلا تـكون الرؤية الخالصة من الشوب الا للأنبياء والرسل وأهل الشرائع ولأهل الـكشف خاصة ومن حصل له هـذا المقام مع كونه تابعا » ٠

« وينال كل صفى حظه من الرؤية بقـدر ماعنده من الاعتقادات فى الله(١) ٠ وبذلك يكون حظ ولى من النظر لذة عقلية ، وولى حظه من ذلك لذة حسية ، وولى حظه من ذلك لذة خيالية ٠ أما حظوظ العامة من النظر اليه فعلى قـدر ما فهموه من العقـائد الدينية التى تلقوها عن معلميهم ٠ وبما أن عقلية العامة خيـالية لا يقـدرون على التجريد ، فكذلك ستكون معرفتهم بالله ، وحظهم من الرؤية ، وهـذا أيضا سيكون حظ معظم العلماء ، ذلك أن قليلين منهم فقط هم الذين يتصوروا التجريد الـكلى عن المواد ٠ ولهـذا أكثر الشريعة جاءت على فهم العامة ، وتأتى فيها تلويحات للخاصة »(٢) ٠

« يظهر الله فى تجل واحد ، غير أنه كثير من حيث اختلاف الصـورة ٠ فينصبغ المنعمون عن آخرهم بنور ذلك التجلى ، ويظهر كل واحد منهم بنور صورة ما شـاهده ، فمن علمه فى كل معتقد فله نور كل معتقد ، ومن علمه فى اعتقاد خاص معين لم يكن له سوى نور صورة ذلك المعتقد المعين » (٣) ٠

« يغشى نور الرؤية المنعمين ، وينعكس على كل ما يحيط بهم ٠ يرجعـون الى قصورهم بصورة ما رأوا ويجدون منازلهم وأهليهم منصبغين بتلك الصورة فيتلذذون بها ، ذلك أنهم كانوا فى وقت المشاهدة فى حالة فناء لعظيم سـلطانها ٠ واذا أبصروا تلك الصورة فى منازلهم وأهليهم استمرت لهم اللذة ، وتنعموا بتلك المشاهدة ، فيتنعمون فى هـذا الموطن بغير ما أفناهم فى الكثيب » ٠

أما الحقيقة المـاثلة فى أن هناك درجات مختلفة يرى بها المنعمون الله ، فأمر لا يثير أى شعور بالمرارة ، بل أن أولئك الذين يشغلون الدرجـات الدنيا لايشـعرون بالحسد

---

(١) الفتوحات المـكية ١١٢/٢ ــ ١١٣ ٠

(٢) قال ابن رشد بهذا الرأى الأخير واعتنقه القديس توما الأكوينى ٠ انظر Asın, Averroismo 291, et seq,

(٣) الفتوحات المـكية ٥٧٨/٣ ٠

من المتقدمين عليهم • وقــد أوضح ابن عربى هــذه النقطة ، قال(١) :

« وكل شخص يعرف مرتبته علما ضروريا يجرى اليها ولا ينزل الا فيها ، كما يجرى الطفل الى الثدى والحديد الى المغناطيس • لو رام أن ينزل فى غير مرتبته لمـا قـدر ولورام أن يتعشق بغير منزلته لمـا استطاع ، بل يرى منزلته أنه قـد بلغ فيها منتهى أمله وقصده ، فهو يتعشق بما هو فيه من النعيم تعشقا طبيعيا ذاتيا لا يقوم بنفسه ماهو عنده أحسن من حالة ، ولولا ذلك لكانت دار ألم وتنغص ولم تكن جنة ولادار نعيم ، غير ان الأعلى له نعيم بما هو فيه فى منزلته وعنده نعيم الأدنى » •

٦ ــ ننتقى أولا من هــذا الوصف الغنى فى تفاصيله وفى صوره المثيرة الرائعة ، وفى فكراته اللاهوتية الفلسفية ، الآراء الأساسية الواضحة المعــالم عند ابن عــربى ، ونقارنها بفكرات دانتى(٢) •

أولا : تنحصر حياةالنعيم فىرأىالصوفى الأندلسىالكبير من الناحيةالأساسية فى رؤية الله عندما يتجلى النور الإلهى • والله عند ابن عربى نور اذا سرى فى أبصاروبصائر المنعمين أعدهم للرؤية ، وجعلهم يطيقون المشاهدة •

لا نعتقد أنه ينبغى لنا أن نطيل الحديث حول تشابه مفهوم ابن عربى هذا بمفهوم دانتى ، ذلك أن كلا المفهومين من حيث الفــكرة والتنفيــذ الفنى متابق(٣) • أما من حيث التنفيذ الفنى فان الأدب المسيحى السابق فى القرون الوسطى لم يزوددانتى بأى مثال • وأما فكرة ضرورةالاستعانةبالنور الإلهىللتمكنمنرؤيةالله،فقد فطن اليهاوناقشها

(١) الفتوحات المـكية ٥٧٧/٣ •

(٢) يستحسن قبل أن نعقــد المقارنات أن نشير الى تشابه غريب بين تعيين التواريخ المتعلقة بعروج دانتى الى السماء ، والتواريخ التى جاءت فى الأحاديث النبوية الخاصة بعروج أرواح المنعمين الى السماء العليــا لرؤية الله • قال دانتى انه عرج الى السماء وهو فى منتصف العمر (الجحيم ١/١) وقال المفسرون ان هــذا يعنى أنه كان فى الخامسة والثلاثين أو ما بين الثانية والثالثة والثلاثين • (Cf. Scartazzini) وينسب حديث ذكر فى (Gayangos coll. ms 105 fol. 140 r.) الى محمــد قوله بان المنعم سوف يدخل الجنة وهو فى عمر عيسى المسيح أى فى الثالثــة والثلاثين • وفضلا عن ذلك صــعد دانتى الى السماء فى يوم الجمعة الحزينــة Cf. Fraticelli, 622 - 3 ونقرر الأحاديث النبوية ان الله يتجلى فى يوم الجمعة (كنز العمال ٢٣٢/٧ رقم ٢٥٧٢ و ٢٦٤١) •

(٣) قارن الفردوس ١٠/٣٠ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ٧٦/٣٣ ، ٨٢ بالفتوحات المـكية ٤١٧/١ السطر الأخير ، ٤١٨ السطر ٨ • وعلاوة على ذلك نرى انه كمــا طلب القــديس برنار من دانتى أن يستعد لرؤية النور الالهى (الفردوس ١٤٢/٣٢ ، ٣١/٣٣) فــكذلك يطلب محمــد من المؤمنين ان يتاهبوا لرؤية ربهم (الفتوحات المـكية ٤١٨/١ السطر ١٢) •

فلاسفة القرون الوسطى قبل دانتى بزمان طويل • وأشار القديس توما الأكوينى الى هالة النور التى تقوى قـدرة الفهم الانسانى الضرورية لمشاهدة التجلى الإلهى •

ومما لاشك فيه أن القديس توما الأكوينى يعترف هونفسه بأنه نشد المعونة الفكرية لافى كتابات آباء الكنيسة ، وانما فى كتابات الفلاسفة المسلمين(١) • فقد استشهد بأقوال الفارابى ، وابن سينا ، وابن باجة ، وابن رشد عندما حاول أن يشرح التجلى الإلهى بعبارات فلسفية ، وقبل نظرية ابن رشد باعتبارها أنسب النظريات الخاصة برؤية المنعم لله •

ثم ان عدم رجوع القديس توما الأكوينى الى كتابات آباء الـكنيسة ، ولا الى الأدب الفلسفى المسـيحى فى قرون الوسطى أمر طبيعى ، ذلك أنه رأى أنه سوف لايجد فى كليهما غير قليل ، أو لاشىء اطلاقا فيما يتعلق بمثل هذا الموضوع العويص • ويقرر المؤرخون الذين دونوا أخبار العقيدة المسيحية بأنهم لا يجدون تفسيرا فلسفيا لهذا البند منبنود المعتقد المسيحى ، لافىكتاباتآباء الكنيسة ، ولا فى كتابات اللاهوتيين الأوائل • بل أن القديس كريسوستوم ينكر رؤية الماهية الإلهية • كذلك قرر القـديس امبروز والقديس أوغسطين ومن بعده جميع الآباء اللاتين حتى القرن الثامن الميلادى أنه يستحيل على العين الإنسانية أن ترى التجلى الإلهى(٢) • وأما أولئك الذين تعمقوا فى هذا الموضوع مثل القديس أبيفانس فانتهوا الى القول بأن الروح تتطلب مساعدة قبل أن تتمكن من النظر الى الله • أما ما هى طبيعة هذه المساعدة ، فلم يحددها لا الكتـــاب المقدس ولا آباء الكنيسة وهـــذا أمر اعترف به بيتـــافيوس • وعلى الـــرغم من أن النصوص المقدسة تحدثنا عن نور الهى فان هــذا النور لا علاقة له بالنظرية الفلسفية المسيحية التى راجت فى القرون الوسطى حول هالة النور • وقد اعتقد القديس تومــا الأكوينى فى واقع الأمر بأن هالة النور عنصر من عناصر الرؤية ، كما أنها قدرة على الرؤية (شبيهة بالقدرة الحساسة المتأصلة فى العين) التى عن طريقها يتمرس العقل الانسانى على النظر الى الله • واعتبر أوريغين والقديس كيرلس والقــديس أوغســطين من ناحية أخرى بأن نور المزامير (٣٥ ـ ١٠) مرادف للمسيح الذى فى نوره نرى الآب • ومنثمة استنتج بيتافيوس(٣) أن نظرية هالة النور انما هى نظرية ابتكرها رجال الفلسفة المسيحية فى القرون الوسـطى • وانتهى الاستشهاد ببلوتينوس باعتباره

---

(١) Summa theol. Suppl. Part 3, p 92, ai

(٢) Tixeront II, 201, 249, 435, III, 431

(٣) Petavius loc. cit. 4

المفكر الوحيد الذى رأى ـ وان كانت رؤيته غير واضحة ـ ضرورة التجلى الإلهى باعتباره نورا هو الله ذاته ٠ والحق أنه لو أضيف الى معلوماته التى تلقاها من كتابات آباء الكنيسة بعض أفكار اللاهوت الإسلامى (الذى لم يكن معروفا فى عصره بعد) اذن لاستطاع أن يكمل مجموعة بحوثه وتحقيقاته التاريخية ، ويملأ فراغ تلك القرون التى فصلت بين بلوتينوس وفلاسفة المسيحية فى القرون الوسطى ٠

ولاشك أنه كان قد وقع فى كتابات الغزالى والأندلسيين المشهورين : ابن رشد وابن حزم ـ ويكفى ذكر هؤلاء اللاهوتيين الثلاثة ـ على الأصول التى ترعرعت منها نظرية هالة النور ٠ فقد خصص الغزالى فصلا كاملا من كتابة احياء علوم الدين لبسط هذه النظرية ، قال(١) :

« الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة ، وانما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحا ٠٠٠٠ فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة الى ما علمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة الى ماتخيله٠ وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية ٠ فاذا الرؤية حق بشرط ألا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ٠ بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل ولا تصور وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخر كذلك ٠ بل اقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح ٠ وتنقلب مشاهدة ولا تكون بين المشاهدة فى الآخرة ، والمعلوم فى الدنيا اختلاف ، الا من حيث زيادة الكشف والوضوح » ٠

وعرض ابن حزم اللاهوتى القرطبى الأندلسى فى القرن الحادى عشر نظرية مشابهة ، قال(٢) :

« لم نقل قط بتجويز هذه الرؤية على البارى عز وجل ، وانما قلنا انه يرى فى الآخرة بقوة غير هذه القوة الموضوعة فى العين الآن ، لكن بقوة موهوبة من الله تعالى ، وقد سماها بعض القائلين بهذا القول : الحاسة السادسة ٠ وبيان ذلك اننا نعلم الله بقلوبنا فيضع الله فى الأبصار قوة تشاهد بها الله وترى بها ، كالتى وضعت فى الدنيا فى القلب » ٠

---

(١) احياء علوم الدين ٢٢٢/٤ ٠

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢/٣ ـ ٤ ٠

رأينا من قبل أن القديس توما الأكوينى قبل نظرية ابن رشيد باعتبارها تفسيرا للتجلى الإلهى • ونلاحظ أن ابن رشد ذهب الى أبعد مما جاء فى تفسيراته السابقة فى أحد مباحثه اللاهوتية ، التى تناولت نصوص القرآن التى تشبه الله بالنور ، يقول(١) :

« فان الله تبارك وتعالى لما كان سبب الموجودات وسبب ادراكنا لها ، وكان النور مع الألوان هذه صفته ، أعنى أنه سبب وجود الألوان بالفعل ، وسبب رؤيتنا له ، فبالحق ما سمى الله تبارك وتعالى نفسه نورا ، واذا قيل أنه نور لم يعرض شك فى الرؤية التى جاءت فى المعاد » •

٧ — لا تقتصر المشابهات بين تصور دانتى وتصور ابن عربى على النظرية العامة لهالة النور • ذلك أن هناك مشابهات أخرى ملفتة للنظر ، هى — :

وثانيا : يقف المنعمون فى كل من الوصفين عندما يقع التجلى نفس الوقفة ، متاهبين بأنظارهم تجاه النور الإلهى(٢) • وتعتمد الدرجات المختلفة للرؤية عند دانتى على درجة حب كل من المنعمين لله ، وعند ابن عربى على طبيعة معروفة الروح بالله فى أثناءحياتها الأرضية • ويلوح : بأن دانتى قد اعتنقوجهة نظر القائلبمذهب الإرادة، واعتنق ابن عربى وجهة نظرالقائل بالمذهب العقلى • وأما الاختلاف بينهما على أية حال فظاهرى أكثر منه حقيقى • ذلك أن دانتى اعتنق وجهة نظر ابن عربى المتعلقة بالمذهب العقلى • فقد نسب فى مناسبات كثيرة درجة النعيم الى طبيعة الايمان أو الى مدى اشراق الروح بمعرفة الله(٣) • ثم أن ابنعربى كان فى جوهره مثل جميع أصحاب الكشف المسلمين ، من القائلين بمذهب الإرادة • فالفضيلة عندهلا تقوم على المعرفة اللاهوتية أو الايمان المطلق ، ولكن على الحب الإلهى ، الذى هو سبب ونتيجة المعرفة التى تتلقاها الروح من الله ذاته • ومن ثمة فانه احتفظ بدرجة أعلى فى موقف الرؤية لأصحاب الكشف فى حين وضع الأولياء الذين كانوا فى نفس الوقت فلاسفة فى درجة أدنى(٤) •وهذه نظرية قال بها الغزالى قبل ابن عربى • جاء فى كتابه احياء

---

(١) Kitab Falsafat, 53

(٢) قارن ما جاء فى الفتوحات المكية ٤١٧/١ — ٤٢٠ ، ١١٣/٢ ، ١١١/٢ ، ٥٧٨/٣ ، ٥٧٧/٣ بالفردوس ٢٧/٣١ ، ٤٣/٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٧٩ ، ٩٧ •

(٣) الفردوس ١٩/٣٢ ، ٣٨ ، ٧٤ وانظر الفتوحات المكية ٤١٩/١ السطر « ٩ » وما بعده ، ١١١/٢ السطر « ٨ » وما بعده ، ١١٣/٢ السطر «١٠» وما بعده •

(٤) الفتوحات المكية ١١١/٢ السطر « ٩ » وما بعده والسطر « ١ » وما بعده •

علوم الدين (١) « فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته • فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان » •

و الثا : لايكمن الفرق فى الدرجات فى التجلى الإلهى ذاته ، وانما فى مختلف الصور التى يرى بها المنعم النور الإلهى ، وفى مدى زيادة أو نقصان النور الذى ينصبغ به والذى يشعه بدوره(٢) • ولهذه الفكرات الثلاثة التى قال بها ابن عربى مقابل فى مفهوم دانتى • يقول فى الفردوس ٣٠/١٢١ : « لا تحدث المسافة هناك أى فرق ؛ ذلك القانون الطبيعى يبطل تماما حيث يتجلى الله » • وبهذه العبارة قرر دانتى وحدهالرؤية الجوهرية فى صورها المتعددة ؛ ذلك أنه بين أنه اذا كان هناك أى فرق فى درجة الرؤية ، فان ذلك لا يكمن فى الشىء الذى تراه عين الرائى ، وانما فى الطريقة التى يرى بها • وبناء على ذلك يضيف (فى الفردوس ٢٣/١٠٩) قوله : « لقد تمكنت من الرؤية لا لأنه كانت هناك صور متعددة للنور ، الذى هو ذاته ثابت لا يتغير ، وانما لأن قوة ابصارى زادت بتامل هذا النور ، وأصبحت قادرة على رؤيته بصورة أخرى » •

وأخيرا : نرى أن دانتى ألح كثيرا فى الفردوس الى أن النور الذى ينصبغ به المنعم بالرؤية ، انما يشع منه بدوره ، وأن الزيادة أو النقص فى قوة ضيائه تعبر عن الدرجة الأعلى أو الأدنى من التلذذ (٣) • ولقد فسر الدانتيون هذه الفكرة مستعينين بنظرية القديس توما الأكوينى القائلة بالمواهب التى يتمتع بها جسد المنعم بالرؤية ، والتى تكمن احداها فى قدرته على اشعاع النور الذى يستمده من النعيم الذى تتلقاه الروح(٤) • ولقد رأينا فيما سبق أن ابن عربى فسر قبل دانتى مسألة اشعاع النور من المنعم ، بغزارة النور الإلهى الذى ينصبغ به جسد المنعم ، والذى يشع منه فى كل اتجاه • ثم أن هذه الفكرة لم تكن من ابتكار ابن عربى ، وانما هى ترديد من ابن عربى لنظرية الصوفيين الإشراقيين المسلمين • والحق أن مؤلف كتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون قد وقع فى القرن العاشر الميلادى على عدد من الأحاديث النبوية التى ترجع الى عصر سابق ، فيها فكر مشابه ، استخدمه فى وصفه للجنة • وأما صورة حياة النعيم التى تصفها ، فتدل على أن الضياء الخارجى للمنعمين انما يشير الى درجة نعيم كل منهم • والفقرات التالية تضع الموضوع كله فوق كل شك (٥) •

---

(١) احياء علوم الدين ٤/٢٢٤ السطر «١٥» •

(٢) الفتوحات المكية ٣/٥٧٨ السطر « ٢ » •

(٣) Rossi, I, 147

(٤) Summa Theol. Suppl. 3 ae, V. 85 a, I.

(٥) قرة العيون ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٧ ، كنز العمال ٧/٢٣٢ رقم ٢٥٧٥ ، ٢٥٨٨ ، =

« ان الرجل من أهل عليين ليشرف على أهل الجنة فتضيء الجنة بوجهه كأنها كوكب دري » ٠٠٠ « ان أهل الجنة ليرون أهل الغرف في الجنة من فوقهم كما ترون الكواكب في السماء » ٠٠٠٠ « لو أن رجلا من أهل الجنة نزل الى الأرض لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم ٠ » ٠٠٠٠ « ان المنعمين يلبسون حللا مطوسة بنور الرحمن » ٠٠٠٠ « اذا وقع على وجوه المنعمين نور وجه الحق أشرقت وجوههم بالنور ، حتى لايطبق أحدهم جفنا على جفن من شدة اللذة والنظر الى وجه الحق » ٠

ورابعا : تحدث الرؤية ابتهاجا ولذة يتناسبان مع مختلف درجات التنعم ، ولكن من شأنهما أن تفنى فيهما الروح ٠ وتظهر فكرة ابن عربي هذه كاملة عند دانتي(١) ٠ وأما اذا كان دانتي قد استمد فكرة التناسب من نظرية القديس توما الأكويني عما استمدها من المصادر الإسلامية ، فان الأمر ليس كذلك على الاطلاق فيما يتعلق بحالة الفناء هذه ٠ ذلك أنه لم ترد كلمة واحدة في هذا المعنى في نظرية القديس توما ، التي اقتصرت على التفسير الفلسفي للمواهب الثلاث التي تتمتع بها روح المنعم في الجنة : وهي الرؤية والابتهاج والعلم بالماهية الإلهية ٠ أما اذا حللنا حالة الفناء التي وصفها دانتي تحليلا نفسانيا ، وقارناها بحالة الفناء التي ذكرها ابن عربي ، اذن لوقعنا على عناصر تكوينية مشتركة ٠ مثال ذلك حالة فقدان الذاكرة ، والنعاس ، والوعي غير الكامل التي تصاب بها روح المنعم من شدة التلذذ(٢) ٠

وخامسا : أن درجات التنعم المختلفة بالرؤية لاتثير اي شعور بالحسد أو الحزن بين المنعمين في الدرجات الدنيا ٠ ذلك أن كلا منهم يقبل نصيبه من النعيم كما لو كان

= ٢٦٠٨ ، ٢٦١٦ ، ٢٦٢٩ ، ٢٦٥٨ ٠ ويلاحظ انه ورد في حديثي ٢٦١٦ و ٢٦٥٨ ان اجساد النساء المنعمات في الجنة ستكون « شفافة مثل البلور او الأحجار الكريمة » وهي فكرة تظهر في الفردوس ١٩/٣١ ، ١٢٤/٢٩ ٠ واعتقد الصوفيون وعلى الاخص ابن عربي ان الأرواح ، سنعيش حتى بعث الجسد في أجساد من العالم الآخر شبيهة بطبيعة الصور التي نراها في الاحلام — Cf. Asin. la psicologia, 45 وهذه النظرية قد سكون اساسا بنى عليه دانتي تصوره للأجسام الروحانية التي لا تلقى ظلا ٠ انظر المطهر ١٦/٣ — ٣٠ ٠

(١) الفردوس ٤٠/٣٠ ، والفتوحات ١١٢/٢ السطر «١١» وما بعده ٠

(٢) الفردوس ٥٧/٣٣ و ٩٤ ٠ والفتوحات المكية ٤١٩/١ السطر «٧» وما بعده : « منصبغين بتلك الصورة فيتلذذون بها ، فانهم في وقت المشاهدة كانوا في حالة فناء عنهم ، فلم تقع لهم لذة في زمان رؤيتهم ، بل اللذة عند اول التجلي حكم سلطانهم عليهم فافناهم عنها وعن انفسهم » والفتوحات ٥٧٨/٣ السطر «١١» ٠

يستحيل عليه أن يطلب شيئا أكثر • وهذا لان كل منعم يحب الدرجة التى يشغلها • ثم انه اذا لم يكن الامر كذلك ، اذن لمـــا كانت الجنة دارا للسلام والابتهاج(١) •

ولقد وضع دانتى نفس هذا التفسير فى فم بيكاردا (٢) : «لقد أشبع الله رغباتنا التى يعبر عنها حبنا للروح القدس ، بالطريقة التى يحددها » • ثم ان بيكاردا أجاب على استفهام دانتى عما اذا كانت الأرواح ترغب فى الحصول على درجة أعلى ، فقال : « ان شعورا بالمحبة أيها الأخ من شأنه أن يقمع مثل هـذه الرغبة ، ونحن لا نشتاق الى شىء أكثر مما عندنا • أما اذا تطلعنا الى درجـــات أعلى ، اذن لتنـــاقضت رغبتنا مع ارادة الله • ثم ان مثل هـذا الاختلاف لايقع فى مملـكة السماء » • ويقتنع دانتى بهـذا القول فيختتم حديثه قائلا : « وعندئذ فهمت لمـاذا كل السماوات فردوس واحـد ، على الرغم من درجات النعيم المختلفة » •

٨ — لا مرية فى أن هـذا التطابق الذى أفصحنا عنه بين الآراء الأساسية الخمسة لابن عربى فى التجلى الإلهى ، وآراء دانتى هو من القوة بحيث يجعل التعليق عليه أمرا غير ضرورى على الأطلاق • وأمـا المشـابهات الأخرى مثل التفاصـيل المفعمة بالصور المختلفة والاساليب الفنية التى استخدمها كل من المؤلفين فى محاولة تصوير الحق ، أى الله ، كما يشاهد فى التجلى عن طريق الرسوم الهندسية فغير واضحة تماما •

وأما المشابهات التى بيناها فى اثناء مناقشتنا للرواية الثالثة من المجموعة الثانية لقصة المعراج بين الوضع الإلهى الذى وصفه كل من محمد ودانتى فلا تقتضى الآن أن نطيل الحديث فيها • غير أننا نذكر القارىء على أية حال بأن الصورة التى مثلت الله فى هذه الرواية والتى يرجع تاريخها الى القرن الثامن الميلادى ، مطابقة تماما لتلك التى وصفها دانتى : بؤرة من نور ، تحيط بها صفوف مدرجة مستديرة من الملائكة الذين يشع منهم نور باهر • والحق أن هذا الوصف قد تكرر فى المؤلفات الإســـلامية كثيرا ، واستخدمه ابن عربى مرارا فى كتابه الفتوحات المكية ، فى وصفه لله تعالى فى يوم الحساب (٣) •

ثم ان التشابه امتـــد الى أكثر من ذلك ؛ اذ أن دانتى عندمـا بلغ أقصى درجات صعوده ، قـد حاول أن يفسر الغموض الذى يكتنف الثالوث الإلهى الأقـدس عن

---

(١) الفتوحات المكية ٥٧٧/٣ السطر العاشر وما بعـده • وهذه نقطـة اوضحها دائمـا المفسرون المسلمون ، وأساسها آيتان قرآنيتان (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) ٤٣/٧ ، ٤٧/١٥ •

(٢) الفردوس ٥٢/٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٥٢/٣٢ ، ٦٣ •

(٣) الفتوحات المكية ٥٧٤/٣ ، ٤٠٢/١ •

طريق نفس الرمز الهندسى الدائرى الذى استخدمه ابن عربى : ثلاث دوائر متساوية الأحجام متعددة الألوان • وتبدو الدائرتان الأوليان كما لو كانتا انعكاسا للثالثة ، وكأنهما قوسا قزح ، وكان الثالثة من نار تشعها الدائرتان الأخريان(١) • ولقد اعترف أذكى المعلقين على قصيدة دانتى وأكثرهم ألمعية ، على الرغم من اعترافهم بابداع الشاعر فى تصوره هذا ، بأن هذا الرمز الهندسى المؤلف من الدوائر الثلاث ، باعتباره تمثيلا لأقانيم الثالوث الإلهى ، هو فى حد ذاته لغز أكثر منه تفسيرا لها • ثم ان دانتى لم يعطنا تفصيلات عن الوان الدائرتين الأوليين ، أو عن العلاقة الهندسية بين الدوائر الثلاث • فهو لم يبين اذا ما كانت متحدة المركز أو مختلفته ، أو مماسة كل منها للأخرى أو قاطعة لها • وفى الحقيقة لم يزودنا بأى مفتاح أيا كان لتفسير هذا الرمز • غير أن هناك حقيقة واحدة واضحة • هى أن دانتى استخدم الدائرة ليعبر بها عن الله فى جميع صوره ، أى باعتباره واحدا فى ماهيته ، فضلا عن كونه الآب والابن والروح القدس • وهكذا يمثل رمز الدائرة الله باعتباره أساس الفيض (٢) وباعتباره الفيض ذاته •

نعلم جيدا أن الدائرة استخدمت رمزا للتعبير عن الله فى غيبيات أفلوطين (٣) • ثم ان لاهوتيات أرسطو وكتاب هرمس ترسمجيتوس ، وكتاب الأسباب ، قد عرفت المسلمين ورجال الفلسفة المسيحية فى القرون الوسطى بهذا الرمز ، غير أن المسلمين هم الذين استخدموا الدائرة فى كل مناسبة متاحة لتفسير أفكارهم فى نظرية الفيض ، سواء فى غيبياتهم أو فى كونياتهم ، وعلى الأخص الصوفيون الإشراقيون •

وقد استخدم ابن عربى ـ بالذات ـ أكثر من أى الإشراقيين الدوائر متحدة المركز أو مختلفة المركز أو المماسة أو القاطعة ، ليعبر عن الله ، سواء من حيث ماهيته المجردة ، أوصفاته ، أو أسماؤه ، أوتجلياته ، أو فيضه(٤) • مثل ابن عربى للهوية الإلهية بدائرة من نور أبيض فى بساط أحمر له نور أيضا ، يخرج منها نصفا قطر فى حين تدور برفق ، ولكن من غير تغير لحالها أو صفتها (٥) • كذلك رمز للموجودات التى خلقها الله بدائرة ، فقال بأن الله ما خلق الذى خلق من الموجودات خلقا خطيا

---

(١) الفردوس ١١٥/٣٣

(٢) الفيض : نظرية فلسفية مؤداها أن العالم فاض واشرق عن الله .

(٣) Enneades VI, 8, 18

(٤) الفتوحات المكية ٥٢٣/٣

(٥) الفتوحات المكية ٥٩١/٢ • Cf, Asin Psicologia 69

من غير أن يكون فيه ميل للاستدارة ، أو مستديرا فى عالم الأجسام والمعانى(١) • فى الوسط بؤرة النور التى هى الله ، الذى فاضت عنه المخلوقات ، وتخرج أنصاف أقطار من مركز واحد لتنتهى الى نقاط كثيرة فاذا ما وصلت هـذه النقاط بعضها ببعض كونت محيط الدائرة ، رمز الـكون • وكما أن هـذه النقاط الـكثيرة لا تتميز فى جوهرها بعضها عن بعض ، فكذلك الفيض الإلهى ، له جوهر واحد ومظاهر مختلفة • وأما المخلوقات فهى الوجوه أو الأسماء أو الأشكال التى يظهر فيها النور الإلهى •

عبر ابن عربى عن المخلوقات التى فاضت عن الله بدوائر(٢) • قال انه يوجد عند النقاط التى لا حصر لهـا الموجودة فى محيط الدائرة الأولى ، التى فى مركزها الله ، عدد لا نهاية له من محيطات الدوائر تقطع الدائرة ، وهذه بدورها تحدث دوائر أخرى ، متقاطعة كالسابقة ، وهكذا الى ما لانهاية • وبتكاثر الدوائر يختفى مركز وجودها الذى هو الله ، ومع ذلك فانها تعكس نور ظهوره الأول • ثم ان جميع التشبيهات التناقضية التى استنتجها ابن عربى من هـذا الرمز الذى وصفه للفيض الإلهى ، انما هى مبنية على فكرة رئيسية ، هى أساس نظريته فى وحـدة الوجود ، وهى نظرية نصـف فيضية نصف حلولية • فالله وجميع المخلوقات عنده جوهر واحد • وأما تعدد المخلوقات التى تفيض عن الله فأمر لا يغير شيئا من جوهر وجودها ، ثم انها فى نفس الوقت مجـرد متشابهات متميزة بعضها عن بعض ، تمثل حلول الأصل الذى منه نشأت •

ثم ان هـذا التصميم العام الذى وصفه ابن عربى لنظرية الفيض الإلهى أصبح أقل ظهورا عندما استطرد ليرمز بالدوائر متحدة المركز لرتب وطبقات العالم(٣) • أما أسماها فتتكون من ثلاثة جواهر ، أو أقانيم،أوعناصر : أولا ، الروح المهيمنة التى منهاتنبثق كل الموجودات التى ليست هى الله • وثانيا ، العقل الـكلى الذى هو النور الإلهى ، والذى عن طريقة تتلقى موجودات الروح المهيمنة الحقيقة الحسية • وثالثـا ، النفس الكلية وهى أيضا تفيض من الله الأحد من خلال العقل الأول • ولقد عبر ابن عربى عن هـذا الثالوث من المواد الجوهرية الذى يمثل الماهية الإلهية فى كتـابه الفتوحـات المكية برسم هنـدسى يتـكون من ثلاث دوائر : تمثل أكبر دوائره التى تضم الدائرتين

---

(١) الفتوحات المـكية ١٥٨/٣ ، ٣٦٣ ، ٥٨٩ •

(٢) الفتوحات المـكية ٣٣٢/١ •

(٣) الفتوحات المـكبة ٥٦٠/٣ •

الأخريين الروح المهيمنة ، وبداخلها دائرتان تكادان تتماسان ، ترمزان الى العقل الكلى والنفس الكلية • والواقع أن ابن عربى لم يقـدم لنا أى تفسيرات لهذه الرسوم التفصيلية لتصميمه ، غير أن مجرد الحقيقة المـاثلة فى استخدامه للدوائر الثلاث باعتبارها رمزا للأقانيم أو العناصر الثلاثة لثالوثه ، بقصد ادراك مبدأ السعة الأولية التى احتوت الموجودات جميعا ، ومبدأ الفعالية النشطة التى أحدثت مثل هـذا الوجود ، ومبدأ حياة الكـون ، هى فى حد ذاتها نقطة هامة من شأنها أن تبين الحقائق لأولئك الباحثين، الذين يقدرون براعة وابداع الشاعر الفلورنسى ، ولـكنهم فى نفس الوقت لايكتفون فحسب بمجرد الإعجاب بالخلق الفنى الذى يرونه فى قصيدته ، وانما يتوقون الى أن يكتشفوا المصدر الذى استقى منه فكراته (١) • ذلك أنه على الرغم من وجود هوة عميقـة من الاختلافات بين ثالوث ابن عربى الذى يعبر به عن وحـدة الوجود وبين العقيدة الـكاثوليكية فى الثالوث الأقـدس(٢) — الآب والابن والروح القدس — فان هـذه الاختلافات لا تؤثر بأية حال فى التمثيل الرمزى للمفهومين عن طريق تصميم هندسى • فان تكييف هذا التصميم لتمثيل كل من المفهومين أمر لا يؤدى الى استحالة ميتافيزيقية ، ولا الى خطر ما من وجهة نظر العقيدة الدينية • هـذا على شريطة أن يكون مفتاح اللغز قـد ظل سرا مخفيا ، وأن تـكون التفاصيل المحددة لتفسيره قـد حذفت • وهـذا ما صنعه دانتى بالضبط • ذلك أنه اقتصر عند شرحه لرمز الدوائر الثلاث ، على القول بأن الثلاثة هى عبارة عن واحدة فقط من ناحية المـادة والجوهر ، .أما أنها من ألوان مختلفة فلتمييز الأقانيم الإلهية الثلاثة التى تتكون منها وحدة وجود الله(٣) •

---

(١) انظر الرسم البيانى فى الفتوحات المـكية ٥٥٣/٣ ، وشرحه فى ص ٣٦٠ — ٣٦٢ الدائرة (أ) تمثل الروح المهيمنة و(ب) العقل الـكلى و (ج) النفس الـكلية •

(٢) يقر ابن عربى على أية حال بثالوث معين من العلاقات كضرورة اساسية للوحدة الالهية • أما السبب الميتافيزيقى لفـكرته فنقع عليه فى المفهوم الفيثاغورى للعـدد ثلاثة (الفتوحات المـكية ١٦٦/٣ ، ٢٢٨ ، ٦٠٣) ويطبق ابن عربى نظريته على اللاهوت (الفتوحات ٩٠/٢) ومن ثمـة وضع ثلاثة عناصر الهيـــة بقصد تفسير اصل ووجـــود الكون ، هى وجود الله ذاتـــه (الجوهر) وارادته (المشـــيئة) وقوله كن (الكلمة) • وحـاول ابن عربى أيضا فى كتابه ذخائر الأعـــلاق ص ٤٢ ان يوجد مشابهـــات بين العقيـدة المسيحية فى الأقانيم الالهية الثلاثة التى تـكون الثالوث الالهى الأقدس ، وثالوث الأسماء الالهية كمـا جاء فى القرآن : الله الرحمن الرحيم •

(٣) يلاحظ ايضا انه يصعب تفسير رمز ابن عربى • ذلك انه تحدث الى جانب الدوائر الثلاث التى تمثل الله فى تجلياته الثلاثة : الروح المهيمنة ، والعقل الـكلى ، والنفس الـكلية ، عند تجلى الله من خلال ثلاثة حجب هى : حجاب العزة ، وحجاب الـكبرياء ، وحجاب العظمة (الفتوحات المـكية ٤١٨/١) كذلك رمـز ابن عـــربى الى تجليـــات الأسمـــاء الإلهية بدوائر مختلفة المركز مختلفة الأقطار (الفتوحات المـكية ٥٥٨/٣) • غير ان ابن عربى لم يذكر شيئا عن الوان هـذه التجليات المختلفة ولـكن جاء فى قرة =

١٠

تجميع المقارنات الجزئية

١ ـ سوف تمكننا المقارنات الدقيقة التى أجريناها فى هذا الجزء الثانى من كتابنا ، أن نقدم للقارىء الاستنتاجات الآتية فى صورة توليفة من النتائج الجزئية ٠

رأينا أن عددا كبيرا من التفاصيل والأوصاف الطوبوغرافية فى الكوميديا الإلهية ، بالرغم من أنه ليس لها ما يقابلها فى قصة المعراج ، لها من ناحية أخرى سوابق مماثلة فى الأدب الإسلامى ، سواء ماجاء منها فى القرآن ، أو الحديث ، أو فى قصص اليوم الآخر ، أو فى نظريات اللاهوتيين والفلاسفة والصوفيين ٠

٢ ـ يلوح لنا جليا أن ابن عربى هو على الأرجح من بين جميع المفكرين المسلمين المفكر الذى زود دانتى بالمثال الذى احتذاه فى تصويره للآخرة ٠ فقد وصف دانتى النار ، وسماوات النظام الفلكى ، ودوائر ورده الطوباويين ، وصفوف الملائكة التى تحيط بالنور الإلهى ، والدوائر الثلاث التى ترمز للثالوث الإلهى ، وصفا مماثلا تماما لوصف ابن عربى لها ٠ ذلك أن هذه المشابهة انما تكشف فى واقع الأمر عن العلاقة القائمة بين الأصل والصورة ٠ أما أن كل هذه المشابهات مجرد مصادفة فأمر مستحيل ٠ واليك هذه الحقائق التاريخية : وضع ابن عربى فى كتابه « الفتوحات المكية » قبل ميلاد دانتى بخمس وعشرين سنة ، تصميمات لممالك الآخرة ، كانت جميعها دائرية أو كروية ٠ بعد ذلك بثمانين سنة وضع دانتى وصفا شاعريا مدهشا لممالك الآخرة ، كانت تفاصيله الطوبوغرافية دقيقة جدا لدرجة مكنت المفسرين لقصيدته فى القرن العشرين من أن يضعوا لهذه التفاصيل تصميمات هندسية ، هى فى واقع الأمر مطابقة من الناحية الجوهرية لتلك التصميمات الهندسية التى رسمها ابن عربى ذاته وضمنها كتابه منذ سبعة قرون مضت ، أما اذا لم تثبت بعد ذلك محاكاة دانتى لابن عربى ، فان التشابه البين اذن يصبح اما لغزا لا حل له ، واما معجزة ابتكارية(١) ٠

٣ ـ وفضلا عن هذا التطابق فى تصميمات البناء ، يوجد تشابه ملفت للنظر فى تزيين ممالك الآخرة ٠ يلوح أن الاعراف هو نموذج اللمبو ، وجهنم نموذج الجحيم ،

= العيون ومفرح القلب المحزون ص ١٢٥ أن الله يظهر لأصفيائه فى نور ابيض يغشاه ظلال من نور اخضر وأحمر وأصفر ٠

(١) لو ان فوسلر اطلع على تصميمات ابن عربى ، لما التمس فى تناسق ممالك الآخرة الثلاث عند دانتى ، [illegible] رمزيا للنظام بطلميوس الفلكى على الطهر والجحيم ٠

والصراط نموذج المطهر ، والمرج الذى خارج سور الجنة نموذج للجنة الأرضية ، والجنان الثمان نموذج لوردة الطوباويين عند دانتى ٠

٤ ــ عبر كل من الوصفين عن نفس الوحدة فى التصميم المعمارى ، وعن نفس الرغبة الملحة فى التناسق المادى والمعنوى ٠ فالقدس هى المركز الذى تدور من حوله العوالم الأخرى ، فالنار من تحتها ، وفى أعمق دركاتها سجن لوسيفر ، وعلى سمت القدس عليون أو سماء السماوات التى يوجد فيها الله والذين اصطفاهم ٠ وهنا نجد أن عدد الجنان مساو لعدد أطباق النار ، فضلا عن تساوى عدد درجات الجنة مع عدد دركات النار ، بحيث كان لكل درك فى النار مقابله فى الجنة ٠

٥ ــ يمتد التشابه بين التصورين لكثير من الأحداث والمناظر ، التى بينا أن بعضها كان متطابقا تمام التطابق ٠ مثال ذلك أن تصنيف سكان اللمبو عند دانتى وعذابهم المعنوى ، أمران متشابهان لتصنيف سكان الأعراف الإسلامى وعذابهم ٠ وأن العاصفة السوداء التى تهب على الزناة عند دانتى هى الريح التى أهلكت قوم عاد والتى ذكرها القرآن ٠ وأن المطر النارى الذى يسقط على اللوطية ، وعقوبة العرافين الذين ردت وجوههم الى أدبارهم ، وكايافاس وهو مصلوب على الأرض تدوسه الأقدام ، واللصوص الذين تلتهمهم الحيات ، وخطباء السوء والفتنة ، وقد خرجت أمعاؤهم من بطونهم وقطعت أذرعتهم ، أو وهم يحملون رءوسهم وهى تتكلم فى أيديهم ، والعمالقة الذين وصفت حجومهم بعبارات متشابهة ، وعذاب الثلج الذى يقاسيه الخونة ، الذى هو عبارة عن عذاب الزمهرير فى الإسلام ، وتصوير لوسيفر فى الثلج كتصوير ابليس فى الزمهرير ، والدخان الكثيف الذى يغشى الشهوانيين فى المطهر ، الشبيه بذلك الدخان الذى قال عنه القرآن أنه سيغشى الناس فى يوم الحساب ، والتطهر فى نهرى الفردوس الأرضى ، ومقابلة دانتى لبياتريتشى ، الشبيهة بمنظر دخول روح المسلم الى الجنة بعد التطهر فى نهرين ومقابلته لعروسه السماوية ، وأخيرا ، وصف التجلى الإلهى بأنه نور ربانى ، يحدث نورا مشعا ساطعا ، وعلما ، ولذة روحية ٠

٦ ــ أما اذا أضفنا الى كل هذه المشابهات فى البناء ، والطوبوغرافيا ، والوضع العام ، تلك المشابهات التى أفصحنا عنها بوضوح تام فى الجزء الأول من هذا المؤلف ، اذن لاتضح لنا أن الأدب الإسلامى الذى وضع حول موضوع الحياة الأخرى ، ــ وهو موضوع نمى وتطور أصلا حول قصة المعراج ــ هو وحده الذى يزود الباحثين بمحصول أوفر من الفكر ، والصور ، والرمز ، والأوصاف الشبيهة

بما أورده دانتى فى قصيدته ، أكثر مما تزودهم به جميع الآداب الدينية الأخرى مجتمعة ، والتى اقتصر الدانتيون حتى الآن على بحثها فى محاولتهم الوقوف على الأصل الذى استقى منه دانتى أفكار الكوميديا الآلهية ٠

٧ ـ هنا ـ وعند هذا الحد ـ كان ينبغى لدراستنا أن تختتم ما لم يكن هناك شك مهم قد يراود عقل الباحث ويقلقه ٠

فقد نسب الدانتيون الأساليب الفنية والمفهومات اللاهوتية الفلسفية التى أدخلها دانتى على قصيدته ، الى عبقرية الشاعر الابتكارية فحسب ، التى انعشتها الى حد ما معرفته بالقصص الشعبية الكثيرة التى كانت شائعة فى أوربا فى القرون السابقة لظهوره ٠ ويشير الدانتيون الى هذه القصص على أنها « الأعمال الأدبية السابقة للكوميديا الإلهية » ٠

أما الحقيقة المؤكدة التى استبانت الآن فتفصح عن أن أيا من هذه القصص لا تزودنا بتفسيرات مشابهة للكثير من عناصر قصيدة دانتى ، كما تزودنا بها قصة المعراج ، ثم ان هذه القصص تخفق جميعا فى أن تلقى ضوءا على كثير من التفاصيل التى تفسرها قصة المعراج والأدب الإسلامى عموما تفسيرا كاملا ٠ وعلاوة على ذلك فان المشابهات بين قصيدة دانتى والأعمال الأوربية السابقة لها قليلة جدا بحيث أنها لا يمكن أن تقيم أى علاقة كتلك التى تقوم بين الأصل والصورة ٠

وعلى الرغم من هذا كله ، فقد يمكننا أن نتجاهل الفرض القائل بالتأثير الإسلامى فى قصيدة دانتى ، ونعود من ثمة الى النظرية القائلة بأن القصيدة قد استمدت من الأدب المسيحى ، ونبتت من بذور المعتقدات المتعلقة بالحياة الأخرى التى تشتمل عليها المؤلفات المسيحية الأوربية السابقة للكوميديا الإلهية ٠ ونحن ازاء هذا الفرض ، وحتى نرده بالبينة وندحضه بالحجة ، ونحيل البرهان المعضد لرأينا الذى عرضناه برهانا حاسما نهائيا ، كان لزاما علينا أن نقوم ببحوث أخرى ٠ ذلك أنه ينبغى اذن أن نبحث فى أصل عناصر المعتقدات المتعلقة بالحياة الأخرى التى وردت فى القصص المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية ، حتى نستطيع أن نؤكد ما اذا كانت كلها فى واقع الأمر نابعة من الأفكار المسيحية ، أو أنها تفصح هى الأخرى عن مشابهات للقصص الإسلامية السابقة لها ، كما تبينا ذلك فى الكوميديا الإلهية ٠

الفصل الثالث

الملامح الإسلامية

فى القصص المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية

– ١ –

مقدمة

١ – يلوح بأن الاعتقاد فى خلود الروح ، ورغبة الإنسان الطبيعية فى رفع النقاب من أسرار الحياة الأخرى ، كانا السبب النفسانى الذى ألهم المؤلفين قصصا كثيرة ، شاعت فى أوربا المسيحية فى القرون الوسطى ، كان موضوعها الأساسى الوصف النابض بمختلف الصور لأحداث رحلة خيالية الى ممالك الآخرة (١) · ومن ثمة جمع كبار النقاد هذه القصص وحللوها بدقة وعناية ، واعتبروها نابعة من أصول مسيحية لا غير ، وأنها اما نتيجة طبيعية للخيال الشعبى ، واما نتيجة للدراسات الرهبانية عبر القرون ، تلك الدراسات التى تناولها الشعراءالتروبادور وزينوها بخيالهم الفنى(٢) · ويظهر فى واقع الأمر أن أديرة ايرلندا كانت المركز الأساسى الذى أشعت منه هذه القصص · غير أنه يجدر بنا أن نشير الى الاختلاف الواضح بين القصص التى ظهرت قبل القرن الحادى عشر وبعده ؛ ذلك أن قصص الأديرة السابقة لهذا القرن فقيرة جدا فى مادتها ، غير فنية من حيث معالجة الموضوع · ثم ان المناظر التى تمثل فيها الحياة الأخرى للروح تافهة جدا ، وفظة فى بعض الأحيان لدرجة تجعل استعانة دانتى بها كنماذج لقصيدته ، حتى لو افترضنا علمه بها ، أمرا قليل الاحتمال · وقد اعترف بذلك دانكونا نفسه · غير أن قصصا جديدة أخرى ظهرت بعد ذلك ، تفصح عن خيال أكثر خصبا ، وعن درجة أكبر من الصقل اتصف بها أدب الكتاب الذين دونوها(٣) ·

٢ – كيف اذن نعلل هذا التغير المفاجىء فى موضوع المعتقدات المتعلقة بالحياة الأخرى الذين انطبع به الأدب المسيحى الغربى ؟ لا يلوح على أية حال أن افتراض تأثير عناصر غريبة عن الثقافة الغربية يمكن تكييفها على مقتضياتها – مادام فى الإمكان

---

(١) D'ancona' 13, 107, cf. also Labitte, Ozanam and Graf.

(٢) D'ancona, 9, 26, 28, 70, 84

(٣) D'ancona, 42

أرجاع أصولها فى النهاية الى نفس العناصر المسيحية المبكرة ـ أمر مبالغ فيـــه • فقد لاحظ جراف أن بنودا كثيرة من بنود قصة الجنة العالمية ، على الرغم من أنها حذفت من رواية الـكتاب المقدس ، عادت للظهور فى هـذه القصص المسيحية • ثم انه أضاف تقريرا له أهميته وخطره ، هو أننـــا لانعـــرف متى دخلت هـــذه القصص فى الأدب الأوربى ، ولا بأى وسائل انتقلت(١) ثم ان جراف استخدم جميع المصـــادر التى تتوافر للباحث الأوربى الحديث أحسن استخدام منهجى • غير أن الأدب الإسلامى المتعلق بالأخرويات هو الذى أفلت من انتباه هـذا الناقـد الحصيف المدقق : ذلك أنه لم يكن يعرف العربية ، وكانت النصوص العربية بالنسبة له كتابا مغلقا ، اذا لم تترجم الى لغة من اللغات الأوربية الحية • وفى الصفحات التالية محاولة استهدفنا منها ملء هـذه الثغرة ، وذلك بدراسة القصص الإسلامية بغية الحصول على برهان يدلنا على الملامح الشاعرية التى قـد تـكون أثرت فى القصص المسيحية ، ومن ثمة تفسر ازدهارها اللافت للنظر فى القرن الحادى عشر •

٣ ـ نقع على برهان عام لمثل هـذا التأثير فى واقعة من الوقائع التى لاحظها جراف نفسه • فقـد لاحظ فى كثير من القصص الشعبية الأكثر رواجا فى ذلك العصر ، أن أرواح المنعمين ، توضع قبل أن تقبل فى جنة النعيم الأبدى ، فى مكان غير الجنة السماوية ، لتنتظر فيه يوم البعث والحساب • غير أن جراف يقرر أيضا أن ادخال المنعمين رأسا الى عليين ، كان من عقائد الـكنيسة ابتداء من القرن الخامس الميلادى ، وأن أى نظرية أخرى كانت ملعونة من الـكنيسة(٢) • والآن هـل يوجـد برهان أقوى يدل على الأصل غير الـكاثوليكى لهـذه القصص ؟ نعلم أن الإسلام يقرر أن أرواح السعداء سوف تنتظر يوم الحساب ، منذ الموت وحتى البعث ، امـــا فى قبورهم التى تتحول الى مساكن نعيم مؤقت ، واما فى مرج يقع خارج سور الجنة(٣) • ويلوح أن أرواح الشهداء وحدهم هى التى تقبل فورا فى الجنة ، أو بالأحرى تقاد الى سقيفة عند باب الجنة العليا • وسوف يبين فيما بعد أن صور حياة النعيم هذه السابقة للحساب التى جاءت فى القصص الإسلامية ، تحمل أوجه تشابه شديد لمواقف عديدة تذكرها القصص المسيحية • ثم ان هـذا التشابه فى التفاصيل الوصفية ، اضافة الى التشابه فى الاعتقاد الدينى ، أمران يلوح أنهما جديران بتأكيد افتراضنا للاصل الإسلامى لهـــذه

---

(١) Graf, miti, I, Introduction xxll

(٢) Graf, miti, I 66, 67

(٣) شرح الصدور ٩٦ ـ ١٠٩ ، العلوم الفاخرة ٥٧/١ وهنا وهناك •

القصص • على أن هـذا الاعتقاد الذى لا يزال حيا فى العالم الإسلامى ، والذى هجرته المسيحية الغربية منذ زمان طويل باعتباره بدعة ، ليس الدليل الوحيـد على الأفـكار التى استوحاها كـتاب هـذه القصص من الأدب الإسلامى •

يقرر أوزانام ودانـكونا أن كثيرا من هـذه القصص الأكثر شاعرية وتثقيفا لم تحظ قط بالقبول الرسمى من السلطات الـكنسية(١) ، كما لو أنها قـد فطنت لوجود نظرية تختفى تحت ستار من الزخرفة الشاعرية ، لا تتمشى تماما مع العقيدة المسيحية التقليدية • ولاشك أن الدليل الواضح على التأثير الإسـلامى الذى نلمسـه فى كثير من هـذه القصص ، من شانه أن يبرر موقف الـكنيسة هـذا تبريرا كاملا •

٤ ـ أحب أن اقرر هنا بصراحة أن المقارنات التى سوف نعقدها بين هـذه القصص المسيحية والقصص الإسلامية ليست مبنية على الفحص الـكامل الشامل لنصوص القصص كلها ، ولـكن على الملخصات التى قـدمها النقاد • وهى لذلك سوف تـكون اقل دقة من المقارنات التى عقـدناها فى الجزئيين السابقين من هـذا المؤلف • ومن ثمة سوف تكون بمثابة نظرة عامة على هذه المشـكلة الأدبيـة المهمة ، عمـا هى حلا نهائيا للمشـكلة •

كذلك لم أحاول تجميع القصص المسيحية بمقتضى أى منهج جـديد • وأما القصص التى لم تجمع فى مجموعات بعد فسوف ننظر فيها على حـدة ، وان أدى ذلك الى التـكرار فى بعض الأحيان • غير أن هـذا التـكرار سوف لا يمتد على أية حال الى البنود التى أثبتنا من قبل أصولها الإسلامية ، والتى سوف لا نشير اليها الا لـماما ، فى حين سنهتم اهتماما خاصا بالملامح الجديدة التى لم نقع لها من قبل على سـوابق اسلامية •

ـ ٢ ـ
قصص رؤى النـار

١ ـ قصة رهبان الشرق الثلاثة ، أو القـديس مكاريوس (٢) • يرجع لابيتى ودانـكونا هـذه القصة الى القرن السادس أو السابع أو الثامن • غير أن أوزانام يقرر أنها لابد متأخرة عن ظهور الإسلام ، ذلك أن القديس يستفهم فى مقدمتها من ضيوفه

---

(١) Ozanam, 458, D·ancona, 33

(٢) Labitte 103 Ozanam 434 D'ancona 83, Graf, I, 84

عن الأخبار التى لديهم عن المسلمين · وأما جراف فيرجعها الى أصل يونانى مسيحى · غير أن الغموض الذى يحيط بشخص القديس ذاته ، انما يؤدى الى جعل أصلها أكثر غموضـا ·

٢ — والآن سوف تختبر باختصار الملامح الوصفية التى قـد تشير الى أصل اسـلامى ·

عبر الرهبان الثلاثة فى أثناء رحلتهم الطويلة الخطرة سوريا وفارس والحبشة · ومروا وهم يعبرون بلادا يسكنها رجال لهم رءوس كرءوس الـكلاب ، بأرض يسكنها أقزام ، ووصلوا الى منطقة مفعمة بالتنانين والبساليق والأفاعى وغيرها من المخلوقات المؤذية السامة · ثم عبروا منطقة صحراوية تتناثر فيها الصخور والحجارة ، وبعد أن عبروا بلاد الفيلة ، وصـلوا أخـيرا الى بلاد كثيفة الظلال ، يرتفع من خلفهـا المعلم التذكارى الذى وضعه الإسكندر الأكبر باعتباره حـدا لنهاية العالم ·

تقسم القصص الإسلامية المبكرة التى أشرنا اليها فىفصل سابقباعتبارهانماذج مبكرة لجحيم دانتى ، وعلى الأخص حديث يرجع تاريخه الى زمن محمد ، الأرض الى سبعة أقسام مشابهة لتقسيم هذه القصة المسيحية ، بعضها متطابق تماما · وهكذا نرى أن الرجال الذين لهم رءوس كرءوس الـكلاب يظهـرون فى القسم الثـالث من تقسيمات هـذا الحديث · ويزدحم الخامس بالحيات والعقارب ، ويتـكون الرابع من أحجار كبريتية · ثم ان منطقة الظلام تتكرر فى جميع روايات قصة ذى القرنين ، وهو الإسكندر الأكبر فى جميع القصص العربية · وأما المعلم التذكارى فيبدوا كما لو كان حائطا بنـاه ذو القرنين ، كما جـاء فى القـرآن ، ليكون سدا ضـد يأجوج ومأجوج ، الذين تصورهم احدى روايات القصـة الإسـلامية أقزاما لا يزيد طول أحدهم عن ذراع ونصف ذراع فى حين صورتهم القصة المسيحية أقزاما جعلت الواحد منهم ذراعا واحدا(١) ·

بعد ذلك يدخل الرهبان الثلاثة مناطق الجحيم ويرون فيها ضروب العذاب المختلفة ، التى يتضح لنا أن لبعضها أهمية خاصة لتشابهها مع بعض ضروب العذاب الإسـلامية التى ذكرناها من قبل · مثال ذلك : أنهم رأوا ، كما جاء فى جميع روايات قصة المعراج ، أشقياء تعذبهم الحياة فى بحيرة من الكبريت المشتعل · ثم مروا بعملاق مقيد تحيط به

---

(١) قصص الأنبياء ٢٢٥ — ٢٣٢ ·

لهب النـار ، وهى صورة تظهر فى الأحـاديث التى تصف النـار • كمـا رأوا امرأة تعذبها حية هائلة بنفس الطريقة الفظيمة التى جاء ذكرها فى القصص الإسلامية ، وهـكذا •

٣ ـ تبدو الصفة الإسلامية للقصة أكثر وضوحا على اية حال من الحديث التالى :ـ

ترك الرحالة النار من خلفهم وتقدموا ودخلوا غابة أشـجارها باسـقة ، يجلس على أغصانها عـدد غفير من الأرواح تجسدت فى صـورة طيور ، تضـيح متضرعة الى الله بأصوات بشرية أن يغفر لهم خطاياهم ، وأن يفسر لهم العجائب التى شاهدوها •

لم يجد جراف عندمـا حـاول أن يعلل تكـرار هـذه الـرواية فى قصص القرون الوسطى ، أى عمل شبيه سابق فيما عـدا الرمزية المسيحية المبكرة التى مثلت فيها الروح فى صورة طائر • غير أن الحمامة وحدها هى التى مثلت الروح القـدس فى الرمزية المسيحية ، ولم تمثل الحمامة أرواح المؤمنين الا بين الفينة والفينة على نصب سراديب المسيحيين ابان قرون المسيحية الأولى • وفضلا عن ذلك فان القصة لاتتحدث عن رموز ، وانمـا عن تناسخ الأرواح وتقمصها طيورا تعيش فى غابة قريبة من الجنة كما ذكرت القصة بالتحديد ـ وهذه ملامح سـوف نرى أن لها تفسـيرا مرضـيا فى الأحاديث الإسلامية •

شاع اعتقاد فى الإسلام منذ عصوره الأولى بأن أرواح الشهداء فى سبيل الله ، أو بعض أرواح المؤمنين ، سوف تعيش فى أجواف طيور كالزرازير تسرح فى رياض الجنة انتظارا ليوم البعث • وجاء فى الاحاديث أن بعض هذه الطيور بيضا وأن بعضها خضرا ، وانها تطير حيث شاءت فى رياض الجنة تقف على أغصان شـجرها وتأكـل من ثمـارها ، وتشرب من ميـاه الأنهـار التى تجرى فيهـا وتتحدث الى الله • وجاء أيضا فى بعض الأحاديث أن أرواح أطفـال المسلمين سوف تعيش فى أجواف طيور صغيرة تسرح فى رياض الجنة مع الطيور الكبيرة • وتعرف هـذه الطيور جميعا بعضها بعضا ويتحدث بعضا الى بعض •

وجاء فى بعض الأحاديث ذكر للأحاديث التى تجرى بين الله وهـذه الطيور ، والتى تشبه نصوصها من بعيد الكلمات المنسوبة الى مثل هذه الطيور التى تعيش فى أجوافها أرواح المؤمنين فى القصة المسيحية(١) :

---

(١) شرح الصدور ٩٦ ، ٩٨ ، ويلاحظ أن الطيور التى تطلب من الله أن يأتها ما وعـدها انما تعيش فى المرج الذى يوجـد خارج سور الجنة • وهـذا يفسر طلبها من الله أن يدخلها الجنة ويذيقها النعيم الذى وعدها به • وهذا مطلب طلبته الطيور المشابهة فى القصة المسيحية فى صلاتها •

يقول لهم الرب تعالى : « هل تعلمون كرامة أفضل من كرامة أكرمتكموها ؟ فيقولون لا ، غير أنا وددنا أنك أعدت أرواحنا الى أجسادنا حتى نقاتل مرة أخرى فنقتل في سبيلك » . وفى أحاديث أخرى تحدث الطيور التى تعيش فى أجوافها ارواح رجال غير الشهداء فى سبيل الله ، الرب فتقول : « ربنا الحق بنا اخواننا وآتنا ما وعدتنا » .

والحق أن جذور هذا المعتقد تغلغلت بين المسلمين ، حتى لقد نشأت عنه قصص أخرى ، وثارت بسببه مجادلات عنيفة(١) . تروى بعض القصص انه يفترض أن طائرا فى جوفه روح أحد الزهاد أو أحد الصوفيين سوف يظهر على الأرض . ولقد ناقش اللاهوتيون فى أثناء مجادلاتهم العنيفة ــ بكل جدية ــ طبيعة هذا المخلوق الذى يأوى فى جسد طائر عقل انسان .

٤ ــ رؤية القديس بولس(٢) ــ كانت الفقرة التى وردت فى الرسالة الثانية الى أهل كورنثوس (١٢/٢ ــ ٤) والتى أشار فيها القديس بولس الى صعوده الى السماء الثالثة ، النواة التى نسجت من حولها خيوط هذه القصة . ظهرت أولا فى صورة سفر رؤيا ، وكتبت باللغة اليونانية فى حوالى القرن الرابع الميلادى ، غير انه لايلوح بأنها انتشرت فى أنحاء العالم المسيحى الغربى قبل القرن التاسع . أما تاريخها باعتبارها مجرد رؤية فيرجع فى الواقع الى القرن الثالث عشر . ولقد دخلت عليها فى أثناء انتقالها من الشرق الى الغرب تغيرات مهمة ، لم تفسر بعد(٣) . ومن ثمة فان مقارنة نصوصها الأخيرة بقصص اسلامية مشابهة ، قد يكون أمرا ذا شأن فى الكشف عن الممر الخفى الذى انتقلت عبره الى غربى أوربا .

٥ ــ جاء فى قصة المعراج أن جبريل صحب محمدا فى صعوده . وجاء فى هذه الرؤية أن ميكائيل صحب القديس بولس فى صعوده .

وكان عذاب البخلاء أول ضرب من ضروب العذاب شاهده القديس بولس فى النار . رآهم معلقين من أقدامهم أو من ألسنتهم ، أو من آذانهم فى فروع الأشجار ، وهذا كله على التأكيد تكييف لمناظر أخذت من قصة الإسراء المحمدية . ثم انه ينبغى

(١) شرح الصدور ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢١ وغيرها .
(٢) Ozanam, 399, D'ancona, 45, Graf. I, 245.
(٣) Cf. Batiouchkof, le débat de L'âme et du Corps, 41, 42, 514, 517. 518 558, 559,

لنا أن نقر هنا بأنه يوجد فى القصة الإسلامية علاقة بين الخطيئة التى أرتكبها الشقى، والعضو الذى يعذب منه ، وهذا أمر تخلو منه القصة المسيحية ٠

جاء فى رؤية القديس بولس أن جسرا رقيقا كالشعرة يمتد فوق نهر عكره مياهه ، يربط بين هذا العالم والجنة ٠ وهو جسر تمر عليه الأرواح النقية الصالحة بسهولة ، غير أن الأرواح الشقية لا تستطيع اجتيازه فتقع فى النهر ٠ وهنا نلمس ولا شك انتحالا واضحا جدا للأفكار الإسلامية ؛ ذلك أن هذا الوصف ليس بكل جلاء ووضوح غير نقل لما جاء عن الصراط فى المعتقدات الإسلامية ، وهو الجسر الذى تعبره الأرواح فى يوم الحساب ، والواقع أن أحد رواة الأحاديث المبكرين وهو أبو سعيد الخدرى قد وصف الصراط فقال : « بلغنى أن الجسر أرق من الشعر واحد من السيف (١) » ٠ ولا شك أننا لسنا فى حاجة للاشارة الى أن وضع هذا الجسر الذى يمتد من الأرض الى الجنة فوق النار ، متشابه تماما فى كل من القصتين الإسلامية والمسيحية ٠

ثم ان الرحى النارية التى لا تكف عن الدوارن ، وهى تعذب الأشقياء فى القصة المسيحية ، دليل آخر على احتذاء أحد أمثلة العذاب فى نار الإسلام ٠ ويوجد عدة أحاديث اسلامية فى هذا المعنى يرجع تاريخ أحدها الى القرن الثامن ، فيه : « ان فى جهنم لرحى تدور بعلماء السوء(٢) » ٠

٦ ــ ومع أننا قد نتغاضى عن بعض الملامح باعتبارها قليلة الأهمية(٣)، فان نهاية هذه الرؤية ــ المشكوك فى صحتها ــ تفصح عن منظرين ملفتين للنظر ٠ يعبر أول هذين المنظرين عن الملائكة الذين رآهم القديس بولس وهم يقودون الأتقياء الى الجنة ، فى حين يجر الزبانية الأشرار الى النار ٠ والحق أن كل كتاب من الكتب الدينية الإسلامية قد خصص فصلا لهذا الموضوع٠وقد علق مؤلف مختصر تذكرة القرطبى تعليقا طويلا على أحد الأحاديث ، الذى يبين الفرق بين ما تلقاه روح التقى وروح الشقى ، وما يصير اليه كل منهما ، هذا بين أيدى الملائكة ، وذاك بين أيدى الزبانية(٤) وبما أن

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٥٨ السطر ٣ وما بعده ٠

(٢) مختصر تذكرة القرطبى ٧٤ السطر ١ وما بعده ، والعلوم الفاخرة ٢/٣٧ السطر ١٦ ٠

(٣) مثال ذلك تدرج العذاب فى النار بحسب درجة الاثم ، ذلك ان الأشقياء كانوا مغمورين فى النار الى ركبهم أو الى بطونهم أو الى سررهم أو الى عيونهم ٠٠٠ الخ ٠ وقارن هذا المنظر بما جاء فى القصص الاسلامية أن منهم من تأخذه النار الى عقبه ومنهم من تأخذه الى ركبتيه ومنهم من تأخذه الى حجزته ومنهم من تأخذه الى عنقه . كنز العمال ٧ / رقم ٢٨١٠ ومختصر تذكرة القرطبى ٨٢ .

(٤) مختصر تذكرة القرطبى ١٨ ــ ١٩ : ان الملك اذا قبض النفس السعيدة تناولها ملكان حسنا =

هـذا المنظر الذى ورد فى رؤيا القديس بولس قد تكرر فى كثير من القصص المسيحية التى تذكر نزاع الملائكة والزبانية حول الأرواح ، فاننا سوف نؤجل النظر فى هـذا الموضوع بعض الشىء الى حين نعالج القصص التى تناولت هذا الموضوع بالتفصيل ٠

أما آخر منظر رآه القديس بولس فقـد لخصه دانـكونا كما يأتى ـ :

يلتمس الأشقياء ـ بذلة ومسكنة ـ من القديس بولس أن يتشفع لهم ٠ هـذا فـى حين تنشد ملايين الأرواح المزمور الواحد والخمسين ، فتتجاوب السماوات الأربع بأصداء انشادهم حتى تصل الى عرش المسيح ، الذى ينزل من ثمة ويوبخ الأشرار توبيخا شديدا ٠ غير أنـه اكراما لشفاعة حواريه يمنحهم راحة أسبوعية ، من الساعة التاسعة من صباح السبت الى أولى ساعات الأحـد ٠

ويلخص جراف سفر الرؤيا اليونانى فى منظر مشابه ، فيقول :

ينزل رئيس الملائكة جبريل تصحبه الملائكة ، فيتضرع له الهالـكون طالبين مساعدته ٠ ثم ينضم القديس بولس الذى أبكته ضروب العذاب التى لا توصف الى الملائكة فى تشفعهم لهؤلاء الأشقياء المعذبين ٠ وعندئذ يظهر المسيح وتؤثر فيه صلواتهم فيشفق عليهم ، ويمنح الأشقياء راحة سنوية فى « أحـد عيد الفصح » وهو عيد قيامته(١) ٠

ولقد أوضح جراف أن الفـرق الرئيسى بين سـفر الرؤيا اليونـانى ، والرؤية البولسية الغربية ، ينحصر فى أنه فى حين الراحة من العذاب فى الرواية الأولى سنوية هى فى الرواية الثانية أسبوعية(٢) ٠ فمتى اذن وعن طريق من حـدث الاختلاف ؟ هنا نلاحظ أن القصص الإسلامية السابقة للرؤيا اللاتينية الغربية انما تفصح عن يوم للراحة الأسبوعية يمتد من ليلة الجمعة الى صباح السبت ٠ وسوف نعرض لهـذه النقطة بتوسع عندما نناقش مجموعة القصص المسيحية المتعلقة بهـذا الموضوع ٠ أما الاستنتاج الذى نقدمه الآن فينحصر فى أن الرؤيا البولسية قـد وصلت غربى أوروبا من خلال تـكييفات اسلامية لسفر الرؤيا اليونانى ٠ وفيما يلى عرض مختصر لبعض القصص الإسلامية يعيننا على عقـد المقارنة ـ :

= الوجه دليهما ثياب حسنة ولهما رائحة طيبة ولفوها فى حريرة من حرير الجنة ، ولم يفقـد من علمه المكتسب فى دار الدنيا شىء فيعرجـون به فى الهواء فلا يزال من سـماء الى سماء حتى يصل الى سـدرة المنتهى ٠٠ أما الـكافر اذا حضره الموت اخـذت نفسه عنفـا وقال لهـا الملك اخرجى أيتها النفس الخبيثة من الجسد الخبيث ، فاذا له صراخ كصراخ الحمير ، فاذا قبضها عزرائيل عليه السلام ناولها زبانية قباح الوجوه سود الثياب منتنى الرائحة بأيديهم مسوح من شعر فيتلقونها بعنف وتقوده الزبانية الى جهنم ٠

(١) D,ancona, 47, Graf, I, 245

(٢) Graf, I 247.

«يسمع محمد وهو فى الجنة صراخ العاقين لآبائهم وأمهاتهم من الضرب والعقوبة، ويسمع بكاءهم فيوجعه قلبه الرقيق عليهم فيسجد تحت العرش ويتشفع فيهم . غير أن الله يرفض شفاعته حتى يرضى الآباء والأمهات عن أبنائهم . ولكن يكرر محمد طلبه من الله ثلاثا فيلقى نفس الاعراض . فلما يطلب من الآباء والأمهات وهم فى الجنة أن يتشفعوا معه يرفضون ، اذ يتذكرون عقوق أبنائهم ، وأخيرا يحصل على اذن بأخذهم الى النار ليروا بأعينهم العذاب الذى يقاسيه أبناؤهم . فلما يرون أبناءهم فى هذا العذاب تتحرك رحمتهم ويقولون : رضينا عن أولادنا ، فيخرجون ويلقون فى نهر الحياة ، فينبت عليهم اللحم والجلد والشعر ويدخلون الجنة(١) » .

وجاء فى « مختصر تذكرة القرطبى » قصة مشابهة تروى كيف يخرج المعذبون من النار بشفاعة محمد فيهم(٢) — :

يرفع الأشقياء أصواتهم بالنحيب والبكاء ، فيقولون : وامحمداه ! وامحمداه ! اشفع لمن أمر به الى النار من أمتك !؟ ثم أنهم يطلبون من الله فى نفس الوقت أن يعفو عن خطاياهم ، وهم ينادونه بطريقة أشبه ما تكون بانشاد الاشقياء فى رؤية القديس بولس للمزمور الواحد والخمسين : ياربنا ارحمنا . فيرحمهم الله ويرسل جبريل ليطلقهم من النار .

— ٣ —

قصص رؤى النار (تكملة)

١ — قصة تندال(٣) — لا شك فى أن هذه القصة ترجع الى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ؛ ذلك أن بطل القصة كان يعيش فى سنة ١١٤٩ .. أما مؤلف النسخة اللاتينية لهذه القصة فراهب أيرلندى . وهو يقرر أنه ألفها من كتب غير أوروبية(٤) . فهل هذه الكتب عربية ؟ لا مرية فى أن الملامح الإسلامية الكثيرة التى انطبعت بها هذه القصة انما توحى بهذا .

---

(١) قرة العيون ٩٢ — ٩٩ .

(٢) مختصر تذكرة القرطبى ٨٢ . ونقع على قصة مشابهة فى Gayangos coll. ms. 234, fol 101. ينزل جبريل الى النار وهناك تؤثر فيه تضرعات المعذبين الذين يطلبون منه شفاعة محمد فيهم ، فيعود الى الجنة ويطلب من محمد شفاعته ، فيتشفع فيهم ويعفو الله عن الأشقياء .

(٣) D'ancona 53, 59.

(٤) Cf. Blochet, Sources, III.

تتحدث القصة عن رحلة قام بها تندال فى حالة موته الظاهرى ، الى ممالك الآخرة وتصف مناظر كثيرة كتلك التى بينا فيما سبق أصلها الإسلامى ، مثل العذاب بالزمهرير ، وبالنار ، وبالخوازيق ، ونهر الكبريت ، والجسر الذى تمر عليه الأرواح الى الجنة ، وغير ذلك ٠

٢ ـ جاء فى القصة مناظر أخرى أكثر أهمية ٠ رأى بطل الرواية فى الناحية الأخرى من جسر النار الزلق وحشا اسمه أكيرونتى ، يلتهم فى فمه الواسع اثنين من الأشقياء دفعة واحدة ٠ وهنا نجد أن تمثيل النار بمسخ جهنمى هائل ، لا على أنها مجرد مكان للتعذيب ، أمر ذاع فى الإسلام قبل ذلك بقرون ٠ فقد وصفت أحاديث كثيرة من أحاديث يوم الحساب مسخ اسمه جهنم ، يلقط بألسنته أهل النار ٠

وعلاوة على ذلك فقد تحدث تندال عن مكان تكفر فيه الأرواح التى لم تحسن ولم تسىء عن ذنوبهم ، وفيه اعفوا من عذاب النار ، ولكنهم فى نفس الوقت لا يستحقون مشاركة القديسين فى نعيمهم ٠ وأما النموذج الإسلامى لهذا المكان فقد بينا فيما سبق أنه الأعراف ٠

ولقد رأى تندال أيضا فى مكان آخر من النار شياطين تضرب الآثمين ضربا مبرحا رهيبا بالمطارق وهم مشدودون على سنادين ٠ وهذا المنظر ليس فى واقع الأمر غير تكييف لمنظر من مناظر عذاب القبر فى الإسلام(١) ٠

يدخل على الميت فتانا القبر ، وهما ملكان أسودان يخترقان الأرض بأنيابهما ، لهما شعور مسدولة يجرانها على الأرض ، صوتهما كالرعد القاصف ٠ بيد كل منهما مقمع من حديد لو اجتمع الثقلان ما رفعاه ، فيبتدئانه بعنف وينتهرانه ويسألانه عن ربه وعن دينه وعن نبيه ٠ ومن الناس من يتلجلج فى مسالته ويعسر عليه النطق لعلمه بذنبه ، فيضربانه بتلك المقامع حتى يتجلجل فى الأرض ثم تنفضه الأرض ثم يضربانه سبع مرات ٠

وهذه صورة حية جدا ، لا شك فى أنها طبعت فى أذهان الناس أثرا عميقا ٠ والحق أنها تكررت بعد أن تكيفت فى صورة مشابهة فى قصص كثيرة من قصص القرون الوسطى ٠ نرى مثلا أن قصة هيو « مارجراف البراندبرجى » تحدثنا كيف أنه رأى فى أثناء رحلة صيد فى احدى الغابات ، رجالا سود الوجوه مشوهى الصورة ،

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٣١ ـ ٣٣ ٠ نقع فى هذه الصفحات على أحاديث فى هذا الموضوع أجازها البخارى ، وهى على أقل تقدير أقدم من القرن التاسع الميلادى ٠

يعذبون أرواحا ، فيضربونهم بالمطارق وهم ممــددون على سنادين(١) • وهــذا المنظر يتشابه ــ بصورة أكثر حرفية ــ مع النموج الإسلامى عن المنظر الذى وصفه تندال فى قصته •

٣ ــ يتبقى بعد ذلك ثلاثة أحداث هى بلا نزاع نســخة طبق الأصل من الأوصاف الإسلامية • وهــذه هى المناظر الثلاثة التى دعت دانــكونا الى أن يقرر تعليقه الآتى(٢) :
« ربما لم يفصح أحد قط من قبل عن خصب خيالى فى ابتــكار أوصاف لضروب العــذاب، فى جهنم كمــا فعـــل هــذا الراهب المجهــول الذى ألف هــذه القصـــة » •
وهذه ملاحظــة مــا كان النـــاقد الــكبير ليبديهــا على التأكيد ، لو أنه علم بوجـــود الأصول الإسلامية • أما أول هــذه المناظر الثلاثة فتصف لوسيفر ــ :

يحيط الشياطين بلوسيفر وهو مقيد الى مشواة حمراء ملتهبة ، وهو يئن من الألم ، وهو يتناول بأيديه المئة أرواحا لاتعــد ولا تحصى ، ويسحقها بين أصابعه كمــا يعصر الرجل عنقودا من العنب ، كأنه ينتقم بذلك لنفسه من الآلام التى يعانيها • بعد ذلك تتقلب الأجساد المزقة فى بخار أنفاسه النارية وهى تندفع وتدنو مع زفيره وشهيقه •

أما وضع لوسيفر مغلولا بين أتباعه من الشياطين ، فصورة اسلامية أشرنا اليها من قبل •

وأما فكرة انجذاب واندفاع الأجسام فى شهيق وزفير لوسيفر ، فيلوح أنهــا والى أسفل • ثم ان أكثر الملامح لفتا للنظر هى سحق لوسيفر لاجساد الآثمين بأيديه
والى أسفل • ثم أن أكثر الملامح لفتا للنظر هى سحق لوسيفر لاجســـاد الآثمين بأيديه
الكثيرة ــ وهو منظر استقاه المؤلف من حديث يرجع تاريخه الى القرن الثامن ــ :

« ان الله خلق مــلكا ، وخلق له أصابع بعــدد أهل النار ، فما يعذب أحــد منهم الا باصبع من أصابع ذلك الملك ، فو الله لو وضع هــذا الملك اصبعا من اصابعه على السماء لذابت من حره(٣) » •

٤ ــ اما الحديث الثانى فقــد قــدم له دانــكونا بقوله ــ :

« ان الغرض الأوحد الذى رمى اليه تندال من قصته ، هو اثارة الفزع فى

---

(١) D'ancona, 78, and Graf, I, 107.
(٢) D'ancona, 56.
(٣) مختصر تذكرة القرطبى ٧٣ السطر ١٦ وما بعــده •

القلوب ، اذ يؤخـذ النـاس أولا ليشاهدوا النعيم الذى يعيش فيه الأتقياء ، حتى تتضاعف آلامهم » •

والحق أن هـذا المنظـر المثير للشـفقة قـد تـكرر فى المؤلفـــات الدينيـــة الإسلامية كثيرا ؛ ذلك أن العذاب المعنوى للأشقياء ـ بناء على العقيدة الإسلامية ، التى تتطابق فى هــذه النقطة مع العقيدة المسيحية ـ انما يعتبر أقسى وأكبر من العذاب المادى • ولقد شرح الغزالى هذا الموضوع فى كتابه « احياء علوم الدين » • فقد أكـد أن آلام الخطاة الذين حرموا من الجنـة ما كانت لتكون بهـذه الشـدة لو لم يقرب الله الأشقياء من الجنة ويجعلهم يستنشقون رائحتها ثم يردهم عنها بحسرة •

ثم انه استشهد لاثبات كلامه بالحديث الآتى ـ :

« يأمر الله يوم القيامة بأناس الى الجنة حتى اذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا الى قصورها والى ما أعد الله لأهلها منهـــا ، نودوا أن اصرفوهـــم عنهـــا فلا نصيب لهم منها ، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها • فيقولون : يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت فيها لأوليائك لـكان اهون علينا فيقول لهـم : اليوم أذيقكم العـــذاب الأليم مع مـــا حـــرمتكم من الثواب(١) » •

واقع الأمر أن هـــذا المنظر الذى امتزجت فيه القســـوة بالســـخرية ، لايعبر عن أى أثر لرسالة المسيح التى انطبعت بالشفقة والرحمة ، وانما تفوح منه رائحة الانتقام التى يتميز بهـــا العهـــد القـــديم ، والتى عبرت عنهـــا بعض فقـــرات القـــرآن • ولقـــد علق مؤلف مختصر تذكرة القرطبى على هذه الفقرات ، وأضاف اليهـــا أحاديث منسوبة الى كعب الأحبار ـ أحـد اليهود الذين أسلموا فى عصر النبى ـ تصف بعض الألاعيب التى يضحك بهـــا من أهل النار • مثال ذلك فتح أبواب جهنم كما لو أن ذلك اجراء قصد به اعطاء الفرصة لأهل النار أن يهربوا ، أو يلوح بالسماح لهم بدخول الجنة، فاذا حاولوا أغلق الباب فى وجوههم •

تثبت اذن هــذه الخدع والألاعيب التى تستخدم ضد الهالكين أن العنصر الهزلى الفظ الغريب ، الذى نقع عليه فى القصص المسيحية السابقة للـكوميديا الإلهية ، لم يكن ناقصا فى القصص الإسلامية •

---

(١) احياء علوم الدين ٣٨٣/٤ ، اتحاف السادة المتقين ٥٢٠/١٠ ، مختصر تذكرة القرطبى ٨٣ •

٥ ـ أما الحدث الثالث فى قصة تندال ، والذى يمكن وصفه بأنه راجع الى أصل اسلامى فلافت للنظر جدا ـ :

يعترف بطل القصة بأنه سرق بقرة من أحــد القساوسة ، ومن ثمة أخبره الملاك المرافق له كعقوبة على هــذه السرقة ، أن يعبر الجسر الضيق الذى يؤدى الى الجنة ، وهو يتقى فى نفس الوقت هجمات نفس البقرة التى سرقها ٠

ثم ان دانكونا أشار الى منظر مشابه فى رؤية المرابى جوتشـــالك ، حيث حكم على اللص بأن تدوسه وتنطحه البقرة التى سرقها من احدى الأرامل (١) ٠

وهنا يظهر لنا جليا أن هذين المنظرين صورة طبق الأصل لمـا جاء فى أحــد الأحاديث(٢) :

« قال محمد : والذى نفسى بيده ما من أحــد ملك غنما أو بقرا أو ابلا فلم يزكها الا جاءت يوم القيامة أتوى ما كانت فى دار الدنيا ، لها قرون من نار فتنطحه بقرونها وتدوسه بأظفارها حتى تشق بطنه وتقصف ظهره وهو يستغيث فلا يغاث ، ثم تصير سباعا وذئابا تعاقبه فى النار » ٠

٦ ـ قصة المطهر للقديس باتريك (٣) ظهرت هذه القصة فى أيرلندا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وشاعت بسرعة فى طول العالم المسيحى وعرضه فى أوربا ٠ ولقــد خلد كالديرون هــذه القصة فى مسرحيته التى تحمل نفس العنوان ٠ والحــق أنــه لاتوجـــد أمــة من أمم أوربا الغربية لم تستمد منهـــا وتعتمد عليهـــا فى غرض أو آخر من الأغراض الأدبية ٠ أما موضوعها فرحلة الى ممالك العالم الآخر قام بها فارس أيرلندى ، كان دن الشجاعة بحيث دخل الكهف الـــذى تخبرنا التقـــاليد أن القديس بطرس يتصل من خلاله بالعالم الآخر ٠ وقد لاحظ دانكونا أن هـــذه القصـــة لا تلفت النظر ـ على أية حال ـ من حيث الأصالة والإبداع ٠ قال : « ان أصحاب الرؤى قــد بدءوا عند ذلك ينقلون بعضهم عن بعض ، وهــذا أمر طبيعى فى الوقت الذى يحسون فيه أن قوة خيالهم قــد استنفدت » ، ولا شك أن هــذه الملاحظة صادقة كل الصدق ، وتنطبق تمـــاما على الـــرأى الذى نذهب اليـــه ٠ ذلك أن معظم ملامح

(١) D'ancona, 58.

(٢) قرة العيون ٦٦ ، العلوم الفاخرة ١٣/٢ ، كنز العمال ٢٥٠/٣ ـ ٢٥٢ رقم ٣٩٨٤ ـ ٤٠٢٠ ٠

(٣) D'ancona, 59 - 63 , Labitte, 126,

هـذه القصة الحية ، المفعمة بمختلف الصور ـ ان لم تـكن كلها ـ انما توجد فى المعتقدات الإسلامية المتعلقة بالآخرة •

٧ ـ نرى اذن أن نمـاذج اسلامية كانت سابقة فعلا للمناظر الآتيـة ، والتى تـكروت فى كثير من القصص المسيحية : التعذيب بالحيات ، واغراق الهالـكين فى نهر من المعدن الذائب يقف الزبانية على شطئانه مستعدين لطعنهم بالحراب أو القامهم الحجارة ، والمرور على جسر ضيق زلق ، والمسخ الذى يتقلب الهـالكون فى أنفاسـه النارية ، ورحى النار ، وخندق الكبريت ، والهالـكون المعلقون من جفونهم أو أنوفهم أو من عراقيبهم فوق السنة اللهب الـكبريتية •

وكذلك يلوح أن ملامح أخرى مهمة انمـا ترجع أيضا الى أصل اسلامى • مثال ذلك أن الأشقياء الذين نراهم فى هـذه القصص مصلوبين على الأرض ، انمـا توجـد نماذج لهم فى القصص الإسلامية ، كما بينا من قبل أننا نقع على نموذج لكايـافاس الذى جاءذكره فى قصيدة دانتى فى النار الإسلامية(١) •

ثم ان هبات الريح الشديد البرودة التى يتعرض لهـا بعض الهالـكين ، ليست غير الزمهرير الذى ذكر فى القصص الإسلامية •

وأخيرا فان توابيت النار التى يتعذب فيها بعض الهالـكين ، ودروع النار التى يلبسها آخرون ، هى من الملامح التى بينا أيضا فيما سبق أصلها الإسلامى •

— ٤ —

قصص رؤى النـار (خاتمـة)

١ ـ رؤية ألبريك(٢) ـ لا نذكر هـذه القصة هنا لأن المناظر التى وردت بها أصلية أو ابتكارية بأية صورة ، ولكن لأن الدانتين اعتبروهـا منـذ نشرهـا الأب كانشيليرى باللاتينية فى سنة ١٨٢٤ ، احـدى أهم القصص السابقة لقصيدة دانتى • ويرجع تاريخ تأليفها ـ كقصة القديس باتريك ـ الى القرن الثالث عشر • وقـد كتبت فى ايطاليا فى دير مونت كاسينو • وفيها يحكى بطلها الراهب ألبريك مشاهداته فى ممالك الآخرة ، والتى قال انه رآها اذ كان غائبـا عن الوعى فى أثنـاء مرض أصابه فى طفولته •

---

(١) وقارن قول اوزانام (Ozanam, 394) : هبة من هبات ريح الشتاء •

(٢) D'ancona, 63 - 69; Labitte, 125.

وأما الأحداث الرئسية لهـذه الرؤية فشبيهة تماما بالأحداث التى وضحنا فيما سبق المرة تلو المرة ــ انها مستقاة من الأصـول الإسـلامية • مثـال ذلك أنـه رأى الفاسقين مغمورين فى الثلج ، والمرتدين تبلعهم الحيات ، والقتلة فى نهر من الدم ، والأمهات اللاتى يمنعن ابناءهن البانهن معلقات من أثدائهن ، والزانيات معلقات فوق السنة من اللهب • كذلك نقع على منظر المسخ الذى تتقلب الأجساد فى زفيره وشهيقه النارى ، ولوسيفر وهو مقيد بسلاسل فى حفرة فى أعماق جهنم •

وأخيرا المنظر الشائع ، وهو الجسر الضيق الذى تعبر عليه الأرواح الى الجنة •

٢ ــ أغنية الشمس فى الإدا ــ أدرج أوزانام أغنية الشمس الشهيرة التى جاءت فى ديوان الإدا الشعرى المنسوب الى سيموند سيجفسون بين الأعمال السابقة للـكوميديا الإلهية • ومهما يكن قـدم هـذه الحكايات ، فانه يلوح أن أغنية الشمس ذاتها ليست أقـدم كثيرا من القرن الحادى عشر • وقـد لاحظ أوزانام(١) ذاته أن الشاعر انما يصف ممالك الآخرة بطريقة تختلف عن طريقة المـأثورات والتقاليد الوثنية السائدة فى بلاده • وفضلا عن ذلك فان وصفه يشتمل على ثلاث ملامح اسـلامية مميزة • ذلك أولا : أن العالم السفلى عنده مقسم الى أقسام كمـا فى القصص الإسـلامية • وثانيا : مثل الأرواح فى النار بطيور اسود ريشهم من الدخان • والآن نرى أنه ــ كما بينا ــ فى أثناء مناقشتنا لقصة القديس مكاريوس أن القصص الإسلامية قد ذكرت أن أرواح الأتقياء سوف تتقمص طيورا بيضا أو خضرا ، فـكذلك سوف نبين فى فصل قادم أن تقمص أرواح الأشرار لطيور سود ، كانت فكرة شائعة أيضا فى الإسلام • وأخيرا يصـور مؤلف أغنية الشمس اللصوص على أنهم يتنقلون فى النار فى جماعات تثقل كواهلهم أحمال من الرصاص • وهـذا المنظر قـد استمد على التأكيد من حديث جاء فيه(٢) : « يجاء بصاحب المـال الذى لم يطع الله فيه ، يحمل ماله بين كـتفيه ، فينـكفىء به على الصراط » •

٣ ــ رؤية ترسيل ــ تشـتمل هـذه الرؤية التى ألفت فى القرن الثـالث عشر ، اضافة الى كـثير من الملامح الإسلامية الشائعة فى غيرها من القصص ، على منظر

---

(١) Ozanam, 403, Regarding the autiquity and religious character of the Edda, cf, chantepie, hist. des relig. pp. 675 et seq. particularly p. 685

(٢) كنز العمال ٨/٢٢٤ رقم ٣٥٥٢ •

محام يضطر الى ابتلاع أرباحه غير المشروعة(١) • كذلك تصور قصة وتين المؤلفة فى القرن التاسع الميلادى ، الطغاة فى هــذه الدنيا وهم يكفرون عن جرائم السلب والنهب التى ارتكبوها بنفس الطريقة(٢) • وهــذه العقوبة اللافتة للنظر انما ورد ذكرها فى قصة الإسراء ، حيث رأى محمد فى احدى دركات النـــار الـــذين يأكلون الـــربا ، والذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، وهم يلقمون حجارة من الجمر، رمزا للأموال غير المشروعة التى جمعوها ، أو وهم على الأرض بطونهم كأمثـــال البيوت كـلما نهض أحدهم خر • وأما مجموعة الأحاديث التى جاء فيها ذكر هاتين العقوبتين ، فيرجع عهدها الى القرن التاسع كما قرر الطبرى(٣) •

٤ ــ رؤية رئيس الدير يواكيم ــ تشتمل هــذه القصة التى ألفت فى القرن الثانى عشر على منظر شائع جدا فى الأحاديث الإسلامية ، هو منظر الجسر الضيق الزلق الذى يمتد فوق نهر من الكبريت الملتهب عبر جهنـم • يقـــول مؤلف القصـــة : ان الأرواح تمر على هذا الجسر بسرعة النسر (٤) • وهذا تشبيه ورد فى حديث نبوى يقـــول : « منهم من يمــر كالبرق ، أى فى طرفة عين ، ومنهم من يمر كمــر الريح ، ومنهم منيمر كمر الطير(٥) » •

يرتفع حائط عند نهاية الجسر ، عليه مرج الجنة • ويلوح جليا أن هــذه الصورة نسخة طبق الأصل من « الأعراف » الذى صوره القرآن باعتبـــاره سورا ومرجا بين الجنة والنار •

٥ ــ رؤية شاعر ريجيو اميليا ــ ألفت هــذه الرؤية فى القرن الثالث عشر شعرا وباللهجة العامية • ويقرر فوسلر : أنه من العسير على الناقد أن يدرك كيف استطاع شاعر متجول مجهول أن يتصور من غير أن يحتذى مثالا سابقا ، نظاما واضــحا منطقيا متناسقا لممالك العالم الآخر • وهــذا التناسق الذى يتحدث عنه الناقــد هو فى الواقع الأمر الذى جعله يضفى أهمية جوهرية على هــذه الرؤية باعتبارها نموذجا لتصورات دانتى(٦) •

---

(١) D,ancona, 68 footnote.

(٢) D'ancona, 58, footnote, Labitte, 112.

(٣) تفسير الطبرى ١١/١٥ •

Cf. Ms. 64 Gayangos Coll, fol 113

(٤) Ozonam, 445 - 6

(٥) مختصر تذكرة القرطبى ٥٨ السطر ٧ وما بعــده •

(٦) Vossl , II, 201

تصور هذا الشاعر المتجول النار على أنها مقسمة ثمانية أقسام ، لكل منها اسم وملامح خاصة به ٠

سمى القسم الأول : أجو ، وكله نار ملتهبة ، والثانى : تارتارو ، وهو منطقة خصام وشقاق ، والثالث : أفيرنو ، للقسوة ، والرابع : أسيرو ، للذكريات السيئة ، والخامس : جينا ، وهو منطقة كبريتية ، والسادس : جراباسو ، وهو مكان لعقد المحاكمات ، والسابع : باراترو ويتميز عن الأقسام الأخرى بعمقه ، والثامن : أبيسو ، وهو مليىء بالأفران النارية والقطران المغلى ٠ وتقع هذه الأقسام فى دائرة محيطها ألف ميل ، لها عشرة أبواب بين كل بابين مائة ميل ٠ ولكل من هذه الأبواب خاصياته المميزة ؛ وهو معد لاستقبال طائفة معينة من الهالكين ٠ أول هذه الأبواب اسمه باب : الدموع ، والأخرى : أبواب الآلام ، والرعب ، والسلاسل ، والكبريت ، والحيات ، والعطش ، وهكذا ٠

٦ ـ يبين التشابه الذى أفصحنا عنه فى فصل سابق بين تناسق تصميم دانتى للجحيم وبين النموذج الإسلامى الذى احتذاه ، كيف أننا لا نقع الا على قليل جدا من الإبداع والابتكار فى تصور هذا الشاعر الإيطالى الجوال الذى نحن بصدد مؤلفه ٠ تناول هذا الشاعر المعنيين باب وطبقة ، اللذين وردا فى تفسير المسلمين لمعنى كلمة باب ، وقبل بمنتهى البساطة هذين المعنيين ، وكيف أفكاره وتصميمه للجحيم على مقتضى هذا التفسير المزدوج بأن صور الجحيم على أن لها عشرة أبواب الى جانب ثمانية أطباق ٠ وهذا فى واقع الأمر نفس التصور الذى ساد بين الصوفيين أخيرا ، ذلك أن ابن عربى قد تصور النار على أن لها سبعة أبواب وسبعة أطباق ٠

وأما أبعاد النار فقد وصفها هذا الشاعر الجوال بدقة مشابهة للنموذج الإسلامى ، وان كانت الأحاديث الإسلامية قد بالغت فى تحديد أبعادها ، اذ ذكرت أن بين كل بابين من أبواب النار مسيرة سبعين سنة(١) ٠ وذكرت بعض الأحاديث أن عند أبواب النار جبالا من نار ، ووديانا من نار(٢) ٠ ثم اننا قد بينا مرارا وتكرارا : أن كل طبق من أطباق النار له اسم خاص وتميزه ملامح معينة ، وهو معد لطبقة بذاتها من الأشقياء ٠

وهنا لنا أن نشك كثيرا فى أن شاعر ريجيو اميليا لم يستفد من حديث ابن جريج السابق ذكره ؛ ذلك أنه يلوح بأن الشاعر بعد أن استنفذ ما فى جعبته من أسماء

---

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٧٠ ٠

(٢) مختصر تذكرة القرطبى ٧٠ ٠

كلاسيكية وكتابية (أى من الكتـــاب المقدس) مثل تارتارو Tartaro ، ولفيرنو Averno ، وباراترو Baratro ، وأبيسو Abisso ، قـد لجأ الى نقل الأسماء العربية نقلا سقيما • ومن ثمة يلوح أن أجو Ago أصلها الهاوية Haguia ، وأن اسيرو Asiro . أصلها السعير Asair ، وأن جينا Gena أصلها جهنم Gehenam

— ٥ —

قصص وزن الحسنات والسيئات

١ — تـكرر فى مجموعة من القصص وضعها دانـكونا مع القصص السياسية ، منظر يلوح أن أصله المباشر اسـلامى • وأمـا ابطـال هـذه القصص فالإمبراطـور شارلمان ، والملك هنرى الثالث ، والملك رودولف البرجندى •

قـدم هؤلاء الملوك أمام المحكمة الإلهية ، ووضعت خطايا كل منهم فى كـفة الميزان ، ولكن يحدث فى اللحظـة التى تبدأ فيهـا الكفـة فى الميـل أن يلقى أحـد القديسين ، مثل القديس جيمس ، أو القـديس دنى ، أو القـديس لورنس فى الكفة الأخرى الأعمال الطيبة التى قام بها الملك ، مثل بناء هياكل العبادة ، والحلى التى أهداها للكنائس والأديرة ••• الخ • وعنـدئذ ترجح هـذه الأعمال كـفته وينقذ الروح من النار(١) •

٢ — يرجع أصل مسألة وزن الحسنات والسـيئات فى ميزان فى اليوم الآخـر الى مصر القـديمة ، وهـذا أمر معروف جيد المعرفة(٢) • ثم ان هـذه القصة ظهرت بعد ذلك فى معتقدات الأفستا الفارسية المتعلقة بالآخرة(٣) ودخلت معتقدات المسلمين عن طريق القرآن فى عدة آيات ؛ منها الآية « ونضع الموازين القسـط ليوم القيـامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل آتينا بهـا وكفى بنا حاسـبين ٢١ — ٤٧ » • ولا حاجة بنـا بطبيعـة الحـال أن نذكر أن رواة الحـديث سرعان ما تناولوا هـذا الموضوع وزينوه بمناظر واقعية ، بعضها متطابق تماما مع ما جاء فى القصص المسيحية (٤) :

---

(١) D'ancona,77 Labitte 110 . ويلاحظ أن قصة الميزان قـد وردت فى غير القصص السياسية مثل رؤية تورسيل (D'ancona, 69 footnote) cf. Graf II, 106, note 207

(٢) Chantepie, His.. ·elig. 107, cf Virey, Relig. anc. Egypte, 157 - 162.

(٣) Chantepie 473,.

(٤) مختصر تذكرة القرطبى ٥٥ ، العلوم الفاخرة ٢/٢٢ •

يجاء بالرجل يوم القيامة عند الميزان فينشر النبى عليه تسعة وتسعين سجلا ٠ وبعد أن يعترف بأن كـتبة الله الحافظين لم يظلموه تخرج له بطاقة ، ويقال له احضر وزنك ٠ وتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفـة ، وهى التى فيها ايمـانه بالله فى حال حياته فى الدنيا ، فتثقل البطاقة وينفذ المسلم ٠ وفى رواية أخرى أن محمـدا يخرج — اذا خفت حسنات المسلم يوم القيامة — بطاقة كالأنملة فيها الصلاة التى كان يصليها المؤمن عليه فى الدنيا ، فيلقيها فى كفة الميزان اليمنى التى فيها حسناته فترجح الحسنات ٠ ولقـد استعيض عن هـذه البطاقة فى أحوال كثيرة بأشياء أخـرى مثل كيس صغير به حفنة من تراب كان الشخص الذى توزن حسناته وسيئاته قـد ألقاها على قبر مؤمن مترحما عليه ٠ وجاء فى روايات كثيرة أن بعض النـاس كان يلتمس من يعطيه حسنة يدخل بها الجنة ، اذا ما احتاج الى حسنة ترجح كفته ٠ وهـذا منظر مألوف فى كثير من الروايات ٠

وبما أننا لا يمكن أن نتصور أن المسيحية الغربية فى ذلك العصر المظلم ، قـد اتصلت اتصالا مباشرا بالمـأثورات المصريـة — الفـارسية فى هذا الموضـوع ، اذن ينبغى لنا أن ننشد الأصل الذى استقت منه هـذه القصص المسيحية فى الأدب الدينى الإسـلامى ٠ ويؤكد هـذا الرأى الذى نسوقه حقيقة أن هـذه الأحاديث والقصص المسيحية تنتهى بحل متشابه ٠

٣ — وقد يلقى هذا التفسير ذاته ضوءا على نقطة من نقاط الفن فى القرون الوسطى لا تزال حتى الآن غامضة ٠ وجه « مال » فى كـتابه « الفن الدينى فى القرن الثالث عشر فى فرنسا » الأنظار الى حقيقة أن ميكائيل قـد صور فى شرفات كاتدرائيات فرنسا القوطية بميزان فى يده يزن به حسنات الناس وسيئاتهم(١) ٠ والحق أن « مـال » لم يقع على مبرر دينى مسيحى لهـذا المنظر ، فيما عـدا بعض جمل مبهمة فى مؤلفات القديس أوغسطين والقديس يوحنا كريسوستوم ، حول مسألة وزن الحسنات والسيئات « كما فى ميزان » ٠ ومن ثمة استنتج أن هـذه الفكرة لا بد تـكونت فى العقل الشعبى نتيجة لتطور تلقائى ناتج عن التلميحات التى جاءت فى أقـوال هـذين القديسين ، ومن ثمة وصلت الى أفكار الفنانين ٠

ثم ان مفعول التأثير الإسلامى من حيث انتاج قصص فى الأدب المسيحى شبيهة بتلك التى توجد فى الأدب الدينى الإسلامى ، انما يقـدم لنا تفسيرا اكثر تحديدا ٠

---

(١) Màle, P. 420

جاء فى الكتاب المقدس وفى الأدب الدينى المسيحى عموما : أن القديس ميكائيل هو Princeps militae Coelestis وقد صور فى التماثيل المبكرة فى القرون الوسطى مرتديا درعا ، وعلى الأخص فى شباك يرجع تاريخه الى القرن الثامن فى كاتدرائية شالون سيرمارن . وظهر دائما بعد ذلك فى الرسوم والنقوش البارزة كما صوره « فان در وايدن » فى صورته « يوم الحساب » فى مستشفى بون ، ومملنج فى دانزج ، والميزان فى يده . ومن هنا نستنتج أن قصة الميزان قد دخلت الى الأدب الأوربى الدينى فى القرن التاسع أو القرن العاشر ، وأنه حدث فى أثناء التكييفات التى أدخلت عليها أن استبدل جبريل (الذى يوكل اليه الميزان فى الإسلام) بميكائيل الذى تتحدد احدى وظائفه بناء على العقيدة المسيحية فى قيادة الأرواح بعد أن تترك أجساد الميتين الى عرش الله وادخالهم الجنة . أما هذا التكييف فلم تعارضه الكنيسة الكاثوليكية فحسب ، وانما شجبة النقاد الدينيون الكبار واعتبروه آثما . وهكذا نرى أن الراهب الأسبانى انتريان دى أيالا قد قال فى كتابه El pintor Cristiano y erudito فى القرن السابع عشر : « وأغرب من ذلك أن نرى ميكائيل مصورا وفى يده الميزان ، وهو أمر ينبغى أن أقر بأنه غير معروف لى(١) » .

٤ ـ ليس هذا الشاهد على تأثير الإسلام فى الفن المسيحى فى القرون الوسطى على أية حال استثنائيا . فقد بين كل من « مال » والراهب انتريان أن مناظر أخرى من مناظر يوم الحساب ، لاتجيزها ـ هى أيضا ـ التقاليد الكاثوليكية(٢) ، وعلى الأخص منظر الشفاعة . ثم انه ظهر فى نحوت عدد من كاتدرائيات فرنسا فى القرن الثالث عشر ، وفى لوحة يوم الحساب فى مقبرة بيزا ، وفى لوحة فرا أنجيليكو فى أكاديمية فلورنسا التى يرجع عهدها الى القرن الخامس عشر ، تصوير لمريم العذراء اما منفردة واما بصحبتها القديس يوحنا المعمدان وهى تتشفع للخاطئين . وهذا منظر يعارض بلا أدنى ريب روح النقمة التى ستسود فى يوم الحساب ، حيث لا يكون هناك شفاعة ولا غفران . غير أن هذا المنظر الذى يتنافى مع العقيدة الكاثوليكية ، يتوافق تماما مع العقيدة الإسلامية . يقرر الغزالى حجة الإسلام أن الله اذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين ، فانه تعالى بفضله ورحمته يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين ، وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن

---

(١) Interian, I, 135 وهو احد مؤسسى الأكاديمية الأسبانية . توفى سنة ١٧٣٠ .

(٢) Male. 416, Interian I, 66, II 168

معاملة فان له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه(١) • وقد استشهد ليبرهن على صدق قوله بفقرات من القرآن وبأحاديث كثيرة •

يقترب محمد سيد الأنبياء من عرش الرحمن ، وهو ينظر بشفقة على الآثمين التعساء من المسلمين ، الذين انحصر أملهم الوحيد الآن فى شفاعته بعد أن رفض الله شفاعة الأنبياء الآخرين فيهم • فيسجد عند العرش ، ويقبل الله شفاعته(٢) •

واخيرا ، أنكر الراهب انتريان وشجب الصور التى رسمت فى القرون الوسطى وعصر النهضة ، التى عبر فيها الرسامون عن يوم الحساب وصوروا الآثمين وقد عادوا الى الحياةعراة تماما،باعتبارها صورامخزية فاضحةومنافية للمعتقد المسيحى(٣)• وهنا ينبغى أن نتذكر أن هذه المناظر التى لا تجيزها الكنيسة بأية حال ، أنما تتفق إتفاقا تاما مع العقيدة الإسلامية ، التى تقرر صراحة أن الناس سوف يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غزلا(٤) • أما عريهم هذا ففى الحقيقة سبب من أسباب عذابهم الجسدى ؛ ذلك أن الشمس سوف تقترب يومئذ من الأرض ، وسوف تعطشهم وتصبب عرقهم • ثم أن بعض أوائل المسلمين تساءلوا حول هذا الموضوع • سألت عائشة النبى : يارسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم الى بعض ؟ قال : ياعائشة الأمر أشد أن ينظر بعضهم الى بعض ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه(٥) •

وبرغم ذلك فقد رويت بعد ذلك أحاديث خففت حدة هذه الصورة ، وقصرت العرى على الكفار فحسب(٦) •

---

(١) احياء علوم الدين ٣٧٧/٤ ، اتحاف السادة المتقين ٤٨٥/١٠ ، مختصر تذكرة القرطبى ٦١ •

(٢) اتحاف السادة المتقنين ٤٩١/١٠ •

(٣) Interian, II, 168 - 173

(٤) مختصر تذكرة القرطبى ٤١ • وانظر احياء علوم الدين ٣٦٨/٤ واتحاف السادة المتقين ٤٥٤/١٠

(٥) مختصر تذكرة القرطبى ٤١ •

(٦) نسب « مال » مناظر اخرى لخيال الجماهير الشعبية قد تكون هى ايضا مستقاة من اصول (Male, 422) نقع على مثال لهم فى مختصر تذكرة القرطبى ص ٧٣ • وأما تجسيد النار اسلامية • مثال ذلك الأشرار الذين يظهرون فى بعض القصص المسيحية والشياطين يجرونهم الى النار فى صورة «سخ بانياب والذى يعتقد «مال» انه محاكاةللوياثان المذكور فى سفرايوب ، فهو على التاكيدمثال وصفه القصاص محتذين المسخ الذى تذكره القصص الاسلامية والذى اشرنا اليه فى الصفحات السابقة • وأما البخلاء الذين يصورهم لمثالون فى شرفات الكاتدرائيات وهم يحملون اكياس نقودهم فى أعناقهم ، انما يذكروننا بالآثمين الذين صورتهم الأحاديث النبوية فى يوم القيامة يحمل كل منهم جسم جريمته ، فيحمل شارب الخمر الكوز فى عنقه والقدح فى يده ، ويحمل مطفف الكيل فى عنقه ميزان من نار (قرة العيون ١٢ ، ٤١) •

- ٦ -

قصص الجنـــة

١ ـ اهتم دانكونا اهتماما كبيرا بالمادية التى أفصحت عنها معظم القصص المسيحية السابقة للكوميديا الإلهية ، واستنتج أن دانتى وهو يرسم صورة فردوسه الروحية الرقيقة ، لم يتأثر بهذه القصص • أما التناقض بين تصورات دانتى وتصورات السابقين له فقد أشرنا اليه فى أثناء بحثنا للفردوس ، عندما قلنـــا أن صور الجنـــة الحسية التى ظهرت فى القصص المسيحية فى القرون الوسطى ، كانت مبنية على نماذج اسلامية • والآن نمضى قدما فى اثبات هذا القول ـ :

نبدأ أولا بالقول بأن هذه القصص المسيحية تتشابه بصورة عامة مع القصص الإسلامية من حيث أنها لاتفرق بين الجنة الأرضية والجنة السماوية(١) • ويجدر بنا أن نـذكر أن هـذا التخالط من الخاصيات المميزة للقصص الإسلامية ، وعلى الأخص فى بعض روايات قصة المعراج النبوى • وفيها يذكر القصاص جنة نعيم يرويها أنهر من سلسبيل تعبر عن صورة من صور الجنة السماوية ، التى ـ على الرغم من أنها ليست بالتحديد على الأرض ـ لايفترض أيضا أنها فى السماء(٢) •

تظهر قسمات التصور الإسلامى للجنة باعتبارها حديقة أو مرجا جميلا ، فىبعض القصص الشاعرية التى ألفت فى أوربا المسيحية فى القرن الثالث عشر الميلادى • مثال ذلك أن الجنـة مثلت فى قصيدة « بستانى الجنة » التى نشرها جوبينـال (٣) ، على أنها حديقة ترويها أنهار من سلسبيل ، فيها ظلال وارفة ، يفوح هواؤها بعبير عطـــور نادرة ، وتشنف الآذان فيها موسيقى الآلات المختلفة وتغريد الطيور ، قد شيدت فيهـا قصور رائعة الجمال من الذهب والأحجار الكريمة • وهذه صـورة قد كنـــا ننســـبها ـ فى واقــع الأمــر ـ للقـدس الســماوية التى تحـدثت عنهـــا الأســفار المسيحية المقدسة ، لـــولا بعض الملامح الإســلامية الصرف التى يميزهـــا ولا غـرو أن لبعض هـذه الملامح أهمية خاصة •

٢ ـ رأى بطل قصة ترسيل وهو يمر فى الجنة آدم جالســا عند جذع شـــجرة

(١) Graf, I 69

(٢) انظر الروايتين الأولى والثانية من المجموعة الأولى من قصص المعراج •

(٣) D'ancona, 104

هائلة تقع عند منبع الأنهار الأربعة التى ورد ذكرها فى الكتـــاب المقدس(١) • ولاحظ أن آدم يضحك بعين ويبكى بأخرى ، يضحك عندما يفكر فى أبنائه الذين سينالون النعيم الأبدى ، ويبكى عندما يفكر فى أبنائه الذين سيصيبهم الهلاك الأبدى •

هـذا الحديث الذى يقر « جـــراف » بأن لا سابق له ، هـــو بلا أدنى شـــك مأخوذ من منظر ورد ذكره فى معراج محمد(٢) • وأما أن هـــذه الرواية الإسلامية قـد جاء ذكرها فى أحاديث البخارى ومسلم ، فحقيقة تدل على أنها كانت قبل القرن التاسع الميلادى •

٣ ـ غير أننا نلاحظ أيضا ـ فيما عدا مجرد تشابه الأحداث ـ أن أفكار الخطوط العامة ذاتها لكثير من قصص الجنة المسيحية مستقاة من أصول اسلامية • ولقـد استقى المسيحيون معظم هـــذه الأفكار من نموذج واحد ، هو تصور الجنة كما لو كانت قصرا كبيرا لأمير اقطاعى يستقبل تابعيه استقبالا حافلا تزيده الموسيقى والرقص بهاء وروعة • وتصف قصة « ايوان الجنة » التى ألفها شاعر بروفانسى مجهول من الشعراء التروبادور فى القرن الثالث عشر هـــذا الاستقبال كما يأتى(٣) :

يعقد الله فى يوم عيد القديسين احتفالا بهيجا فى ايوانه • ويرسل القديسين سيمون ويهوذا الى كل بيت من بيوت الجنة لدعوة المنعمين للحفل • فيذهبان بالتوالى الى بيوت الملائكة ، ثم آباء الجنس البشرى ، ثم الحواريين ، ثم المجاهرين بالنصرانية برغم الاضطهاد ، ثم الأطفال الأبرياء ، ثم العذارى ، ثم الأرامـــل • وعنـــدئذ تتجمع هـــذه الطوائف من المنعمين استعدادا للاستقبال الكبير حيث يغنون أغـــانى تعبر عن الحب السماوى ، ويرقصون نفس الرقصات التى كانوا يرقصونها على الأرض ، وتقود كـــل من مريم العذراء ومريم المجدلية الغناء والرقص •

وتصور قصة رؤى القديسين الصالحين(٤) وهى قصة من قصص عصر دانتى ، المنعمين باعتبارهم بارونات ، والجنة على أنها قصر من قصور الاقطاعيين ، له أسوار وقلاع وأبراج من البلور والأحجار الكريمة • وهـــذه صورة كررها الشاعر الجوال

---

(١) graf I, 67 • ويلاحظ أن هـــذه القصة ترجع الى القرن الثالث عشر •

(٢) انظر الفصل الأول ، الرواية الأولى من المجموعة الثانية • ويلاحظ أن المنظر الذى ذكرته الأحاديث تتفق حرفيا مع المنظر المذكور فى القصة المسيحية • وانظر كنز العمال ٩٦/٦ رقم ١٤٦٦ •

(٣) D'ancona, 88

(٤) D'ancona, 105

جياكومينو الفيرونى فى قصيدة ، جعل فيها القديسين فرسانا محاربين تحت راية العذراء ، التى كللتهم لقاء ذلك بأكاليل من الزهور لهـا رائحة أعطر من المسك والعنبر ، ومنحتهم أطقما ثمينة لخيولهم مرصعة بالذهب والزمرد ، ووهبتهم خيولا حربية أسرع من ذكور الأيائل أو الريح التى تعصف فوق البحر(١) •

وعبرت قصص أخرى عن تصور لهـذا الحفل الذى يقام فى الجنة مبنى على خطوط أقل دنيوية من التصور السابق ، وأقرب الى أن يكون حفلا دينيا • استبدل المؤلف موكب الفرسان بموكب دينى يقوده الله ، ثم يتبعه اجتماع كبير يلقى فيه القديس اسـتفان مختـارات من رسـائل الرسل ، والقديس يوحنـا مختـارات من الأناجيل(٢) •

ثم ان شيوع مجموعة كاملة من الأحاديث حول هـذا الموضوع قبل القرن العاشر الميلادى بفترة طويلة أمر له مغزاه ؛ ذلك أنها تشير الى التشابه القائم بينها وبين القصص المسيحية • وتبين الحقيقة المـاثلة لنا أن نفس الأفكار العامة تـكمن فى أساس كليهما • فقـد ذاع تصور للجنة فى هذه القصص وفى تلك ، على أنها اما حفل شبيه بحفلات الإقطاعيين التى تعزف فيها الموسيقى ويتخللها الرقص ، واما حفل دينى • ثم ان التشابه يمتد الى التفاصيل الفعلية ، بحيث يؤلف برهانا على المحاكاة لا جدال فيه •

ولا تشمل مجموعة الأحاديث هـذه على تلك القصص التى أسس على مقتضاها اهل الـكشف معتقداتهم فى الرؤية ، وانما تشتمل أيضا على مجموعة أخرى وضعها رواة الحديث لتلائم وتشبع الأذواق الأخشن للمسـلمين الأوائل ، الذين وجهوا اهتمامهم الأول والأخير الى المعجزات(٣) •

يبدأ عدد من الأحاديث النبوية ، كما تبدأ القصص المسـيحية بدعوة المنعمين لاجتماع فى الإيوان السماوى ، ينعقد فى يوم الجمعة وهو يوم العطلة فى الإسلام • وفيه يمنـح المنعمون الى النعيم الدائم الذى يتمتعون به ، نعمة خاصة هى السماح لهم برؤية وجه الله • ومن ثمة فان التلذذ بالرؤية ليس دائما ، وانما أسبوعيـا • ولا يرى

---

(١) D'ancona, 105

(٢) D'ancona, 90, footnote, 2

(٣) استقينا الروايات التى لخصناها هنا من قرة العيون ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٣٢ ، ومن اللالىء المصنوعة ٢٨/١ ـ ٣٩ ، ومن الدرر الحسان ٣٠ • وانظر ايضا : Ms 159, Gayangos coll. fol 2 - 6 , and ms « Junta de ampliacion de Estudios » fol, 148 - 156,

المنعمون فى قصة « ايوان الجنة » المسيحية الله الا مرة واحدة فى كل سنة • وهذه نقطة مهمة لأن العقيدة المسيحية لا تجيزها •

يمر رسل من الملائكة فى صبيحة يوم الجمة على المنعمين فى بيوتهم ويسلمون لكل منهم دعوة وعددا من الحلى الثمينة ليتزين بها • وينعقد الاجتماع فى رياض الجنة فى ايوان من درة بيضاء طوله مائة عام وعرضه خمسون عاما ، وكل النساء عند فاطمة الزهراء ، والرجال عند رسول الله فى ايوان آخر ، وتنصب لهم المراتب والمساند ثم تقدم الحور العين تغنى لهم بتحميد الحق باصوات لم يسمع السامعون أحسن منها • فلما ينتشى المنعمون بأنغام الموسيقى ، يشعرون برغبة فى الرقص ، وعندئذ يقول لهم الحق : « لا تزعجوا أعضاءكم بالرقص فقد كفى ما تعبتم فى الدنيا بالصلاة والعبادة ، اجلسوا على هذه الكراسى وهى تتمايل بكم • » وبعد الرقص يكلم الله المنعمين ، فيشتد فرح أهل الجنة ويرجعون الى قصورهم •

تبين لنا هذه الرواية تشابها واضحا مع قصة « ايوان الجنة » المسيحية • ثم ان بعض الروايات الإسلامية الأخرى قد عقبت على هذا الاجتماع بحفل دينى •

يتوسل المنعمون لله أن يسمح لهم باقامة صلاة فى الجنة ، وهى الفرض الذى كانوا يتنعمون باقامته فى دار الدنيا • فيأمر الله داود أن يصعد على المنبر ، فيصعد داود وينشد بصوت رخيم مزمورا من مزاميره • وعندئذ يقرأ محمد سورة من القرآن تثير الخشية فى قلوب أهل الجنة • وأخيرا يظهر الله للمنعمين ، فيشتد فرحهم ويرحلون الى قصورهم •

وهناك رواية ثالثة يلوح بأنها النموذج الذى استقى منه مؤلفوا القصص المسيحية أفكارهم ، تمثل هذا الحفل السماوى كما لو كان موكبا من مواكب الفرسان • يستطرد راوى هذه الرواية بعد المقدمة المعتادة والمشتركة بين جميع الروايات التى تذكر فيها دعوة المنعمين للحفل السماوى فى وصف الحفل :

يركب جميع المدعوين ، الرجال فوق أصائل الخيل يقودهم محمد ، والنساء فوق النياق تقودهم فاطمة الزهراء • يركب محمد البراق وهو يرفع لواء أخضر • وتذكر روايات أخرى أن أبا بكر وآدم وعمر يحيطون بمحمد ، على حين يسير امامهم بلال أول المؤذنين فى الإسلام وهو يركب جوادا على راس المؤذنين • ويسير موكب الفرسان بمحاذاة شاطىء نهر الكوثر حتى يصل الى الأسوار الذهبية لإيوان ملك السماء • وعندئذ يتسلق جبريل سور القصر وينادى جميع أهل الجنة للاشتراك فى الحفل •

فيصلون جماعات تتبع كل أمة نبيها ويأخذون أماكنهم خلف محمد وأمته • وأما المرج الذى داخل أسوار القصر فعطر تفوح منه روائح ذكية ، تظلله اشجار وارفه ، فروعها محملة بالثمار ، وتزدحم عليها طيور مغردة من كل صنف • وعندئذ ينعقد الإجتماع بصورة شبيهة بتلك التى وصفناها من قبل •

يمتد التشابه بين هذه الرواية ، وموكب الفرسان المسيحى الى التفاصيل الوصفية • جاء فى القصة المسيحية أن مريم قدمت فرسانها على جياد سريعة لم ير أحد مثلها على الأرض ، حمراء اللون ، أسرع من ذكور الأيائل أو الريح العاصفة فوق البحر ، سروجها من الذهب المرصع بالزمرد • وهنا نجد أن عبارات الرواية الاسلامية تكاد تكون متطابقة مع هذا الوصف :

يقول الله : ياملائكتى قدموا لعبادى نجائب غير التى قدموا عليها فتقدم لهم الملائكة خيلا من ياقوت أحمر ، سروجها زمرد أخضر ، لها جناحان من ذهب ، فخذاها من فضة وهى أسرع من البرق الخاطف(١) •

قصص الرحلات البحرية

١ ــ ظهرت مجموعة كبيرة من القصص المسيحية ابتداء من القرن الحادى عشر ، تناولها دارسو دانتى بالفحص والدراسة ، بحثا عن مفتاح محتمل للأصول التى استقى منها دانتى الكوميديا الإلهية • ولقد دارت موضوعات هذه القصص أيضا حول زيارة لأماكن ليست فى متناول الإنسان العادى ، يمكن وصفها بأنها من مناطق الحياة الأخرى • واتصفت هذه القصص بثلاث خاصيات مميزة مشتركة تسمح بتصنيفها فى مجموعة واحدة • وهى جميعا عبارة عن رحلات مدهشة لجزائر خيالية • وأما ابطالها فاما مغامرون أو قديسون أو غزاة ، قد انطبعوا كلهم بلا استثناء بطابع أسطورى لا تاريخى • وأما الغرض الذى رمت اليه هذه القصص فدينى على العموم ، يستهدف نشر المسيحية ، أو التوبة ، أو البحث عن جزيرة الجنة الأرضية ، أو نافورة الحياة ، أو البحث عن النبيين الخالدين : حنوك وايليا(٢) •

وقد نستطيع أن نقسم هذه القصص ثلاث مجموعات بحسب طبيعة البطل فى كل منها • تضم المجموعة الأولى قصص المغامرات مثل قصص هارولد النرويجى

---

(١) قارن نص دانكونا D'ancona, 105, footnote 4, بقرة العيون ص ١١٥ السطر ٨ وما بعده و ص ١٢٨ السطر ٥ وما بعده و ص ١٣٦ السطر ٧ وما بعده واللالىء المصنوعة ص ٢٨ السطر ١ ومابعده •

(٢) Graf I, 126

وجورم الدنمركى ، وقصص مالدوين وأبناء كونال ديرج أواكورا ، والسند هجزيين ، وماكرياجالا الـكلتية • وتضم المجموعة الثانية قصص الرحلات الدينية البحرية ، وأشهرها رحلة القديس براندان ، التى نسجت على غرارهـــا قصص رحــلات القديس بارينتوس ، والقديس ميرنوك ، والقديس مالو ، والقديس أماروس • وتضم المجموعة الثالثــة قصص الغــزو والفتح على غرار رحـــلة الإسكندر الأكبـــر ، مثل قصص هيو البوردوى ، وبادوين السيبورجى ، وأجر الدنمركى وهيو الأوفرنى •

٢ ـ ظهر فى الأدب الإسلامىفى حدود القرن العاشر الميلادى على الأكثر ـ وهو العصر الذى ازدهرت فيه التجارة فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ـ مجموعة من القصص المشابهة انتشرت انتشارا شعبيا كبيرا • وأما افتراضنا بأن هــذه القصص كانت النواة التى بنيت عليها القصص المسيحية التى ظهرت بعــدها ، فأمر تدعمة حقيقة أنها تتميز بالخصاصيات الثلاث التى أشرنا اليها آنفا • فهى أولا ، قصص مغــامرات عجيبة فى جزائر خرافية ، وثانيا ، نادرا ما كان أبطالها أشخاصا حقيقيين ، بل أنهم كانوا كأبطال القصص المسيحية ، اما مغامرون ، واما غزاة فاتحون ، واما من أولياء الله الصالحين ، واما من الأنبياء الكاذبين • وثالثا ، كان الغرض الذى رمت اليه معظم هــذه القصص دينى فى المقام الأول • فقــد خرج المغامرون بحثا عن النبى أو نشر الإسلام ، ولزيارة جهنم وجنة أولياء الله والشهداء ، أو للعثور على مسكن النبيين حنوك وايليا ، أو الخضر ، الذى كان بطلا لبعض هــذه الروايات •

وقــد نستطيع أيضا أن نقسم هــذه القصص الإسلامية كما قسمنا مقابلاتها المسيحية بحسب طبيعة أبطالها ، ثلاثة أقسام : يضم القسم الأول رحلات السندباد البحرى ، وحسن البصرى ، وأمير خوارزم وغيرها ، وهى جميعا رحلات مغامرات لاغير • ويضم القسم الثانى الرحلات الدينية،التى كان أبطالها أنبياء،أو زهادا منأولياء الله الصالحين ، والذين صوروا فى اطار أسطورى محض ، أو كانوا شخصيات تاريخية أضفيت عليم صورة أسطورية مثل الخضر ، وموسى ، ويوسف ، ويونس ، وبلوقيا • ويشتمل هذا القسم أيضا على قصص ميلاد محمد ، وقصص عبـــد المطلب الحكيم ، وتميم الدارى ، وأبى طالب ، وأبى الفوارس ، وسيف الملوك • وأما القسم الثالث فيشتمل على الحملات التى تتراوح بين الأغراض الحربية والأغراض الدينية • وتعتبر قصة ذى القرنين نموذجا حيا لهــذا القسم •

٣ ـ لاشك أن التشابه فى الخطوط العامة بين هــاتين المجمـــوعتين من القصص الإسلامية والمسيحية ، أمر يعبر فى حــد ذاته أحسن تعبير عن الأثر الإسلامى • غير

أنه توجد دلائل أخرى علاوة على التشابه في الخطوط العامة . فقد بين فيكتور شوفان في كتابه القيم الضخم الذى وضعه فى الادب القصصى الإسلامى أن عددا من الأحداث والملامح الوصفية قد انتقل من القصص الإسلامية الى القصص المسيحية(١) . وهكذا استبان أن قصص هرزوج ارنست ، وهاينرخ در لوفى ، وراينفريد البرنزويكى ، وهيو البوردوى وجيران ، قد استمدت جميعا من قصة أمير خوارزم العربية . ومن ثمة استنتج شوفان « أن التأثير المباشر أو غير المباشر لقصص الرحلات الشرقية العجيبة ، أمر يتضح فى عدد من قصص القرون الوسطى المسيحية (٢)» وعلاوة على ذلك نقع على البينة التى أدلى بها المستشرق الهولندى الكبير دى جويا ، الذى اكتسبت بحوثه فى العلاقة بين « رحلة القديس براندان » وهى القصة النموذجية للقصص الأيرلندية ، وبين « قصة السندباد البحرى » التأييد الموضوعى لحجة كبير فى فقه اللغات الرومانسية (وهى اللغات الناشئة عن اللاتينية) مثل جراف(٣) . وهكذا يمكننا أن نعتبر هذه المشكلة محلولة من الناحية العملية ، وأنه لم يعد ينقص غير اضافة قليل من الحقائق المؤيدة لدى جويا ، وتبيان الأصل العربى غير المشكوك فيه حتى الآن لعدد آخر من القصص المسيحية .

٤ ـ تفصح « رحلة القديس براندان » عن تشابه نموذجى يدل على محاكاة الأصول الإسلامية . ولقد أرجع دى جويا أصل هذه القصة لرحلات السندباد البحرى ، ولعدد قليل آخر من رحلات المغامرات التى وردت باختصار فى أقوال الادريسى . ثم أننا نقع أيضا على مصادر كانت محاكاتها أكثر احتمالا ، هى قصص بلوقيا وذو القرنين ، التى ذكرها الثعلبى فى كتابه « قصص الأنبياء » ، ومن ثمة فهى أقدم من القرن الحادى عشر . وكذلك نقع على قصص اسلامية أخرى أقدم من هذه ينبغى أن نأخذها فى الاعتبار .

يجد القديس براندان مصادفة قصرا مهجورا فى جزيرة ، ويعثر فيه على منضدة عليها أشهر أنواع الأطعمة ، فيأكل منها هو وأصحابه الرهبان ملء بطونهم .

هنا نرى أنه جاء فى احدى قصص بلوقيا الإسلامية أنه عندما وصل الى احدى الجزر ، وجد مائدة موضوعة تحت شجرة وعليها طعام ، وعلى الشجرة طائر ، فسلم

---

(١) Chauvin, Bibliographie VII, 1 - 93

(٢) المرجع السابق ٧٧ .

(٣) De Goeja, Legende de st, Brandan, et graf I, 102

عليه بلوقيا فرد الطائر السلام ، ودعاه لأن يأكل من الطعام الذى أعده الله لكل غريب وعابر سبيل عن عباد الله الصالحين ، فأكل حاجته (١) ٠

ورأى القديس براندان ورهبانه فى جزيرة أخرى أشجارا قطعوا منها فروعا وأشعلوا نارا لطهو طعامهم ٠ غير أن هذا الذى ظنوه جزيرة لم يكن غير حوت كبير ، بدأ يتحرك عندما أحس بحرارة النار فوق ظهره ٠ وعندئذ ألقى الرهبان أنفسهم فى البحر وعاموا الى شاطىء الأمان ٠

هذا الحدث الذى أشار اليه دى جويا والذى ذكره رينو ودافيزاك من قبله ، مع الجزيرة الحوت التى صادفها السندباد البحرى وبحارته فى أولى رحلاتهم ٠ غير أن هذه الحقيقة لاتحسم الصعوبة التى نحن بصددها ذلك أن بعض الباحثين افترض أن قصة القديس براندان ـ على الرغم من أن أيا من نسخها الموجودة لا يرجع الى أبعد من القرن الحادى عشر ـ انما هى مستقاة من بعض المصادر الأيرلندية السابقة ٠ ثم ان شرويدر ذهب الى أبعد من ذلك ، اذ افترض بأن حادثة الحوت هذه قد انتقلت من أيرلندا الى الشرق ٠ وهذا أمر لم ينكر جراف نفسه احتمال حدوثه (٢) ٠ غير أننا على أية حال نستطيع تقديم براهين قوية ضد هذه النظرية ٠ وأهم هذه البراهين أن القصة مذكورة فى مؤلفات أدبية شرقية قديمة(٣) ٠ ذلك أن كلا من التلمود والأفستا قد ذكر أفعوانا بحريا أو سلحفاة بحرية حدث على ظهره نفس هذا المنظر ٠ وبما أن محاكاة مؤلف قصة القديس براندان للتلمود أو للأفستا مباشرة أمر غير مطروح للبحث على الاطلاق ، اذن فمن المعقول أن نفترض أن الأدب العربى كان فى واقع الأمر وسيلة الانتقال ٠ وهنا نتساءل : هل من الممكن أن تكون قصة السندباد البحرى هى حلقة الوصل ؟

لجأ دى جويا اذ أعوزه تقديم دليل موضوعى عن تاريخ القصة العربية ، الى برهان هام على أية حال ، ولكن ليس قاطعا ٠ قال : « ان الجزيرة الحوت فى أقدم صورها التى أعرفها خالية تماما من أى ضرب من ضروب النبات ٠ ولم يرد ذكر أشجار فرق ظهر الحوت الا فى قصتى السندباد البحرى والقديس براندان ٠ » ومن ثمة فانه قرر أن القصة قد نشأت فى الشرق لا فى أيرلندا ، مادامت قد ظهرت فى الشرق فى صورتيها

---

(١) قصص الأنبياء ٢٢٥ وقد وردت هذه الواقعة فى رحلة عبد المطلب الحكيم ٠ Cf, Chauvin, VII, 46

(٢) Shroeder, sanct Brandan (Er langen 1871) Inroduction X 1 - X 1 V. graf I, 103,

(٣) De Goeje, 47, and Graf. I, 105

البسيطة والمعقدة ، فى حين أنها لم تظهر فى أيرلندا الا فى صورتها الأخيرة المعقدة وفى عصر متأخر نسبيا • والحق أن برهان دى جويا كان يمكن أن يكون أقوى لو أنه استطاع أن يقدم وثيقة عربية تفصح عن وجود هذه الأسطورة فى صورتها المعقدة والمتطورة قبل ظهور قصة السندباد البحرى • وهذه الوثيقة فى الواقع موجودة فعلا ، نقع عليها فى كتاب الحيوان للجاحظ البصرى الذى عاش بين سنتى ٧٨١ الى ٨٦٩ ميلادية ، أو بالأحرى قبل ظهور قصة السندباد البحرى بقرن من الزمان ، وعلى التأكيد قبل تاليف القصص الأيرلندية بفترة طويلة سابقة تلك التى اعتبرها النقاد أصولا لرحلة القديس براندان (١) • تكلم الجاحظ عن وحوش بحرية وذكر الحية أو التنين ، والسرطان ، وسمكة عظيمة الحجم هى ولا شك الحوت • وهو على أية حال ينزع الى الشك فى وجود الأولين (٢) •

قال : فانا لم نسمع هذا (الجنة البحرية) الا فى أحاديث الرقاقين ، وأكاذيب الحوائين ، وتزيد البحريين • وأما التنين فانما سبيل الايمان به سبيل الايمان بعنقاء مغرب ، وما رأيت مجلسا قط جرى فيه ذكر التنين الا وهم ينكرونه ويكذبون المخبر عنه ••• وأما السرطان فلم نر أحد قط ذكر أنه عاينه ، فان كنا الى قول بعض البحرين نرجع ، فقد زعم هؤلاء أنهم ربما قربوا الى بعض جزائر البحر ، وفيها الغياض والأودية واللخاقيق (الشقوق والخدود) ، وأنهم فى بعض ذلك أوقدوا نارا عظيمة ، فلما وصلت الى ظهر السرطان هاج بهم وبكل ما عليه من النبات ، حتى لم ينج منهم الا الشديد • وهذا الحديث قد طم على الخرافات والترهات وحديث الخلوة • أما السمك فلعمرى أن السمكة التى يقال لها البال لفاحشة العظم ، وقد عاينوا ذلك عيانا وقتلوه يقينا •

نشأت هذه الأسطورة فى فارس ، وعاشت فى البلاد المجاورة • وبما أن الجاحظ قد ذكرها باعتبارها موضوعا شائعا من موضوعات القصص البحرية المعروفة فى عصره، فانها من ثمة لابد كانت قد دخلت الى الأدب الإسلامى فى غضون القرن الثامن الميلادى

---

(١) يقرر شرمر Schirmer ان النسخة اللاتينية مستقاة من قصص القرنين التاسع والعاشر ، ويربط زيمر Zimmer هذه القصة بالقصة الكلتية Imram Maiduin التى يرجع تاريخها بناء على لغتها القديمة الى القرن التاسع أو الثامن • وهذه الآراء التى لم يؤيدها جميع علماء اللغات المشتقة من اللاتينية ، هى على اية حال بعيدة عن أن تتصف بالقيمة الفعلية كوثيقة ثابتة التاريخ مثل كتاب الجاحظ •

(٢) كتاب الحيوان ٣٣/٧ — ٣٤ •

على الأقل • وهكذا اشتملت عليها قصة السندباد البحرى الشعبية التى ألفت فى القرن العاشر ، ووصلتنا عن طريق عدد من الأعمال العربية التى ألفت حتى القرن الثانى عشر • وقد أشار اليها الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين الذىألفهفى بداية هذا القرن ، اذ قال فى معرض حديثه عن ســعة المحيط : « ولعظم البحر كان فيــه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها فى البحر فتظن أنها جزيرة ، فينزل الركاب عليها ، فربما تحس بالنيران اذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان(١) » •

أما البراهين الأخرى التى قــدمها شرويدر لدعم نظريته بأن هــذه الأسطورة قــد نشأت فى بلاد الشمال فضعيفة • فان تأكيده مثلا بأن الحوت لا يوجد الا فى بحار الشمال ، أمر يكذبه تقرير الجاحظ • والأرجح على التأكيد أن تنشأ مثل هــذه الأسطورة بين أقوام لا تظهر الحيتان فى بحارهم الا من الحين للحين ، عما تظهر بينالأقوام الذين يعيشون فى البلاد الشمالية ، والذين تــكثر فى بحارهم الحيتان ، وتشيع معرفتهم بها • بعد ذلك نزل القديس براندان فى جزيرة تغص بعدد كبير من الطيور التى لهــا قدرة على الــكلام ، والتى تخفى تحت ريشها أرواحا ملائكية •

وهــذا يذكرنا ببلوقيا الذى قابل طائرا له قــدرة على الــكلام ، دعاه ليأكل من الطعام الموضوع فوق المــائدة التى يحرسها ، وبين له أنه واحد من طيور الجنة بعثه الله الى آدم بهــذه المــائدة لمــا اهبط من الجنة ، وأنه أمين عليها الى يوم القيامة ، طعامها لا يتغير ولا ينقص • ثم انه جاء فى قصة بلوقيا بعد ذلك أن هذا الطائر أو طائرا آخر أبيض حمله على جناحيه من الجزيرة الى بيته • يستبين لنا اذن أن القصة الإسلامية تذكر أيضا طيورا بيضا لها القدرة على الــكلام ، تعمل باعتبارها ملائكة أو رسلا لله • وفضلا عن ذلك فقــد بينا فى معرض مناقشتنا لقصة القديس مكاريوس وجود سوابق اسلامية لفكرة تقمص الأرواح البشرية منذ الوفاة حتى يوم القيــامة لطيور لهـــا قدرة الكلام • ثم أن بعض أحاديث ذهبت الى أبعد من هذا (٢) ، اذ حدثتنــا بالتحـــديد عن طيور بيض تتمتع بالقدرة على الــكلام ، لا تحمل فى أجوافها أرواحا بشرية فحسب ، وانما تحمل أرواحا ملائكية أيضا ، هى أرواح الملائكة الذى وكل اليهم واجب محاكمة الأرواح بعد الموت • كذلك يؤكد عدد من القصص الدينية الاعتقاد الإسلامى بأن الطيور البيض التى تقمصتها الملائكة انما ترى على جنائز الصالحين ترفرف على نعوشهم ،

---

(١) احيــاء علوم الدين ٣١٨/٤ ، اتحاف السادة المتقين ٢٠٥/١٠ •

(٢) شرح الصدور ٣٢ •

وكأنها بعثت لتصحب أرواحهم الى السماء (١) • وأمـا تغلغل مثل هـذه القصص فى خيال المسلمين ، فأمر يفسر بوضوح لماذا نقع فى جميع كتب تفسير الأحلام على تفسير الطيور بالملائكة (٢) •

يستمر القديس براندان فى رحلته ، ويرسو على جزيرة أخرى ، يسكنها رهبان لا يقيم أودهم غير الخبز الذى يتساقط عليهم من السماء • ويتمسـك هؤلاء الرهبـان بصمت تام ، وهم لا يتعرضون للأمراض ولا تصيبهم الشيخوخة •

وهـذا الحدث عبارة عن ادماج منظرين ورد ذكرهما فى بعض روايات قصة ذى القرنين الإسلامية ـ وهما منظر جزيرة العباد (الـرهبان) وجـزيرة الحـكماء(٣) : جزيرة العباد جزيرةعظيمة دخلها ذوالقرنين فوجد فيهاقوما قدأنحلتهم العبادة حتىصاروا كالحمم السود ، يقتاتون على الأسماك وأنواع النبات التى يرزقهم بها الله ، ويشربون من المياه العذبة • ولما قال لهم ذو القرنين : هل انقلـكم الى معيشة أطيب مما أنتم فيه وأخصب ؟ • قالوا : ما نصنع به ؟ ان عندنا فى جزيرتنا ما يغنى جميع العالم ويكفيهم لو صاروا اليه وأقبلوا عليه • وفى الجزيرة الأخرى أى جزيرة الحـكماء ، قال الأسكندر لسكانها : اسألوا حوائجكم لتقضى • فقالوا : نسألك الخلد فى الدنيا • فقال : وأنى ذلك لنفسى ؟ قالوا : نسألك صحة فى أبداننا ما بقينا • قال : وهـذا أيضا لا أقدر عليه • قالوا : فدعنا نطلب ذلك ممن يقدر على ذلك وأعظم من ذلك وهو ربنـا وربك وب العالمين » •

وجاء فى قصة القديس برنار أيضا أنه نزل بجزيرة فيها كروم كبيرة جدا ، تتدلى منها عناقيد من العنب هائلة الحجوم ، بزورها فى حجم التفاح ، قـد أشبعت الحبة منها جوع القديس وروت عطشه هو وأصحابه •

ومما لا شك فيه أننا نقع على مثل هـذا المنظر فى الأحاديث النبوية التى تخبرنا عن حدائق الجنة ، التى تنمو فيها كروم هائلة الحجم(٤) :

جاء فى رواية أن أعرابيا قال : « يارسول الله هل فى الجنة عنب ؟ قال : نعم • قال : فما عظم العنقود منها ؟ قال : مسيرة الغراب الأبقع شهرا ، ولا يفتر • قال : فما قدر الحبة منها ؟ قال : كالدلو العظيمة • فقال : يارسول الله هل الحبـة لتشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : نعم وعامة عشيرتك » •

---

(١) شرح الصدور ١٠٨ •

(٣) حياة الحيوان الكبرى للدميرى ٢/١١٠ •

(١) خريدة العجائب ٩٣ ـ ٩٤ •

(١) مختصر تذكرة القرطبى ٨٧ •

ليس هذا فحسب بل جاء فى بعض الأحاديث تقدير لطول العنقــود باثنتى عشرة ذراعا على التحديد ٠

رأى القديس براندان عمودا هائلا من أصفى أنواع البلور قــد خرج من أعماق البحر ولاح بأنه قد وصل الى السماء ، ومن حوله قبة كبيرة من الفضة ٠

وهــذا وصف نقع على مثله فى قصص سليمان ، التى جاء فيها ذكر لقبة بحرية ومدينة هوائية(١) :

رأى سـليمان قبة من زجاج تضربها الأمواج فى لجة البحر فأمر غواصـيه باخراجها ٠ فلما أخرجوها انفتح لها بابان وخرج من القبة شاب عليه ثيـــاب أبيض من اللبن ، وروى لسليمان قصة حياته تحت البحر على الرغم من أنه انس لاجن ٠ ولقــد أمر سليمان الجن ببناء مدينة من قوارير ، فبنوها عشرة آلاف ذراع فى عشرة آلاف ذراع ، فيها الف سقف مابين كل سقفين عشرة أذرع ، فى كل سقف جميع مايحتاج اليه من المساكن والقباب والمرافق ، أسفلها أغلظ من الحديد ، وأعلاها أرق من المـاء ، يرى من داخلها ما وراء خارجها من صفائه ونقائه ، والشمس بالنهار والقمر بالليل ٠ وعلى السقف الأعلى قبة بيضاء عليها علم أبيض يستضىء به فى الليل الداجى العسكر كله،يتلألأ شعاعه من البصر ، وبها من الأركانألف ركن ، على مناكب الشياطين تحتكل ركن منها عشرة منالشياطين ، تسعسليمان وجنوده وحشمه وأولياءه علوا وسفلا،تحملها الريح الى حيث يشاء ٠

ولـما وصل القديس براندان ورفاقه الى منطقة الهالـكين ، رأى يهوذا حزينا عريان على وجهه خرقة ، يجلس على صخرة فى وســط المحيط ٠ ولقد صـــورت قصص مسيحية مشابهة يهوذا واقعا فى بركة ، أو فى حفرة يتدفق منها جميع مياه الأرض ، أو وهو واقف والنار تأكل جوفه على الرغم من الميـــاه التى لا تكف عن التدفق فوقه ٠ وهــذه الصورة تــكييف لمنظر عــذاب قابيل كما جاء فى بعض القصص الإسلامية ، التى يرجع تاريخ احداها الى القرن الثامن الميلادى ٠ وقد جاء فيها مايلى(٢) :

ركب رجل يمنى يقال له عبد الله ونفر من قومه البحر ، واذا البحر قــد أظلم

---

(١) قصص الأنبيـاء ١٩٠ ٠

(٢) شرح الصـدور ٧٣ ــ ٧٤ ٠ أما من حيث عرى يهوذا ، والخرقة التى لا تغطى غير وجهه فحسب ، فانظر شرح الصدور ١١٧ ؛ تجـد وصفا مشابها لبعض الهالـكين فى النار ٠

عليهم أياما ثم انجلت عنهم تلك الظلمة وهم قريب من قرية ، فخرج عبد الله يلتمس الماء ، فاذا أبواب مغلقة تتجاجأ فيها الريح ، فهتف فيها فلم يجبه أحد • فبينما هو على ذلك اذ طلع عليه فارسان تحت كل واحد منهما قطيفة بيضاء فقالا له : ياعبد الله اسلك فى هذه السكة فانك ستنتهى الى بركة فيها ماء فاستق منها ولا يهولك ماترى فيها • فسألهما عن تلك البيوت المغلقة التى تتجاجأ فيها الريح ، فقالا : هذه بيوت فيها أرواح الموتى • فخرج حتى انتهى الى البركة ، فاذا فيها رجل معلق مصسوب على رأسه يريد أن يتناول الماء وهو لا يناله ، فلما رآه هتف به وقال : ياعبد الله اسقنى • فغرف بالقدح ليناوله اياه فقبضت يده • فقال له عبد الله : من أنت ؟ • فقال : أنا ابن آدم ، أنا أول من سفك دماء على الأرض •

واليك قصة أخرى ترجع الى القرن الثامن الميلادى أيضا :

بينا رجل فى مركب فى البحر اذ انكسرت بهم مركبهم ، فتعلق بخشبة فطرحته الى جزيرة من الجزائر ، فخرج يمشى فيها ، فاذا هو بماء فاتبعه فدخل فى شعب فاذا رجل فى رجليه سلسة منوط فيها بينه وبين الماء شبر • فقال له : اسقنى رحمك الله • قال : مالك ؟ قال الرجل : أنا ابن آدم الذى قتل أخاه ، والله ما قتلت نفس ظلما منذ قتلت أخى الا عذبنى الله بها ؛ لأنى أول من سن القتل •

أما آخر حدث يستحق الذكر فى قصة القديس براندان فمقابلته للمتوحد بولس الذى يعيش فوق صخرة فى وسط المحيط ، والذى كانت تغذيه قبرة طوال المائة واربعين سنة السابقة ، والذى سوف يظل حيا حتى يوم الحساب •

هنا نقع على شخصيتين متداخلتين ـ : شخصية القديس بولس المتوحد الذى غذاه غراب طوال حياته وحتى مماته ، والذى عاش فى صحراء طيبة ، وشخصية الخضر التى أدمج فيها الأدب الإسلامى ملامح من ايليا واليشعواليهودى التائه والقديس جورج • فالخضر هنا مثل اليشع أبدى لا يموت ، وقد صورته كثير من القصص على أنه متوحد يعيش فى وسط البحر ، يعبد ربه فى جزيرة قاحلة ، أو على صخرة تتلاطم عليها امواج البحر ، حيث يغتذى اما عن طريق طائر يحمل له الطعام والماء فى منقاره ، أو عن طريق مائدة تهبط عليه من السماء • وتذكر هذه القصص أنه سوف يعيش حتى يوم الحساب ، وأنه كثيرا ما شاهده البحارة الذين تنكسر سفنهم فى البحر ، ولذلك اعتبره البحارة المسلمون حاميهم(١) •

---

(١) وردت عدة قصص عن الخضر فى قصص الأنبياء ١٣٥ ــ ١٤٣ • ونقع على مجموعة اكبر فى « الاصابة فى تمييز الصحابة » لابن حجر • كذلك انظر شرح الصدور ١٠٩ وخريدة العجائب ٩٢ •

وأخيرا يقترب القديس براندان من جزيرة الجنة ، وهى غاية رحلته ، غير أنه يحلف فى ظلمه كما حدث لعبد الله اليمنى ، ولذى القرنين كما سبق ٠ واضافة الى ذلك تشتمل الرواية الألمانية للرحلة على ملمحين هامين ، ذلك أنه جاء فيها أن أرض جزيرة الجنة الأرضية كانت مرصعة بالجواهر الكريمة ، مثل الأرض التى اجتازها ذو القرنين ٠ وأنه يخرج من النافورة أربعة أنهار ، نهر من لبن ونهر من خمر ونهر من زيت ونهر من عسل ، وهى شبيهة بتلك التى تجرى فى الجنة كما جاء فى القرآن فى سورة محمد ــ ١٥ : « فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » ٠

٥ ــ يستبين لنا اذن أن هذا كله انما يشير الى نفس الاستنتاج ، وبالذات الى القول بالأصل الشرقى ، أو على التحديد بالأصل الإسلامى الذى ينبغى أن نحدده لهذه القصة ، التى اعتبرها رينان « أحسن تعبير عن المثل الأعلى الكلتى ، وواحدة من أعظم الأعمال الأوربية التى انتجها العقل البشرى وأكثرها اثارة للاعجاب » (١) ، والتى أعتقدجراف ، على الرغممن اعترافهبتأثير قصة السندباد البحرى فيها ، أنها مبنية على أسس كلتيه ٠ كذلك نرى أن عددا آخر من علماء اللغات المشتقة من اللاتينية ، قد اقتربوا بعض الشيىء من الحقيقة ، وان لم يستطيعوا على أية حال أن يتجاوزوا مجرد الفروض ، نظرا لعجزهم عن تقديم أى برهان موضوعى يعتمد على الوثائق المحققة ٠ مثال ذلك « الخيال المدهش الذى تفصح عنه القصة والذى يكاد يكون شرقيا » الذى لفت نظر لابيتى (٢) « والخرافات التى اندمجت فى عناصر القصة » كما يقرر دانكونا(٣) ، والرتابة التى انطبع بها سياق القصة ، والرحلات السبع على التحديد ، تتطابق مع البحار السبعة التى قطعها بلوقيا ، والمغامرات الخيالية ، التى جعلت القديس فانسنت البوفى واتباع جون دى بولاند يصفون هذه القصص على أنها مكذوبة ٠ وأخيرا الأحداث الكثيرة التى أرجعها دى جويا (٤) لأصول اسلامية ، فضلا

---

(١) Graf, I, 37.

(٢) Labitte. 122

(٣) D'ancona, 50

(٤) بين دى جويا أن انارة مصابيح المذبح الاعجازية التى شاهدها القديس براندان فى جزيرة الرهبان ، منظر مستقى من المعجزة الشبيهة التى تقع فى عشية كل عيد فصح فى كنيسة القبر المقدس بالقدس ٠ غير أن مؤلف القصة لا يحتاج على الضرورة لرؤية المعجزة بنفسه ، ولا لأن يسمعها من شاهد عيان فى سنة ١٠٠٠ م ٠ كما يفترض دى جويا ، ذلك ان أخبار هذه المعجزة قد تكون انتقلت اليه عن طريق الأدب العربى ، ذلك أن الجاحظ قد ذكر هذه القصة فى كتابه الحيوان ١٥٤/٤ فى القرن الثامن الميلادى ٠

عما ذكرنا آنفا • وهـذه كـلها أمور من شانها أن تبرر الاستنتاج بانه اذا كانت رحلة القديس براندان وغيرها من القصص المشابهة قـد كتبها فى واقع الأمر راهب أيرلندى على أساس من المأثورات الـكلتية ، فان العناصر الإسلامية التى طعمت بهـا هـذه المـأثورات ، كانت مفرطة بحيث غيرت من الطابع الأصلى لهـذه القصص •

٦ ـ كذلك نستطيع أن نستخلص نفس هـذا الاستنتاج من فحص ودراسة قصص رحلات أخرى ، كتلك التى تنطبع بطابع حربى أكثر من مجرد كونها رحلات فحسب • والحق أننا كثيرا ما نقع فى مثل هـذه القصص على آثار للقصص العربية التى التفت حول رحلة ذى القرنين •

مثال ذلك أنه جاء فى قصة البحارة العزيزيون التى رواها آدم البريمنى فى القرن الحادى عشر ، أن هؤلاء البحارة وصلوا بعد أن قطعوا منطقة مظلمة فى المحيط ، الى جزيرة يسكنها أناس يختفون فى كهوف عندما تـكون الشمس فى كبد السماء ، أى فى وقت وصول الأغراب(١) •

وهنا نرى أن هذا التفصيل بالذات هو من التفاصيل المميزة للبلاد التى جاء ذكرها فى قصص رحلة ذى القرنين الإسلامية ؛ ذلك أن أهل هذه البـــلاد « كانوا فى مكان لا يستقر عليه بناء ، وكانوا يسكنون فى أسراب لهم ، حتى اذا زالت الشمس خرجوا الى معايشهم ومحارثهم(٢) » • ثم ان القصة الإسلامية التى سجلت هـذا القول فى القرن الثامن الميلادى ، هى نفسها مبنية على أحاديث أسبق عهدا منها ، كتبت بدورها تفسيرا لآية قرآنية (سورة الـكهف ٩٠) أشارت الى رحلة ذى القرنين : « حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونهـا سترا » •

ثم اننا نستبين حدثا لافتا للنظر يدل على محاكاة الأصول العـــربية ، وقع فى الفصل الآخير من الروايتين اللاتينية والألمـانية لرحلة الأسكندر الأكبر الى الجنة الأرضية (٣) •

قدم حارس الجنة حجرا كريما للأسكندر الاكبر ، وقال لـه ان فضـائل هـذا الحجر الخفية سوف تشفيه من مطامعه • يرجع الأسكندر الى حيث ينتظـــره جيشه والحجر فى يده ، الا أن أحدا من أتباعه لم يستطع أن يحل هـذا اللغز غير يهودى حكيم •

---

(١) Graf I, 95

(٢) قصص الأنبياء ٢٢٨ •

(٣) Graf I, 116 - 118

وجـد اليهودى أن هـذا الحجر أثقل من أى كمية من الذهب توضع فى الـكفة الأخرى من الميزان ، ولـكنه عندما يغطى بقليل من التراب ، يفقـد فى التو واللحظة وزنه ويصبح فى خفة الريشة • وعندئذ فسر اليهودى هـذا اللغز بقوله : « ان هـذا الحجر الـكريم رمز للعين البشرية ، التى لا تشبع وهى حية ، فاذا ماتت وغطاها التراب لا تتطلع الى شىء » •

تتبع جراف القصة الى أقـدم أصولها فى المـأثورات اليونانية والعبرانية ، وانتهى الى أنها ترجع الى قصة فى التلمود البابلى • هـذا على الرغم من أن هـذه القصة انما تتـكلم عن عين بشرية حقيقية ولم ترمز لها بشىء • غير أننا نقع على أية حال على نموذج أرجح لها فى قصة عربية سجلت فى القرن التاسع الميلادى ونسبت الى على بن أبى طالب(١) :

« أخـذ صاحب الصور شيئا من بين يديه كأنه حجر فقال : ياذا القرنين خـذ هـذا فان شبع هـذا شبعت وان جاع جعت • فلما وضع العلماء ذلك الحجر فى كفة الميزان وأخـذوا حجرا مثله ووضعوه فى الـكفة الأخرى ، ثم رفعوا الميزان فاذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل ، فوضعوا معه حجرا آخر ورفعوا الميزان ، فاذا الذى جاء به ذو القرنين أثقل ••• فلم يزالوا يضعون حجرا بعد حجر حتى وضعوا ألف حجر ، ثم رفعوا الميزان فمال بالألف جميعا • وكانالخضرحاضرا فأخذ الحجر الذى جاء به ذوالقرنين فوضعه فى احدى الـكفتين وأخـذ حجرا من تلك الحجارة فوضعه فى الـكفة الأخرى ثم أخـذ كفا من تراب فوضعه على الحجر الذى جاء به ذو القرنين ، ثم رفع الميزان فاستوى فخرت العلماء سجدا لله تعالى • فقال الخضر : أيهـا الملك ان الله تعالى مكن لك فى الأرض فاعطاك منها ما لم يعط أحـدا من خلقه ، وأوطاك منها ما لم يوطىء لأحد من خلقه فلم تشبع ، وآتيت نفسك شرهها حتى بلغت من سلطان الله ما لم يطاه انس ولا جان ، فهـذا مثل ضربه لك صاحب الصور : ابن آدم لا يشبع أبدا حتى يحثى عليه التراب ولا يملأ جوفه الا التراب • ويختتم الخضر فى رواية أخرى تفسيره فيقول : يمثل هـذا الحجر العين الانسانية التى لا تشبعفى الحياة ، وان ملـكت الدنيا بأجمعها ، والتى لا يملؤها الا التراب بعد الموت(٢) •

---

(١) قصص الأنبياء ٢٣١ •

(٢) Ms 61 Gayngos Coll. fols 72 - 80

- ٨ -
قصص النائمين

١ ـ استعرض جراف جميع القصص التى شاعت فى أوربا المسيحية ابتداء من القرن الثالث عشر فى هذا الموضوع (١) ، فوجد أنها تدور جميعا من الناحية الأساسية حول قصة واحدة متعددة الصور • أما أبطال هذه القصص فأمراء أو رهبان ، يعودون الى ديارهم بعد أن يزوروا الجنة الأرضية ، وهم يعتقدون أن غيابهم لم يدم أكثر من عدة ساعات أو يوم واحد ، فى حين أنهم يكونون قد غابوا فى واقع الأمر سنين طويلة ، أو قرونا بأكملها • فلما يأخذهم العجب من تغير الأوضاع ، يحاولون تعريف الناس بانفسهم ، ولكنهم لا يلقون غير الشك المريب • وأخيرا ينجحون فى اثبات شخصياتهم اما بشهادة رجل وقور طالت به الأيام وعمر حتى عادوا ، يتذكر شيئا من قصة غيابهم ، واما بالرجوع الى السجلات التى قد يكون فيها شيىء عنهم •

وتضم هذه المجموعة ثلاث قصص رئيسية ، يرجع تاريخ قصة رهبان جيحون وهى القصة الايطالية الى القرن الرابع عشر •

خرج الرهبان فى طلب الجنة الأرضية ، ونجحوا فى الوصول اليها بعد مغامرات كثيرة • ثم عادوا يتصورون أنهم لم يغيبوا أكثر من ثلاثة أيام ، فى حين أنه كان قد مر ثلاثة قرون كوامل • وكان ديرهم لا يزال قائما ، ولكن الرهبان الذين هم فيه مختلفون ولا يعرفونهم • غير أنهم يستطيعون اثبات شخصياتهم بالرجوع الى السجلات القديمة • وبعد مرور أربعين يوما يكونون فى خلالها قد رووا لرهبان الدير التجربة التى مروا بها يستحيلون ترابا •

وترجع قصة الراهب البندكتى فيليكس ، وهى القصة الالمانية الى القرن الرابع عشر أيضا •

يشك فيليكس فى أن نعيم الجنة يمكن أن يدوم الى الأبد من غير أن يتخم المنعم به • وذات يوم بينما هو يستمع الى تغريد طائر صغير أبيض فى حديقة الدير ، تاخذه غيبوبة •ثم توقظة دقات الجرس الذى يدعو لصلاة الصبح فيسرح تجاه الدير ليكتشف هناك أن البواب لا يعرفه ، والذى يداخله شك عندما يسمع أقواله بأنه اما سكران أو مجنون فيطرده • كذلك لا يتعرف عليه الرهبان ، الا أن احدهم وقد

(١) Graf, I, 87 - 92

بلغ من العمر أكثر من مائة سنة واعجزه الكبر ، يتذكر أنه عندما كان مستجدا بالدير ، اختفى راهب اسمه فيليكس • ويكتشف الرهبان فعلا أن سجلات الدير قد أثبتت وفاته • لقد مر قرن من الزمان ظنه فيليكس ساعة واحدة •

وتحكى قصة ايطالية أخرى يرجع عهدها الى ما بعد القرن الحادى عشر قصة مشابهة عن أمير صغير :

خرج الأمير بعد زواجه بثلاثة أيام من قصره ، ليصل بمعجزة الى الجنة الأرضية ، حيث يقضى فيها ثلاثة قرون ، تلوح له كما لو أنها ثلاث ساعات فقط • فلما يرجع يجد أن منزله قد تغير كثيرا ؛ ذلك أن زوجته ووالديه كانا قد اعتقدا بموته ، فحولا القصر الى دير وقاعته الكبرى الى كنيسة • ويرى فوق برج القصر حيث كان يرفرف علم الأسرة الذى يحمل نسرا ، علما آخر يحمل علامة الصليب • يتقدم الأمير الى البواب ويعرفه بنفسه ، ويروى قصته للرهبان وللمواطنين فى القرية ، الذى يستمعون اليه مشدوهين • وعندئذ يتعرفونه بعد الرجوع الى السجلات التى دونت اختفاءه ، غير أنه عندما يتناول قطعة من الخبز ، يهرم فى الحال ويموت ، فيدفنونه الى جانب زوجته •

ولقد أدخل موضوع هذه القصص بين الفينة والفينة على قصص الرحلات الخرافية ، كما فى قصة الرهبان البريتانيين (نسبة الى بريتانى بفرنسا) ، وهى محاكاة لرحلة القديس براندان(١) •

يعود الرهبان الى ديرهم بعد زيارتهم جزيرة الجنة الأرضية فيجدون أن كل شىء قد تغير ، وأن الكنيسة والمدينة قد اختفتا ، وأن ملكا جديدا يحكم شعبا غريبا لا يعرفونه • لقد غابوا ثلاثة قرون •

أما قصة القديس أمارو الإسبانية ، والتى لا تزال شائعة فى اسبانيا حتى الآن ، فتنتمى الى نفس المجموعة •

يزور القديس بعد مغامرات عديدة فى البحر ، الجنة الأرضية ، وعندما يعود الى المكان الذى كان ينتظره فيه زملاؤه الرهبان ، يجد مدينة كانوا قد شيدوها • ويموت فى دير كانوا قد شيدوه تخليد لذكراه • أما المدة التى غابها والتى كان يظن أنها لا تتجاوز ساعة فكانت قرنين من الزمان •

٢ — يوجد فى الأدب الاسلامى ابتداء من القرن الثامن الميلادى — مجموعتان من

---

(١) Graf, I, 113 and 116

القصص تناولتا هذا الموضوع بطريقة شبيهة جـدا بالطريقة التى تناولته بها القصص المسـيحية • أما أبطـال هـذه القصص فاما انبياء ـ عبرانيون أو أسـطوريون ـ واما شهداء مسيحيون ، يعودون الى ديارهم بعد نوم قرون طويلة ، تبدو لهم وكأنها ساعات قليلة ، حيث ينجحون أخيرا فى اثبات شـخصياتهم اما عن طريق شـهادة المعمرين ، واما عن طريق السجلات القديمة •

٣ ـ ألف صحابة النبى قصص المجموعة الأولى تفسيرا لآية قرآنية من صورة البقرة (٢٥٩) :

« أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هـذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمـارك ولنجعلك آية للناس وأنظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قـدير » •

ولقـد نسج المؤلفون حول هـذه النواة التى نقع على مشابه لها فى التلمود ، ثلاث قصص ، ترجع أولاها الى القرن الثامن الميلادى(١) :

لمـا خرب بختنصر بيت المقـدس وقتل بنى اسرائيل وسباهم ، طار ارميـا (وفى روايات أخرى العزيز) حتى خالط الوحوش ، فلما ولى بختنصر عنهم راجعا الى بابل ومعه سبايا بنى اسرائيل ، أقبل ارميا على حمار له ، فلما رأى خرابها قال : أنى يحيى هـذه الله بعـد موتها • ثم ربط ارميا حماره ، وألقى الله عليه النوم ، فلما نام نزع منه الروح مائة عام • ومات حماره ، وعصيره وتينه عنده ، وأعمى الله عنـه العيون فلم يره أحـد ، ومنع السباع والطير عن لحمه • فلما مضت مائة عام أحيا الله ارميا ، فنظر الى حماره فاذا عظامه متفرقة • وسمع صوتا من السماء ينادى أن تتجمع العظام وأن تـكتسى لحما ، فكان كذلك ، ونهض حماره حيا بأمر الله •

ويرجع تاريخ القصة الثانية الى القرن السابع الميلادى :

كان عزيز (عزرا) يومئذ غلاما ، أخذه بختنصر فيمن أخذ من سبايا بنى اسرائيل ، غير أنه هرب وارتحل على حمار له حتى نزل على دير هرقل على شاطىء دجلة ، فطاف فى القرية فلم يجـد فيها أحـدا ، فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب ، فشرب وجعل فضل الفاكهة فى سلة وفضل العصير فى زق • فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلهـا

---

(١) قصص الأنبياء ٢١٥ ـ ٢١٦ •

قال : أنى يحيى هـذه الله بعد موتها ؟ ثم ربط حماره بحبل جديد ونام فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه فأتاه جبريل فقال له : كم لبثت ؟ قال : لبثت يوما أو بعض يوم . فقال له جبريل : بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتغير ، وانظر الى حمارك فرآه قائما كهيئتهيوم ربطه حيا . وعاد الى قريته وأولاده وأولاد أولاده فوجدهم شيوخا وعجائز وهو أسود الرأس واللحية .

وينسب الرواة الرواية الثالثة لابن عباس :

لما أحيا الله عزيزا بعد ما أماته مائة سنة ، ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر هو منازله . فانطلق على وهم حتى أتى منزله فاذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة وكانت أمة له . فلما عرفها بنفسه طلبت منه أن يرد عليها بصرها حتى تراه وتعرفه . فدعا ربه ومسح بيده على وجهها وعينيها فاستجاب له الله ورد عليها بصرها ، وأطلق الله رجليها ، فقامت صحيحة فنظرت الى عزيز فعرفته ، فقالت : اشهد أنك عزيز ، غير أن أحدا لم يصدقها ، حتى تعرفه أحد أبنائه من شامة سوداء كانت بين كتفيه .

وجاء فى قصة أخرى أن النـاس تعرفوه عندما اختبروه فعرفوه أنه حافظ التوراه(١) :

رجعت اسرائيل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة ، فلما عاد عزيز كذبوه ، وقالوا ان كنت عزيزا كما تزعم فأمل علينا التوراة ، فكتبها وقال هـذه التوراه . فوجدوا أنها نطابق نسخة من التوراة وجدوها مدفونة فى حديقة كرم .

٤ ـ أما القصص التى تنتمى الى الفئة الثانية من هـذه المجموعة فقد نسج المؤلفون خيوطها حول عدة آيات قرآنية (سورة الكهف ٩ ـ ٢٣) ، وهى شبيهة بالقصة المسيحية الشرقية التى تتحدث عن نيام افسوس السبعة . أما أن لهـذه القصة الإسلامية أصلا قـديما فى المسيحية فأمر يجعلها قليلة الأهمية من حيث البرهان الذى يعنينا فى هـذا الخصوص . ولذلك سوف نكتفى هنا بعرض الخطوط العامة للقصة الإسـلامية كما جاءت فى رواياتها الأربع التى ذكرها الثعلبى فى كتابه « قصص الأنبياء » .

حـدث فى أثناء استيلاء دقيانوس الملك الفارسى على افسوس (سميت بعد

---

(١) قصص الأنبياء ٢١٧ .

الإسلام طرسوس) واضطهاده لأهلها ، أن هرب سبعة نبلاء مسيحيون وأووا الى كهف ، فلما أكلوا ناموا ومكثوا نائمين ثلاثمائة سنة فنفخ الله فيهم الروح وهموا من رقدتهم ، ولم يظنوا أنهم ناموا أكثر من ليلة • ثم انهم أرسلوا واحدا منهم الى المدينة ليأتيهم بطعام • فلما غادر الكهف مر بمواضع لا يعرفها ، وطريق ينكرها حتى اتى باب المدينة فاذا عليه علم أخضر مكتوب عليه : لا اله الا الله عيسى روح الله • فتعجب الفتى واندهش • فلما دخل المدينة مر بأقوام لا يعرفهم حتى انتهى الى السوق • فلما دفع لخباز بدراهم كانت معه من دراهم ذلك الزمان الأول تعجب الخباز ووثب عليه الناس واقتادوه الى الملك ظنا منهم أنه وجد كنزا • وعبثا حاول الفتى اقناعهم ، ولكنهم أبو حتى يتعرفه أحد أهل المدينة ، فسمى لهم نحوا من ألف رجل فلم يعرفه منهم رجل واحد • وأخيرا تعرف داره ، فخرج منها شيخ كبير عرفه وقال : هذا جدى • فركب الملك والناس الى حيث رفاقه فى الكهف • ودخل الفتى عليهم ، فلما عرفوا بقصتهم طلبوا من الله أن يقبض أرواحهم فقبضها •

٥ — لا شك أن التشابه القريب ، بين الروايات الإسلامية لهذه القصة وبين الروايات المسيحية لها ، أمر لا يمكن انكاره • غير أننا ينبغى أن نتساءل : هل هذا التشابه راجع الى التأثير الإسلامى فى الفلكلور المسيحى ؟ هنا نجد أن جراف على الرغم من علمه الواسع الغزير ، لم يذكر شيئا عن سوابق لهذه الروايات المسيحية فى آداب أخرى(١) • والحق أن الاجابة على هذا الموضوع ليست فى الواقع أمرا سهلا • لقد بين جويدى أن القصص الإسلامية التى رويت عن ارميا أو العزيز انما هى مستقاة من قصص أحبار اليهود ، التى كان بطلها اما أبيمالك واما الحاخام يوحنا • ويحتمل أن يكون كلاهما قد عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد ، غير أنه لا يوجد تحت أيدينا دليل على أن مثل هذه القصص اليهودية قد انتشرت فى الغرب • ثم ان قصص النيام السبعة الإسلامية مبنية على قصة سورية ظهرت فى القرن السادس الميلادى • ونعلم أنها انتقلت الى الغرب ؛ ذلك أننا نجدها فى نسخة لاتينية ضمنها القديس جريجورى التورى أحد مؤلفاته (٢) • ولكن هل لنا أن نفترض بناء على ذلك أن قصص القرون الوسطى المسيحية التى ذكرها جراف فى هذا الموضوع قد نمت وترعرعت من هذه البزرة التى غرسها القديس جريجورى فحسب ، ولم تتأثر بالقصص

---

(١) لم يذكر جراف غير قصة الحاخام يوحنا هماجيل على انها شبيهة بعض الشىء بقصة الراهب فيليكس •

(٢) de gloria martyrum ch 95

الإسلامية ؟ أما اذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر أن هـذه البزرة قـد استغرقت أكثر من ستة قرون لتنبت ، وأنها لم تنتج ثمارها الا فى قصص القرن الثالث عشر ؟

هـذه هى المشكلة التى تواجهنا فى حدود ما يعنينا من أثر قصة النيام السبعة فى القصص المسيحية المشابهة التى ظهرت فى القرن الثالث عشر • غير أنه لا يزال هناك مجموعة أخرى من القصص الإسلامية أبطالها اما ارميا واما العزيز • والحق أن التشابه بين هـذه المجموعة من القصص والقصص المسيحية أمر ليس أقل لفتا للنظر • ومن ثمة فان افتراض الأثر الاسلامى المباشر هنا أمر له ما يبرره الى حـد كبير ؛ ذلك أنه ليس تحت أيدينا أى دليل يشير الى النماذج القديمة التى خلفها أحبـار اليهود قـد انتقلت الى أوربا المسيحية •

— ٩ —
قصص الراحة من العـذاب

١ ـ ظل آباء الـكنيسة حتى القرن السادس يتناقشون حول مسالة ما اذا كان عـذاب الهالـكين فى النار أبديا أم لا • ولقـد أيد بعض كبار رجال اللاهوت ـ وعلى الأخص فى الـكنيسة الشرقية ـ القول بالعـذاب المؤقت(١) • غير أن الرأى الغربى غلب وساد على أية حال ، واستقرت النظرية القائلة بالعـذاب الأبدى نهائيا ، وأصبحت جزءاً من العقيدة المسيحية بناء على قرارات مجمع القسطنطينية • غير أننا للغرابة نقع على قصص ألفت فى القرن الحادى عشر وشاعت فى العالم المسيحى الغربى ، تناولت فى المقام الأول مسالة الراحة أو التخفيف من عذاب الهالكين فى النار(٢) •

ظهرت هـذه الفكرة أولا فى رؤية القديس بولس • غير أن النسخة اليونانية من هـذه القصة كما بينا فى أثناء عرضنا لها فيما سبق قـد حدثتنا عن راحة سنوية ، فى حين ذكرت النسخة اللاتينية التى يرجع عهدها الى القرن الثانى عشر ، أن الراحة أسبوعية(٣) • أما الفرق هنا فله مغزاه من حيث انه يفصح عن الأصـول الإسـلامية التى استقت منها الروايات المتاخرة لهـذه القصة • ذلك أنه بينما تفتقد نظرية الراحة الأسبوعية أى أساس من التقاليد المسيحية ، وعلى الأخص التقاليد الغربية ، نراها مبررة تبريرا كاملا فى العقيدة الإسلامية •

---

(١) Cf. Tixeront, II, 199

(٢) Graf, I, 241, 260, IL resposo dei dannati

(٣) المرجع السابق ص ١٨٥

٢ — ثم ان هناك أثرا أكثر لفتا للنظر للتاثير الإسلامى نستطيع استبانته فى قصة مسيحية أخرى ، رواها بنفس الصيغة كل من القديس بطرس داميان فى القرن الحادى عشر ، وكونراد الكيرفورتى ، والقديس فانسنت البوفى فى القرن الثانى عشر(١) ٠

وتتلخص القصة فى أنه يوجد كهف يقع فى منطقة بوتزولى البركانية الى القرب من نابولى ، أو فى جزيرة اسكيا البركانية التى تقع فى الخليج الذى تطل عليه نفس المدينة ، تتلاطم فيه أمواج سوداء نتنة الرائحة ، يفترض أنه شفير جهنم ٠ يخرج من مياه هذا الكهف عند غروب الشمس من كل يوم سبت طيور سود كبريتة مخيفة المنظر ، تطير الى الجبال المجاورة ، حيث تجثم وتفرد أجنحتها وتنظفها وتظل هكذا حتى صباح الاثنين الباكر ، فتعود وتدخل مياه الكهف ٠ ولقد ساد اعتقاد عام بأن هذه الطيور هى أرواح سكان النار ، الذين يتمتعون براحة أسبوعية من عذابهم ٠

٣ — تقضى عقيدة اسلامية ، استشهد بها جراف بأن عذاب كل من المسلمين والكفار يقفَ فى يوم الجمعة وليلة السبت حيث يسمح الروح فى هذه الفترة أن تزور قبورها وتتلقى الصلوات التى تقام من أجلها (٢) ٠ أما الاعتقاد الذى يكمن فى أساس كثير من القصص الشعبية(٣) فيعتمد على حرمة يوم الجمعة ، وهو قديم قدم الدين الإسلامى ذاته ٠ وواقع الأمر أن المسلمين اعتقدوا اعتقادا جازما ابتداء من القرن الأول الهجرى وما بعده أن من يموت فى يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقاه الله فتنة القبر ، وهى محاكمة خاصة بالإسلام(٤) ٠

أما أن أرواح الأشقياء تتجسد فى طيور سود فاعتقاد ينسب الى محمد ذاته ، تماما كما يبين أن أصل القصة القائلة بأن أرواح الأولياء أو الملائكة انما تتجسد فى طيور بيض انما هو اسلامى لامراء فى ذلك ٠

« ان أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود ، تاكل من النار وتشرب من النار وتأوى الى جحر فى النار(٥) » ٠

أما الطيور السود التى تخرج لتستريح من العذاب ، وبالذات من الماء عند شاطىء البحر ، فقد ورد ذكرها فى قصة اسلامية تشبه القصة المسيحية شبها

---

(١) Graf, I, 250 - 251

(٢) شرح الصدور ٧٦ و ١٢٨ ٠

(٣) احياء علوم الدين ٤/٣٥٢ واتحاف السادة المتقين ١٠/٣٦٦ ٠

(٤) مختصر تذكرة القرطبى ٣٥ ٠

(٥) شرح الصدور ٩٧ ٠

لافتا للنظر ، مما يجعلها تبدو فى واقع الأمر النموذج الأصلى لهـا . ذكر الأوزاعى هـذه القصـة وهـو من كتاب القرن الثامن الميلادى ، ورواها ابن أبى الدنيا فى القرن التاسع(١) :

قال : سال رجل بعسقلان الأوزاعى : يا أبا عمر انا نرى طيرا سودا تخرج من البحر فاذا كان العشى عاد مثلها بيضا . قال : وفطنتم لذلك ؟ قالـوا : نعم . قال : ذلك فى حواصلها آل فرعون يعرضون على النار فتلفحهـا فيسـود ريشـها ثم تلقى ذلك الريش ثم تعود الى أوكارها فتلفحها النـار ، فذلك دأبهـا حتى تقوم السـاعة فيقال ادخلوا آل فرعون اشد العـذاب .

٤ ــ يرتبط بموضوع الراحة من العذاب هـذا ارتباطا وثيقا موضوع آخر ، هو موضوع ، تخفيف الآلام اذا مـا دفع دين كان يدين بـه المتوفى . وقد اسـتشهد جراف ضمن القصص التى استشهد بها بقصة رواها قيصر الهـايدنباخى فى القـرن الثالث عشر(٢) .

ظهر جندى بعد موته لرجل معين وأخبره أنه فى النار بسبب سرقة ارتـكبها . ورجا الرجل أن يخبر أولاده برغبته فى اعادة المسروقات الى مالـكها الأصلى ، حتى تخفف عقوبته . غير أن الأولاد لم يستمعوا لرجاء هـذا الرجل .

وهنا نقع على عقيدة اسلامية ورد ذكرها فى أحاديث كثيرة ، مؤداها أن الدين الذى يتركه المتوفى على الأرض ، اما يؤخر صعود روحه الى السماء ، واما يعوق هـذا الصعود (٣) :

جاء عن النبى قوله : نفس المؤمن معلقة بدينه أى محبوسة عن مقامها الـكريم حتى يقضى عنه . وقال فى مناسبة أخرى عندما أتى برجل يصلى عليه : هل على صاحبكم دين . قيل : نعم . قال : فما ينفعكم أن أصلى على رجل روحـه مرتهن فى قبره لا يصعد روحه الى السماء ، فلو ضمن رجل دينه قمت فصليت عليه فان صلاتى تنفعه . وفى حديث آخر قال : اههنا احـد من بنى فـلان ، فان صـاحبكم احتبس عند باب الجنة بدين عليه فان شئتم فافدوه وان شئتم فأسلموه الى عـذاب الله .

ولقد نسج الناس من حول هذه الأحاديث قصصـا كبيرة الشـبه بالقصـة

---

(١) شرح الصـدور ١١٠ .

(٢) Graf, I, 251

(٣) شرح الصدور ١١١ ، ١١٦ .

المسيحية التى ذكرناها آنفا . واليك قصة من هذه القصص يرجع عهدها الى القرن التاسع الميلادى .

خرج رجلان الى الغزو (فى القرن الثامن) فهجموا على ركية (بئر) واسعة عميقة فاذا همهمة فيها ، فدخل أحدهما الركية فاذا هو برجل على الواح جالس وتحته الماء فقال : أجنى أم انسى ؟ قال : بل انسى . قال : ما أنت . قال : أنا رجل من أهل أنطاكية وانى مت فحبسنى ربى هنا بدين على وان ولدى بأنطاكية ما يذكرونى ولا يقضون عنى . فخرج الذى كان فى الركية فقال لصاحبه : غزوة بعد غزوة امشوا حتى نقضى عنه دينه . فذهبوا حتى قضوا ذلك الدين ، ثم رجعوا الى موضع الركية فلم يروا ركية ولا شيئا ، فأمسوا فباتوا ، فاذا الرجل قد أتاهم فى منامهم فقال لهم : جزاكم الله عنى خيرا فان ربى قد حولنى الى موضع كذا وكذا من الجنة حيث قضى عنى دينى(١) .

٥ ـ خلاصة القول أنه شاع فى أوربة القرون الوسطى اعتقاد عام بأن الصلاة والصيام والإحسان أمور تساعد على تخفيف العذاب ، ليس فقط من حيث آلام التكفير عن الذنوب فى المطهر ، وانما من حيث عذاب النار ذاته(٢) . والحق أن هذا الاعتقاد استطاع أن يقاوم معارضة الكنيسة ، التى تمسكت تمسكا شديدا بعقيدة العذاب الأبدى الشامل باعتباره الصورة الوحيدة التى تميز النار عن المطهر . غير أن صرامة اللاهوت الرسمى قد عوضت بما سماه جراف باللاهوت الوجدانى أو العاطفى ، كما عبرت عنه كثير من القصص الشعبية . ويرى جراف أن هذه القصص كانت عبارة عن الحصيلة التلقائية لمشاعر الشفقة والرحمة التى تنزع اليها الجماهير دائما . أما أن مثل هذه المشاعر قد تؤدى الى ردود فعل شعبية ، تميل الى الهرطقة بطريقة لا شعورية ، وتعارض حرفية العقائد الدينية فأمر لا ينكره أحد . غير أن انتشار هذا الاعتقاد الذى نحن بصدده ، قد يكون أيضا نتيجة اتصال المسيحيين بالعقائد الاسلامية المتعلقة بالأخرويات ، وهى عقائد أكثر رحمة بكثير من العقائد المسيحية الرسمية .

ويعلم الجميع أن الإسلام لا يجيز العذاب الأبدى الا على الكفار والمشركين . وأما المسلمون ، فانهم مهما تكن ذنوبهم ، سوف يدخلون يوما ما الجنة بعد التكفير

---

(١) شرح الصدور ١١١ ، ١١٢ .

(٢) Graf, I, 255 - 257

عن هـذه الذنوب • ثم ان هـذا العـذاب الموقت قـد يخفف عن طريق الصلاة التى يقيمها أولئك الذين على الأرض على أرواح ذويهم • وقـد ترك لنا السيوطى وغيره مجموعة من النصوص الصحيحة السند فى هـذا الخصوص(١) • وهى تبين أن الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل بعض أعمال التقوى والإحسان مثل بناء المساجد والمستشفيات • والمدارس والجسور • وأعمال رى المزروعـات ، أمور كلهـا تفيد فى تخفيف المصير الذى سوف تؤول اليه الروح • وهـكذا نرى أن الإسلام اذ اعتنق الآراء الأرحم التى نادى بمثلها اقلية من رجال الـكنيسة الشرقية ، ربما كان الوسيط الذى انتقل عن طريقة هـذا المعتقد الى الغرب المسيحى ، بعد أن رفضه بالإجماع آباء الكنيسة ، والمجامع الـكنسية ، وكبار رجال اللاهوت فى الـكنيسة الرومانية ، باعتباره بدعة وهرطقة •

– ١٠ –

قصص تنازع الملائـكة والشـياطين حـول حيـازة روح الميت

١ ـ كان استجواب الملائكة والشياطين لوح الميت فور وفاته باعتباره صورة من محاكمة أولية قبل محاكمة يوم الحساب موضوعا شائعا فى القصص المسيحية فى القرون الوسطى • ولقد حلل جراف فى الفصل المعنون(٢) Demologia di Dante وباتيوشكوف فى مقالته (٣) Le Debat de L'ame et du corps هـذه القصص واستخلصا عناصرها الأساسية كما يأتى :

١ ـ لكل روح فى أثناء الحياة ملك أو أكثر لحفظها وشيطان أو أكثر لإغرائها •

٢ ـ عند الموت يتنازع هؤلاء الملائكة والشياطين لحيازة هـذهالروح •

٣ ـ يؤدى الى هـذا النزاع فى معظم الأحيان سجلان ؛ أحدهما فيه الحسنات وفى الآخر السيئات •

٤ ـ تتجسد الحسنات أو السيئات فى قصص أخرى وتشهد على الروح •

٥ ـ أو تتهم أعضاء الجسد الروح بالذنوب التى ارتـكبتها •

٦ ـ يستخدم الميزان لفض النزاع •

---

(١) شرح الصـدور ١٣٦ ، ١٣١ •

(٢) In Miti, II, 103 - 108

(٣) In Romania, year 1891, p. 41 et seq.

٧ – وأخيرا تحمل الملائكة أو الشياطين الروح اما الى الجنة واما الى النار ٠

٢ – لا تقدم لنا العقيدة المسيحية غير مبررات واهية لمثل هذه الملامح ، وعلى الأخص تلك التى وردت فى البنود الرابع والخامس والسادس ، وهى أكثرها لفتا للنظر ٠ وهذه هى بالتحديد أكثر العناصر شيوعيا فى الإسلام ٠ وهى على اية حال عناصر موجودة فى أديان شرقية أخرى وعلى الأخص الزرادشتية ٠

أما الاعتقاد بالملاك الحافظ ، وهو اعتقاد مبنى على ما جاء فى الإنجيل ، ورددته كتابات آباء الكنيسة ، فيمثل جزءا من العقيدة المسيحية فى الشرق والغرب على السواء ٠ أما مسألة الشيطان المخصص لكل انسان لإغرائه ، فأمر شاع الاعتقاد به ابتداء من القرن الخامس الميلادى فما بعد ، على الرغم من أن هذا لم يرد فى العقيدة المسيحية ٠ كذلك كان تنازع الملائكة والشياطين حول حيازة روح الميت مجرد اعتقاد شعبى ، نقع على أقدم دليل موضوعى عليه فى رؤية الحياة الأخرى التى ألفها القديس بونيفاس رائد ألمانيا الدينى فى القرن السابع الميلادى ٠ ثم ظهرت بعد ذلك فى القرن التاسع فى القصيدة الألمانية Muspilli (١) ٠ ومما يجدر ذكره أن هذه القصة قد طعمت بادخال عناصر من البندين الرابع والخامس ، مجسدة الفضائل والرذائل وأعضاء الجسد الإنسانى ، وهى كلها ملامح اصلها اسلامى أو زرادشتى(٢) ، دخلت لأول مرة فى العقائد المسيحية المتعلقة بالحياة الأخرى ٠

١ – احاديث حول البند ١

أورد الغزالى الحديث التالى من غير أن يذكر الصحابى الذى رواه (٣) : اذا ولد لابن آدم مولود قرن الله به ملكا ، وقرن الشيطان به شيطانا ، فالشيطان جاثم على أذن قلب ابن آدم الأيسر والملك جاثم على أذن قلبه الأيمن فهما يدعوانه » ٠

وحديث عن جابر بن عبد الله من القرن السابع :

ان الله يبعث ملكا لكل شخص ليحفظه ، ويوكل به ملكين يكتبان حسناته وسيآته ، فاذا حضره الموت ارتفع الملكان وجاءه ملك الموت ليقبض روحه ، ثم يجيئه

---

(١) Cf, Graf II, 104 - 105

(٢) الأصل الزرادشتى لجميع قصص هذه المجموعة مؤكد ٠ انظر Chantepie, Hist. des religions, 473

(٣) منهاج العابدين ١٩ ٠

ملكا القبر فيمتحناه • ثم يرتفعان • فاذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فانتشطا كتابا معقودا فى عنقه ثم حضرا معه : واحد سائق ، وآخر شهيدا (١) •

وحديث عن الحسن ، من القرن السابع :

وسيئاته) فاذا رأى حسنة بهش وأشرق ، واذا رأى سيئة غض وقطب(٢) •
تنزل على الشخص عن الموت حفظته فتعرض عليه الخير والشر (أى حسناته

وحديث عن سلمان ، من القرن السابع أيضا :

دخل رسول الله على رجل من الأنصار وهو فى الموت فقال له : ما تجد ؟ فقال : أجدنى بخير وقد حضرنى اثنان : أحدهما أسود ، والآخر أبيض • فقال الرسول : أيهما أقرب منك ؟ قال : الأسود • قال : الخير قليل والشر كثير(٣) •

وأخيرا حديث عن وهب بن الورد ، من القرن الثامن :

ما من ميت يموت حتى يتراءى له الملكان اللذان كانا يحفظان عليه عمله فى الدنيا •••(٤) •

٢ ـ أحاديث حول التنازع على الروح •

حديث عن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، من القرن السابع :

مرض عبد الرحمن بن عوف فأغمى عليه حتى ظنوا انه قد فاضت نفسه • فلما أفاق قال : أتانى ملكان فظان غليظان فقالا : انطلق بنا نحاكمك الى العزيز الأمين • فذهبا بى فلقيهما ملكان هما أرق منهما وأرحم فقالا : أين تذهبان به ؟ قالا : نحاكمه الى العزيز الأمين • قالا : دعاه فانه ممن سبقت اليه السعادة(١) •

وجاء عن الخليفة معاوية بن أبى سفيان حديث منسوب للنبى :

عن النبى أنه قال : أن رجلا كان يعمل السيئات وقتل مائة نفس ظلما ثم تاب • كان ببعض الطريق بعث الله اليه ملكا فقبض نفسه فحضرته ملائكة العذاب وملائكة الرحمة فاختصموا فيه فبعث الله اليهم ملكا فقال لهم : الى أى القريتين كان

---

(١) شرح الصدور ٤٩ •
(٢) شرح الصدور ٣٤ •
(٣) شرح الصدور ٣٤ •
(٤) شرح الصدور ٣٤ •
(٥) شرح الصدور ٣١ ـ ٣٢ •

أقرب فهو منها . فقاسوا ما بينهما فوجدوه أقرب الى قرية التوابين بقدر أنملة فغفر له(١) .

وحديث عن أبى هريرة ، من القرن السابع :

قال : بينما نحن جلوس حول مريض لنا اذ هدأ وسكن حتى ما يتحرك منه عرق . فلما أفاق قال : انى قد مت وذهب بى الى قبرى فاذا انسان حسن الوجه طيب الريح قد وضعنى فى لحدى وطواه بالقراطيس اذ جاءت انسانة سوداء منتنة الريح فقالت هذا صاحب كذا وهذا صاحب كذا . وقالت : انطلق نخاصمك ، فانطلقت الى دار فيحاء واسعة فيها مصطبة من فضة ، وفى ناحية منها مسجد ورجل قائم يصلى فقرأ سورة النحل فتردد فى مكان منها ففتحت عليه فانفتل فقال : السورة معك ؟ قلت : نعم . قال : أما انها سورة النعم . ثم رفع وسادة قريبة منه فأخرج صحيفة فنظر فيها فبدرته السوداء فقالت : فعل كذا وفعل كذا ، وجعل حسن الوجه يقول : وفعل كذا وفعل كذا ، يذكر محاسنى . فقال الرجل : عبد ظالم لنفسه ولكن الله تجاوز عنه(٢) .

وقصة رواها داود بن أبى هند ، من القرن الثامن :

قال : انه مرض مرضا شديدا ، واذا برجل قد أقبل ضخم الهامة ضخم المناكب كأنه من هؤلاء الذين لهم الزط ، فلما رأيته استرجعت فقلت : أتقبضنى ، هل أنا كافر ؟ فبينما أنا كذلك اذ سمعت سقف البيت ينقض ، ثم انفرج حتى رأيت السماء ، ثم نزل على رجل عليه ثياب بيض ثم شبعه آخر فصارا اثنين ، فصاحا بالأسود فادبر وجعل ينظر الى من بعيد وهما يزجرانه ، فجلس واحد منهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال صاحب الرأس لصاحب الرجلين : المس ، فلمس بين أصابعى . ثم قال له : أجده كثير النقل بهما الى الصلاة . ثم قال صاحب الرجلين لصاحب الرأس : المس . فلمس لهواتى ، ثم قال : رطبة بذكر الله(٣) .

وقصة مشابهة عن شهر بن حوشب ، من القرن السابع :

قال : كان لى ابن أخ فغزوت به فمرض فدخلت بعض الصوامع فقمت أصلى فانشقت الصومعة فدخل ملكان أبيضان وملكان أسودان ، فقعد الأبيضان عن يمينه والأسودان عن يساره ، فلمسه الأبيضان بأيديهما ، فقال الأسودان نحن أحق به ، وقال الأبيضان : كلا ، فأخذ أحد الأبيضين اصبعيه فادخلهما فى فيه فقلب لسانه فقال : الله أكبر نحن أحق به (٤) .

---

(١) شرح الصدور ٢٨ .
(٢) شرح الصدور ٣١ .
(٣) شرح الصدور ٣٢ .
(٤) شرح الصدور ٣٣ .

٣ ـ قصص حول سجلات الحساب

تدور جميع هـذه القصص حول آيات القرآن التى تتحدث عن الملائـكة الذين يسجلون حسنات الانسان وسيئاته(١) • أما هذه الكتب التى تسجل فيها الحسنات والسيئات والتى ورد ذكرها فى هـذه الآيات فقـد اشتملت عليها احـدى قصص البند الأول ، وجاء ذكرها فى قصص أخرى كثيرة يمكن الرجوع اليهـا • وهكذا نقع على حديث لابن عباس (٢) ، ذكر فيه الملائكة الحاسـبون ، ووصف بدقة الأقـلام والحبر والورق الذى يستخدمونه(٣) •

٤ ـ قصص حول تجسد الفضائل والرذائل

بلغ هـذا الملمح ذروة نمـائه وتطوره فى التقاليد الاسلامية المتعلقة بشـئون الآخرة ، على الرغم من أن أصله زرادشتى •

جاء فى حديث عن ابن أبى الدنيا ، من القرن التاسع :

ما من ميت يموت الا مثل له عنـد موته أعماله الحسنة وأعماله السيئة فيشخص الى حسناته ويطرق عن سيئاته(٤) •

وجاء فى حديث عن النبى(٥) •

اذا مات المؤمن كانت الصلاة عنـد رأسه ، والصدقة عن يمنـه ، والصيام عنـد صـدره •

وعن عبادة بن الصامت(٦) :

اذا وضع الميت فى حفرته وجاءه منـكر ونـكير خرج القرآن فصار بينه وبينهما ،

---

(١) سورة الاسراء ٧١ ، سورة المطففين ٧ ، ٩ ، ٢٠ ــ ٢١ ، سورة الانشقاق ٧ ــ ١٠ •

(٢) خريدة العجائب ١٨٠ •

(٣) ممـا يجـدر ذكره ان موضوع كتابى الحسنات والسيئات لم يرد ذكره فى مجموعات القصص المختلفة التى ظهرت فى الغرب المسيحى حتى عصر بيـده ، أى القرن الثامن الميلادى • وقـد اعتبر جراف ، لعدم معرفته بالسوابق القرآنية فى هـذا الموضوع ، ان هـذه القصة استنبطت ممـا جاء فى الانجيل بطريق الاستعارة عن « كتاب الحياة » ، فاضيف اليه عن طريق التضاد كتاب السيئات •

(٤) شرح الصـدور ٣٤ •

(٥) شرح الصـدور ٤٩ •

(٦) شرح الصـدور ٥٠ •

فيقولان له : اليك عنــا فانا نريد أن نسأله • فيقول القرآن : والله ما أنا بمفارقه حتى أدخله الجنة ، فان كنتما أمرتما فيــه بشيء فشأنــكما • ثم ينظر اليه فيقول : وهل تعرفنى ؟ فيقول الميت : لا • فيقول : أنا القرآن •• أنا الــذى كنت أســــهرك ليلك ، وأظمئك نهارك ، وأمنعك شهوتك وسمعك وبصرك ، فستجدنى من بين الأخلاء خليل صدق ، ومن الاخوان أخا صدق ، فأبشر فمــا عليك بعــد مسألة منــكر ونــكير من هم ولا حزن

وجاء فى أحاديث مشابهة ما يأتى(١) :

يجيء للمؤمن الصادق فى قبره رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الرائحة فيقول له أبشر بالذى يسرك • فيقول له من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح • ويجيىء للكافر رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك • فيقول له من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث •

اذا وضع الرجل الصالح فى قبره جاءت الصلاة فــكانت عن يمينــه ، وجاء الصيام فــكان عن يساره ، وجاء القرآن والذكر فــكانا عنــد رأسه ، وجاء مشيه الى الصلاة فــكان عنــد رجليه ، وجاء الصبر فــكان ناحية القبر • ويبعث الله عنقــا من العــذاب فتعترضها هــذه الفضائل وتحول بينها وبينه •

٥ ـ قصص تجســد أعضاء الجسم

نقع على قصة نموذجية من هــذه المجموعة فى حديث منسوب الى النبى ، ولو أنها لم تدون الا فى القرن العاشر فى كتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون(٢) •

يكابر الزانى ويقول : ما عصيتك قط يارب • فيقول الله للسانه : اخرس • فيخرس اللسان • فعنــد ذلك تنطق الجوارح ، فتقول اليــد : الهى انى للحرام تناولت • وتقول العين : وأنا للحرام نظرت • وتقول الرجل : وأنا للحرام مشيت • ويقول الفرج : وأنا للحرام فعلت • ويقول الحافظ : وأنا سمعت • ويقول الآخر : وأنا كتبت • وتقول الأرض : وأنا نظرت •

---

(١) شرح الصــدور ٢٣ ـ ٢٤ •

(٢) قرة العيون ٢٩ ـ ٣٠ • ويلاحظ أن أثر هذا الحديث فى القصص المســيحية ـ وهــو حـديث انتشر انتشارا واسعا فى القرنين الأولين للهجرة ـ أمر يصــعب انــكاره • ذلك أنه على الــرغم من أن الــكنيسة لا تجيز ما جاء به ، نرى أنه ورد بنفس العبارات التى صيغ بهــا فى العربية فى القصــيدة المسيحية الألمـانية Muspilli التى سبق ذكرها •

٦ ـ قصص البنـد السابع

تدور جميع قصص هـذه المجموعة حول حـديث نبوى يروى كيفية موت المحسن والمسىء وكيف تصعد الروح الى السماء أو تهبط الى النار(١) •

واليك الخطوط العامة التى تدور من حولها هـذه القصص •

يقبض ملك الموت الروح من جسـد المؤمن الصالح برفق فتخرج تسيل كمـا تسيل القطرة من السقاء ، ويقبضها من جسـد المذنب بسخط من الله وغضب فتتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول • وتحرس المـلائكة روح المؤمن الصالح حتى يوضع فى قبره ، اذ يقوم من باب بيتـه الى باب قبره صفان من الملائـكة يستقبلونه بالاستغفار • ويصبح عنـد ذلك ابليس صيحة يتصدع منهـا بعض عظام جسده ، ويقول لجنوده الويل لـكم كيف خلص هـذا العبد منـكم • فيقولون أن هذا كان معصوما • بعد ذلك يصـعد ملك الموت بروحه الى السـماء حتى يصل بهـا الى العرش • وتروى قصة أخرى ، ولـكن مناقضة مراحل الهبوط بروح الهالك الى النار(٢) •

٤ ـ اذا أردنا أن نلخص المقارنات الجزئية التى عقـدناها فى هـذا الجزء الثالث من كتابنا ، فلنـا أن نقسم الملامح الاسلامية التى ظهرت فى قصص القرون الوسطى المسيحية السابقة للـكوميديا الالهية فئتين • تشتمل الفئـة الأولى على المـلامح الاسلامية التى ظهرت فى قصيدة دانتى ، وقـد تناولنـاها باستفاضة فى الجزئين الأول والثانى من هـذا الـكتاب • ونستطيع أن نعـدد هـذه الملامح ونقرنها بالقصص التى ظهرت فيهـا على النحو التالى :

تقسيم النار الى سبع مناطق (قصة القـديس مكاريوس والادا) أو الى ثمانية أطباق (شاعر ريجيو اميليا) • ضروب العـذاب النموذجية مثـل دروع النـار (القـديس باتريك) توابيت النـار (القـديس باتريك) الـكبريت والمعـدن الذائب (القـديس باتريك وتنـدال) • تغطيس الهالـكين فى بحيرة (القـديس مكاريوس والقـديس باتريك والبريك) تدرج النـار (القـديس بولس) الشياطين وفى أيديهم المقامع (تندال) اندفاع الأرواح وانجذابهـا فى زفير وشهيق لوسـيفر (تنـدال •

---

(١) شرح الصـدور ٢٢ و ٢٣ •

(١) توجـد سوابق اسلامية لموضوعات اخرى تناولتها مجموعة من القصص المسيحية ناقشها باتيوشكوف فى (Romania باريس ١٨٩١) وانظر شرح الصـدور ٢٤ ، ٢٥ ، ١٣٦ •

والقـديس بولس) المذنبون معلقين من كعوبهم (القـديس باتريك ، البريك ، القـديس بولس) أو مصلوبين على الأرض (القـديس باتريك) أو تاكلهم الحيات (القـديس مكاريوس ، القديس باتريك ، والبريك) • أو محملين بالأثقال (الادا) أو وهم يجبرونه على ابتلاع مغانمه المحـــرمة (ترســـيل) عذاب الزمهرير (تندال ،القديس باتريك ، والبريك) وصف العملاق المقيـد بالسلاسل (القـديس مكاريوس) ولو سيفر وهو مغلول فى قاع جهنم (ألبريك) •

وتشتمل الفئة الثانية على الملامح الاسلامية التى جاءت فى قصص مسيحية أخرى ، ولـكنها لم ترد فى الـكوميديا الالهيـة • وبمـا أن هـذه الملامح لم تظهر فى الجزئين الأول والثانى من هـذا الـكتاب ، فقـد توسعنا فى تبيانها فى هـذا الجزء • واليك أهم هـذه الملامح •

قصة الميزان (الفصل الخامس) ، الجسر الضيق الزلق (تنـدال ، والقـديس باتريك ، والقـديس بولس ، ورئيس الدير يواكيم) عـذاب القبر (هيو البراندنبرجى ، والقـديس براندان) الشفاعة فى اليوم الآخر (الفصل الخامس) ، عرى الخطاة (الفصل الخامس) التعـذيب بالبقرة الثائرة (تنـدال) اطلاع المذنبين على الجنـة فتصيبهم حسرة (تنـدال) الشيطان ذو المـائة يد (تنـدال) المذنبون وقـد تجسدوا فى طيور سود (الادا وغيرها فى الفصل التاسع) الصالحون والملائـكة وقـد تجسدوا فى طيور بيض (القـديس مكاريوس ، والقـديس براندان) آدم فى الجنة وهـو يضحك ويبكى فى نفس الوقت (ترسيل) تصوير الحياة فى الجنة على أنها حفل دينى ، أو على أنهـا صورة من الحياة فى قصور الاقطاعيين (ايوان الجنة ، وبستانى الجنة) • وأخيرا تلك الخصيات الأساسية التى انطبعت بهـا مجموعة القصص التى أوردناها فى الفصول الأربعة الأخيرة ، وعلى الأخص رحلات القـديس برندان بمـا تشتمل عليه من مناظر مختلفة مثـل مائدة الطعام السماوية ، والـكروم الهـائلة الحجم ، وعـذاب يهوذا ، ووصف المتوحـد الذى يعيش فى وسط البحر ، والجزيرة الحوت ، وقصص النائمين ، وقصص الراحة من العـــذاب ، وقصص تنازع المـــلائكة والشياطين لروح الميت ، بمـا فيهـا من سجلات للحسنات والسيئات ، وتجســـد الفضائل والرذائل ، واتهـام أعضاء الجسد لروح المذنب •

ومن ثمـه فاننـا لا نملك ، نظرا لـكثرة الملامح الاسلامية فى القصص المسيحية السابقة للـكوميديا الالهيـة ، الا أن نستنتج استنتاجا واحـدا : هو أن التصورات الشاعرية الـكثيرة المتعلقة بالحياة الأخرى ، والتى شاعت فى أوربا قبـل عصر دانتى ،

قـد انتقلت الى الأدب الأوربى عنـد طريق الاتصال بالأدب الاسلامى ، ولم تنبثق عن المجتمع الأوربى المسيحى ، ذلك أن عـددا كبيرا من هـذه القصص الشاعرية ، فضلا عن ملامحها الوصفية ، لا ترتـكن على أساس من القصيدة المسيحية ، وانمـا ترجع بأصولها الى أديان شرقيـــة أخـــرى ، دخلت فى عقـــائد المســـلمين وانتقلت عن طريقهم ٠

٥ ـ ومن ثم فان الشك الذى أقلقنا فى نهاية الجزء الثانى من هـذا الـكتاب قـد تبـدد ٠ وأما الاسـتنتاج الذى ننتهى اليه فى هـذه المرحلة من بحثنا نظرا للمشابهات الـكثيرة التى كشفنا عنها بين الـكوميديا الإلهية وبين الأدب الإسلامى المتعلق بالأخرويات ، فهو أنه توجد علاقة تربط قصيدة دانتى بلأدب الإسلامى ٠ من هنا نعارض بهـذا الرأى رأى الدانتيين القائل بأن تصور دانتى للـكوميديا الإلهية ربما تأثر ، فقط وبطريقة غير مباشرة ، بالقصص المسيحية السابقة له ٠ ثم ان رأى الدانتيين هـذا يصبح بلا أى أساس ، فى الوقت الذى يتبين فيه أن هـذه القصص المسيحية هى الأخرى انما تحمل فى طياتها دلائل لا شك فيها عن التـــأثير الإسلامى ٠ والآن يظهر لنا دانتى وقد ارتبط بلإسلام برباط مزدوج ٠ أولا بالعـــلاقة غير المباشرة بالملامح الإسلامية التى تعبر عنها القصص المسيحية السابقة له ، وثانيا بالعلاقة المباشرة بالعناصر الإسلامية التى تشتمل عليها قصيدته ٠

غير أن سؤالا يفرض علينا نفسه الآن بعد أن بلغنا فى استقصاء الحقائق هـذه الدرجة الـكبيرة : هل عرف دانتى المؤلفات الإسلامية المتعلقة بالأخرويات ، وبأى وسائل ان كان هـذا صحيحا ؟ أما الإجابة عن هـذا السؤال فسوف نـكمل بهـا سلسة أفـكارنا فى الفصل الرابع من هـذا الـكتاب ٠

الفصـــل الرابع

أرجحية انتقـال النمـاذج الإسـلامية
الى أوربا المسيحية وعلى الأخص الى دانتى

١ ـ المقـــدمة

١ ينبغى للباحث اذا ما أراد اثبات حالة محاكاة أدبية ـ فى الحدود التى تهيئها المادة التاريخية التى تحت يديه للإثبات ـ أن يجد بادىء ذى بدء جوابا على ثلاثة أسئلة وثيقة الصلة بهذا الموضوع : أولا ، هل يوجد بين النسخة التى يفترض فيها المحاكاة والنموذج الأصلى ملامح تشابه كثيرة ولافتة للنظر ، بدرجة تجعل نسبتها الى مجرد المصادفة أو الاستمداد من أصل مشترك أمرا مستحيلا ؟ وثانيا ، هل يمكن اثبات أن هذا النموذج الذى يفترض أنه النموذج الأصلى ، كان موجودا فعلا قبل النسخة المزعومة أو قبل المحاكاة ؟وثالثا ، هل كان مؤلف النسخة المفترض فيها المحاكاة يعلم بالنموذج الأصلى ، أو من ناحية أخرى ، هل كانت تفصل بين الكاتبين فى الحقيقة هوة واسعة تجعل اتصالهما مستحيلا ؟

أما السؤالان الأول والثانى ، اللذان يعتبران مفتاح هذه المشكلة فى الحقيقة ، فقد قررنا فيهما رأيا محددا فيما سبق • وأما الثالث فأقل أهمية • ذلك أنه حتى اذا كانت المعلومات التاريخية من حيث العلاقة بين الأصل والتقليد غامضة ، فان هذا أمر على أية حال لا يقلل من قوة البرهان المبنى على التشابه بينهما ، وعلى الأخص عندما تكون أوجه التشابه واضحة ومحدودة تماما ، وكثيرة التكرار ، مما يتعذر معه نسبة التشابه الى مجرد المصادفة •

٢ ـ هذه هى حالة المشكلة التى نحن بصددها • ذلك أننا قد ننسب ملامح التشابه العامة بين الحل الإسلامى والحل الذى وضعه دانتى للمشكلة اللاهوتية الخاصة بالحياة الأخرى ، أى النظريات والعقائد المشتركة بينهما من حيث التصورات المتعلقة بالإيمان بالأخرويات ، الى مجرد المصادفة ، أو الى مصدر مسيحى

---

(١) عالج المؤلف المشكلة المعروضة على البحث فى هذا الفصل محتذيا القاعدة التى وضعها استاذه ريبيرا ، الذى رتب القواعد التى تحكم المحاكاة ترتيبا منهجيا فى المحاضرتين الخامسة والسادسة من كتابه Origenes del Justicia de Aragon

مشترك • غير أن افتراض المصادفة فى حالة ما اذا ظهرت هذه العقائد والنظريات فى نفس الاطار الفنى ، واذا ماطرحت الفكرات بنفس الرموز ، ووصفت بتفاصيل متشابهة ، أمر لا يمكن التمسك به ، أو تقديم الدليل على صحته •

الفرق هنا واضح ؛ ذلك أن الفكرات أو النظريات فى هذا الخصوص محدودة العدد • وبما أنها نتاج اتجاه فكرى سارت فيه الإنسانية خلال العصور ، فانها من ثمة تندرج بالضرورة تحت عدد قليل من الأبواب الرئيسية • وليس هذا شأن الصور التى لا تعدو أن تكون انعكاسا للأشكال الفعلية للأشياء المادية ، ومن ثم تكون متعددة ومختلفة مثل الأشكال الأصلية نفسها • لذلك فانه يستحيل أن يتكون تصوران لفكرة واحدة بذاتها يتفقان اتفاقا فعليا فى التفاصيل فى عقلين لشخصين مختلفين ، الا اذا وجدت بينهما حلقة وصل • والحق أن حدوث مثل هذه المعجزة أمر بعيد الاحتمال ، ذلك أن المصادفة هنا لا تتعلق بالتصورات التى تنشأ فى عقلين مستقلين ، وانما تتعلق بالخيال الفنى لشخص بذاته هو دانتى ، ومجموعة الخيالات والتصورات لجماعة كبيرة هى الجماعة الإسلامية • وبعبارة أخرى ، يصبح لزاما علينا أن نقر بأن دانتى استطاع بمجهوده العقلى وحده أن يتصور فى سنين قلائل نفس الصورة الضخمة المتعددة الجوانب للحياة الأخرى ، التى استغرق رواة الأحاديث والصوفيون والشعراء المسلمون قرونا من المحاولات الفنية لوضع تفاصيلها واحكامها • وأما الادعاء بابتكار دانتى لها فأمر يتطلب منا وأن نقيم الدليل عليه ببراهين تبين كيف استطاع دانتى أليجيرى أن يصنع هذه المعجزة • وهنا يقع عبء الإثبات على الدانتيين أنفسهم ، فضلا عن أنه يقع عليهم أيضا عبء تفسير لغز المشابهات بين قصيدة دانتى والقصص الإسلامية اذا لم تكن هناك فعلا حلقة وصل بين هذا وذاك ، ودليل على هذا الاتصال الضرورى لكل محاكاة •

٣ — نستطيع أن نقدم الدليل على المحاكاة تحت رءوس موضوعات ثلاثة • أولا ، اثبات أن الشعوب المسيحية الأوربية فى القرون الوسطى حصلت على معلومات تتعلق بعقائدها وتصوراتها للحياة الأخرى عن طريق الاتصال بالمسلمين • وثانيا ، أن دانتى قد استقى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من المصادر الإسلامية أفكارا لقصيدته • وأخيرا ، أن هناك دلائل على تأثره بهذه المصادر الإسلامية •

- ٢ -

الاتصال بين الإسلام وأوربا المسيحية
فى القرون الوسطى

١ - انتشر الإسلام بعد فتح العرب للبلاد المتاخمة لجزيرتهم انتشارا سريعا ، فامتد الى شمالى أفريقيا ، وأسبانيا ، وجنوبى فرنسا ، وجنوبى ايطاليا ، ونشر جناحيه على جزر البليار وجزيرة صقلية • وأثرت الحروب أثرا كبيرا معروفا فى نقل صورة دقيقة لكل من الطرفين عن الآخر • ثم ان الاتصال بين الحضارتين الاسلامية والمسيحية فى زمن السلم ، قد تحقق أيضا عبر حدودهما الشرقية والغربية من خلال التجارة •

نشطت حركة تجارية واسعة ابتداء من القرن الثامن الميلادى حتى القرن الحادى عشر ، بين البلاد الإسلامية الشرقية ،وروسيا وغيرها من بلدان أوربا الشمالية • فقد كانت البعثات التجارية تتجة بانتظام من بحر قزوين ، وتصعد فى نهر الفولجا ، حتى تصل الى خليج فنلندا ، ومن ثمة عبر البلطيق الى النمرك ، وانجلترا ، بل الى ايسلندا أيضا • وتشهد الكميات الكبيرة من النقود العربية التى وجدت فى أنحاء مختلفة من هذه المنطقة التجارية الواسعة على أهميتها(١) • وسارت التجارة ابتداء من القرن الحادى عشر فى الطريق البحرى الأسهل عبر البحر المتوسط ، وفى الدرجة الأولى بواسطة سفن التجار المسلمين أو سفن تجار جنوا والبندقية • واستقرت جاليات تجارية ايطالية كبيرة فى جميع الموانىء الإسلامية فى البحر المتوسط ، الذى أصبح مفتوحا لتنقل التجار والمستكشفين والمغامرين عبر مياهه كما يحلو لهم • ولقد خلف لنا بنيامين التوديلى صورة جديرة بالثقة فى « دليله السياحى » الذى ألفه فى القرن الثانى عشر ، عن العلاقات الوثيقة بين المسلمين والمسحيين فى ذلك الوقت •

ويضاف الى ازدهار التجارة فى ذلك العصر ، نشاط الحركة الدينية فى عصر الايمان هذا • فقد تجدد الحج بعد توقفه حينا فى أثناء الفتوحات الإسلامية الأولى ، الى الأرض المقدسة ، ولما وطد شارلمان حماية الفرنج على الكنائس المسيحية

---

(١) Cf. Babelon, Du Commerce des Arabes dans le nord de L' Europe avant les croisades pp. 33 – 47 and passim .

فى الشرق ، واكــد هــذه الحماية بمعاهدات ، نشأت الفنادق المسيحية والأديرة فى الأراضى الإسلامية • وازداد عدد الحجاج فى خلال القرون التاسع والعاشر والحادى عشر ، حتى لقد بلغت بعض البعثات اثنى عشر الفا ، ولقــد كانت هــذه البعثــات فى واقع الامر مقــدمة للحروب الصليبية(١) •

اما أثر الحروب الصليبية فى العمل على تقارب العالم الإسلامى وأوربا المسيحية ، فأمر لا يحتاج الى الإفاضة فى شرحه • وقد نشبه الدويلات المسيحية التى تأسست بعد الحرب الصليبية الأولى بمستعمرة أوربية زرعت فى قلب الإسلام بين الفرات والنيل • والحق أن التنظيمات المدنية والعسكرية لهذه الدويلات قد احتذت المثال الإسلامى ، حتى لقد تشرب الفرسان الفرنجيون الذين تدفقوا على سوريا من جميع أنحاء أوربا ، ومن أبعد مناطقها مثل اسكنديناوة أيضا ، بالعادات الشرقية ، وأكلوا الأكل الشرقى ، ولبسوا الملابس الشرقية (٢) •

ثم ان اخفاق المسيحيين فى تدمير الإسلام بالسيف ، قــد ولد بدوره فــكرة الغزو السلمى للأرواح ، وهــذا أمر أدى الى تأسيس البعثات التبشيرية فى القرن الثالث عشر وارسالها الى الأراضى الإسلامية • ولقــد كان لزاما على الرهبان الفرنسسكان والدومنكان الذين كونوا هــذه الرابطة الجديدة للاتصال الروحى ، أن يقوموا بدراسة عميقة للأدب الدينى الإسلامى وللغة الإسلامية ، وأن يقيموا سنين طويلة بين المسلمين(٣) •

٢ ــ غير أن اتصال الحضارتين الإسلامية والمسيحية فى صقلية وأسبانيا ، كان من وجهة نظرنا ، أهم على أية حال من مسالك الاتصال العامة هــذه • بدأ النورمان غاراتهم القرصانية فى القرن التاسع الميلادى على سواحل المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط ، واستقروا تدريجيا فى مدن اسلامية فى اسبانيا مثل لشبونة وأشبيلية وغيرهما ، كما استقروا فى صقلية(٤) وفى القرن الحادى عشر غزا صــقلية التى كانت قــد تشبعت بالإسلام ، أسرة مالــكة نورمانية ، حكمتها حتى القرن الثالث عشر •

---

(١) Brehier, L'eglise et L'orient au moyen age, pp. 20 - 50

(٢) المرجع السابق ٨٩ ــ ١٠٠ ، ٣٥٤ •

(٣) المرجع السابق ٢١١ •

(٤) Dozy, Recherches, II, 271. Cf. Amari, Storia dei musulmani di Sicilia, III, part 2, 365, 445 et seq, Schiaparelli, Ibn Giobeir, 322 and 332.

وكان سكان صقلية فى خلال هذه الفترة عبارة عن خليط من الأجنـــاس المتبـاينة التى تدين باديان مختلفة ، وتتـكلم لغات متعددة • وكان بلاط الملك النورمانى روجر الثانى فى بالرمو يتـكون من مسيحين ومسلمين ، يلم جميعهم المـاما تاما بالثقافتين العربية واليونانية • وكان الجنود والفرسان النورمان ، والعلماء ورجال الأدب المسلمون من أسبانيا وشمالى أفريقيا ومن الشرق ، يعيشون جنبا الى جنب فى خدمة الملك ، مكونين هيئة بلاط امبراطورى ، هى صورة طبق الأصل لهيئات القصور الإسلامية من جميع الوجوه • أما الملك نفسه فكان يتكلم ويقرأ العربية هو أيضـا ، ويحتفظ بحـــريم على الطريقة الإسلامية ، ويلبس الملابس الشرقية • ليس هـذا فحسب ، بل ان نساء بالرمو المسـيحيات قـد قلدن أخواتهن المسـلمات فى تنقبهن وفى طريقة لبسـهن وفى لغتهن •

أما الوقت الذى أصبحت فيه بالرمر برمتها أشبه ما تـكون ببلاط اسلامى ، فالنصف الأول من القرن الثالث ، فى خلال حكم الامبراطور فردريك الثانى ، ملك صقلية وامبراطور المـانيا الذى حكم مـدة طويلة • فعل الامبراطور الفيلسوف حر الفـكر الذى كان يتـكلم عـدة لغات ، كما فعل سابقوه فى الحرب والسلم ، وأحاط نفسه بالمسلمين • فقـد كانوا أساتذته وزملاءه فى العلم ، ورجال حاشيته ، وضباطه ووزراءه • ولقـد كانوا يصحبونه فى رحلاته الى الأراضى المقـدسة والى الأراضى الإيطالية • ووضع حريمة فى صقلية وايطاليا تحت اشراف الخصيان • ولا عجب أن كان على الثوب الذى دفن فيه نقوش عربية • وأما البابوات وملوك العالم المسيحى الآخرون ، فقـد صاحوا علنا ضد فضيحة بلاط هـذا الامبراطور ، الذى على الرغم من أنه كان يمثل أعلى سلطة حكومية مسيحية فى القرون الوسطى فى أوربا ، لم يكن مسيحيا الا بالإسم فقط •

ولقـد احتفظ هـذا النصير الـكبير للآداب والعلوم بمجموعة فريدة من المخطوطات العربية فى جامعة نابولى التى أسسها فى سنة ١٢٢٤ م • وكان لديه مؤلفات أرسطو وابن رشد فى ترجماتها اللاتينية ، وأرسل نسخا منها لجامعتى باريس وبولونيا • ثم انه لم يجمع فى بلاطه فلاسفة وفلـكيين ورياضيين مسلمين فحسب ، وانما راسل رجال العلم فى طول العالم الإسلامى وعرضه •

والحق أن مدرسة الشعر الصقلية ، التى استخدمت فى بادىء الأمر اللغة العامية ، ووضعت أسس الأدب الإيطـــالى قـد نشـــأت فى بلاط فردريك الثـــانى • ثم أن الشـــعراء المسيحيين كانوا يحتذون حـذو الشـعراء العـرب التروبادور الذين

كانوا يتجمعون فى بلاطه • وهـذه حقيقة هامة من حيث أنها تفصح عن مرحلة من مراحل الاتصال بين الأدبين المسيحى والإسلامى(١) •

٣ — وعلى الرغم من أن صقلية النورمانية كانت مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية ، فان أسبانيا العصور الوسطى قد فاقتها فى هذا الميدان • فقد كانت هى الأخرى مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية ، ولكن على نطاق أوسع ، ومن خلال تاريخ يمتد قرونا أسبق • ذلك أن اسبانيا كانت أول دول أوربا المسيحية التى اتصلت اتصالا وثيقا بالإسلام • فقد عاش الشعبين الإسلامى والمسيحى فى أسبانيا خمسمائة عام من القرن الثامن الى القرن الثالث عشر ، عندما ولد الشاعر الفلورنسى ، جنبا الى جنب سواء فى زمن السلم أو الحرب •

أقام المسيحيون الذين دانوا بالولاء للملوك المسلمين أول حلقات الاتصال بين الشعبين المسيحى والإسلامى • فاعتنق مسيحيو قرطبة منذ زمن مبكر يرجع الى القرن التاسع الميلادى الأسلوب الإسلامى فى طريقة المعيشة ، بل ان بعضهم اتخذ حريما وباشر عادة التختين • ولقد نعى عليهم ألفاروا القرطبى فى مؤلفه Indiculus luminosus شغفهم بالشعر والأدب القصصى العربى ، وانغماسهم فى دراسة الفلسفة والعقائد اللاهوتية الإسلامية •

ولقد توثقت عرى الاتصال الذى بدأ فى القرون الأولى للغزو الإسلامى مع مرور الزمن ، اذ استمر اختلاط العنصرين اللذين يتكون منهما السكان باطراد على الرغم من فترات الصراع المتقطعة • وهكذا استخدم مسيحيو طليطلة — وهى عاصمة القوطيين القديمة — اللغة العربية فى كتابة وثائقهم العامة حتى القرن الحادى عشر بعد استرجاع المدينة من أيدى المسلمين • ومن ثمة فان الفرض القائل بأن هؤلاء المسيحين الذين أصبحوا أنصاف عرب ، قد نقلوا الى اخوانهم فى الدين من سكان شمالى اسبنيا ، بل فى بعض أنحاء أخرى من جنوبى أوربا ، معرفة بالثقافة الإسلامية ، أمر يمكن قبوله بسهولة • ولا شك فى أن هجرة كثيرين من هؤلاء المسحيين الذين كانوا يخضعون للحكم الإسلامى فى الأندلس الى الشمال بصورة مستمرة ، حقيقة تدعم هذا الرأى(٢) •

---

(١) Amanri III, 2, pp. 589 - 711 : 888 - 890

(٢) Simonet, Hist. mozarabes, pp. 216 - 219, 252, 273, 292, 368, 384, 690 .
ويلاحظ أن الرهبان والجنود المستعمرين قد تدفقوا فى خلال القرن العاشر على ليون ، حيث مكنتهم

وينبغي أن نضيف الى أثر هؤلاء ، عاملا آخر أثر فى نقل الثقافة الإسلامية ، هو الرقيق الذين كانوا من أصل مسيحى • وهؤلاء كانوا يستقدمون بأعداد كبيرة من شمالى أسبانيا ومن جميع أنحاء أوربا ، ومن أبعد مناطقها مثل روسيا ، ليخدموا فى بلاط أمراء قرطبة وفى جيوشهم • ولقد استقر كثيرون من هؤلاء ولا شك فى مناطق استرقاقهم حيث حصلوا على الثروة والجاه ، غير أن عددا منهم فيما نظن قد عادوا الى مواطنهم الأصلية فى سن الشيخوخة(١) •

اذا حاولنا أن نعدد طرق الاتصال الأخرى الكثيرة بين أوربا المسيحية وأسبانيا الإسلامية ، أنبغى لنا أن نرسم فى أذهاننا صورة المجتمع الإسلامى المدهشة فى أسبانيا • فقد جذبت أسبانيا باعتبارها مركز الثقافة فى الغرب الشعوب المسيحية الأوربية نصف الهمجية لزيارتها بصورة لاتقاوم • وتدفق عليها رحالة من جميع أنحاء أوربا ، من أولئك الذين كانوا يميلون الى العلم والدراسة أو يتعاطون التجارة ، والذين سيطرت عليهم رغبة جامحة فى رؤية أعاجيب هذه الحضارة الكلاسيكية الشرقية •

وينبغى لنا أيضا اذا أردنا أن نكمل الصورة ، أن نضيف الى هذا كله التجار اليهود باعتبارهم أداة من أدوات الاتصال • ذلك أنهم عقدوا روابط مادية ومعنوية بين اسبانيا الإسلامية والمدن الأوربية المسيحية الرئيسية ، عن طريق تجارتهم الدولية المزدهرة وميلهم للغات ومعرفتهم بالعلوم الإسلامية • كذلك لا ينبغى أن ننسى الدور الذى لعبه أسرى الحروب الذين كانوا يعودون الى أوطانهم بعد قضاء سنين طويلة فى الأسر ، ولا الآثار التى كانت تترتب على الزيارات الكثيرة التى كان يقوم بها السفراء المسيحيون لمختلف بلاطات أمراء الأندلس المسلمين(٢) •

٤ ـ أخذ المسلمون الذى خضعوا للملوك المسيحيين الذين كانوا يستعيدون شيئا بعد شيء الأراضى الأسبانية من أيدى المسلمين ، مكان المسيحيين الذين كانوا من قبل يخضعون للملوك المسلمين ، فى نقل الثقافة الاسلامية • والحق أن تفوق الثقافة الاسلامية الذى لم يكن ينكره احد ، كان سببا دعا المسيحيين الى احترامها

= ثقافتهم الأرفع من ان ينالوا المناصب الكبرى فى البلاط الملكى ، ، وفى الادارات الاكليروسية والمدنية للدولة •

(١) Ribera discurso, Hist., pp. 40 - 45

(٢) Ribera, disc. 46 - note I

واجلالها . ثم ان الملوك المسيحيين عملوا فعلا على انتهاج سياسة اكتساب العنصر الاسلامى فى المجتمع الذى يخضع لحكمهم ، ومن ثمة أدت هذه السياسة الى استيعاب المسيحين للحضارة الاسلامية بطريقة أسرع وأسهل . وعلاوة على ذلك فقد كانت علاقات المصاهرة بين البيوت المالكة فى قشتالة وأراجون ، والأسر الاسلامية الحاكمة أمرا مألوفا يتكرر حدوثه بين الحين والحين .

وهكذا رأينا أن ألفونسو السادس الذى استعاد طليطلة تزوج ابنة ملك أشبيلية المسلم ، وكانت عاصمته أشبه ما تكون بعاصمة اسلامية . ولقد انتشر هذا الوضع بسرعة بين الناس العاديين . فقد لبس المسيحيون على الطريقة العربية ، وطعمت لغة قشتالة الناشئة (المشتقة عن اللاتينية) بعدد كبير من الكلمات العربية . ولا شك فى أن أثر المسلمين الذين خضعوا للملوك المسيحيين كان مسيطرا فى التجارة والفنون والحرف المختلفة والتنظيمات البلدية ، وفى الأعمال الزراعية . وهكذا تمهد الطريق للغزو الأدبى الذى بلغ ذروته فى بلاط الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم(١) .

وأصبحت طليطلة خلال القرن الثانى عشر مركزا هاما لنشر العلوم والآداب "عربية فى أوربا المسيحية . فقد بدأ رئيس الأساقفة ريموند ، فى النصف الأول من هذا القرن ، بعد قليل من استرداد المدينة من المسلمين ، فى العمل على ترجمة اشهر المؤلفات فى العلوم والمعارف العربية . فترجمت مؤلفات : الكندى ، والفرغانى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، والبتانى ، والرازى ، وغيرهم ، كما ترجمت أيضا مؤلفات اليونان التى كان العرب قد ترجموها من قبل ، من العربية الى لغة قشتالة الرومانسية (المشتقة من اللاتينية) بمساعدة المسلمين واليهود ، ثم ترجمت منها الى اللاتينية وانتشرت فى جميع أنحاء العالم الغربى .

٥ — ولقد أشرف الفونسو الحكيم — الذى تلقى الثقافة الإسلامية العربية فى البيئة التى نشأ وعاش فيها — عندما تولى العرش على أعمال الترجمة ، وجمع فى بلاطه معاونين من العلماء والحكماء الذين ينتمون للأديان الثلاثة . وهذا مثال من التسامح الذى انطبع به العصر الاسلامى فى الأندلس . ولقد اهتم الفونسو بترجمة

---

(١) Ribera, Origenes Justicia, 19 - 84, Fernandez y Gonzalez, Mudejares, 224 et passim.

العلوم والآداب الاسلامية ، أمر علاوة على ذلك سترجمة التلمود والمؤلفات القبلانية والقران(١) .

ثم ان تقدم المسيحيين فى استعادة الأندلس من المسلمين قد فتح آفاقا جديدة للعمل ، فأصبحت أشبيلية والمرية بعد استعادتهما مركزين من مراكز الفلسفة والآداب التى تنافس طليطلة . وكان الفونسو — فى أثناء حياة والده — حاكما للمرية ، وفيها بنى مدرسة كان يحاضر فيها العلامة المسلم الرقوطى لطلاب العلم المسلمين والنصارى واليهود (٢) . وكان أحد العلماء المسلمين يعلم الرياضيات والفلسفة فى سنة ١١٥٨ للمسلمين والمسيحيين فى بيزه ، وكان المسلمون ورجال الاكليروس المسيحى يناقشون فى مدرسته المسائل اللاهوتية بحرية تامة(٣) . ومما لا مرية فيه أن هذه السوابق قد شجعت الملك ، فقرر أن يوافق رسميا على اندماج وانصهار الحضارتين الاسلامية والمسيحية سويا . ومن ثمة أنشأ فى أشبيلية مدرسة لاتينية عربية عامة ، كان الأساتذة المسلمون يعلمون فيها الطب والعلوم الى جانب الأساتذة المسيحيين(٤) . وهذا أمر فى حد ذاته يعبر تعبيرا بليغا عن العلاقات الوثيقة التى قامت بين عنصرى السكان فى النصف الأول من القرن الثالث عشر .

— ٣ —

انتقال قصص الحياة الأخرى الاسلامية
الى اوربا المسيحية والى دانتى

١ — قد يكون اى من المسالك التى ذكرناها آنفا هو الوسيلة التى أدت الى انتقال أخبار القصص المتعلقة بالحياة الأخرى الشائعة فى العالم الاسلامى ، الى مختلف

---

(١) Jourdain, pp, 149 - 151, Fernandez y, Gonzalez 154 - 159, Amador pe Los Rios, Hist. Crit. de La liter. esp. III, ch. 9- 12.

(٢) Al - Makari, Analectes, II 510, cf. Ihata, II, fol. 153 V

(٣) Ihata, III, fol 85 .

(٤) Amador De Los Rios, III, 496. Ballesteros, Sevilla en el Siglo XIII doce. Nos 67 and lo9 La Fuente Hist. de la Universidades, I, 127 130.

انحـاء أوربا ، بل الى أبعـد مناطقها(١) • فقد بينـا أن القصص التى ظهرت فى أيرلندا واسكنديناوة ، وفرنسا ، وألمـانيا ، وايطـاليا — والتى تسمى بالقصص السـابقة لدانتى — هى فى أغلب الظن مبنية على أساس النماذج الاسـلامية • وهى نمـاذج قـد تـكون انتقلت الى أوربا المسيحية عن طريق الحجاج ، والصليبيين ، والمبشرين ، والتجار ، أو عن طريق المغـامرين النورمان ، أو الرقيق ، أو رجال الأدب والعـلم ، أو الرحالة العاديين • والحقيقة أن الرأى القائل بالمحاكاة انمـا يصبح ، فى الوقت الذى يثبت فيه امكانيـة وجود حلقة اتصال فعلى ، ذلك الفرض المؤكد الـذى يتطلبه البرهان التاريخى ويقبله قبولا حسنا •

كذلك ينبغى لنـا أن نضع فى حسباننا أن أغلبية القصص المسيحية السابقة لـكوميديا الالهية ، قـد ظهرت بعـد القرن العاشر الميلادى ، فى حين أن الأحاديث النبوية المتعلقة بالحياة الأخرى انمـا ترجع الى عصور أسبق كثيرا • أما أن هـذه الأحاديث قـد شاعت شيوعا شعبيا فأمر مؤكد • وأما أن الناس ظلوا يتناقلونهـا شفويا ، فأمر ساعد على انتشارها ، فضلا عن أنه جعل خلق قصص جديدة أسـهل كثيرا • ومن هنـا فاننـا لا نستطيع أن نعتبر أن عصر التأليف والاختلاق الشعبى

---

(١) نلاحظ هنـا ان بلوشيه قـد أغفل او تجاهل تمـاما فى كتابه « المصادر الشرقية للـكوميديا الالهيـة « Blochet : Sources Orientales de la Divine Comedie أقرب وأهم المسالك الدائمة للاتصال بين ثقافتى الشرق والغرب ، فقـد رأى ان المسالك الرئيسية هى عبارة عن طرق التجارة من فارس الى شمال شرقى أوربا عن طريق بيزنطة ، والعلاقات الثقافية بين أيرلندا وايطاليا ، وبين ايطاليا وبيزنطة ، ثم الحروب الصليبية • أما أسبانيا الاسلامية فانه نادرا ما ذكرها كوسيلة للاتصال • ويلوح بان هذا الاتجاه انما يرجع الى أنه كان يعتقد بان القصص الأدبية المسيحية السابقة لدانتى مثل (رحـلات القديس براندان ، ورؤى القديس بولس ، والقديس باتريك وتنـدال مستقاة من العروج الفارسى لأردافيراف الى السماء عمـا هى مسـتقاة غير أنه يعترف فى واقع الأمر بان المعراج المحمدى قد يكون أثر أيضا فى هذه ـد ما نقله الصليبيون من الشرق فحسب • والحقيقة أننـا قـد بينـا فيمـا سبق ان اكثر العناصر الاسلامية فى القصص السابقة لدانتى قـد استقاها أصحابها من الأحاديث النبوية المتعلقة بالحياة الأخرى ، وأن قليلا فقط من هـذه العناصر استقى من قصة المعراج • وأما مسألة العلاقة المباشرة بين القصص السابقة لدانتى والقصص الفارسية فاقل أهمية • وعلاوة على ذلك فقـد اكتفى بلوشية بأن يبين اوجه التشابه بين القصص السابقة لدانتى والمصادر الشرقيـة ، ولـكنه نادرا ما زودنا ببرهان وثائقى • والحق أنه لو كان قـد زودنا بهـذا البرهان لظل طبيعيا أن نعلل التشابه بأنه راجع الى أثر الأدب الدينى الاسلامى ممـا هو راجع الى أى اتصـال مبـاشر بفارس • ولقـد بين جوردان Recherches,208 et seq, منـذ وقت طويل كيف ان تاثير بيزنطة، والصليبيين فى نقل العلوم والفلسفة الى الغرب المسيحى أمر قليل الأهمية بالنسبة للمراكز العربية الأسبانية •

قــد باغ نهايته قبــل جمع البخارى ومسلم لمجموعتيهما من الأحاديث الصحيحة • ثم ان شيوع الأحاديث وشعبيتها لم تقل بعــد ذلك • فقــد كان المسلمون فى كل مكان ومن جميــع الأعمار ، ومن مختلف الطبقات الاجتماعية ، وسائل فعــالة لانتقال هــذه الاحاديث ، وكثيرا ما كانوا يقومون برحلات طويلة لسماع أحاديث جــديدة ، تزيد من مجموعة معلوماتهم ومعــارفهم الدينيــة • وبصرف النظر عمــا يكمن فى طبيعة هــذا الموصوع من جاذبية للجماهير ، فان تعلم الأحاديث والعمل على نشرها انمــا كان يعتبر عملا من أعمــال الايمــان • ومن ثمــة فلا عجب أن كان رواة الأحاديث فيمــا قبل القرن التاسع الميلادى يعــدون بالآلاف •

٢ ـ نستطيع القول بأن أسبانيا كانت منــذ أوائل عهود اتصالهــا بالمسلمين ، أكبر البلدان انغماسا فى دراسة هــذه القصص ، ذلك أن تشبث الفقهاء فيها بالدين كان وحــده سببا فى انتاج طوفان من الأحاديث • والحقيقة أن أسبانيا قــد اعتبرت فى القرن التاسع الميلادى موطنا للأحاديث النبوية ، وكان طبيعيا أن تــكون أحاديث عروجه الى السماء أكثرها شيوعا ، باعتبارها الأحاديث التى تروى فصلا هاما من فصول سيرته ــ وهى رواية انجازه لمعجزته الــكبرى ، التى أصبحت عقيدة من عقائد الاسلام ، التى لايزال المسلمون فى كل أنحاء العالم يحتفلون بذكراها حتى يومنا هذا •

وممــا لا شك فيــه أن معرفة بالقصص الاسلامية قــد نفــذت ان عاجلا أو آجلا من خلال الحاجز الواهن الذى يفصل بين المفهومات المسيحية والاسلامية عن الحياة الأخرى • ومع أن ما خلفه كتّاب القرون الوسطى المسيحيين فيمــا يتعلق بالمعتقدات الاسلامية كان فى واقع الأمر قليلا ، فان لدينــا براهين أكيــدة على أن المســيحيين فى أسبانيا ، قــد ألموا ابتــداء من القرون الأولى للغزو الاسلامى ، بهــذه القصص ، وعلى الأخص بقصة المعراج •

٣ ـ جاء فى كتابات المسيحيين الأسبان التى دافعوا فيهــا عن المسيحية ابتداء من أوائل القرن التاسع الميلادى ، ذكر للأحاديث النبوية • فقــد أشار كل من ألفارو القرطبى فى كتابه • Indiculus Luminosus والقديس يولوجيوس فى Memoriale Sancta ، ورئيس الدير اسبيرانديو فى Apologetico Contra Mahoma مــرارا وتكــرارا لقصص تصــف حيــاة ومعجــزات محمــد (١) •

---

(١) Simonet 337, notes 2 and 3 cf. Indic. Lum. in Espana Sagrada, xi ,249

وقد ضمن القديس يولوجيوس كتابه Aplogeticus Martyrum سيرة مختصرة محرفة لمحمد • ومع أن هذه السيرة مبنية على معلومات زائفة لا أساس لها فى أغلب الأحوال ، فانها تفصح عن معرفة كبيرة بالقرآن والحديث(١) •

٤ — وجد القديس يولوجيوس سيرة محمد هذه فى دير لير فى نافارا ، مما يثبت لنا أن القصة قد انتقلت فعلا الى شمالى أسبانيا فى عصر مبكر كالقرن التاسع الميلادى • وهذا أمر يفسر لنا لماذا كانت أسبانيا البلد الذى منه انتقلت هذه القصة أولا الى الأدب الغربى • ثم أنه ظهرت فى سنة ١١٤٣ نسخة لاتينية للقرآن بقلم رئيس شمامسة بامبلون روبرت أوف ريدنج ، وهو اكليروسى انجليزى ، كان يعمل من قبل فى مدرسة الترجمة التى أسسها رئيس الأساقفة ريموند فى طليطلة • وقد كتب رئيس الشمامسة الى جانب هذه الترجمة أيضا مبحثا عنوته Summa brevis Cantra haereses et Sectam Sarracenorum استقاه من المصادر العربية(٢) • ونحن ازاء عمل جدلى من هذا النوع نستبعد أن يكون مؤلفه قد تغاضى عن ذكر قصة المعراج التى ينبغى له أن يضحضها • غير أننا لا نستطيع أن نقدم أى تأكيدات محددة فى هذا الخصوص ؛ ذلك أن هذا المبحث لم يصلنا كاملا •

٥ — تحت أيدينا على أية حال وثيقة أخرى يرجع تاريخها الى نفس القرن هى — « التاريخ العربى Histoia Arabum » ، وهو مؤلف كتبه باللغة اللاتينية رودريجو جيمينيز دى رادا رئيس أساقفة طليطلة(٣)• قرر المؤلف فى مقدمة الكتاب أن ملخصه الوافى سيبدأ من عصر محمد • وهذا عمل لم يكن صعبا فى ذلك الوقت : اذ انه كان يكتب فى طليطلة حيث كانت كتب عربية كثيرة فى الدين والعلوم والأدب عموما قد ترجمت حينذاك • وقد روى المؤلف فى هذا الكتاب فى الفصل الخامس أن محمدا قد اتخذ صفة الملك ، وانه بدأ يفرض نفسه على العرب بروايات يدعى فيها النبوة ، حتى يتمكن من احكام قبضته على رعاياه • ثم ان الكاتب أدرج فى كتابه

---

(١) Eulogius, Apologeticus fol. 80 V.

(٢) Jourdain, Recherches, 100 - 103 , cf. Wustenfeld Die Ubesetzungen arabischer Werke, 44 - 50.

(٣) Amador de los Rios, Hist Crir, de la liter esp. III, 415 et seq., فيه ذكر لنسخة قشتالية تاريخها سنة ١٢٥٦ • والنص هنا ماخوذ عن النص اللاتينى من التاريخ العربى Historia Saracenica لاربنيوس

رواية حرفية من قصة المعراج انتقاها مما سماه « بالـكتاب الثانى » لمحمد • وهـذا الـكتاب الثانى لا يمكن أن يكون شيئا آخر غير مجموعة الأحاديث النبوية التى يعترف بها المسلمون ، وهى تأتى فى الدرجة الثانية من حيث سلطانها على النفوس ، بعـد القرآن ، الذى اعتبره رئيس الأساقفة الـكتاب الأول للإسلام • وهـذه الرواية التى ذكرها تتطابق فى الحقيقة مع الروايتين الأولى والثانية من المجموعة الثانية لقصص المعراج التى ذكرناها فى الجزء الأول من هـذا المؤلف ، كما جاءت فى الأحاديث الصحيحة التى جمعها البخارى ومسلم •

وانتقلت هـذه القصة من « التاريخ العربى Historia Arabum مع اضافات بسيطة(١) الى Cronica Genaral أو Estoria d' Espanna الذى الفه الملك ألفونسو الحكيم بنفســه بلغة قشـتالة الرومانســية فيمـا بين سـنتى ١٢٦٠ و ١٢٦٨ • ولا شــك فى أنه استقى هذه الإضـافات من مصـادر عربية أخرى كانت شائعة فى ذلك الوقت • أما الأهمية التى أضفيت على هـذا المؤلف ، وأنه كان باللغة الرومانسية ، فأمر كفيل بتحقيق انتشار أوسع للقصة •

٦ ـ بعد ذلك بقليل ، ظهرت وثيقة أخرى فى نحو نهاية القرن الثالث عشر ، تبين كيف انتشرت القصة انتشارا واسعا بين الإسبان • وهـذه الوثيقة هى كتاب « Impunacion de la seta de Mahomah » الذى كتبه القديس بطرس بسكال أسقف جيان وعضو طائفة الرحمة فى أثناء أسره فى غرناطة • وبما أنه كان من مواليد بلنسية فى سنة ١٢٢٧ ، ومن أسرة مسيحية تعيش فى ظل المسلمين ، فليس غريبا أنه كان يتقن اللغة العربية • عين معلما خاصا لابن ملك اراجون ، وصحب الأمير الى طليطلة عند ما عين الأخير رئيسا لأساقفتها • وفيها كرس نفسه لرعاية طائفة رهبان الرحمة ولنشر مبادئها فى جميع أنحاء قشتالة ، وكانت لاتزال فى طفولتها • ولقـد اضطره عمله فى هذا الميدان الى أن يذهب الى روما ، حيث أدت معارفه العـامة وحميته الدينية الى اعجاب البابا نيقولا السادس به • وفى طـريق عودته الى أسـبانيا عرج على باريس وقضى بهـا بعض الوقت ، ونال فى جامعتها شهرة كبيرة باعتباره لاهوتيا ضليعا • وفى سنة ١٢٩٦ عين رئيسا لأساقفة جيان ، ثم أسره مسلمو غرناطـة فى السنة التالية ، وظل أسيرا حتى مات فى سنة ١٣٠٠ • وكتب فى خلال سنى أسره

---

(١) انظر Primera Cronica General ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢ •

الأربع عدة مؤلفات ، من بينها ذلك الكتاب الذى دافع فيه عن المسيحية ضد الإسلام ، والذى أشرنا اليه فيما سبق(١) .

والحق أن المعلومات التى ذكرها عن الإسلام فى كتابةهـذا كثيرة . فقد كان يستشهد بالقرآن والأحاديث الصحيحة فى كل خطوة يخطوها . وكان يشير الى الأحاديث بقوله « Alhadiz » وكثيرا ماأشار الى صحيح مسلم بقوله « Musulimi » كذلك ذكر كتابا عن الجنة والنار ، وهو — لا مراء — أحد كتب الأحاديث التى كانت شائعة بين مسلمى أسبانيا . وأشار الى كتاب آخر هو « Liber escriptos de Moros » وهو لا شك أيضا عبارة عن مجموعة من القصص المتعلقة بالحياة الأخرى(٢) . وأهم من هذا كله على أية حال ، تلك الشواهد التى استقاها من كتاب نسخ اسمه بطرق مختلفة ، فقال Miragi, Elmiregi. Elmerigi, Miraj . هذا الكتاب على التأكيد هو قصة المعراج أو كما قال الكاتب : « الكتاب الذى ذكر فيه محمد كيف صعد الى السماء . » ، أو « الكتاب الذى يذكر كيف صعد محمد كما يقول الى السماء التى يوجد فيها الله ، وتكلم معه ، ورأى الجنة والنار والملائكة والشياطين وعذاب النار ونعيم الجنة(٣) » . ثم أنه فعل أكثر من مجرد الاستشهاد بفقرات من هذا الكتاب . فقد أدرج فى الفصل الثامن من الجزء الأول من كتابه الذى نحن بصدده قصة المعراج كاملة ، وعلق عليها تعليقا ساخرا فى معرض ضحض أحداثها التى وصفها بأنها خرافية . وقال انها « مجرد خيال ، أكاذيب ، أباطيل ، دجل ، هراء(٤) » . أما النسخة التى استخدمها فترجع الى المجموعة الثالثة من قصص المعراج التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، والتى اندمجت فيها قصتا الإسراء والمعراج . غير أنه روى قصة المعراج على أية حال بناء على الرواية الثالثة من المجموعة الثالثة من قصص المعراج ، والتى تقترب فيها مناظر الجنة من الناحية الروحانية اقترابا واضحا من تصورات دانتى . وأخيرا نلاحظ أنه أدخل فى المبنى العام للقصة أحاديث كثيرة تتحدث عن اليوم الآخر ، والصراط ، وطوبوغرافية النار ، والحياة فى الجنة . وقد أفصحنا فيما سبق عن المشابهات الموجودة بين هذه الأحاديث والأوصاف التى وضعها دانتى فى قصيدته .

---

(١) Cf. Amador de los Rios hist. Crit. de la liter. esp. IV. 75 - 85

(٢) Cf. Armengol, IV, 3, 4, 28, 29, 37, 49, 143, etc.

(٣) Cf. Armengol, IV, 28, 53, 55, 66, 143

(٤) Cf. Armengol, IV 90 - 138,

٧ — أما اذا كانت قصة المعراج قد عرفت فى أسبانيا فى القرن الثالث عشر على اية حال ، فهل يستبعد وصولها الى ايطاليا التى كانت مرتبطة باسبانيا بروابط اتصال وثيقة ودائمة(١) ؟ ٠

لقد أقام القديس بطرس بسكال الذى كان يلم بالقصة الماما تاما فى روما فى زمن جلوس البابا نيقولا الرابع فى العرش البابوى ، أى بين سنتى ١٢٨٨ ، ١٢٩٢ ٠ وعلى الرغم من عدم جدوى اقامة برهان على هذه الحقيقة وحدها ، فانها تفيدنا على الأقل باعتبارها مثالا نموذجيا للمسالك الخفية التى قد تكون القصة وصلت من خلالها الى مسامع الشاعر الفلورنسى ٠ وفى هذا الوقت كان التصميم الذى وضعه دانتى لقصيدته الإلهية ، قد تحيز نهائيا فى تفكيره ، وصدر الجحيم ، وهو أول أجزائها فى سنة ١٣٠٦ ، ثم أن دانتى علاوة على ذلك زار البلاط البابوى سفيرا عن فلورنسا فى سنة ١٣٠١ فى عهد البابا بونيفاس الثامن (٢) ٠

٨ — غير أنه يوجد مسالك أخرى أنجع من السابقة قد تكون القصة انتقلت عبرها ٠ تلقى دانتى معارفه الأدبية من برونيتو لاتينى الأديب الموسوعى المعرفة ، الذى ارتقى الى أعلى المناصب العامة (٣) ٠ وقد كان برونيتو أكثر من مجرد أستاذ لدانتى ، فقد كان صديقه ومرشده فى المسائل الأدبية ٠ وكان دانتى يكن له أسمى آيات الاحترام والإعجاب ، وكانت نصائحه وارشاداته مصدر الهام مستمر للشاعر الشاب ٠ أما المناقشة الودية التى أجراها دانتى بينه وبين أستاذه فى الجحيم فشهادة بليغة على الارتباط الروحى الذى يعترف دانتى نفسه بأنه كان يقيده ببرونيتو لاتينى وعمله(٤) ٠ ولقد فطن مفسرو الكوميديا الإلهية لهذه الصلة منذ وقت طويل(٥) ٠ ثم أن بعض دراسى دانتى قد التمسوا فى كتابات برونيتو ، وعلى الأخص فى قصيدته الرمزية التعليمية « الكنز الصغير » النموذج والفكرة التى ألهمت دانتى

(١) تبين لنا الحقيقة الماثلة فى أن عددا من النبلاء والتجار الايطاليين قد شغلوا احياء وشوارع برمتها بعد قليل من استعادة المسيحيين لأشبيلية مدى توثق الصلات بين البلدين Cf. Ballesteros, Sevilla, ch. III. Los extranjeros 42 — 46.

(٢) Cf. Rossi, I, 118 and 138

(٣) وضع سكارتاتزينى Scartazzini فى تعليقه على الجحيم ١٥/٢٣ — ٥٤ بيانا بمؤلفات برونيتولاتينى ٠ أما المؤلف الذى رجعنا اليك فمؤلف سندباى Sundby, Della Vita e della Opere di Brunetto Latini

(٤) الجحيم ١٥/٥٨ ، ٦٠ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ٠

(٥) Cf, Scartazzini, loc cit, inf. xv — 32

الكوميديا الإلهية • وعلى الرغم من أن دارسى دانتى أنفسهم قد رفضوا هذا الرأى(١) ، فان الحقيقة الهامة الماثلة فى الرابطة بين دراسات التلميذ وتعاليم أستاذه التى نلقاها عنه شفويا وكتابة ، تظل نصب أعيننا •

اما تعاليم برونيتو المكتوبة فتشتمل عليها قصيدتاه : « الكنز » و « الكنز الصغير » اللتان تعتبران على التوالى موسوعتين كبيرة وصغيرة لمعارف القرون الوسطى • ولقد عمد برونيتو لاتينى فى جمع المعلومات اللازمة لقصيدته الكنز ـ من غير أن يهمل المصادر المسيحية والكلاسيكية ـ الى المؤلفات العلمية العربية المتاحة له ،يستقى منها كما فعل جميع معاصريه • حقق العالم الدنمركى سندباى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مصادر « الكنز » وقصر بحوثه على المؤلفات التى كانت أقرب الى يد الشاعر فى ذلك الوقت ، أى المؤلفات الكلاسيكية والمسيحية • غير أن كثيرا من الفقرات التى يقر بأنه لم يتوصل الى معرفة أصلها ، يمكن ردها بسهولة الى النماذج العربية(٢) • ذلك أنه نقل تبويب الفلسفة الذى جاء فى بداية مؤلفه عن ابن سينا(٣) • أما نسخة كتاب أرسطو « الأخلاق الى نيقوماخوس » التى استعملها برونيتو فيلوح أنها كانت ترجمة من العربية الى اللاتينية وردت من اسبانيا • كذلك كانت كتب الحيوان الرمزية أو القصص الرمزية الحيوانية التى أطلع عليها من أصل عربى فى الأغلب • وأخيرا فان اشارات برونيتو ذاته للمؤلفين الشرقيين انما تؤلف برهانا قويا فى صالح القول بمصدر شرقى للفقرات التى تعذر وصلها بأى مؤلف مسيحى أو كلاسيكى سابق (٤) •

٩ ـ ثم ان الكنز اضافة الى هذا ، تشتمل على سيرة لمحمد ، وان كانت ممزوجة

---

(١) Cf. Vossler, II, 118 - 120, D‘ancona 101 note I

(٢) Sundby, 29 - 41

(٣) انظر Sundby, 86 - 88, and Carra de Vaux; Avicenna 177 - 180. ولاحظ تبويب ابن سينا الذى جاء فى رسائله ٢ ـ ٣ و ٧١ ـ ٨٠

(٤) يعترف سندباى فى كتابه Della Vita e dele Opére di Brunetto ص ١٣٦ وفى غيرها انه لم يستطع التوصل الى معرفة أصل بعض الفقرات • ويقرر فى ص ١١١ ان برونيتو استخدم اقوال الطبيب العربى اسحق بن حنين • ويبين دانكونا فى Cil tresoro di B. L. Versificato الأصل العربى لبعض احداث قصة الاسكندر الاكبر كما جاء فى الكنز (انظر ص ١٤١) ثم ان العنوان ذاته « الكنز » انما يذكرنا بالأدب العربى • فقد ذكر بروكلمان أكثر من ستين مؤلفا عربيا بهذا العنوان ، بعضها أقدم كثيرا من القرن الثالث عشر ، عندما انتشر النمط العربى فى أوربا المسيحية •

باعتقاد صبيانى فى بعض القصص التى تسخر من النبى ، الا انها تفصح عن معرفة كبيرة بتعاليم الإسلام وعاداته(١) • وبما أن مخطوطات الكنز الايطالية لم تنشر بعد ، فانه من الصعب القول اذا ما كانت قصة المعراج ضمن المراجع التى رجع اليها برونيتو من بين القصص التى نسبها لمحمد • غير أنهـا ان لم تـكن مدرجة بين هـذه المراجع ، فان الرأى القائل بأن برونيتو قـد ألم بالقصـة ونقلها شفويا الى تلميـذه دانتى ، لا يمكن استبعاده باعتبار أن ذلك لم يكن محتملا •

لقـد شغل برونيتو لاتينى منصبا يسمح له بأن يحصل على معرفة مباشرة بالثقافة العربية وذلك عندما عين فى سنة ١٢٦٠ سفيرا لفلورنسا لدى بلاط الفونسو الحكيم ، راعى وموجه مدرسة الترجمة الشهيرة فى طليطلة(٢) •

لا يعرف شيىء عن تفاصيل بعثة برونيتو ، غير أن مجرد اقامته فى طليطلة وأشبيلية حيث كان بلاط الفونسو أمر له مغزاه • فمن السهل أن نتصـور كيف طبع هذان المركزان العلميان اللامعان أثرا عميقا فى عقـــل رجـــل مثقف مثل برونيتو خليق به أن يرغب دائما فى الاستزادة من المعرفة • عاش برونيتو فى بلاط ملك كانت معارفه نسيج وحـدها فى أوربة القرون الوسطى ، وفى أحضان مجتمع هجين تاثر بالـمـأثورات القـديمة والمسيحية والشرقية على السواء • ومن ثمة لا يمكن أن يكون قـد أخفق في التاثر بهذا الوسط ، كما يستبعد أن تكون مشـاغل بعثته لم تترك لــه وقت فراغ كاف ليشبع فضول العالم المثقف • وكانت مدرسة الترجمة فى طليطلة وجامعة اشبيلية بطوائفها من المسلمين والمسيحين ، مشغولتين باستمرار فى انتاج المؤلفـات الأدبيـــة والعلمية ، وكان « التاريخ العربى » قـد صـدر قبل ذلك بأربع سـنين فقط باللغة القشتالية ، وهو مؤلف اشتمل على قصة المعراج • والحقيقة أن برونيتو كتب قصيدتيه الأساسيتين « الكنز الصـــغير » و « الكنز » ، أثر عـودته الى فلورنسا مبـــاشرة • أما الكنز فقد بينا فيما سبق أنها تشـــتمل على آثار ناتجـــة عن التاثر بالمؤلفـــات العربية ، وهى مؤلفات لم يكن ليتسنى لبرونيتو أن يحصل عليهـا فى مكان أحســـن من طليطلة واشبيلية • وأما الكنز الصغير فيفترض أنها كانت مهداة لألفونسو الحكيم •

وهــكذا يلوح بان كل شيىء انما يؤيد الافتراض بأن أستاذ دانتى اليجيرى قـد حصل على أكثر من مجرد انطباع بالثقافة العربية من زيارته لاســـبانيا (٣) ، وأنــه

---

(١) Cf. D'ancona (Tesoro 176 - 227

(٢) ذكر برونيتو لاتينى تاريخ بعثته فى قصيدته الكنز الصغير (١ ـ ٢٥) • انظر Sundby 6 - 10

(٣) Amador de Los Rios IV. 17 - 23

كان من ثمة الوسط الذى انتقلت من خلاله بعض الملامح الإسلامية الواضحة فى الكوميديا الإلهية الى التلميذ(١) .

والحق أن البرهان الموضوعى المدعم بالوثائق ، الكامن فى وجوه التشابه التى أفصحنا عنها بين الكوميديا الإلهية والمصادر الإسلامية ، هو فى حد ذاته برهان كاف ، حتى اذا لم يكن من الممكن أن نثبت كيف حدث الاتصال فعلا من خلال أى مسالك خفيفة(٢) .

---

(١) قد يكون برونيتو حصل ، الى جانب قصة المعراج ، على معلومات لاهوتية وفلسفية فى اثناء اقامته فى اسبانيا تتعلق بمعتقدات ابن عربى فى أمور الآخرة ، الذى عاشت مدرسته الصوفية والاشراقية فى مؤلفات وتعاليم غيره من صوفيى المرسية .

(٢) قد يكون الحبر اليهودى عمانويل بن سالومو الشاعر الفيلسوف الرومانى وصديق دانتى هو الذى نقل له معرفته بالمعتقدات الإسلامية ، وقد يكون حبرا غيره مثل هيليل الفيرونى (وقد أوضح بيك اخيرا فى Romanishe Philologie (Berlin 1921, Vol. XLI, p. 472 وفان تيجم فى Revue de Litterature Comparée (Paris April / June 1922 p. 324) أهمية الأحبار اليهود فى هذا الخصوص ، الذين كانوا اعرف بالمصادر الاسلامية عن المسيحيين فى عصردانتى) ثم ان ناقدين آخرين من الذين تعرضوا لهذا الموضوع قد اقترحوا مسالك اتصال اخرى . مثال ذلك ان كاباتون فى Rvue de L'histoire des Religions (paris 1920 p, 19) قد ذكرنا بأن الشاعرجويدوكافالكانتى صديق دانتى قد زار أسبانيا فى رحلة الى سنتياجودى كومبوستيلا . وذكر نلينو فى Revista degli Studi Orientali- Rome 1921 Vol. VIII 4, p. 808 المصادر التالية باعتبارها وسائل محتملة للاتصال بين دانتى والاسلام : الأسرى المسلمون من جميع الطبقات الذين عاشوا فى توسكانيا ، وعلى الأخص فى بيزا ، أو الحرفيون الايطاليون الكثيرون الذين كانوا يتنقلون بين ايطاليا واسبانيا وبينهما وبين موانى أفريقيا الاسلامية وموانى الشرق ، أو الشعراء التروبادور الايطاليون الذين كانو يتجمعون فى بلاط الفونسو الحكيم . ويستطرد نلينو فيقول : « أما اذا كان التاجر البيزى ليوناردو فيبوناتشى قد حصل على معرفته بالجبر من بعض الموانىء الاسلامية . ونقله الى أوربا فى القرن الثالث عشر ، واذا كان رحالة مجهولون قد نقلوا القصص الشعبية الشرقية التى دخلت الأدب الايطالى فيما بعد ، فلا يستبعد ان تكون قصة المعراج قد انتقلت بمثل هذه الطرق مع غيرها من القصص الى أوربا ، وهى قصة كانت تتمشى تماما مع عقلية الناس فى أوربا فى القرون الوسطى ». واخيرا افترح الناقد جابريلى فى ص ٥٥ — ٦١ من نشرته . « Intorno alle fonti orientali della Divina Commedia » Arcadia III Rome 1919 اقتراحين هامين وان كان معارضا للنظرية عموما . عين لال الأسبانى الفرانسسكانى وريكولدودى مونتى كروتشى الفلورنسى الدومنكانى كوسيلتى انتقال . اما لال الذى كان يلم الماما واسعا بالثقافة الاسلامية ، وكان يعرف نظريات ابن عربى وحاكاها ، فقد زار ايطاليا مرارا فيما بين سنتى ١٢٨٧ و ١٢٩٦ ، وقضى سنتين كاملتين فى روما وجنوا وبيزا ونابولى . غير انه يلوح بأن اثر ريكولدو كان أكثر احتمالا ، ذلك =

واننا لنتساءل : أليست الخصيات المميزة لكل طراز معمارى توجد فى أثر من الآثار الباقية مختلفة التصميم ، انما تكشف عن المدرسة الخاصة التى ينتمى اليها المصمم حتى اذا لم يترك لنا التاريخ بيانا فعليا عن الترابط بين هذه المدارس ؟ والحق أن البرهان الموضوعى اذا ما وجد ، لا ينبغى أن يقوى اقتناع الخبير ، وانما ينبغى فقط أن يؤكد الاستنتاجات التى حصل عليها •

— ٤ —

افتتان دانتى بالثقافة العربية أمر يؤكد الافتراض القائل بالمحاكاة

١ — أثبتنا من قبل وبصورة كافية أنه كان ممكنا للنماذج الإسلامية للكوميديا الإلهية أن تصل بسهولة الى ايطاليا والى الشاعر الفلورنسى من المصادر الإسلامية ، ولم يبق غير سؤال واحد نجيب عليه الآن •

هل كانت عقلية دانتى كما تستبان من مؤلفاته مخاصمة لاستيعاب هذه النماذج ؟ ذلك أنه لا يمكن لأى اتصال مهما يكن وثيقا أن يسبب المحاكاه ، اذا كان اختلاف اللغة ، والدين ، والجنس ، والفلسفة ، والفن ، قد خلقت فى نفس الشاعر الفلورنسى كراهية لثقافة العرب • وهنا نسارع بالإجابة عن هذا السؤال فنقول بأن جميع الشواهد تدل على نقيض ذلك •

٢ — كان دانتى أليجيرى فى مسائل العلم والأدب قبل كل شيىء متفتح العقل متقبلا للتلقى من جميع الجهات • والحق أن جميع دارسى دانتى قد أكدوا هذا التفتح العقلى بغير استثناء • فقد أسهب أوزانام دائما فى الإفصاح عن رغبة دانتى الجامحة للمعرفة ، التى ألحت عليه فى بحثه عن الحقيقة والجمال(١) • وبين دانكونا كيف درس دانتى وأتقن موضوعات كثيرة متعددة الجوانب ، وكيف استطاع أن يصالح فى عقله الفذ بين الفكرات الجديدة واحترامه للتقاليد ، وبين موهبته الخلاقة وبراعته فى الصياغة(٢) • وأكد أومبرتو كوزمو بأنه ينبغى أن نشبه عقل دانتى فى تفتحه وسرعته تلقيه للفكرات ببحر يتلقى مياهه من جميع الجهات • وقال ان دانتى قد جمع غذاء

أنه عاش فى الشرق من سنة ١٢٨٨ الى سنة ١٣٠١ ، يبشر بالانجيل فى سوريا وفارس وتركستان ، ثم عاد ليعيش فى دير سانتا ماريا نوفيلا بفلورنسا وفيه مات سنة ١٣٢٠ وعمره ٧٤ سنة • ثم انه بحث فى الفصل الرابع عشر من عمله الشهير Contra legcm Saracenorum قصة المعراج • ويعرف الجميع انه كان لدانتى اتصال برهبان سانتا ماريا نوفلا الدومنكان • فقد كان يحضر فى واقع الأمر فى أثناء صباه الدروس التى كانت تلقى فى مدارس الدير ، حيث كان الرهبان يدرسون للعامة الآداب والعلوم •

(١) Ozanam, 437, 467

(٢) D'Ancona 108, 113

فكريا من جميع ثقافات عصره ، وأعاد صياغة الآراء والفكرات القديمة والمعاصرة فى عقله ، وصبها فى قالب شخصى جديد(١) ٠

لا شك أن آراء لها مثل هذا الوزن الأدبى ، من شأنها كما يلوح أن تثبت أن ثقافة الإسلام التى كانت سائدة فى أوربا فى القرن الثالث عشر ، لابد كانت معروفة لدانتى ٠ ثم اننا لا نتصور أن دانتى الذى عاش تلك الحياة العقلية النشطة ، قد أهمل الاتصال بالثقافة الإسلامية ، التى كانت منتشرة فى جميع الأرجاء فى عصره ، وأنه لم يشعر بانجذاب الى علم كان يجذب رجال العلم من جميع أنحاء أوربا المسيحية ، الى بلاط طليطلة ، والى أدب كان تأثيره ذا سلطة عليا فى أوربا المسيحية(٢) ٠

كانت هيبة الإسلام فى ذلك الوقت راجعة بدرجة كبيرة الى انتصار المسلمين على الصليبين ٠ ولقد نسب روجر بيكون - وهو معاصر لدانتى - هزائم المسيحيين بالتحديد ، الى جهلهم باللغات السامية والعلوم التطبيقية التى تفوق فيها المسلمون(٣) ٠ واتفق البرت الكبير مؤسس الفلسفة المسيحية التى سادت فى القرون الوسطى ، مع روجر بيكون على تفوق الفلاسفة العرب ٠ وأما ريموندلال فقد أوصى بمحاكاة الأساليب الإسلامية فى المواعظ الدينية(٤) ٠

---

(١) Rassegna dantesca, in « Giorn. stor. della litter. italiana » (1914 Nos. 2 - 3). pp. 385, 390.

(٢) بين استاذى ريبيرا أن الشعر الغنائى والملحمى فى الأدب المسيحى الناشىء فى ذلك العصر قد تأثر أيضا بنماذج الشعر الاسلامى الأسبانى ٠ انظر : Discursos de ingreso en las Academias Espanola y de la Historia (Madrid 1912 and 1915) ثم انه تبين أيضا العلاقة بين الموسيقى الاسلامية الأسبانية وموسيقى الشعراء التروبادور الفرنسيين انظر : La musica de las Cantigas Madrid 1922 and la musica andaluza medieval en las canciones de trovadores y troveros (Madrid 1923).

كذلك بين س ٠ سنجر مدى عمق واتساع اثر الشعر العربى ٠ انظر S. Singer : Arabische uropaische Poesi im Mittelalter (Berlin 1918).

Budach: Uerber den Ursprung des Mittelalterlichen Minnesangs Berlin 1918)

وانظر أيضا ولقد ذكر هذان الكاتبان المصادر العربية لقصائد مثل (Flore et blanchefleur Aucassin et Nicolette ولقصص مثل Grail, Parsifal. and Tristan

(٣) pus Majus (Edit Jebe 1733) p. 246,

(٤) Cf. Blanquerna, II, 105, 134, 158-160 in Ribera Lulio, II, 193-197

والحق أنه نادرا ما يجمع الرأى العام على الاعتراف بالتفوق العقلى للخصم • ثم ان العلماء المسلمين قد أيدوا هذا الرأى القائل بتفوقهم ؛ ذلك أنهم حكموا على الشعوب الأوربية بأنها غير صالحة للحضارة • ولقد أطلق هذا الحكم الغريب مفكران مسلمان اسبانيان فى القرن الحادى عشر ، هما : ابن حزم القرطبى ، وأبو القاسم بن صاعد الطليطلى • فقد أعلن كل منهما ، ابن حزم فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، وابن صاعد فى كتابه « طبقات الأمم » أن شعوب شمالى أوربا غير مؤهلة بطبيعتها لرعاية العلوم والفنون التى ازدهرت فى اسبانيا(١) •

٣ - ليس عجيبا اذن أن يميل دانتى الى الثقافة الإسلامية نظرا للإعجاب العالمى الذى تمتعت به هذه الثقافة فى عصره •

ولقد اعتقد النقاد فى وقت ما أن دانتىكان ملما ببعض اللغاتالسامية وعلىالأخص العربية والعبرية • وقد بنى النقاد استنتاجهم هذا على بيتين فريدين فى الكوميديا الإلهية • غير أن الرأى الحديث يؤيد على أية حال الرأى القائل بأن الشاعر قد عمد الى أن يدرج فى هذين البيتين جملا غامضة لاغير • هذا على الرغم من أن النقاد يقرون بأن الكلمات المنسوبة الى النمرود انما تشتمل على عناصر سامية(٢) • وليكن الأمر كيفما كان ، ذلك أنه اذا تعذر الإثبات من كتابات دانتى انه كان ملما ببعض اللغات السامية ، فكذلك لا يمكن اثبات أنه كان يجهلها • على أننا نستطيع على الأقل أن نفترض أنه كان مدركا لخاصياتها وجدارتها باعتبارها وسيلة للاتصال الاجتماعى •

---

(١) قال ابن حزم فى كتابه الفصل فى الملل والأهواء والنحل - الجزء الأول ص ٧٢ : وكالبلاد التى ليست فيها بعض الصناعات ، وهذه العلوم المذكورة كبلاد السودان والصقالبة ، واكثر الأمم وسكان البوادى والحواضر لا يمكن البتة - منذ أول العالم الى وقتنا هذا ، ولا الى انقضائه - اهتداء أحد منهم الى علم يعرفه ، ولا الى صناعة يعرف بها ، فلا سبيل تهديهم اليها البتة •

وقالابن صاعد فى كتابه طبقات الأمم ص ٨ : وأما سائر هذه الطبقة التى لم تعن بالعلوم فهم أشبه بالبهائم منهم بالناس ، لأن من كان موغلا منهم فى بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التى هى نهاية المعمور فى الشمال ، فافراط بعد الشمس عن مسامته رءوسهم ، برد هواءهم وكثف جوهم ، فصارت لذلك أمزجتهم باردة ، وأخلاطهم فجة ، فعظمت أبدانهم ، وابيضت الوانهم ، وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذه دقة الأفهام ، وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشى فيهم العمى والغباوة ، كالصقالبة ، والبلغر ، ومن اتصل بهم • واما الجلالقة والبرابرة وسائر سكان اكناف المغرب من هذه الطبقة فامم خصها الله تعالى بالطغيان والجهل ، وعمها بالعدوان والظلم •

(٢) راجع الآراء والمراجع المختلفة فى هذا الموضوع فى Scartaxzzini :
(الجحيم ١/٧ ، ٣١ / ٦٧)

ومهما قلنا بأن معرفته بها كانت غير مباشرة ، فانها كانت كافية لتمكينه من مقارنتها باللغات الرومانسية (المشتقة من اللاتينية) وتفضيلها عليها ؛ ذلك أنه عندما تعرض فى كتابه De Vulgari eloquio للغات التى تتحدث بها شعوب العالم ، لم يسمح لنفسه ، على الرغم من أنه كان ايطالى الجنسية واللغة ، أن يتحامل على اللغات الأخرى فى صالح لغته الأم • كلا ! فانه برهن فى واقع الأمر على ما اتصف به من سعة العقل عندما قرر : « أنه توجد أمم أخرى كثيرة تتحدث لغات أكثر قدرة على التغير والأكثر استساغة للسمع من لغات الشعوب اللاتينية » •

٤ ـ نلاحظ هنا أن دانتى اضافة الى معرفته بالأحاديث الإسلامية ، قد أفصح عن تعاطف كبير مع الفلاسفة والعلماء المسلمين • فانه كثيرا ما استشهد فى كتاباته النثرية بمؤلفات الفلكيين المسلمين مثل أبى مشعر والفرغانى والبتروجى ، وبالفلاسفة الكبار مثل الفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد (٢) • ولقد بين باجيت توينبى كيف أن بعض فقرات من مؤلفيه المأدبة والحياة الجديدة مبنية على أساس فكرات الفوغانى الفلكية ، أو على أساس فكرات ابن رشد فى البقع الشمسية • ويقر دانتى نفسه فى (1,6) De Vulgari eloquio بأنه قرأ كتبا فى علم وصف الكون • والحق أن الكتب العربية فى هذا الموضوع كانت أكثرها شيوعا •

ولا شك فى أن اتجاه دانتى للثقافة الإسلامية يفسر لنا بوضوح المعاملة الرحيمة التى أضفاها على رجال مثل صلاح الدين ، وابن سينا وابن رشد ، الذين وضعهم فى اللمبو ـ وهذا موقف من جانب دانتى لا يمكن الدفاع عنه بناء على المبادىء اللاهوتية المسيحية • ذلك أن أحدا من علماء أوربا ومنهم دانتى على التأكيد ، لم يكن يجهل عداء صلاح الدين لكل ما هو مسيحى ، وكيف صالت جيوشه وجالت فى فلسطين ، وكيف استرد بيت المقدس من قبضة المسيحيين • ثم انه لا يمكن اعتبار مزايا صلاح الدين ولا عظمته فضائل طبيعية كافية فى حد ذاتها لتبرر استبعاده من النار الأبدية ، وهو ذلك الرجل الذى تسبب فى مثل تلك الأضرار البليغة التى أصابت المسيحية • ولقد نقول نفس الشىء بالنسبة لابن سينا وابن رشد • فانه مهما يكن سلوكهما بريئا ، فان علمهما ينفى كل احتمال للدفاع عنهما بحجة الجهل بالمسيح ، وهى الحجة الوحيدة ، التى كان يمكن أن تبرر اخراجهما من النار ، بحسب النظرية التى

---

(١) Comvito, II, 14, 15 ; III, 2, 14; IV, 13, 21 De Monarchia, 1, 4,

تحكم موقف دانتى • وزيادة على ذلك كان ابن رشد فى ذلك الوقت يعتبر فى نظر أوربا المسيحية تجسيدا للكفر الذى يبشر به المذهب العقلى(١) •

٥ ـ ثم ان تعاطف دانتى مع العلم الإسلامى عموما ، ومع ابن رشد على الأخص، انما يزودنا بمفتاح يحل لغزآ آخر ، كما يستبان من البحث الحاذق الذى قام به برونو ناردى • وهذا اللغز هو وجود سيجييه البرابانتى فى فردوس دانتى الى جانب القديس توما الأكوينى ، وهو أمر لم يكن مفهوما حتى الآن ، ذلك أن سيجييه كان من زعماء المدافعين عن فلسفة ابن رشد ، وقد مات فعلا وهو تحت الحرم الكنسى • ولقد تسائل النقاد : كيف يمكن تبرير هذا التحدى للرأى العام ؟ ذلك أنه ينبغى أن نلاحظ أن دانتى لم يستثن هذا الهرطوق من عقوبة النار ، فحسب ، وانما رفعة الى ديار اللاهوتيين فى الجنة ، ووضع على لسان عدوه اللدود القديس توما الأكوينى ، وبجرأة أقرب ما تكون الى السخرية ، كلمات ثناء على هذا المنبوذ كانها رد اعتبار لذكراه •

٦ ـ عمد ناردى عندما حاول حل هذا اللغز الى فتح باب مصادر فلسفة دانتى ، التى كانت تعتبر حتى ذلك الحين فلسفة أكوينية (نسبة لتوما الأكوينى) لاغير • ولقد بين ناردى بعد أن أجرى مقارنة دقيقة بين مؤلفات دانتى وكتابات غيره من فلاسفة مدرسة الأفراطونية المحدثة ونظريات ابن سينا وابن رشد ، أن دانتى بعيد جدا عن أن يكون مجرد تابع للقديس توما الأكوينى بغير قيد ولا شرط ، وانما كان فليسوفا ذاميول انتقائية قبل نظريات من جميع المفكرين سواء من القدماء أو من فكرى القرون الوسطى ، المسيحيين والمسلمين ، وانتظمها جميعا فى اطار من وضعه ، كان وسطا بين فلسفة القديس توما الأكوينى ، وفلسفة كل من ابن سينا وابن رشد ، أو أقرب الى فلسفةالأخيرين • أما النقاط الأساسية من فلسفة دانتى التى تبين ناردى أنها نابعة من أصول عربية فتتعلق بعلم الكونيات وبعلم النفس وبخيرية الله • ولقد بين ناردى أن هذه الفكرات التى أوردها دانتى ، على الرغم من أنها توجد جزئيا فى المأثورات التى خلفها القديس أوغسطين ، انما هى مستقاة مع ذلك من فلسفة العرب الأفلاطونية المحدثة ، وعلى الأخص من نظريات : الفارابى ، وابن سينا والغزالى ، وابن رشد •

---

(١) Cf. Asin, El Averroismo teologico de Santo Tomas de Aquino, 299,306

ـ ٥ ـ

التشابهات القريبة بين أفكار دانتى وأفكار ابن عربى تزودنا ببرهان آخر على الرأى القائل بالمحاكاة

١ ـ كانت الاستنتاجات التى توصل اليها ناردى أكثر من كافية من حيث أنها بينت أن الإطار الفنى الذى وضع فيه دانتى ممالك الأخرة فضلا عن اتجاه أفكاره ، انما ينم كلاهما عن دلائل على التأثير العربى ، أما اذا كانت لاتزال هناك براهين أخرى لابد من تبيانها لتدعيم رأينا ، فاننا ينبغى أن نتلمسها فى أصولها الفعلية فى الإسلام ، وهى أصول لا نقع عليها فى الحقيقة فى كتابات الفلاسفة بقدر ما نقع علهيا فى كتابات الصوفيين الإشراقيين ، وعلى الأخص عند ابن عربى • أسس ابن مسرة القرطبى مدرسة الإشرافيين ، ومنها انتقلت أفكارها الى ما سمى بالفلاسفة الأوغسطينيين ، ومنهم اسكندر هيلز ، ودنز سكوتس ، وروجر بيكون ، وريموندلال • ولقد بينا فى معرض بحثنا للفردوس فيما سبق أن جزءا جوهريا من تعاليم الإشراقيين ـ نظريتهم الميتافيزيقية فى النور ـ ظهر فى الكوميديا الإلهية • ثم ان دانتى وضحه أيضا بنفس الرموز التى استخدمها الصوفيون المسلمون • وكذلك الخلق ، فقد تصوره دانتى على أنه عملية فيض للنور الإلهى ، سببه اللاهوتى الحب ، وآثاره الأولية الهيولى الكونية(١) • ومن هنا انفتح أفق جديد • فنحن اذا نظرنا الى دانتى من هذه الزاوية ، اذن لظهر لنا على أنه لم يكن غير تابع من أتباع المدرسة الإشراقية ،وأن تفوقه ينحصر فقط فى ابداعه الفنى • ولقد وضحنا فيما سبق أن دانتى قد أعاد صياغه الصور الفنية التى جاءت فى أوصاف ابن عربى لممالك الآخرة كلها تقريبا فى الكوميديا الإلهية بعد قرن من الزمان • أما الاقتراح الذى يفرض نفسه الآن فينحصر فى أن كثيرا من النظريات الإشراقية عند دانتى انما هى مستقاة من ابن عربى ، المفسر الأول للفكرات الإشراقية ، عما هى مأخوذة عن الفلاسفة العرب الآخرين الذين قارن ناردى بين نظرياتهم ونظريات دانتى •

٢ ـ غير أن وضع حل لهذه المشكلة يتعدى فى الواقع حدود مهمتنا التى نسعى اليها الآن ، وهى مهمة محددة فى البحث عن دليل على ميل دانتى للثقافة الإسلامية • وبرغم ذلك ، فقد يعنينا هنا أيضا أن نثبت تشابها عاما بين المفكرين ، دانتى وابن عربى • وهذا أمر لا ينبغى أن يتعلق كثيرا بالفكرات المشتركة بينهما ، بقدر

---

(١) Cf. Asin, Abenmasarra, 120, 121.

ما يتعلق بالصور والرموز التى عبرا بها عن هذه الفكرات ، وبالحيل الأدبية التى لجـأ اليها كل منهما ليبسط آراءه ويشرحها • ثم ان التشابه فى التفاصيل الخيالية كما بينا من قبل ، يوحى بالمحاكاة أكثر ممـا يوحى بالتعـاطف مع النظرية أو العقيـدة المنقولة • أما اقتناعنا بالمحاكاة فيقوى بطبيعة الحـال اذا توافقت كل من الفـكرات والصور فى كلا العملين •

أما فيما يتعلق بالصور ، فقد استعمل ابن عـربى نفس الرموز التى اسـتعملها دانتى ليعبر بها عن ميتا فيزيقية النور ، وهى جزء جوهرى من افـكار كل منهما • فالله نور محض عند ابن عربى ، وقـد عبر عن تجليه بتشبيهات نورية ـ انتشار ، اضاءة ، انعكاس ، اشعاع ـ وهى جميعا عبارة عن تشبيهات نموذجية لتصورات دانتى أيضا • أما استخدام دانتى للمرآة ليضرب بها مثلا على تأثير المخلوقات الأسمى فى المخلوقات الأدنى ، فيلوح شبيها بشعلة الشمعة التى جاء ذكرها مرارا وتكرارا فى مؤلفات ابن عربى • كذلك نجـد أن الرمز الهندسى الذى تعبر عنه الدائرة ومركزها ، ممثلين للـكون وماهيته الإلهية ، قـد تـكرر عند ابن عربى أكثر مما عند دانتى ، واحـدث متناقضات متشابهة فى كتابات كـل منهمـا • والنور عند كليهمـا رمز لله ورمـز لتجلياته ، والظلمة رمز للمادة • أما الـكمدة والشفافية فصفتان للجسد وللعقل فى مفهوم كل من دانتى وابن عربى أيضا •

٣ ـ لاشك أن مقارنة طريقتى كل منهما فى شرح وتفسير آرائه أمر على جانب من الأهمية • تسلط المعتقد الصوفى فى الحروف والأعداد على أفكار دانتى ووضـح فى جميع أعماله • فقـد نسبت فضائل سرية لبعض الأرقام ، أو ربطت القيم العددية لبعض الحروف بقيمها الفكرية • ومن هنا كانت الصفة التى غلبت على أسلوب دانتى من حيث : الايمان بالقوى الخفية أو السرية وامكان اخضاعها لسلطة الانسان ، شبيهة كل الشبيهة بأسلوب ابن عربى فى جميع مؤلفاته • وكان ايمان ابن عربى المطلق بالعلوم السرية برهان على مدى اقتناعه • فقد كرس فصولا برمتها فى كتابه الفتوحات المكية ، وكتبا كاملة لهذه الخرافة • وقد تطرف ابن عربى الى حد أنه أقـام كثيرا من براهينـه الفلسفية على أساس العلاقات العددية التى وضعها •

ثم ان هناك خرافة أخرى يشترك فيها كل من الـكاتبين هى ايمانهما بالتنجيم • واعتقـد أنه لاحاجة بنا الى أن نسهب فى التعرض للفقرات الـكثيرة التى جاءت فى الـكوميديا الإلهية وفى المـأدبة والتى تشهد على ذلك الإيمان الأعمى الذى عبر عنه دانتى

بالفنون السخيفة لعلم التنجيم • وكذلك انغمس ابن عربى فى أوهام أغرب وأعجب(١)•

تظهر الطريقة الأدبية فى تشخيص الموجودات المجردة فى مؤلف دانتى « الحياة الجديدة » حيث نرى شخصيات حيوية أو بصرية أو حيوانية أو طبيعية تتناقش بعضها مع بعض •وأما ابن عربى فلا نظير له فى استخدام ، أو قل فى سوء استخدام اضفاء الصفات البشرية على الجمادات أو المجردات • ذلك أننا نجد أن الله وأسماءه ، وأشخاصا تعبر عن أشياء مجردة وغير مجردة ، وعن المادة والصورة ، تتناقش بعضها مع بعض مناقشات مطولة فى كل خطوة فى الفتوحات ، تماما كالأشخاص العاديين الذين هم من دم ولحم •

وأخيرا فان فقرات بأكملها فى « الحياة الجديدة » وفى الكوميديا الإلهية ، والتى تلوح كما لو أنها تروى فصولا من سيرة دانتى الذاتية ، قد خصصت لوصف أحلامه وتفسيرها تفسيرات صوفية • وكذلك يروى ابن عربى أحلاما كثيرة يكتشف فيها أسمى ضروب الفكر الميتا فيزيقى •

٤ — يهمنا على وجه الخصوص من جميع الأحلام التى رآها دانتى حلم واحد(٢) •

رأى دانتى فى حلم من أحلامه شابا فى ثياب بيض ، يجلس الى جانبه ، وعليه أمارات التفكير العميق • فلما سأله دانتى عن سبب حزنه تنهد ، لشاب ونظر اليه ودار بينهما حديث ملغز يفهم منه أن هذا الشاب هو الله •

وهنا نجد أن ظهور الله فى الأحلام فى صورة شاب ، أمر شاع جدا بين الصوفيين المسلمين • جاء فى أحاديث كثيرة كيف رأى محمد أولا هذه الرؤية(٣) : رأيت ربى على صورة شاب جالس على كرسى ••• رأيت ربى فى المنام فى أحسن صورة شابا موقرا •••• رأى محمد ربه عز وجل فى صورة شاب أمرد •

ويدعى ابن عربى أنه رأى رؤى مشابهة ظهر له فيها حبيبه الله فى صورة

، كان حبى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى ،
، فلا أقدر أنظر اليه ، ويخاطبنى وأصغى اليه

Vita Nuova, xll

(٤) الفتوحات المكية ٢/٤٢٩ •

وأفهم عنه . ولقد تركنى أياما لا أستطيع طعاما ، كلما قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر الى ويقول لى بلسان أسمعه بأذنى : أتاكل وأنت تشاهدنى ؟ فأمتنع من الطعام ولا أجد جوعا وأمتلىء منه حتى سمنت وثملت من نظرى اليه ، فقام لى مقام الغذاء ، وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون منسمنتى مع عدم الغذء ، لأنى كنت أبقى الأيام الكثيرة ولا أذوقذواقا ولا أجد جوعا ولا عطشا ، لكنه كان لا يبرح نصب عينى فى قيامى وقعودى وحركتى وسكونى » .

حقا ان أيا من هذه الرؤى لا يشتمل على نفس الكلمات الملغزة التى وضعها دانتى فى فم الشاب الذى رآه فى حلمه . غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن لهذه الكلمات تفسيرها فى فلسفة ابن عربى الميتافيزيقية . ذلك أن الله فى رمزية ابن عربى الهندسية عبارة عن مركز الدائرة ، ومخلوقاته النقاط المتعددة على محيطها ، والتى تعتمد فى وجودها على المركز . فالله اذن هو مركز الجاذبية الذى تنجذب اليه كل المخلوقات بحركة عشقية ، والعشق لا يصح الا بهذا التجلى وهو المنعوت بالجمال(١) .

وقد يقال بأن هذا التفسير لا يزودنا على الضرورة بمفتاح للغز الكامن فى رؤية دانتى ، ولكنه يزودنا على أية حال بتفسير له . اذ يلوح أن دانتى انما يعبر بالكلمات الغامضة التى نسبها للشاب عن الحب الذى يشعر به فى قلبه لله مركز الخليقة . وهذه هى نفس النظرية التى كشف عنها بعد ذلك فى الكوميديا الإلهية ، عندما أكد أن الكون كله محكوم بحب الله ، الذى هو البداية والنهاية لجميع الحركات(٢) .

٥ — واننا لنقع على مشابهات فى الحيل الأدبية اذا قارنا بين مؤلفى دانتى Cancionero و Convito وبين كتابى ابن عربى ، ترجمان الأشواق وذخائر الأعلاق ، أكثر لفتا للنظر . والحق أن هذه المقارنة انما تبين أن المبادىء الأدبية الكامنة وراء مؤلفات كل من الكاتبين واحدة . مثال ذلك أن خلط الشعر بالنثر ، وهى طريقة تتميز بها « المأدبة » لدانتى انما هى من مميزات مؤلفات ابن عربى جميعا . غير أن التشابه لا يظهر فى أى من أعمالهما كما يظهر بوضوح فى ترجمان الأشواق والمأدبة . ففى هذين الكتابين قدم لنا كل من الكاتبين عمله على أنه

---

(١) الفتوحات المكية ٢/٨٩٥ .

(٢) الفردوس ١/١ ، ١٤٥/٣٣ . وانظر Nardi Sigieri, 39 - 41 وقارنه بالفتوحات المكية ٢/٨٩٥ .

سيرته الذاتية ، فضلا عن أن موضوع كل منهما وطريقة التعبير فيه متطابق تقريبا •

أعلن دانتى فى « المـأدبة » عن نيته فى تفسير المعانى الغامضة التى جاءت فى أربع عشرة أغنية حب كان قـد ألفها فى وقت سابق ، وكان موضوعها قـد أدى الى اعتقاد خاطىء بانها تعالج شئون الحب الجنسى أكثر مما تعالج شـئون الحب العقلى • ولقد رغب الشاعر من وراء ذلك فى أن يبرىء نفسه من تهمة الانغماس فى الشهوات الحسية ، ومن ثمة ألف المادبة لتكون تعليقـا على هذه الأغـانى وتفسيرا للمعـانى الرمزية الـكامنة وراء المعنى الحرفى •

ينحصر المعنى الحرفى لهـذه الأغانى فى حب الشاعر لفتاة فاضلة حلوة مثقفة • ولـكنها متواضعة ومخلصة ، تتصف بالـكياسة والرشاقة الجذابة ، أطرى الشاعر كمالاتها البدنية والأخلاقية فى شعره الفياض بكل ما يحرك العواطف ويثيرها • غير أن دانتى أراد أن يثبت أنه يكمن تحت هذا الرداء من الإثارة للحواس ، ذلك الحب لعلم الفلسفة الإلهية المجسد فى هـذه الفتاة • ذلك أنّ عينيها انما تمثلان الحكمة ، وتمثل ابتساماتها معتقداتها ، أما شعاعات الحب التى تنبثق منسماء الزهرة وتنزل على العاشق فهى كتب الفلسفة ، وأما تنهدات الحب التى يطلقها فترمز الى الألم الذى ينتاب العقل الذى يعذبه الشك والشوق الى الحقيقة(١) •

وأخيرا يشرح لنا دانتى كيف كتب الأغانى الأصلية • كان يمشى ذات يوم منفردا بعد وفاة حبيبته بياتريتشى ، واذ به يقابل على حين غفلة فتاة رقيقة رائعة الجمال عظيمة الثقافة ، فيقع فى حبها • ولما يعجز عن أن يصارحها بعواطفه ، ينشد العزاء والسلوى فى تأمل معبوده تأملات صوفية ، ويطلق عواطفه لتتغنى باشعار حزينة(٢) •

والحق أن حادثة مطابقة لهذه وحافزا مشابها تماما قد ألهبا عواطف ابن عربى ليؤلف القصائد الشعرية التى يشتمل عليها كتابه « ترجمان الأشواق » ، وليكتب بعد ذلك تفسيره لها فى كتابه « ذخائر الاعلاق » • ولقد زودنا ابن عربى فى مقدمة ذخائر الأعلاق بتفسير ، اليك ملخصه (٣) •

« فلمـا نزلت مكة سنة ٥٩٨ هجرية (١٢٠١ م) ألفيت بهـا جماعة من الفضلاء

---

(١) Convito, II, 13, 16,; III 8, 12

(٢) Convito, II, 2

(٣) ذخائر الأعلاق : المقـدمة •

وعصابة من الأكابر الأدباء والصلحاء بين رجال ونساء . منهم نزيل مكة مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم الأصفهانى . وكان لهـذا الشـيخ بنت عذراء هيفـاء ، تقيد النظر وتزين المحاضر والمحـاضر ، تحير المنـاظر ، من العـابدات العالمـات الزاهـدات ، ساحرة الطرف . ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض السـيئة الأغراض ، لأخـذت فى شرح ما أودع الله تعالى فى خلقها من الحسن وفى خلقها الذى هو روضة المزن .

فلقـد ناها من نظمنا فى هـذا الـكتاب أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق ، وعبارات الغزل اللائق . ولم ابلغ فى ذلك بعض ما تجـده النفس ويثيره الأنس من كريم ودها ، وقديم عهـدها ، ولطافة معناها وطهارة مغناها ، اذ هى السؤال والمـأمول ، والعـذراء البتول ، ولـكن نظمنا فيهـا بعض خاطر الاشتياق من تلك الذخائر والأعلاق ، فاعربت عن نفس تواقة ، ونبهت على ما عنـدها من العلاقة اهتماما بالأمر القـديم ، وايثارا لمجلسها الـكريم . فـكل اسم أذكره فى الجزء فعنها أكنى . وكل دار اندبها فدارها أعنى . ولم أزل فيمـا نظمته فى هـذا الجزء على الايماء الى الواردات الالهيـة والتنزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية جريا على طريقتنا المثلى . فان الآخرة خير لنا من الأولى ، ولعلمها رضى الله عنهما بمـا اليه أشير ، ولا ينبئك مثله خبير ، والله يعصم قارىء هـذا الديوان من سبق خاطره الى ما لايليق بالنفوس الأبية والهمم العليـة المتعلقة بالأمور السماوية .

وكان سبب شرحى لهذه الأبيات أن الولد بدر الحبشى والولد اسماعيل بن سودكين سألانى فى ذلك ، وهو أنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينـكران هـذا من الأسرار الإلهيـــة ، وأن الشـــيخ يتسـتر لـكونه منســوبا الى الصـــلاح والـــدين . فشرعت فى شرح ما نظمته بمـكة المشرفة من الأبيات الغزلية فى حال اعتمارى فى رجب وشعبان ورمضان ، اشير بهـا الى معارف ربانية ، وأنوار الهية ، وأسرار روحانية ، وعلوم عقلية ، وتنبيهات شرعية . وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهـذه العبارات فتتوفر الدواعى على الاصغاء اليهـا . وقـد نبهت على المقصـد من ذلك بابيات » .

ثم انه استشهد بابيات من كتابه ترجمان الأشواق تعبر عن ضروب المجاز والاستعارة التى استخدمها ، ومضى يشرح معانيها الرمزية العـامة ، وقال بأن جميع

هـذه الصور انمـا ينبغى أن تعتبر رموزا يرمز بهـا الى الأسرار الخفية والأنوار الالهية التى منحه اياها الله • ثم طلب من القارىء أن يصرف الخاطر عن ظاهرها ويطلب الباطن حتى يعلم حقيقتها •

وبعـد أن حـذر ابن عربى القارىء ، بدأ شرحه للديوان بقصة خيالية يصف فيهـا كيف رأى فتـاة حسناء •

« فمن ذلك حكاية جرت فى الطواف • كنت أطوف ذات ليلة بالبيت فطاب وقتى وهزنى حال كنت أعرفه فخرجت من البلاط من أجل النـاس وطفت على الـرمل • فلم أشعر الا بضربة بين كتفى بكف ألين من الحرير ، فالتفت فاذا بجارية من بنـات الروم لم أر أحسن منها وجها ولا أعـذب منطقا ولا أرق حاشية ، ولا ألطف معنى ، ولا أدق اشارة ، ولا أظرف محاورة منهـا ، قـد فاقت أهل زمانها ظرفا وأدبا ومعرفة » •

وهكذا قـدم ابن عربى لـكتابه ذخـائر الأعـلاق بروايـة هـذه المرحـلة الخيالية من حياته ، والتى ادعى بأنها أدت الى تأليفه لقصائده الغنائية ، ومن ثم مضى فى كتابه شارحا ومفسرا المعـانى الرمزية التى تـكمن فى كل بيت من هـذا الشعر • فقال بان محبوبته رمز للحكمة العلوية ، وانها اذا ابتسمت وجد المحب ذاته كلها نورا ، وأشرقت أرضه وسماؤه بنورهـا • وأن عينيهـا رمزان للنور والـكشف ، وأن أنين المحب يمثـل حنين الروح الـكلى اليها • ثم ان ابن عربى عالج فيما عالج من موضوعات فى كتابه هـذا أصل الروح الانسانية والقـدر الذى ينتظرها ، وظاهرة الحب وطبيعته ، كمـا عالج موضوع ماهية الجمال الروحى • وناقش عنـدما تعرض لمسائل الايمان ، العلاقات القـائمة بين العقل والايمان ، والمعنى الثلاثى الغامض لمفهوم الله ، والقيمـة الاستشرافية للدين العالمى من حيث مقارنتها بقيم الأديان الأخـرى ، وبين أن الاسـلام دين الحب •

٦ ـ تهمنا أوجه التشابه التى أفصحنا عنها بين المـادبة لدانتى وذخائر الأعلاق لابن عربى من ناحية أخرى ، من حيث انهـا تزودنا بجواب على السؤال المحير الذى يثور حول شكل الشعر الغنائى الذى عرف فى ايطاليا باسم الأسلوب الجـديد الرائع • كان الحب أسـلوب الأغانى فى هـذه المدرسة الشعرية الجـديدة ، التى كـان جويدو جوينيتشيلى ، وجويدو كافالكانتى ، ودانتى مؤسسيها المعاصرين • شرح شاعر هـذه المدرسة العواطف التى تختلج فى فؤاده عنـد رؤية حبيبته أو تذكرها بأسلوبين ـ فهى اما عبادة صوفية ، وسعادة الروح التى تشتاق فى نشوتها الى الاتحاد الروحى

مع معشوقها ، وبذلك تجاهد فى سبيل الوصول نحو السماء ، واما حزن يصيب القلب الذى مزقه الكرب والألم ، وهو عبارة عن حمى مرضية تحرق دم العاشق ، واضطراب عقلى شديد يسيطر على جماع نفسه ، ويجعله يتمنى الموت للتخلص من عذاب آلامه • وهذا منهج تفوق فيه كافالكانتى ، وعلى الأخص عندما عالج الحب باعتباره حالة حزن وأسى نفسى • فان أغانيه صيحة مأساوية تعبر عن هذا الاحساس الذى نقع عليه بصورة أقل عند جوينيتشيلّى ودانتى ، اللذين عالجا الحب على أنه حالة حزن معتدل أو على أنه تأمل وجدى أو تطلع صوفى شبه دينى •

ونقع على خاصية مميزة أخرى لهذا الأسلوب الشعرى الجديد ، هى تحليل العواطف وتفسيرها تفسيرا فلسفيا • ذلك أن النشاطات والقدرات النفسيوظائفية التى تتحكم فى القلب قد ميزت تمييزا تاما بل انها جسدت • ولقد استخدم كافالكانتى هذه الطريقة الفلسفية التى تحرم الشعر من كثير من جاذبيته ، الى أبعد الحدود • ثم ان هؤلاء الشعراء قد تصوروا من ناحية أخرى المعشوقة على أنها صورة أثيرية ، وعلى أنها مخلوق يستحق الحب الأفلاطونى • حقا أن الحب الحقيقى عندهم لا يكمن فى الزواج ، وانما فى حالة طهارة دائمة • وأما صورة معشوقتهم فقد أضفوا عليها صفات مثالية ، اما باعتبارها ملاكا من ملائكة السماء ، أو باعتبارها رمزا للحكمة الالهية أو الفلسفية • وهى فى مفهومهم الأداة التى يوحى بها الله للعاشق الأحاسيس النبيلة والفكرات السامية • وهكذا اختلط كل من الحب السماوى والحب الأرضى بعضهما ببعض •

ولقد بين فوسلر خلو كل من الأدبين الكلاسيكى والمسيحى من أى شىء يمكن أن يفيدنا فى تعليل هذه النظرية الهجين لحب هو جنسى وروحانى فى نفس الوقت ، وقال ان هذه الصورة الجديدة الغريبة ، وان كانت أفلاطونية ، الا أنها ليست مستقاة مباشرة من أفلاطون(١) • والحق أنه لا يوجد شىء فى نظريات الكنيسة ولا فى كتابات أوفيد أو أرسطو يمكن أن يفسر مثل هذا التصور الرومانتيكى والمثالى للمرأة ، وذلك الحب المفرط فى الروحانية ، والذى لابد كان فى نظر فلاسفة ولاهوتيى القرون الوسطى غريبا مغايرا للأمور الطبيعية كما يقول فوسلر • غير أن الجهود التى بذلها فوسلر فى سبيل ايجاد تفسير لهذا الموضوع ، هى فى واقع

---

(١) Vossler, I, 199 - 236. Cf. Rossi, IL dolce still novo, 35 - 97, and Rossi, Storia, I, 85 - 89, aud 112 - 115

الأمر أكثر لفتا للنظر من حيث انها تعبر عن البراعة وسعة العلم أكثر منها مقنعة · ذلك أنه أرجع الفكرات التى عبر عنها شعراء الأسلوب الجديد الرائع الايطاليين الى الشعراء التروبادور البروفانسيين والى الفروسية الأوربية والى نفسية الجنس الجرمانى ·

٧ ـ غير أن برهان فوسلر الذى بناه على تحولات معقدة فى علم النفس الاجتماعى ، تد دمرته حقيقة واضحة تدميرا تاما ، هى أن الأدب الاسلامى كان قد قدم قبل أول تلك المراحل الكثيرة بزمان طويل ، مؤلفات شعرية ونثرية تعالج موضوع الحب بنفس هذه الروح الرومانتيكية سواء فى الشرق أم فى اسبانيا ·

والحق أن التحامل الشائع ـ سواء من حيث انتشاره الواسع وافتقاره الى أى أساس منطقى ـ الذى ينكر أى ضرب من ضروب المثالية فى الحب عند العرب ، والمسلمين منهم عموما ، أمر فى الواقع مناف للحقيقة · فقد اشتهرت قبيلة بنى عذرة اليمنية بالأسلوب الذى دعموا به التقليد الكامن وراء اسمهم · قال قائلهم : أنا من قوم اذا أحبوا ماتوا · لاجرم أن جميل وهو أحد مشاهير شعرائهم قد مات فعلا شهيد حبه لمعشوقته بثينة ، التى لم تلمس يده جسدها · وكذلك مات شاعران آخران من نفس هذه القبيلة هما عروة وعفرة بعد أن أضناهما شوق طويل وحب طاهر · وواقع الأمر أن الرومانتيكية التى تفضل الموت على تلويث وتدنيس اتحاد الأرواح العفيف الطاهر ، هى من مقومات جميع الأغانى الجميلة الحزينة التى تغنى بها هؤلاء الشعراء(١) · وربما يكون المثال الذى ضربه رهبان جزيرة العرب المسيحيون فى الامتناع عن الشهوات والطهارة الدائمة قد أثر فى بنى عذرة · ثم ان صوفية الصوفيين التى ورثوها مباشرة من المتوحدين المسيحيين ، هى الأخرى قد استمدت أفكارها من حيوات وكتابات شعراء جزيرة العرب الرومانتيكيين(٢) ·

وبغض النظر عن الحقيقة الماثلة فى أنه ليس فى حياة محمد ذاته ولا فى القرآن شىء يزودنا بأى أساس لمثل هذا التفسير للحب ، فان المسلمين لم يترددوا فى أن ينسبوا الى النبى أنه قال : « من عشق فعف ومات مات شهيدا » · ولقد اتخذ ابن عربى هذا الشعار(٣) ، وتبع كثير من الصوفيين الذين ظلوا مثلا بطولية على الطهارة الدائمة ،

---

(١) Ibn Qotaiba. Liber poesis et poetarum 260 - 4, 394 - 9

(٢) Cf. Asin, Abenmasarra, 13-16, and Logia et agrapha D. Jesu, 8

(٣) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ٢/٢٠٥ ·

على الرغم من أنهم كانوا متزوجين هـذه النظرية • أما الزوجة اذ يضفى عليهـا الصوفى هـذه الصفات المثالية ، فلا تصبح عنـدئذ رفيقته من الناحية الجنسية ، وانمـا على الأحرى مصاحبته أو أخته فى زهده وتنسكه ، ويصبح حبه لهـا جزءا من حبه لله •

ولقـد انعكس هـذا الاتجاه الفـكرى الجديد فورا فى أدب كل من المشرق والمغرب العربى • فقـد حلل ابن داود الأصفهانى فى كتابه « كتاب الزهرة » فى القرن التاسع الميلادى الحب الرومانتيكى ودافع عنـه • وترك لنا ابن حزم القرطبى الذى عاش فى القرن الحادى عشر فى كتابه « طوق الحمامة » ، وفى كتاب آخر أقل أهميـة منه هو كتاب « أخلاق النفس » مبحثا كاملا يعالج عاطفة الحب ، وتفوح من صفحاته أنقى ضروب الرومانتيكية • ولقـد اعتبر ابن حزم أن أساس الحب لا يكمن فى اتصـال الأجساد ، وانمـا فى اتحاد الأرواح • ثم ان « طوق الحمامة » يفيض فى الحقيقة بقصص حقيقية عن مسلمين أسبانيين ، استقاها ابن حزم من جميـع طبقـات المجتمع الاسلامى ، كان حبهم أفلاطونيا ، ودانوا بالولاء لمعشوقاتهم ، وعبدوهن عبادة تكادتكون صوفية • وكان العاشق فى لحظات تألمه يكتب خطابات لمعشوقته تبللها دموعه أو تخط حروفها دماءه • ولقد انتهى الأمر بالكثيرين منهم اثر نوبات من اليـأس القـاتل الى الجنون أو الموت •

غير أن هـذه الصورة من الحب الرومانتيكى ، كمـا تتضح فى أغانى بنى عـذرة ، وكمـا وصفت وصنفت فى كتب ابن داود وابن حزم ، هى بالأحرى مغالاة فى تهذيب الحساسية الجنسية التى أنهكها الافراط ، عمـا هى كبح زهدى للشهوات الجنسية • ولقـد ظهـرت هـذه الصورة من الحب فى ثلاثة عصور وفى ثلاثة مراكز ، كـانت فى هـذا الخصوص قـد بلغت قمـة حساسيتها المفرطة •

ـ أولا فى اليمن عندما استنفد شـعراء الجاهلية موضـوع الحب الجنسى ، وفى بلاطات بغـداد وقرطبة الرفيعة الحضارة ، حيث كان الانحلال قـد بدأ يدب فى أوصالهـا •

٨ ـ غير أننـا ما زلنا هنـا بعيدين عن المفهوم الأفلاطونى للمرأة ، الذى أضفى عليها صفات مثالية باعتبارها ملاكا ورمزا للفلسفة • ولقـد يلوح بأن أصل هـذا المفهوم الغريب راجع الى محاولة اعطاء الجنة الحسية التى جاء ذكرها فى القرآن صورة مثالية •

فعلى الرغم من أن حوريات القرآن مخلوقات سماوية فقد جعلن أدوات للذائذ الحسية فحسب • وهذه الفكرة تعارضت تماما مع تطلعات الصوفيين المسلمين الروحانية فى العصور التالية ، الذين تاثروا أعمق التأثر بمبادىء الزهد والنسك التى كان يبشر بها ويباشرها الرهبان المسيحيون • غير أنه كان مستحيلا عليهم أن يحذفوا ما جاء فى القرآن من آيات تفصح عن هذه اللذائذ الحسية • ومن ثمة عمد الصوفيون الى أن يستعيضوا عن الحوريات فى قصصهم التى وضعوها عن الحياة الأخرى بالعروس السماوية التى عينها الله لكل منعم فى الجنة ، وهى مخلوق روحانى حبها طاهر • ولقد صورت جميع هذه القصص العروس السماوية على انها ملاك حارس ، تعمل على الهام معشوقها الرغبة فى الكمال الروحانى ، وعلى حثه على أن يحب لله حبا أكبر فى أثناء حياته الأرضية •

ولما طبق الصوفيون فى العصور التالية على الزهدية التى ورثوها عن الرهبان المسيحيين صورة ميتافيزيقية من مذهب وحدة الوجود والأفلاطونية المحدثة ، وصلت فكرة اضفاء الصفة المثالية على الحب الجنسى ذروتها من حيث رقة الأحاسيس والابهام الذى اكتنفها •

وهذا أمر أفصحت عنه قصائد ابن عربى الجنسية ، التى جعل فيها المعشوقة مجرد رمز للحكمة الالهية ، والرغبة التى يحسها الرجل نحوها رمزا لاتحاد روح الصوفى بالله ذاته • ولقد حلل ابن عربى الظاهرة النفسية الملازمة للحب تحليلا عميقا ينم عن رقة عاطفية مدهشة ، وعن نفاذ بصيرة رائع ، مما جعله يظهر متفوقا كثيرا جدا على شعراء الأسلوب الجديد الايطاليين ، وعلى الأخص فى كتابه الفتوحات المكية(١) • لم يكتف ابن عربى بأن يميز بين درجات الاحساس التى تفصل الحب عن العاطفة أو المشاركة الوجدانية أو الشهوة أو الرغبة فحسب ، بل أنه سبر أعماق القلب والعقل وما يكتنفهما من حالات ، فسرها تفسيرا صوفيا • لقد حلل ابن عربى تنهدات ودموع وآلام المحب العقلية ، ووهنه وكآبته ، وحيرته وحزنه المكتوم المختلط بغضب غيرته ، ونوبات اكتئابه واغتمامه ، ونوبات نشوته وحبوره وجذله ـ وهكذا عرض ابن عربى السلسلة الكاملة للتحليلات النفسية المتعلقة بالحب عرضا تحليليا عميقا فى صفحات كتابه الفتوحات المكية ، والتى تعتبر فى نفس الوقت تفسيرا ميتافيزيقيا للحب

(١) الفتوحات المكية ٤٣٦/٢ ـ ٤٨١ • ويلاحظ أن فوسلر وسلفادورى قد فطنا للأصل العربى لتحليلات كافالكانتى النفسية ، وعلى الأخص ما جاء فى كتابات ابن رشد • انظر Rossi, Il dolce stil novo, 94 note 66

والهوى • ذلك أنه بعد أن قرر أن هنـاك غاية ثلاثية للحب ، أى اتحاد الجنسين ، واتحاد الروحين ، والاتحاد الروحى بالله ، قرر بجرأة بالغة بأن الله هو الذى يظهر لكل عاشق فى صورة معشوقة(١) • وأننـا حتى نتعلم كيف نحب الله ، فانه يأخذ صورة زينب الجميلة أو سعاد أو هند أو ليلى ، أو صورة أى من أولىء الجميلات اللائى يتغنى بجمالهن الشعراء ، الذين لا يدركون كثيرا أنهم انما يحمدون فى أغـانى حبهم الجمال الأوحد فى الكون ، وهو الله ، الذى يتجسد فى هذه الصورة الحسية •

٩ ـ ولنعد الآن الى الوراء لنلقى نظرة على ما سبق ، ولنجمع خيوط ما جاء فى المناقشة التى عرضناها فى هذا الجزء من الكتاب •

ان العلامات العديدة الدالة على الميل الذى اكتشف فى كتابات دانتى نحو الثقافة الاسلامية ، هى اثبات أن عقله كان بعيدا عن العداء للأفكار الاسلامية ، بل انه كان بالأحرى نازعا الى استيعابها • ولقد بيّنا فى فصل سابق أرجحية انتقال هذه النماذج من أسبانيا الاسلامية الى ايطاليا والى الشاعر الفلورنسى بالذات ، وكشفنا فى الجزئين الأولين من هذا الكتاب بعد دراسة دقيقة عن كثرة الملامح الاسلامية فى الكوميديا الالهية ، وبيّنا فى الجزء الثالث كيف أن غالبية القصص الأوربية المسيحية السابقة لدانتى ، هى الأخرى مستقاة من الأدب الاسلامى • ومن ثمة يتراءى لنا أن سلسلة الاستنتاجات قد كملت ، وأنه ليس هناك من اعتراض يمكن أن ينهض ضد الجزم بأن المحاكاة أمر واقع فى الحقيقة ، ما دمنا قد أثبتنا أن التشابه بين الأصل والصورة ، وأن سبق الأصل على الصورة ، وأن الاتصال بينهما ، هى كلها حقائق واقعة فعلا •

ثم انه لم يعد ممكنا بعد الآن أن ننكر على الأدب الاسلامى تلك المكانة الممتازة التى يستحقها فى سلسلة الأعمال الأدبية السابقة للكوميديا الالهية • ذلك أن هذا الأدب الاسلامى انما يزودنا فى حد ذاته بحلول لكثير من الألغاز التى تحيط بأصل الكوميديا الالهية أكثر مما تزودنا به كل الأعمال الأدبية الأخرى السابقة مجتمعة •

غير أن كاتبا واحدا لاح لنا فى كل خطوة خطوناها فى رحلتنا الطويلة التى قمنا بها بالبحث فى النماذج الاسلامية للكوميديا الالهية ، باعتباره الكاتب النموذجى الأكثر احتمالا من حيث أنه يزودنا فى مؤلفاته بالمفتاح لأشياء لا تزال غامضة عند دانتى • وهذا الكاتب هو الشاعر الأسبانى الصوفى ابن عربى المرسى •

---

(١) الفتوحات المكية ٤٣١ •

وأما مؤلفاته عموما وعلى الأخص كتابه الفتوحات المكية ، فتلوح لنا فى واقع الأمر المصدر الذى استقى منه دانتى الفكرة العامة لقصيدته • والأرجح أن دانتى وقع فى هذا الكتاب أيضا على التصميمات الهندسية لبناء الجحيم والفردوس ، وعلى الملامح العامة للمناظر التى وضعت على أساسها الكوميديا الرائعة ، وعلى الصورة الزاهية لحياة النعيم التى يحياها المنعمون فى الجنة ، وعلى تجلى النور الالهى ، وعلى اللذة التى يحصل عليها من يراه • وعلاوة على ذلك فانه يتعذر علينا أن نجد مفكرين كان مزاجاهما الشاعرى والدينى متقاربين ذلك التقارب الكبير ، كما نجد ذلك عند دانتى وابن عربى ، ذلك أن أوجه التشابه بين أعمالهما لا تمتد فحسب الى أفكارهما الفلسفية المستقاة من مدرسة ابن مسرة الاشراقية ، وانما تمتد أيضا الى الصور التى رمزا بها الى فكراتهما ، والى المعانى الأدبية التى عبرا بها عن هذه الفكرات • وهذا أمر لا نقع عليه فى كتابين لمؤلفين أوضح مما نقع عليه فى المأدبة لدانتى وذخائر الأعلاق لابن عربى • لقد تصور كل من الكاتبين أفكاره وألف مؤلفه بنفس الطريقة • فقد كتب كل منهما مؤلفه بنفس الدافع الشخصى ، وتبع كلاهما نفس الطريقة فى التفسير الرمزى لموضوع الحب فى قصائدهما • والحق أن النصيب الذى يستحقه ابن عربى وهو من أسبانيا — وعلى الرغم من أنه مسلم — فى المجد الأدبى الذى حققه دانتى أليجيرى فى قصيدته الخالدة ، أمر لا يمكن تجاهله بعد الآن •

على أن هذا أمر لا يدعو لأن تفقد الصورة العملاقة للشاعر الفلورنسى أى شىء من سموها الذى نالته فى أعين مواطنيه والبشرية كلها • ان الاعجاب الأعمى بالعبقرية ليس أنسب ضرب من ضروب التقدير والثناء • ثم ان تبجيل ذكراه بصورة تلهبها الروح الوطنية فحسب ، أمر لا يكفى رجلا وضع المعانى الانسانية والدينية المثالية السامية فوق حبه لايطاليا وللجنس اللاتينى ، وادعى بفخر أنه مواطن عالمى ، ونفث فى قصيدته الالهية روحا عالمية خالدة تفصح عن مبادىء أخلاقية وصوفية هى فى واقع الأمر التعبير الطبيعى عن أعمق المشاعر المسيحية •

مراجع الكتاب

Abu-l-Ala al Maarri, *Risalat al-ghufran* = رسالة الغفران التى كتبها ابو العلاء المعرى الى الشيخ المحدث على بن منصور .... ابن القارح. Cairo, Emin Hindie, 1907.

Albertus Magnus = *Opera omnia quae hactenus haberi potuerunt.* Lugduni, 1651.

Al-Fakhri = كتاب الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية لابن الطقطقى. Cairo, 1317 Heg.

Algazel, *Ihia* = كتاب احياء علوم الدين للغزالى. Cairo, 1312 Heg.

Algazel, *Ithaf* = كتاب اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار احياء علوم الدين للسيد مرتضى. Cairo, 1311 Heg.

Algazel, *Minhaj* = منهاج العابدين للغزالى. Cairo, 1313 Heg.

Algazel, *Mizan al-Amal* = كتاب ميزان العمل للغزالى. Cairo, 1328 Heg.

Algazel, *Qistas* = القسطاس المستقيم للغزالى. Cairo, 1900.

Al-Horayfish = كتاب الروض الفائق فى المواعظ والرقائق للحريفيش. Cairo, 1328 Heg.

Al Jahiz, *see* Jahiz.

Al-Kibrit, see Ash-Sharani.

Al-Laali = كتاب اللآلى المصنوعة فى الاحاديث الموضوعة للسيوطى. Cairo, 1317 Heg.

Al-Makkari = *Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne par Al-Makkari*, publiés par Dozy. Leyden, Brill, 1856–60.

Al-Nasafi, *Tafsir* = تفسير القران المسمى مدارك التنزيل وحقائق التاويل. Edited marginally apud Khazin, *Tafsir*.

Alphonso the Wise = *Primera Crónica general, o sea Estoria de España que mandó componer Alfonso el Sabio....*, publicada por Ramón Menéndez Pidal. Madrid, Bailly-Baillière, 1906

Al-Yawaqit, see Ash-Sharani.

Avicenna, *Rasail* = مجموع رسائل في الحكمة والطبيعيات لابن سينا.
Constantinople, 1298 Heg.

Avicenna, *Risala at-tayr* = *Traités mystiques....d'Avicenne*. Texte arabe avec la trad. en français par M. A. F. Mehren. IIe Fascicule. Leyde, Brill, 1891.

Babelon, Ernest = *Du commerce des Arabes dans le nord de l'Europe avant les Croisades.* Paris, 1882. Tirage à part de "l'Athénée Oriental," année 1882, No. 1er.

Bacon, Roger = *Opus majus.* Edit. Jebe, 1733.

Badai az-Zohur = كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس.
Cairo, 1309 Heg.

Ballesteros, Antonio = *Sevilla en el siglo XIII.*. Madrid, Pérez Torres. 1913.

Batiffol, Pierre = *La littérature grecque.* In "Anciennes littératures chrétiennes." vol. 1. Paris, Lecoffre, 1898.

Batiouchkof = *Le débat de l'âme et du corps.* In *Romania*, Paris, 1891

Blochet, E. = *Les sources orientales de la Divine Comédie.* In "Les littératures populaires de toutes les nations," vol. XLI. Paris, Maisonneuve, 1901.

Blochet, E. = *L'ascension au ciel du prophète Mohammed.* Extr. from "Revue de l'histoire des religions." Paris, Leroux, 1899.

Brehier, Louis = *L'église et l'orient au moyen âge: Les Croisades.* Paris, Lecoffre, 1907.

Brockelmann, Carl = *Geschichte der arabischen Litteratur.* Weimar, Felber, 1898–1902.

Bukhari = *Le Recueil des traditions mahométanes.* Edit. L. Krehl and T. Juynboll. Leyden, Brill, 1908.

Buxtorf = *Lexicon chaldaicum.* Basle, 1639.

Carra de Vaux = *Avicenne.* In "Les grands philosophes." Paris, Alcan, 1900.

Carra de Vaux = *Fragments d'eschatologie musulmane.* In "Compte rendu du troisième Congrès scient. intern. des catholiques." (Scienc. relig.) Brussels, Schepens, 1895.

Chantepie de la Saussaye = *Manuel d'histoire des religions.* French translation by Hubert et Lévy. Paris, Colin, 1904.

Charles, R. = *The apocalypse of Baruch.* London, 1896.

Charles, R. = *The assumption of Moses.* London, 1897.

Amador de los Ríos, José = *Historia crítica de la literatura española*. Madrid, Rodriguez, 1881–3.
Amari, Michele = *Storia dei musulmani di Sicilia*. Florence, Le Monnier, 1854–68.
Armengol = *Obras de S. Pedro Pascual, en su lengua original, con la traducción latina y algunas anotaciones*, por el P. Fr. Pedro Armengol. Roma, Imprenta Salustiana, 1906–8.
Ash-Sharani, *Al-Kibrit* = كتاب الكبريت الاحمر في بيان علوم الشيخ الاكبر للشعراني. Edited marginally apud *Al-Yawaqit*.
Ash-Sharani, *Al-Yawaqit* = كتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الاكابر للشعراني. Cairo, 1321 Heg.
Ash-Sharani, *Mizan* = كتاب الميزان للشعراني. Cairo, 1321 Heg.
Asín Palacios, Miguel = *Abenmasarra y su escuela. Orígenes de la filosofía hispano-musulmana*. Madrid, Imprenta Ibérica, 1914.
Asín Palacios, Miguel = *Algazel: Dogmática, moral, ascética*. "Colección de estudios árabes," vol. VI. Saragossa, Comas, 1901.
Asín Palacios, Miguel = *Los caracteres y la conducta. Tratado de moral práctica por Abenházam de Córdoba*. Traducción española. Madrid, Imprenta Ibérica, 1916.
Asín Palacios, Miguel = *El Averroísmo teológico de Sto. Tomás de Aquino*. In "Homenaje a D. Francisco Codera," pp. 271–331. Saragossa, Escar, 1904.
Asín Palacios, Miguel = *La mystique d'Al-Gazzali*. Extr. from "Mélanges de la faculté orientale de Beyrouth," VII, 1914.
Asín Palacios, Miguel = *La psicología, según Mohidín Abenarabi*. Extr. from vol. III of "Actes du XIV[e] Congrès international des Orientalistes." Paris, Leroux, 1906.
Asín Palacios, Miguel = *Logia et agrapha D. Jesu apud mos lemicos scriptores, asceticos praesertim, usitata* collegit, vertit, notis instruxit. In "Patrologia orientalis," vol. XIII, 3. Paris, Didot, 1915.
Asín Palacios, Miguel = *Mohidín*. In "Homenaje a Menéndez y Pelayo," vol. II, pp. 217–256. Madrid, Suárez, 1899.
Averrhoes, *Kitab falsafat* = كتاب فلسفة ابن رشد. Cairo, 1313 Heg.

Chauvin, Victor = *Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes, publiés dans l'Europe chrétienne de 1810 à 1885.* Liège, Vaillant-Carmanne, 1892-1913.

Clair-Tisdall = *The sources of Islam.* Translated by W. Muir. Edinburgh, 1901

Colección de textos aljamiados by Gil, Ribera and Sánchez. Saragossa, Guerra y Bacque, 1888.

Corra (*Corrat Aloyun*) = قرة العيون ومفرح القلب المحزون لابن الليث السمرقندي. Edit. marginally in *Tadhkira.*

Cosmo, Umberto = *Rassegna dantesca* in "Giornale storico della letteratura italiana," Turin, 1914.

Dakhair, *see* Ibn Arabi.

Damiri = كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري. Cairo, 1292 Heg.

D'Ancona, Alessandro = *I precursori di Dante.* Florence, Sansoni, 1874.

D'Ancona, Alessandro = *Il Tesoro di Brunetto Latini versificato* In "Atti della R. Accad. dei Lincei," 1888 (clas. di scienc. mor.), IV.

Dante = *Opere minori di Dante Alighieri.* Edited in 3 vols. by Pietro Fraticelli. Florence, Barberà, 1908-12.

Dardir = حاشية الدردير على قصة المعراج للغيطي. Cairo, 1332 Heg.

De gloria martyrum, by St Gregory of Tours. Paris, 1563.

De Goeje, M. J. = *La légende de St Brandan.* In "Actes du VIII[e]. Congrès intern. des Orient." Sect. I, pp. 43-76. Leyden, Brill, 1891.

De Haeresibus = *Joannis Damasceni opera omnia* (I, 110-15). Paris, 1712.

Dharir = كتاب نزهة الناظرين في تفسير ايات من كتاب رب العالمين لعبيد الضرير. Cairo, 1317 Heg.

D'Herbelot = *Bibliothèque Orientale*, Maestricht, 1776.

Diyarbakri = *Tarikh al-Khamis.* تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس للدياربكري. Cairo, 1302 Heg.

Dozy, R. = *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge.* 2nd edition. Leyden, Brill, 1860.

Ducange = *Glossarium mediae et infimae latinitatis.* Paris, Didot, 1840-50.

Erpenius = *Historia saracenica...latinè reddita opera ac studio Thomae Erpenii.* Lugduni Batavorum, Typographia Erpeniana, 1625.

Eulogius = *Apologeticus sanctorum martyrum Eulogii presbyteri.* Edited by Ambrosio de Morales, Compluti, Iñiguez de Lequerica, 1574.

Fasl, see Ibn Hazm.

Fernandez y Gonzalez, Francisco = *Estado social y político de los mudéjares de Castilla.* Madrid, Muñoz, 1868.

Firuzabadi, *Tafsir* = تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروزابادى. Cairo, 1316 Heg.

Fraticelli = *La Divina Commedia di Dante Alighieri, col commento di Pietro Fraticelli.* Florence, Barberà, 1914.

Freytag = *G. W. Freytagii Lexicon arabico-latinum.* Halis Saxonum, Schwetschke, 1830.

Futuhat, see Ibn Arabi.

Ghiti = المعراج الكبير للغيطى. Cairo, 1324 Heg.

Gomez Moreno = *Iglesias mozárabes.* Madrid, Centro de Estudios Históricos, 1917.

Graf, Arturo = *Miti, leggende e superstizioni del medio evo.* Turin, Loescher, 1892-3.

Gubernatis = *Matériaux pour servir à l'histoire des études orientales en Italie.* Paris, Leroux, 1876.

Guidi = *Testi orientali inediti sopra i Sette Dormienti di Efeso.* In "Atti della R. Accad. dei Lincei," 1884, pp. 343-445.

Hamadhani = *Kitâb al-Boldân.* Edit. De Goeje in *Bibliotheca Geographorum*, v. Lugduni Batavorum, Brill, 1885.

Hirschfeld = *Researches into...the Quran.* London, 1902.

Historia Arabum = *Roderici Ximenez, archiepiscopi toletani, Historia Arabum.* Edit. in *Erpenius.*

Huart, C. = *Littérature arabe.* Paris, Colin, 1902.

Ibn Arabi, *The Book of the Nocturnal Journey towards the Majesty of the Most Magnanimous* = كتاب الاسراء الى مقام الاسرى. See *supra*, pag. 45, n. 5.

Ibn Arabi, *Dakhair* or "The Treasures of Lovers" = كتاب دخائر الاعلاق شرح ترجمان الاشواق لابن عربى. Beyrouth, 1312 Heg.

Ibn Arabi, *Futukat* = كتاب الفتوحات المكية لابن عربي. Bulaq, 1293 Heg.
Ibn Arabi, *Muhadara* = كتاب محاضرة الابرار ومسامرة الاخيار لابن عربي. Cairo, 1305 Heg.
Ibn Arabi = *Tarjuman al'Ashwaq* or "The Interpreter of Love." *See Dakhair.*
Ibn Batutah = *Voyages d'Ibn Batoutah.* Texte arabe, accompagné d'une traduction par Defrémery et Sanguinetti. Paris, Imprim. impériale, 1853–9.
Ibn Daud, *Book of Venus* = كتاب الزهرى لابن داوود الظاهرى. Ms. Bibl. Khed. Cairo, IV, 260.
Ibn Hazm, *Fasl* = كتاب الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم الظاهرى. Cairo, 1317–21 Heg.
Ibn Hazm = *Tawq al-Hamama.* Edit. Dimitri Pétrof. Leyde, Brill, 1914.
Ibn Hijr, *Isaba* = كتاب الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر. Cairo, 1323–7 Heg.
Ibn Makhluf = كتاب العلوم الفاخرة في النظر في امور الاخرة لابن مخلوف. Cairo, 1317 Heg.
Ibn Qaim al-Jawziya, *Miftah* = كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة لابن قيم الجوزية. Cairo, 1323 Heg.
Ibn Qotaiba = *Liber poësis et poëtarum.* Edited by De Goeje, Leyden, Brill, 1904.
Ihata = الاحاطة في اخبار غرناطة لابن الخطيب. Ms. 34 Bibl. of the Royal Academy of History of Madrid.
Ihia, see Algazel.
Interián = *El pintor cristiano y erudito,* por Fr. Interián de Ayala. Barcelona, 1883.
Isaba, see Ibn Hijr.
Ithaf, see Algazel.
Jahiz, *Hayawan* or "Book of Animals" = كتاب الحيوان للجاحظ. Cairo, 1323–5 Heg.
Jourdain, Amable = *Recherches critiques sur l'origine des traductions latines d'Aristote.* Paris, Joubert, 1843.
Kanz = كتاب كنز العمال في ثبوت سنن الاقوال والافعال للهندي. Haidarabad, 1894.
Kasimirski = *Le Koran. Traduction nouvelle faite sur le texte arabe.* Paris, Charpentier, 1862.

Kharida = خريدة العجائب وفريدة الغرائب لعمر بن الوردى. Cairo, 1314 Heg.

Khazin, *Tafsir* = تفسير القران الجليل المسمى لباب التاويل فى معانى التنزيل للخازن. Cairo, 1318 Heg.

Kitab falsafat, *see* Averrhoes.

Labitte = *La Divine Comédie avant Dante.* In *Œuvres de Dante Alighieri.* Paris, Charpentier, 1858.

La Fuente, Vicente de = *Historia de las universidades, colegios y demás establecimientos de enseñanza en España.* Madrid, Fuentenebro, 1884–9.

Landino = *Comedia del divino poeta Danthe Alighieri, con la dotta et leggiadra spositione di Christophoro Landino.* Venezia, 1536.

Lane, E. W. = *An account of the manners and customs of the modern Egyptians.* London, 1890.

Lane, E. W *An Arabic-English Lexicon.* London, Williams and Norgate, 1863–74.

Mâle = *L'art religieux du XIIIe siècle en France.* Paris, Colin, 1902.

Martin, François = *Le livre d'Henoch, traduit sur le texte éthiopien.* Paris, Letouzey, 1904.

Miftah, *see* Ibn Qaim al-Jawziya.

Minhaj, *see* Algazel.

Mizan, *see* Ash-Sharani.

Mizan al-Amal, *see* Algazel.

Modi = *Dante papers; Virâf, Adaaman and Dante.* Bombay, 1914.

Nardi, Bruno = *Intorno al tomismo di Dante e alla quistione di Sigieri.* Extr. from "Giornale Dantesco," XXII, 5. Florence, Olschki, 1914.

Nardi, Bruno = *Sigieri di Brabante nella Divina Commedia e le fonti della filosofia di Dante.* Extr. from "Rivista di filosofia neoscolastica," 1911–12. Florence, San Giuseppe, 1912.

Nicholson = *A Literary History of the Arabs.* London, T. Fisher Unwin, 2nd Ed. 1914.

Nicholson = *Tarjuman al 'Ashwâq.* London, 1911.

Ozanam = *Des sources poétiques de la Divine Comédie* In *Œuvres complètes d'Ozanam*, vol. 5. Paris, Lecoffre, 1859.

Perrone = *Praelectiones theologicae quas in Collegio Romano S. J. habebat* Joannes Perrone. Parisiis, Roger et Chernoviz, 1887.

Petavius = *De theologicis dogmatibus.* Paris, 1643–50.

Porena, Manfredi = *Commento grafico alla Divina Commedia per uso delle scuole.* Milan, Sandron, 1902.

Qazwini, *El Cazwini's Kosmographie* = كتاب عجائب المخلوقات، *herausgegeben von* Ferdinand Wüstenfeld. Göttingen, Dieterich, 1849.

Qisas, see Thaalabi.

Qistas, see Algazel.

Qummi, *Tafsir* = تفسير غرائب القران ورغائب الفرقان، للعلامة نظام الدين الحسن....القمي النيسابوري. Edit. marginally in Tabari, *Tafsir*

Rasail = كتاب اخوان الصفا وخلان الوفا. Bombay, Najbatolajbar Press, 1305–6 Heg.

Rasail, see Avicenna.

Risala, see Abu-l-Ala al Maarri.

Revue des traditions populaires. Paris, E. Lechevalier et E. Leroux, 1886

Ribera, Julián = *Discurso de recepción en la R. Academia de la Historia* Madrid, Imprenta Ibérica, 1915.

Ribera, Julián = *Orígenes del Justicia de Aragón.* "Colección de estudios árabes,' vol. II. Saragossa, Comas, 1897.

Ribera, Julián = *Orígenes de la filosofía de Raimundo Lulio.* In "Homenaje a Menéndez y Pelayo," vol. II, 191. Madrid, Suarez, 1899.

Roeské = *L'enfer cambodgien.* In "Journal Asiatique." Paris, Leroux, 1914.

Rossi, Vittorio = *Storia della letteratura italiana per uso dei licei*, vol. I, *Il medio evo.* 5th ed. Milan, Vallardi, 1911.

Rossi, Vittorio = *Il dolce stil novo.* In "Lectura Dantis." Florence, Sansoni, 1906.

Said = *Kitab Tabaqât al-Umam, ou Les Catégories des Nations, par Aboû Qâsim ibn Sâid l'Andaloûs*, publié avec notes et tables par le P. Louis Cheikho, S. J. Beyrout, Imprimerie Catholique, 1912.

Scartazzini = *La Divina Commedia commentata da G. A. Scartazzini.* 7th ed. Milan, Hoepli, 1914.

Schiaparelli = *Ibn Giobeir: Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto, compiuto nel secolo XII.* Prima traduzione da C. Schiaparelli. Rome, 1906.

Simonet, F. J. = *Historia de los mozárabes de España*... Madrid, Tello, 1897–1903.

Sundby = *Della vita e delle opere di Brunetto Latini.* Transl. by Renier. Florence, Successori Le Monnier, 1884.

Suyuti, *Dorar* = كتاب الدرر الحسان فى البعث ونعيم الجنان للسيوطى. On margin of كتاب دقائق الاخبار فى ذكر الجنة والنار لابن القاضى. Cairo, 1326 Heg.

Suyuti, *Sudur* = كتاب شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور للسيوطى. Cairo, 1329 Heg.

Tabari, *Tafsir* = كتاب جامع البيان فى تفسير القران تاليف الامام ....ابى جعفر محمد...الطبرى. Bulaq, 1323 Heg.

Tacholarus = كتاب تاج العروس فى شرح القاموس للسيد مرتضى. Cairo, 1307 Heg.

Tadhkira = مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى. Cairo, 1308 Heg.

Tarikh al-Khamis, *see* Diyarbakri.

Tecmila = *Apéndice á la edición Codera de la "Tecmila de Aben Al-Abbar."* Edited in "Miscelanea de estudios y textos árabes." Madrid, Imprenta Ibérica, 1915.

Thaalabi, *Qisas* = كتاب قصص الانبياء المسمى بالعرائس للثعلبى. Cairo, 1324 Heg.

Thomae Aquinatis = *Summa contra gentes.* Romae, Forzani, 1888.

Thomae Aquinatis = *Summa theologica.* Romaè, Forzani, 1894.

Tisserant, Eugène = *Ascension d'Isaie.* Paris, Letouzey, 1909.

Tixeront, J. = *Histoire des dogmes.* 3rd ed. Paris, Lecoffre, 1906–12.

Torraca, Francesco = *I precursori della "Divina Commedia."* In "Lectura Dantis," Florence, Sansoni, 1906.

Vigouroux = *Dictionnaire de la Bible.* Paris, Letouzey et Ané, 1912.

Virey, Philippe = *La religion de l'ancienne Égypte.* Paris, Beauchesne, 1910.

Vossler, Karl = *Die Göttliche Komödie. Entwickelungsgeschichte und Erklärung.* Heidelberg, 1907–9. Quoted from the Italian translation by Stefano Jacini, *La Divina Commedia*

studiata nella sua genesi e interpretata. Bari, Laterza, 1909-14.

Wicksteed, the Rev. P. H., M.A. = *The Paradiso of Dante Alighieri*, "The Temple Classics," Edit. J. M. Dent, London, 1912.

Wüstenfeld, F. = *Die Übersetzungen arabischer Werke in das lateinische seit dem XI Jahrhundert.* Göttingen, Dieterich, 1877.

Yaqut = *Dictionary of Learned Men.* Edited by Margoliouth in "Gibb Memorial" VI, 1 and 5. Leyden, Brill, 1907 and 1911.

رقم الايداع ٦١٨ لسنة ١٩٨٠

مطابع الركوب

ت ٩٠٠٢٨٨ / ٩٠٥٢٦٨



